ريبيكا سولنيت

شهوة التجوال

تاريخ للمشي



ترجمة: نوال العلي

منشورات تكوين | تساؤلات
TAKWEEN PUBLISHING

الكاتب: ربيكا سولنيت

عنوان الكتاب: شهوة التجوال: تاريخ للمشي

ترجمة: نوال العلي

العنوان باللغة الأصلية: Wanderlust: A History of Walking

الكاتب: Rebecca Solnit

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-775-82-2

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

1000 نسخة

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

امتنان

أدين بفكرة هذا الكتاب لأصدقاء لفتوا نظري إلى أنني أكتب عن المشي في سياق الكتابة عن أشياء أخرى، وأن عليّ فعل ذلك على نطاق أوسع، لا سيما بروس فيرغسون، الذي كلفني بكتابة نص عن المشي في الكتالوغ المصاحب لمعرضه «المشي والتفكير والمشي» في متحف لويزيانا في الدنمارك عام ١٩٩٦، والمحرر ويليام مورفي الذي قرأ ذلك النص وأخبرني أن عليّ التفكير في تأليف كتاب عن المشي، ولوسي ليبارد التي، بينما كنا نتمشى قرب بيتها، أيدت فكرة الكتاب قائلة: «أتمنى لو كان لديّ الوقت لكتابته ولكني لا أملكه، لذا لا بد أن تفعلي أنت» (مع أني كتبت كتابًا مختلفًا تمامًا عن الذي كانت ستكتبه لوسي). إحدى المتع العظيمة في الكتابة عن هذا الموضوع أن المشي، بدلًا من وجود قِلة من الخبراء الكبار فيه، يضم عددًا ضخمًا من الهواة، الكل يمشي، وعدد مذهل من الناس يفكرون في المشي، كما أن تاريخه منتشر في مجالات دراسية عديدة، حتى أن كل من أعرفهم تقريبًا ساهموا بحكاية أو مرجع أو وجهة نظر في أبحاثي. تاريخ المشي هو تاريخ كل واحد منّا، لكن نسختي منه استفادت بشكل خاص من الأصدقاء الذين أكن لهم خالص امتناني: مايك ديفيس ومايكل سبرينكر، اللذين قدما إليَّ أفكارًا رائعة وشجعاني كثيرًا في بداياتي، وأخي ديفيد، الذي أغواني منذ زمن طويل بالمشاركة في مسيرات الشوارع والاحتجاجات/ الحج إلى موقع الاختبارات النووية في نيفادا، أخي راكب الدراجات الهوائية الناشط ستيفن، جون وتيم أوتول، مايا غالوس، ليندا كونور، جين هاندل، ميريديل روبنشتاين، جيري ويست، غريغ

باول، مالين ويلسون باول، ديفيد هايز، هارموني هاموند، ماي ستيفنز، إيدي كاتز، توم جويس، وتوماس إيفانز، جيسيكا، غافين، وديزي في قرية دنكلد بإسكتلندا، إيك فينلي في إدنبرة ووالده في ليتل سبارتا، فاليري ومايكل كوهين في بحيرة جون بكاليفورنيا، سكوت سلوفيك في مدينة رينو بنيفادا، كارولين من حركة «استعادة الشوارع» في بريكستون، إيان بوال، وكيلة أعمالي بوني نادل، ومحرري بول سلوفاك في فايكنج بنغوين، الذي تبنى فكرة التاريخ العام للمشي على الفور وجعل هذا الكتاب ممكنًا، وبشكل خاص بات دينيس، الذي استمع إليَ فصلًا فصلًا، وسرد لي كثيرًا عن تاريخ تسلق الجبال والتصوف الآسيوي، ومشى بجانبي طوال مدة هذا الكتاب.

الجزء الأول
وتيرة الأفكار

«أليس غريبًا أنه منذ خطا الإنسان خطوته الأولى، لم يسأل أحد نفسه لماذا يمشي، وكيف يمشي، وما إذا كان قد مشى من قبل، وما إذا كان في إمكانه المشي بشكل أفضل، وما الذي يحققه في المشي... أسئلة مرتبطة بكل الأنظمة الفلسفية والسيكولجية والسياسية التي تشغل العالم».

أونوريه دو بلزاك «نظرية المشي».

***

«لدى الإسكيمو طقس يتخلص فيه الغاضب من مشاعره بأن يمشي في خط مستقيم في الطبيعة المحيطة، ثم تحدّد النقطة التي تغلب عندها على غضبه بعصًا، فتقاس قوة غضبه أو مدته».

لوسي ليبارد، أوفرلاي «تداخل».

***

«نتعلم المكان، ونتعلم تصوّر العلاقات المكانية، ونحن أطفال من خلال المشي والمخيلة. المكان ونطاق المكان لا بد أن يقاس وفقًا لأجسادنا وقدراتها».

لوسي ليبارد، غاري سنايدر «جبال زرقاء تمشي باستمرار».

***

«ثم ذات يوم، بينما كنت أتجول في ساحة تافيستوك، اختلقت، كما أفعل أحيانًا في تأليف كتبي، رواية «إلى المنارة»، في ما بدا اندفاعًا لا إراديًا قويًا».

فيرجينيا وولف «لحظات من الوجود».

***

«في غرفتي، العالم أكبر من استيعابي،/ ولكن عندما أمشي أرى أنه ثلاث أو أربع تلال وغيمة».

والاس ستيفنز «من سطح الأشياء».

***

«بسبب تجواله حين كان طالبًا جامعيًا في إسكتلندا، يذكر في سيرته الذاتية «طريق الحاج» (١٩٤٠): «أعمال أرسطو مرتبطة لديّ إلى الأبد برائحة تربة الخُث وبعض الأماكن التي ينتشر فيها الجرانيت وزهرة الكالونا»».

عن جون بوكان، البارون تويدسموير «التحدي: أنطولوجيا أدب تسلق الجبال».

***

«... بينما بدأ هو نفسه يذرع المكان بخطوات نشيطة في «مدار كبلر»، يشرح طوال الوقت أفكاره حول «مبدأ المكاملة» بصوت خافت. كان يمشي برأس منحنٍ عاقدًا حاجبيه: ينظر إليّ من وقت إلى آخر، ويسلط الضوء على بعض النقاط المهمة بحركة رصينة. وبينما كان يتحدث، دبَت الحياة فجأة في الكلمات والجمل التي قرأتها من قبل في أوراقه، وأصبحت محملة بالمعاني. كانت واحدة من اللحظات المهيبة القليلة التي لها قيمة في الوجود، الكشف عن عالم من الفكر المبهر».

ليون روزنفيلد عن لقائه بالفيزيائي نيلز بور عام ١٩٢٩.

***

«الأحد الماضي، تمشيت في اتجاه ضاحية «هاي غيت»، وفي الحارة المتعرجة بجوار حديقة اللورد مانسفيلد صادفت السيد غرين، مديرنا

في مستشفى «غايز» وهو يتحدث مع كولريدج -انضممت إليهما، بعد أن استفسرت بنظرة إن كان لا بأس من ذلك- ثم سرت مع السيد غرين بسرعة رجل عجوز بعد العشاء مسافة ميلين على ما أظن. في هذين الميلين، تحدث عن ألف شيء، سأرى إن كان في وسعي أن أعددها في قائمة: طيور الهزار_الشعر_الإحساس الشعري_الميتافيزيقا_ أجناس وسلالات مختلفة من الأحلام_ كابوس_حلم مصحوب بحاسة اللمس_لمسة واحدة ومزدوجة_ حلم مرتبط بشيء_ الوعي الأول والثاني_الفرق بين الإرادة والاختيار_وفرة الميتافيزيقيين سببها قلة تدخينهم للوعي الثاني_ وحوش_أخطبوطات الكراكن_حوريات البحر_ساوذي يؤمن بوجود حوريات البحر_إيمان ساوذي مائع جدًا_ قصة شبح...».

جون كيتس، في رسالة إلى جورج وجورجينا كيتس.

***

«سيدي، تلقيت كتابك الجديد الذي ألفته ضد الجنس البشري، وأشكرك... لم يسبق قط أن استخدِم هذا القدر الهائل من الذكاء لجعلنا أغبياء. فبينما نقرؤه، يتوق الواحد منّا إلى السير على أربع».

رسالة من فولتير إلى روسو حول «خطاب في أصل التفاوت».

***

«يبدو أن تراجع المؤثرات الشمية في حد ذاته كان نتيجة لرفع الإنسان نفسه عن الأرض، واعتماده على مشية منتصبة، وهذا جعل أعضاءه التناسلية، التي كانت مخفية، مرئية وتحتاج إلى حماية، وهذا

ترك مشاعر العار في نفسه».

سيغموند فرويد «قلق في الحضارة».

***

«يدًا بيد وبخطوات متساوية يذهبان. بأيدٍ حرة، لا، بأيدٍ حرة فارغة. بظهرين منحنيين وبخطوات متساوية يذهبان. يد الطفل مرفوعة لتصل إلى اليد الممسكة به. أمسك باليد القديمة التي تمسك. تشبث وكن متشبثًا به. واصل السير ولا تتراجع أبدًا. استدار ظهر كل منهما. كلاهما منحنٍ. مرتبطان بالتشبث بالأيدي المتشبثة. واصلا السير كواحد. ظلٌّ واحد. ظلٌّ آخر».

من نوفيلا بعنوان Worstward Ho لصمويل بيكيت.

***

«سار جون والنمساوي في اتجاه واحد بطول الشاطئ وناقشا تشكُّل الضفاف الرملية ونظريات المد والجزر، ومشينا شارلوت وأنا في الاتجاه المعاكس لأكثر من ساعتين، استلقينا بين العشب الطويل أخيرًا، وجمعنا الأصداف حتى امتلأت مناديلنا تمامًا».

العبارة ترد على لسان إيفي غراي روسكن في كتاب جون هانت «البحر الأوسع: حياة جون روسكن».

***

«عليك أن تمشي/ في ذلك الوادي المنعزل/ امش فيه بنفسك/ عليك أن تذهب/ بنفسك/ لا أحد/ سيذهب نيابةً عنك/ نعم، عليك أن تذهب إلى هناك بنفسك».

أغنية من أغاني الغوسبل القديمة.

***

«ولكن إن كان أحد يمشي في الليل يعثر لأن النور ليس فيه».

إنجيل يوحنا، ١١:١٠.

***

«أما أنا فبكمالي أسلك. افدني وارحمني، رجلي واقفة على سهل».

مزمور ٢٦: ١-١٢.

***

«كلما ابتعد الحجاج عن عالمهم المشترك، اقتربوا من عالم الإله. قد نذكر أن كلمة «المشي» في اللغة اليابانية هي نفس الكلمة المستخدمة للإشارة إلى الممارسة البوذية، فالممارس (gyōja) هو السائر أيضًا، أي الذي لا يقيم في مكان، والذي يقيم في الفراغ. هذا كله يرتبط طبعًا بمفهوم البوذية كممر: الممارسة هي نهج ملموس للوصول إلى حالة البوذية».

آلان جي. غرابار، «الجبال الطائرة ومشاة الفراغ: نحو تعريف الفضاء المقدس في الديانات اليابانية».

***

«في الوقت نفسه، واصل عد الشهيق والزفير بينما تمشي ببطء حول الغرفة. ابدأ بالقدم اليسرى وامش بطريقة تجعل القدم تغوص في الأرض، الكعب أولًا ثم أصابع القدم. امش بهدوء وثبات، باتزان وكرامة. لا ينبغي المشي بذهن شارد، لا بد أن يكون الذهن متماسكًا أثناء تركيزك في العد».

فيليب كابلو، من تعليمات للتأمل من خلال المشي في «ثلاثة أعمدة من الزن».

***

«اعتقد سيغموند فرويد مثلًا أن الأساس النفسي لكل سفر هو الانفصال الأول وأشكال فراق الأم الأخرى المختلفة، بما في ذلك الرحلة الأخيرة إلى الموت. وبالتالي فإن السفر نشاط مرتبط بعالم أنثوي أكبر، لذا ليس مستغربًا أن يكون فرويد نفسه مترددًا في شأنه. لقد قال عن المناظر الطبيعية: هذه الغابات المظلمة، والممرات الضيقة، والأراضي المرتفعة، والاختراقات العميقة هي صور جنسية لا واعية ونحن نستكشف جسد امرأة».

بول شيبرد «الطبيعة والجنون».

***

«الحج الجغرافي تمثيل رمزي لرحلة داخلية. والرحلة الداخلية استيفاء لمعاني الحج الخارجي وعلاماته. ويمكن للمرء أن يقوم بأحدهما دون الآخر. ومن الأفضل أن يقوم بالاثنين».

عبارة ترد على لسان توماس ميرتون في كتاب نانسي لويز فري، «قصص الحجاج: على طريق سانتياغو وخارجه».

***

«كنت أولى من غادرت الوادي من ستة أجيال، والوحيدة في عائلتي التي تركت البيت. لكنني لم أترك كل الأجزاء التي مني: احتفظت بأرض كياني ومشيت عليها، آخذةً معي الأرض، الوادي، تكساس».

غلوريا أنزالدو «أرض حدودية».

***

«خط حيوي في تمشية يتحرك بحرية، بلا غاية. المشي من أجل المشي».

بول كلي «مجازية الرسم».

***

«قافزًا على الكلمات كما على حجارة طريق مرصوفة».

بودلير «الشمس».

***

«على الطرف الآخر، ثمة مجموعة من النصب التصويرية في حديقة كيلي إنغرام في برمنغهام، والتي تحاول أخذ المتفرج مرة أخرى إلى اضطرابات الماضي. العديد من أعمال جيمس دريك على طول طريقٍ يسمى «مسار الحرية»، تخلد ذكرى القمع البوليسي الوحشي في مسيرات ربيع عام ١٩٦٣ الشهيرة. في عمل واحد يمر الممشى بين لوحين عموديين، تظهر كلاب هجوم برونزية من الجانبين تنقض على مساحة المارة. في عملٍ آخر، يؤدي الممشى عبر فتحة في جدار معدني إلى مواجه اثنين من المدافع المائية، قبالة الحائط، بجوار الممشى، قطعتان من البرونز تمثل أميركيين من أصل إفريقي، رجل ملقى على الأرض وامرأة تقف وظهرها يواجه قوة الماء المتخيلة. تندمج هذه الأعمال الفنية في تجربة السائرين في المتنزه، وتدعو الجميع -سواء أكانوا سودًا أو بيضًا، صغارًا أو كبارًا- إلى وضع أنفسهم مكان شخص آخر».

كيرك سافيج، «الماضي في الحاضر».

***

«أغذ الخطى بهدوء، بعيون، بحذاء، بغضب، بنسيان».

بابلو نيرودا «تجوال» (أنطولوجيا من قصائد نيرودا مترجمة إلى الإنجليزية).

***

الفصل الأول
تتبع لسان اليابسة
مقدمة

أين يبدأ؟ العضلات مشدودة. ساق قائمة تحمل الجسم منتصبًا بين الأرض والسماء. الأخرى بندول يتأرجح من الخلف. كعب يلامس الأرض. الجسم يلقي وزنه كلَه إلى الأمام مستندًا إلى مشط القدم. الإصبع الكبير يدفع. ينزاح ثقل الجسم المتوازن بدقة مرة أخرى. تتبادل الساقان الدور. يبدأ من خطوة ثم خطوة أخرى فأخرى تتوالى بعضها فوق بعض مثل ضربات على طبل تصنع إيقاعًا، إيقاع المشي. الشيء الأكثر وضوحًا والأشد غموضًا في العالم، هذا المشي الذي يتجول بسهولة في الدين والفلسفة والتضاريس والسياسة الحضرية والتشريح والمجاز والألم.

تاريخ المشي ليس مدوَنًا، سريَ يمكن العثور على شظايا منه في ألف مقطع متوارٍ بين الكتب، في الأغاني أيضًا والشوارع ومغامرات الجميع تقريبًا. التاريخ الجسدي للمشي هو تاريخ التطور على قدمين والتشريح البشري. معظم الأحيان يكون المشي مشيًا عمليًا وحسب، وسيلة تنقل مرتجلة بين موقعين. لنجعل المشي تحقيقًا، طقسًا، تأملًا، فنحن أمام نمط فرعي خاص من المشي، يشبه فسيولوجيًا ولا يشبه فلسفيًا الطريقة التي يجلب بها ساعي البريد الطرد، ويصل بها موظف المكتب إلى القطار. أي إن موضوع المشي، بمعنى ما، مرتبط بالكيفية التي نستثمر بها الأفعال الكليَة لخدمة معانٍ محددة. مثل فعلي الأكل أو التنفس اللذين يمكن استثمارهما في معانٍ ثقافية متباينة على نحو

واسع، من الإيروتيكية إلى الروحانية، ومن الثورية إلى الفنية. هنا يصبح هذا التاريخ جزءًا من تاريخ الخيال والثقافة، وتاريخ أي متعة وحرية ومعنى يسعى إليها الناس في أزمنة مختلفة عبر أنماط مختلفة من المشي والماشين. لطالما صاغ الخيال المساحات التي مرَّ منها على قدمين، وصيغ بها في آن. خلق المشي مسارات ودروبًا وطرقًا تجارية، وولَّد للمكان معاني محلية وعابرة للقارات؛ شكَّل المدن والحدائق العامة، أنتج الخرائط والأدلة، والعتاد، وذهب أبعد من ذلك، صنع مكتبة واسعة من قصص المشي وقصائده، ورحلات الحج، وتسلق الجبال، والتسكعات، والنزهات الصيفية. التضاريس، حضرية وريفية، حبلى بالقصص، والقصص تعيدنا إلى مواقع ذلك التاريخ.

تاريخ المشي تاريخ هواة، بالضبط مثلما أن المشي فعل هواة. يتجاوز استخدام مجاز المشي مجالات معرفة الآخرين -من خلال علم التشريح، والأنثروبولوجيا، والعمارة، والبستنة، والجغرافيا، والتاريخ السياسي والثقافي، والأدب، والجنسانية، والدراسات الدينية- ولا يتوقف في أي منها في طريقه الطويل. فإذا كان من الممكن تخيل حقل خبرةٍ ما حقلًا حقيقيًا -مستطيلًا مرتبًا ومسيجًا ومحروثًا جيدًا وينتج محصولًا معينًا- فإن المشي كموضوع يشبه فعل المشي نفسه في افتقاره إلى الحدود. ورغم أن تاريخ المشي، باعتباره جزءًا من هذه الحقول كلها ومن خبرة الجميع، تاريخٌ لانهائيٌ فعلًا، فإن تاريخ المشي الذي أكتبه هذا لا يمكن إلا أن يكون جزئيًا، مسلكًا فرديًا وسط تلك الحقول تعقبته سائرة واحدة، كثيرًا ما عادت أدراجها ونظرت حولها. في ما يلي، حاولت تقضي المسارات التي جلبت معظمنا في بلدي، الولايات المتحدة،

إلى اللحظة الحالية، تاريخ مركب إلى حد كبير من مصادر أوروبية غيّرها وأفسدها النطاق المختلف تمامًا للفضاء الأميركي، قرون من التكيّف والتحوّل هنا، إلى جانب التقاليد الأخرى التي التقت أخيرًا مع تلك المسارات، ولا سيما التقاليد الآسيوية. تاريخ المشي هو تاريخ الجميع، وأي نسخة مكتوبة يمكن أن تأمل فقط في الإشارة إلى بعض المسارات الأكثر شيوعًا بالقرب من مؤلف هذه النسخة، وهذا يعني أن المسارات التي أتتبعها ليست المسارات الوحيدة.

جلست، في أحد أيام الربيع، لأكتب عن المشي، ثم نهضت ثانيةً، لأن المكتب لا يصلح مكانًا للتفكير على نطاق واسع. في رأس اليابسة، شمال جسر البوابة الذهبية المرصعة بالحصون العسكرية المهجورة تمامًا، خرجت أمشي صاعدة الوادي وامتداد خط التلال، ثم نزولًا إلى المحيط الهادئ. جاء الربيع بعد شتاء ممطر بغزارةٍ تفوق المعتاد، وحوّلت التلال ذلك السخاء والصخب إلى اللون الأخضر الذي أنساه ثم أعيد اكتشافه كل عام. وبين العشب الجديد الغض يندس عشب السنة الفائتة الذي قصر المطر لونه فتدرج من الذهبي الصيفي حتى الرمادي الدخاني، جزء من مجموعة الألوان الرقيقة المستمرة لباقي السنة. هنري ديفيد ثورو، الذي سار باندفاع أكبر مني على الجانب الآخر من القارة، كتب: «أن أرى منظرًا جديدًا تمامًا لهو سعادة عظيمة عندي، بمقدوري أن أبلغ هذه السعادة في أي يوم بعد الظهر، حيث يأخذني مشي ساعتين أو ثلاث إلى ريف غريب لم أتوقع رؤيته. بيت ريفي واحد لم أشاهده من قبل لا يقل في شيء عن عزبة لملك داهومي. في الواقع، ثمة تناغم ما بين احتمالات المناظر الطبيعية داخل دائرة نصف قطرها عشرة أميال، أو حدود المشي بعد الظهر،

والستين عامًا وفوقها عشرة من حياة الإنسان. لن تألف أيّا من هذه الاحتمالات أبدًا».

تشكّل هذه المسارات والطرق المترابطة دائرة طولها نحو ستة أميال، بدأت أستكشفها قبل عشر سنوات لأخسر بالمشي قلقي خلال سنة صعبة. ظللت أرجع إلى هذا الطريق لأخذ قسط من الراحة من عملي، ومن أجل عملي أيضًا، ففي ثقافة موجهة نحو الإنتاج يُعتقد أن التفكير يضاهي فعل لا شيء، وفعل لا شيء أمر من الصعب القيام به. لذلك من الأفضل التفكير عن طريق التنكر في صورة فعل شيء ما، والشيء الأقرب إلى عدم فعل أي شيء هو المشي. المشي في حد ذاته فعل متعمد أقرب إلى إيقاعات الجسم اللاإرادية، التنفس ونبض القلب. يصنع توازنًا حذرًا بين العمل والتسكع، بين الوجود والفعل. جهد جسدي ينتج لا شيئًا عدا الأفكار والتجارب والوصول(ات). بعد كل تلك السنوات من المشي المبذول للتفكير في أمور وفهمها، كان من المنطقي العودة إلى الأصل، على طريقة ثورو، والتفكير في المشي نفسه.

المشي، بصورته المثالية، حالة يكون فيها العقل والجسد والعالم مترابطين، كما لو كانوا ثلاث شخصيات تمكنوا من التحدث بعضهم مع بعض بعد لأي، ثلاث نوتات موسيقية تصنع تناغمًا فجائيًا. يتيح لنا المشي أن نكون في أجسادنا وفي العالم من دون أن ننشغل بهما. يتركنا أحرارًا في التفكير من دون أن نضيع تمامًا في أفكارنا. لست متأكدةً إن كنت أتنزه في وقت مبكر جدًا أم متأخر على تفتح أزهار الترمس الأرجوانية، يمكنها أن تكون مذهلة في هذه المطلّ، لكن شجيرات الخرف الكاليفورني كانت مزهرة على الجانب المظلّل من الطريق

المؤدي إلى المسلك الترابي، تذكرني بسفوح التلال في طفولتي الرافلة بهذه الزهور البيضاء عند أول تفتّح من كل عام. كانت الفراشات السوداء ترفرف حولي، تتقاذفها الرياح والأجنحة، فتجلب لي حقبة أخرى من الماضي. يبدو أن التنقّل على القدمين يجعل الانتقال في الزمن أسهل؛ يتجول العقل من الخطط إلى الذكريات إلى الملاحظات.

يولَد إيقاع المشي نوعًا من إيقاع التفكير، والمرور عبر منظر طبيعي يتصادم مع أو يحفز المرور عبر سلسلة من الأفكار. يخلق هذا اتساقًا غريبًا بين الممرين الداخلي والخارجي ليقترح أن العقل أيضًا منظر طبيعي من نوع ما وأن المشي هو أحد طرق اجتيازه. غالبًا ما تبدو فكرة جديدة وكأنها ملمح من ملامح التضاريس التي كانت ماثلةً طول الوقت، وأن التفكير يسافر في الأفكار ولا يصنعها. ولذا فإن أحد جوانب تاريخ المشي أن تاريخ التفكير أصبح ملموسًا، إذ يستحيل تتبّع حركات العقل، بينما يمكن تتبع حركات القدمين. المشي يمكن تخيله أيضًا كنشاط بصري، فكلَ تمشية هي جولة ممتعة بما يكفي لرؤية المعالم والتفكير فيها، لاستيعاب ما هو جديد في ما هو مألوف. ربما من هنا تأتي خصوصية جدوى المشي عند المفكرين. مفاجآت السفر وتحرراته وتجلياته يمكنها أن تتحقق بالسير إلى آخر الشارع مثلما يحدث في السفر حول العالم، فالمشي يسافر الاثنين؛ القريب والبعيد. أو ربما ينبغي تسمية المشي حركة ليس سفرًا، إذ يمكن للمرء أن يمشي في دوائر أو يسافر حول العالم جالسًا لا يتحرك على مقعد، وثمة نوع معين من شهوة التجوال لا يمكن تهدئتها إلا عبر أفعال الجسم نفسه وهو يتحرك، وليس حركة السيارة أو القارب أو الطائرة. يبدو أن الحركة ومعها النظر، بالمقدار

نفسه، هما ما يجعل الأشياء تحصل في العقل، وهذا ما يجعل المشي غامضًا وخصبًا بلا آخر: إنه الوسيلة والغاية، السفر والوجهة.

بدأ الطريق الترابي الأحمر القديم الذي بناه الجيش بمساره المتعرج عبر الوادي صعودًا إلى أعلى التل. ركزت في فعل المشي من حين إلى آخر، وغالبًا كان فعلًا لاواعيًا، تواصل القدمان التقدم عبر معرفتهما الخاصة بالتوازن، بتجنب الصخور والشقوق، بالسرعة، تركتني قدماي أتفرغ للنظر إلى التلال البعيدة ووفرة الزهور القريبة: بروديا، ذات الأوراق الوردية التي لم أتعلم اسمها أبدًا، غزارة الخمَيض بلونه الأخضر البرسيمي وأزهاره الصفراء، ثم في منتصف الطريق وعلى طول المنعطف الأخير نرجسٌ أبيض رقيق. بعد عشرين دقيقة من المشي المجهد صعودًا لم أغد أشم عبيرها. كان هناك مصنع ألبان في هذا الوادي، وأساسات لبيتٍ ريفي وقليل من أشجار الفاكهة القديمة المتناثرة لا تزال على قيد الحياة في مكان ما هناك في الأسفل، على الجانب الآخر من قاع الوادي الرطب المزدحم بالصفصاف. كانت هذه التضاريس منظرًا عماليًا قبل أن يصير ترفيهيًا بوقت طويل: أولًا جاء هنود الميوك، ثم المزارعون، هؤلاء اجتثتهم القاعدة العسكرية بعد قرن، ثم أغلقت القاعدة في السبعينيات عندما لم يعد للسواحل شأن في النوع المتزايد من الحرب المجردة والجوية. منذ سبعينيات القرن الماضي، تُرك هذا المكان لإدارة المتنزهات العامة ولأناس مثلي ورثوا التقليد الثقافي المتمثل في المشي في المناطق البرية المفتوحة من أجل المتعة. لن تختفي منصات المدافع الخرسانية الضخمة والملاجئ والأنفاق أبدًا مثلما اختفى معمل الألبان، لكن لا بد أن أسر

العمال في ذلك المعمل هم من تركوا خلفهم الإرث الحيَ لأزهار الحدائق التي تنهض فجأة بين النباتات الأصلية.

المشي يتسكع، وأنا أتسكع مثله بدءًا من عنقود النرجس في منحنى الطريق الأحمر بالتفكير أولًا ثم بالقدمين. وصل الطريق العسكري إلى القمة، وقطع المسلك الترابي الذي يأخذني إلى قمة التل، ثم يشق دربه في الريح والمنحدر قبل صعوده التدريجي إلى الجانب الغربي من الجبل. على قمة التل أعلى ممر المشاة هذا، الذي يواجه الوادي التالي شمالًا، كانت هناك محطة رادار قديمة محاطة بسياج ثماني الأضلاع. كانت المجموعة الغريبة من الأشياء والملاجئ الأسمنتية على منصة من الأسفلت جزءًا من نظام توجيه صواريخ «نايك» النووية من قاعدته أسفل الوادي إلى قارات أخرى، ولم يطلق أيَ صاروخ في الحرب من هنا. فكروا في هذه الخرائب كتذكار من نهاية العالم الملغاة.

الأسلحة النووية هي التي دفعتني في البداية إلى تاريخ المشي، في مسار مفاجئ مثل أي سلسلة أو قاطرة من الأفكار. في الثمانينيات أصبحت ناشطة ضد الأسلحة النووية وشاركت في مظاهرات الربيع في موقع اختبارات نيفادا، وهو موقع تابع لوزارة الطاقة بحجم جزيرة رود جنوب نيفادا حيث تفجر الولايات المتحدة قنابل نووية -أكثر من ألف حتى الآن- منذ عام ١٩٥١. في بعض الأحيان، بدت الأسلحة النووية وكأنها ليست أكثر من أرقام ميزانية غير ملموسة، أرقام التخلص من النفايات، أرقام محتملة للضحايا، ويجب مقاومتها بالحملات، والنشر، وتكوين جماعات الضغط. هذا التجريد البيروقراطي لسباق التسلح ومقاومته

يصعب استيعاب أن المسألة كانت ولا تزال تدمير أجساد حقيقية وأماكن حقيقية. في موقع الاختبار، كان الأمر مختلفًا. انفجرت أسلحة الدمار الشامل في عراء مفتوح ومقفر وجميل، خيّمنا بالقرب منه لأسبوع أو أسبوعين في كل مظاهرة (بعد عام ١٩٦٣، أصبحت التفجيرات تحت الأرض، لكن الإشعاعات تسربت إلى الغلاف الجوي على أي حال ودائمًا ما كانت تهز الأرض). نحن -من تألّفنا من الثقافة الأميركية المضادة البائسة، والناجين من هيروشيما وناجازاكي، والرهبان البوذيين والرهبان والراهبات الفرنسيسكان، وقدامى المحاربين الذين تحولوا إلى دعاة سلام، وعلماء فيزياء منشقين، وناشطين كازاخيين وألمان وبولينيزيين يعيشون في ظل القنبلة، وقبائل شوشوني الغربية التي أخذت أراضيها- نحن الذين اخترقنا هذه المجردات. ما وراء هذه المجردات كانت هناك الحقائق الفعلية للأمكنة، والمشاهد، والأفعال، والأحاسيس، والأصفاد، والأشواك، والغبار، والحرارة، والعطش، وخطر الإشعاع، وشهادة ضحايا الإشعاع، بل وضوء الصحراء المذهل أيضًا، وحرية الأفق المفتوح، والمشهد المثير للآلاف الذين شاركونا إيماننا بأن القنابل النووية هي الآلة الخاطئة التي نكتب بها تاريخ العالم. لقد حملنا نوعًا من الشهادة الجسدية على قناعاتنا، وعلى جمال الصحراء الشرس، ونهاية العالم التي تُجهَز في مكان قريب. الشكل الذي اتخذته مظاهراتنا كان المشي: ما كان على جانب المساحة العامة من السياج موكبًا احتفاليًا أصبح في الجانب المحظور خلفه عملًا من أعمال التعدي على أرض الغير يؤدي إلى الاعتقال. كنا منخرطين، على نطاق واسع لم يسبق له مثيل، في عصيان مدني أو مقاومة مدنية، وهي تقليد أميركي أوضحه

لأول مرة ثورو.

كان ثورو نفسه شاعر طبيعة وناقدًا للمجتمع. كان عمله الشهير المتمثل في العصيان المدني سلميًا - فقد رفض دفع الضرائب التي تدعم الحرب والعبودية وقبل أن يبيت ليلة في السجن عاقبة لذلك، ولم يشتبك عصيانه هذا بشكل مباشر مع مشاركته في استكشاف وتفسير المناظر الطبيعية المحلية، مع أنه قاد حفلة جمع التوت في نفس اليوم الذي خرج فيه من السجن. في مظاهراتنا في موقع اختبارات نيفادا اتحد شعر الطبيعة ونقد المجتمع، في التخييم، والمشي، والتعدي على أرض الغير، كأننا اكتشفنا كيف يمكن لحفلة التوت أن تكون كادرًا ثوريًا. بالنسبة إليّ، ما كان اكتشافًا هو الطريقة التي يمكن بها للمشي في الصحراء وتجاوز أحد المطبات العائقة إلى المنطقة المحظورة أن يعبر عن معنى سياسي. أثناء سفري إلى هذه المنطقة، بدأت أتعرف على أراضٍ برية غربية أخرى أبعد من منطقتي الساحلية، وأستكشف تلك التضاريس والتاريخ اللذين أوصلاني إليها، ليس فقط تاريخ تطور غرب أميركا بل وتاريخ الذائقة الرومانسية للمشي والمناظر الطبيعية، التقليد الديمقراطي للمقاومة والثورة، التاريخ الأقدم للحج والمشي سعيًا وراء تحقيق غايات روحية. لقد وجدت صوتي ككاتبة في وصف جميع طبقات التاريخ التي شكلت تجاربي في موقع نيفادا. بدأت أفكر وأكتب عن المشي في سياق الكتابة عن الأماكن وتواريخها.

المشي، كما يعلم أي قارئ لمقال ثورو «المشي»، يقود حتمًا إلى مواضيع أخرى. المشي موضوع شارد دائمًا. مثلًا، الزهرة البرية المفضلة لديّ، بخور

مريم أسفل محطة توجيه الصواريخ في الرؤوس الشمالية للبوابة الذهبية، تلك المخاريط الصغيرة بنقاطها السوداء الحادة التي تبدو وكأنها مزودة بديناميكية هوائية تستعد لرحلة لا تتحقق أبدًا، كما لو أنها تطورت متناسية حقيقة أن الأزهار لها سيقان وأن السيقان لها جذور. الشجيرات على جانبي الممر خصبة يسقيها تكاثف ضباب المحيط خلال الأشهر الجافة ويظلّلها الجانب الشمالي للمنحدر. في حين أن محطة توجيه الصواريخ على القمة تجعلني دائمًا أفكر في الصحراء والحرب، فإن هذه الضفاف في الأسفل تذكرني دائمًا بالأسيجة النباتية الإنجليزية، وحدود الحقول بما فيها من غزارة النباتات والطيور وذلك النوع الإنجليزي المثالي من الريف. ثمة سرخس هنا، وفراولة برية، وتحت شجيرة الخمرية تتكدس عناقيد من السوسن الأبيض قيد التفتح.

رغم أنني بدأت أفكر في المشي، فإنني لم أستطِع التوقف عن التفكير في كل شيء آخر، الرسائل التي ينبغي أن أكتبها، والمحادثات التي يجب أن أجريها. على الأقل عندما تشتت ذهني إلى المحادثة الهاتفية مع صديقتي سونو ذلك الصباح، كنت لا أزال في صلب الموضوع. سُرقت شاحنة سونو من الإستوديو الخاص بها غرب أوكلاند، وأخبرتني بأنه رغم أن الجميع عدَها كارثة، فإنها لم تكن تشعر بالأسف الشديد لخسارتها، أو حتى أنها في عجلة من أمرها لاستبدالها. حدث شيء مبهج، قالت، فقد وجدت سونو في جسدها وسيلة مناسبة تأخذها حيث شاءت، وكان ذلك بمثابة هدية لتربية علاقة أكثر واقعية وملموسة مع حيها وسكانه. تحدثنا أكثر عن إحساس من يتنقل على قدميه أو في المواصلات العامة بأنه يرفل في الوقت، فلا بد من تخطيط الأمور وجدولتها مسبقًا، بدلًا من التعجل

في اللحظة الأخيرة، وتكلمنا عن الإحساس بالمكان الذي لا يمكن اختباره إلا على الأقدام. يعيش كثير من الناس في الوقت الحاضر ضمن سلسلة أمكنة داخلية -منزل، سيارة، صالة رياضية، مكتب، محلات تجارية- منفصلة بعضها عن بعض. لكن كل شيء يظل متصلًا على الأقدام، فأثناء المشي يشغل المرء الفراغات الواقعة بين تلك الأجزاء الداخلية بنفس الطريقة التي يشغل بها تلك المساحات الداخلية. فيعيش الواحد في العالم كله عوض الأمكنة الداخلية المبنية عليه.

انتهى المسار الترابي الضيق الذي اتبعته، ارتفع ليلتقي الطريق الأسفلتي الرمادي القديم الذي يمتد حتى محطة توجيه الصواريخ. الانتقال خطوة من ممر إلى طريق يعني الصعود خطوة لرؤية الاتساع الكامل للمحيط، الممتد حتى اليابان بلا انقطاع. تباغتني رجفة المتعة نفسها كل مرة أجتاز فيها هذا الحدَ لاكتشاف المحيط مرة أخرى، محيط يبرق مثل الفضة المطروقة في ألمع الأيام، وأخضر في الأيام الملبَدة بالغيوم، وبني مع الجريان الموحل الذي تلفظه الجداول والأنهار فينجرف إلى البحر أثناء فيضانات الشتاء، وبتدفق قزحي من الأزرق في أيام السحب المتفرقة، ثم يصير لامرئيًا في أيام الضباب الكثيف فقط، عندما تعلن رائحة الملح وحدها عن التغيير. هذا اليوم، كان البحر أزرق غامقًا يعدو نحو أفق مغبش وشبورة بيضاء طمست الانتقال من البحر إلى سماء تخلو من الغيوم. من هنا فصاعدًا، بدأ طريقي ينحدر. أخبرت سونو عن إعلان وجدته في «لوس أنجلس تايم» قبل بضعة أشهر وأفكر فيه منذ ذلك الحين. كان الإعلان لموسوعة CD-ROM، يقول النص الذي احتل صفحة كاملة: «كنت تمشي عبر المدينة تحت

المطر الغزير لتستخدم موسوعاتنا. نحن على ثقة تامة بأن في مقدورنا جعل طفلك ينقر ويسحب». أعتقد أن نزهة الطفل تحت المطر هي التي شكَّلت التعلّم الحقيقي، على الأقل للحواس والخيال. ربما يتجوَّل الطفل الذي يفتش في موسوعة الأقراص المضغوطة بعيدًا عن المهمة التي يقوم بها، لكن التجول في كتاب أو جهاز كمبيوتر يحدث ضمن معايير أكثر تقييدًا وأقل حسية. إنها المصادفات المفاجئة التي تحصل بين المألوف كله هي ما تضيف إلى الحياة، هي اللامتوقع الذي يمنح الحياة قيمة. لمدة قرنين، كان المشي، ريفًا ومدينةً، الوسيلة الأساسية لاستكشاف ما لا يمكن توقعه ولا يُحصى، لكنه الآن يتعرض للاعتداء على جبهات عديدة.

قضت مضاعفة التقنية بحجة بلوغ الكفاءة القصوى على وقت الفراغ، من حيث أنها جعلت زيادة زمن الإنتاج ومكانه ممكنًا مقابل تقليل وقت الفراغ بينهما. فالتقنيات الجديدة الموفِرة للوقت تجعل معظم العمال أكثر إنتاجية، ليس أكثر حرية في عالم يتسارع من حولهم. يقترح خطاب الكفاءة المحيط بهذه التقنيات أيضًا أن ما لا يمكن قياسه لا يمكن تقييمه، أن تلك المجموعة الواسعة من الملذات التي تندرج في فئة عدم القيام بأي شيء محدد، مثل أحلام اليقظة، والتحديق إلى السحب، والتجوال بلا هدف، والنظر إلى فترينات المحلّات، ليست سوى فراغات ينبغي ملؤها بشيء أكثر تحديدًا أو أكثر إنتاجية أو أكثر سرعة. حتى في هذا الطريق إلى لسان اليابسة الذي لا يوصل إلى أي مكان ذي فائدة، في هذا الطريق الذي يُسلك فقط من أجل المتعة، أسرع الناس في مسارات مختصرة بديلة بين الطرق المتعرجة كما لو كانت الكفاءة

عادةً لا يمكنهم الفكاك منها. لامحدودية التجوال، التي يمكن اكتشاف الكثير من خلالها، تُستبدل بها أقصر مسافة محددة يمكن قطعها بأقصى سرعة ممكنة، وتُستبدل بها أيضًا الإلكترونيات التي تجعل السفر الحقيقي أقل ضرورة. بصفتي واحدة ممن يعملون في مهن حرة، أولئك الذين يبددون الوقت الذي وفَرته التكنولوجيا على أحلام اليقظة والتسكعات، فأنا أعلم أن هذه الأشياء لها استخداماتها، وأستخدمها -شاحنة أو كمبيوتر أو مودم- ولكني أخشى استعجالها الزائف، ودعوتها إلى السرعة، وإصرارها على أن السفر أقل أهمية من الوصول. أحب المشي لأنه بطيء، وأظن أن العقل، مثل القدمين، يعمل بسرعة ثلاثة أميال في الساعة. إن صح كذلك، فإن الحياة الحديثة تتحرك أسرع من سرعة الفكرة أو التفكير.

يتعلق المشي بالوجود في الخارج، في المساحات العامة، والمساحات العامة هذه جرى التخلي عنها وتآكلت في المدن القديمة، طمستها التقنيات والخدمات التي لا تتطلب مغادرة المنزل، وظُلّلت بالخوف في عديد من الأماكن (والأماكن الغريبة دائمًا ما تكون مخيفة أكثر من تلك المعروفة، وهكذا كلما كان تنزّه المرء في المدينة أقل بدت المدينة خطرة أكثر، وكلما قلَ عدد المتنزهين أصبح التجوال أكثر وحدة وخطورة. في الوقت نفسه، فإن المساحات العامة في عديد من الأماكن الجديدة ليست ضمن تصميمها من الأساس: ما كان يعدَ في السابق مساحةً عامة بات مصممًا لاستيعاب خصوصية السيارات، مولات تحلَ محل الشوارع الرئيسية، شوارع بلا أرصفة، الدخول في المباني يتم من خلال مرائبها الخاصة؛ لا ساحة أمام مبنى مجلس المدينة، كل شيء له جدران وحواجز

وبوابات. خلق الخوف نمطًا كاملًا من العمارة والتصميم الحضري، لا سيما في جنوب كاليفورنيا، حيث المشاة موضع شك في عديد من التقسيمات الإدارية و«المجتمعات» المسوَّرة. في هذه الأثناء فإن الأراضي الريفية وأطراف البلدات التي كانت جذابة ذات يوم ابتلعتها تقسيمات فرعية تخدم ركاب السيارات وصودرت بطريقة ما. في بعض الأماكن لم يغد الوجود في مكان عام ممكنًا، وذلك أزمة لكل من التجليات الخاصة لمن يسير بمفرده، وللوظائف الديمقراطية للمساحات العامة. هذا هو التشظي بين الحياة والمناظر الطبيعية الذي كنا نقاومه منذ وقت طويل، في المساحات الشاسعة من الصحراء التي أصبحت بشكل مؤقت عامةً كأنها ساحة.

وعندما يختفي الفضاء العام، يختفي الجسد أيضًا، الذي تصفه سونو بكلماتها، بأنه كافٍ للتنقل والتجوال. تحدثنا أنا وسونو كيف اكتشفنا أن أحياءنا -التي تعد من أكثر الأماكن التي يخافها الناس في منطقة الخليج- ليست كلها معادية (رغم أنها ليست آمنة بما يكفي لنسيان أمر السلامة تمامًا). لقد تعرضت للتهديد والسطو بضع مرات في الشارع، من مدة طويلة، ولكني صادفت -ألف مرة أكثر- أصدقاء يعبرون الطريق، كتابًا، كنت أبحث عنه، في نافذة متجر، مجاملات وتحيات من جيراني الثرثارين، تفاصيل معمارية مبهجة، بوسترات للموسيقى، تعليقات سياسية ساخرة على الجدران وأعمدة الهاتف، قارئات الحظ، القمر يظهر من بين المباني، لمحات من حيوات أخرى ومنازل أخرى وأشجار الشوارع الصاخبة بالطيور المغرِّدة. يتيح لك العشوائي، وما لم تجربه من قبل العثور على ما لا تعرف أنك تبحث عنه، وأنت لا تعرف

مكانًا حتى يفاجئك. المشي هو إحدى طرق الحفاظ على حصن يقف ضد تآكل العقل والجسد، والمناظر الطبيعية، والمدينة، وكل سائر حارس في دورية لحماية ما يفوق الوصف.

بعد ثلث الطريق المنحدر، ربما، ذلك الذي يتعرج إلى الشاطئ، مُدَت شبكة برتقالية، كأنها شبكة تنس. حينما وصلت إليها رأيت أنها تسيّج فجوة ضخمة جديدة في الطريق. هذا الطريق يتفتت منذ أن بدأت أمشي عليه قبل عقد من الزمن. كان يتعرّج بلا انقطاع من البحر حتى قمة التل. على طول الامتداد الساحلي للطريق ظهرت فجوة صغيرة في عام ١٩٨٩ يمكن للمرء أن يتجول حولها، ثم التف مسلك ترابي صغير حول الفجوة المتزايدة. مع أمطار كل شتاء، اِنهار مزيد ومزيد من الأرض الحمراء على سطح الطريق، وانجرفت مثل كومة إلى القاع الخرب للمنحدر الحاد الذي قطعه الطريق ذات يوم. كان مشهدًا مذهلًا في البداية، هذا الطريق الذي سقط في الهباء، فالواحد يتوقع أن تكون الطرق والممرات مستمرة. كل عام يسقط مزيد منه. وقد مشيته كثيرًا حدَ أنني ارتبطت بكل جزء منه. أتذكر جميع مراحل الانهيار، ومدى اختلاف الشخص الذي كنته عندما اكتمل الطريق. أتذكر أنني شرحت لصديق على هذا الطريق قبل ثلاث سنوات تقريبًا لماذا أحببت مشي الطريق نفسه مرارًا. مزحث بنسخة سيئة من قول هيراقليطس الشهير عن الأنهار: إنك لا تخطو نفس الممر مرتين، وبعد هنيهة، صادفنا الدرج الجديد الذي يقصَ الجانب الوعر من التل، والذي بني بعيدًا بما يكفي داخل اليابسة بحيث لا تصل التعرية إليه لسنوات كثيرة مقبلة. إذا كان هناك من تاريخ للمشي، فقد وصل أيضًا إلى مكان يسقط فيه الطريق، مكان ليس فيه مساحة عامة وتُعبد المناظر

الطبيعية، وتتقلص أوقات الفراغ وتُسحق تحت قلق الإنتاج، حيث الأجساد ليست في العالم بل في الداخل فقط، في السيارات والمباني، وتأليه السرعة يُظهر هذه الأجسام ضعيفة وصارت خارج الزمن. في هذا السياق، يعد المشي انعطافًا تمرديًا، وهو الطريق ذو المناظر الخلابة عبر مشهد نصف مهجور من الأفكار والتجارب.

عليّ الالتفاف حول هذه الكتلة الجديدة المقتطعة من التضاريس الفعلية عبر الذهاب إلى منعطف جديد على اليمين. ثمة لحظة دائمًا في هذه الجولة تمنحها حرارة التسلق ومصدات الرياح التي تصنعها التلال حين تتيح الطريق الهبوط في هواء المحيط، وهذه المرة جاءت اللحظة على الدرج، بعد كومة من الأحجار التي اقتطعت حديثًا من حجر السربنتينيت الأخضر للتل. من هناك، لم يكن الخط المتعرج الذي يقود إلى النصف الآخر من الطريق ببعيد، والذي يتلوّى مقتربًا أكثر فأكثر من المنحدرات فوق المحيط، حيث تتحطم الأمواج وتتبعثر في رغوة بيضاء على الصخور الداكنة بهديرٍ مسموع. سرعان ما صرت عند الشاطئ، كان راكبو الأمواج يلمعون مثل الفقمة ببدلاتهم السوداء المبللة يلتقطون نقطة انكسار الموج عند الحافة الشمالية للخليج الصغير، كان ثمة كلاب تطارد العصي، وأناس يسترخون على البطانيات، وأمواج تتحطم ثم تنتشر بسرعة في تدفق ضحل إلى الأعلى تلعق أقدام أولئك الذين يتمشون منا على الرمال الصلبة للمد العالي، تمددّ أخير فقط فوق مرتفع رملي وعلى طول البحيرة الشاطئة الموحلة المليئة بالطيور المائية.

كان الثعبان الذي جاء مفاجأة، ثعبان الرباط، سمي كذلك بسبب الخطوط المصفرَة الممتدة على طول

جسمه الغامق، صغير الحجم وساحر يتلوّى على جانب واحد مثل مياه متموجة يجتاز الممشى ويدخل بين العشب. لم يخفني ذلك بقدر ما نبّهني. خرجت من أفكاري فجأة لألحظ ثانية كل شيء من حولي: كتل الأزهار الأسطوانية للصفصاف، لعب الأمواج، ظلال تشبه ورق الأشجار عبر الممر، ثم رأيت نفسي، أسير بانتظام لا يتحقق إلا بعد أميال، الإيقاع القطري الفضفاض لذراعين تتأرجحان بالتزامن مع الساقين في جسم يشعر بأنه طويل ويتمطى ويتلوى مثله مثل أفعى تقريبًا.

أوشكت جولتي على الانتهاء، وفي نهايتها عرفت ما هو موضوعي وكيف أعالجه بطريقة لم تخطر لي قبل ستة أميال. لم يأتِ لي ذلك في لحظة تجلٍّ مفاجئة، بل بثقة تدريجية، بإحساس بالمعنى يشبه الإحساس بالمكان. عندما تعطي نفسك للأمكنة فإنها تعيد نفسك إليك، كلما عرفها المرء أكثر غرسها مع المحصول اللامرئي من الذكريات والعلاقات التي ستنتظرك عندما ترجع، بينما أمكنة جديدة تعرض عليك أفكارًا جديدة، احتمالات جديدة. استكشاف العالم أحد أفضل الطرق لاستكشاف العقل، والمشي سفر في الاثنين.

الفصل الثاني
العقل بسرعة ثلاثة أميال في الساعة

١. عمارة المشاة

في اعترافاته، قال جان جاك روسو: «لا يمكنني التأمل إلا عندما أمشي. عندما أتوقف، أتوقف عن التفكير؛ عقلي يعمل فقط مع ساقيّ». يعود تاريخ المشي إلى ما هو أبعد من تاريخ البشر، لكن تاريخ المشي كعمل ثقافي واعٍ وليس كوسيلة لتحقيق غاية، لا يتجاوز عمره بضعة قرون في أوروبا، وفي بدايته يقف روسو. بدأ هذا التاريخ بمشي الشخصيات المختلفة في القرن الثامن عشر، لكن الأدبية بينها جاهدت لتكريس المشي من خلال اقتفاء أثره إلى اليونان، التي كانت ممارساتها تحظى باحترام كبير من جهة ويساء تقديمها في ذلك الوقت من جهة أخرى. كتب الثوري والكاتب الإنجليزي غريب الأطوار جون ثيلوال «المشّاء»، وهو كتاب ضخم ومتكلّف يوحّد الرومانسية الروسّوية بهذا التقليد الكلاسيكي الزائف، كتب: «في جانب على الأقل، قد أتباهى بالتشابه مع بساطة الحكماء القدماء: أتابع تأملاتي على الأقدام». بعد ظهور كتاب ثيلوال عام ١٧٩٣، كان هناك كثيرون ممن زعموا هذا الادعاء إلى أن ترسّخت فكرة أن القدماء مشوا من أجل التفكير، كثيرون إلى حد أن الصورة نفسها تبدو جزءًا من التاريخ الثقافي: رجال يتشحون بأقمشة متقشفة يتكلمون بجدية بينما يمشون عبر مناظر متوسطية جافة تتخللها أعمدة رخامية.

نشأ هذا الاعتقاد من صدفة العمارة واللغة. عندما كان أرسطو مستعدًا لإنشاء مدرسة في

أثينا منحته المدينة قطعة أرض. فيها، كما يشرح فيليكس غراييف تاريخ هذه المدرسة، «معبد لأبولو والحوريات، وربما مبانٍ أخرى أصغر.(...) وهناك ممشى مسقوف بأعمدة من الجانبين يقود إلى معبد أبولو، أو ربما أنه يربط المعبد بمزار الحوريات، ليس معروفًا ما إذا كان موجودًا من قبل أو بني الآن فقط. منح هذا الممشى peripatos المدرسة اسمها، هنا على ما يبدو، في البداية على الأقل، اجتمع التلاميذ وألقى المعلمون محاضراتهم. هنا كانوا يذرعون الممشى إيابًا وذهابًا، لهذا قيل لاحقًا إن أرسطو نفسه كان يحاضر ويدرّس بينما يمشي صاعدًا نازلًا. وأُطلق على الفلاسفة الذين أتوا من هذه المدرسة المشاؤون أو المدرسة المشائية Peripatetic، وفي اللغة الإنجليزية تعني الكلمة شخصًا يمشي بانتظام وتكرار ولمسافات طويلة». إذًا فإن اسمهم يربط المشي بالتفكير. هناك شيء أكثر في هذه المسألة من الصدفة التي أسست مدرسة فلسفية في معبد أبولو مع رواق أعمدة طويل، أكثر بقليل.

السفسطائيون، الفلاسفة الذين سيطروا على الحياة الأثينية قبل سقراط وأفلاطون وأرسطو، كانوا جوَالين معروفين، غالبًا ما يدَرسون في البستان، حيث سيكون موقع مدرسة أرسطو. كان هجوم أفلاطون على السفسطائيين حانقًا إلى درجة أن كلمات السفسطائي والسفسطة لا تزال مرادفة للخداع والمكر، رغم أن جذرها «سوفيا» له علاقة بالحكمة. ومع ذلك، أدى السفسطائيون وظيفة أشبه بالتجمعات الثقافية الصيفية chautauquas والمحاضرين العامين التي كانت منتشرة في أميركا القرن التاسع عشر، الذين كانوا ينتقلون من مكان إلى آخر يوصلون محاضراتهم إلى الجمهور الجائع

للمعلومات والأفكار. رغم أنهم درّسوا الخطابة كأداة للسلطة السياسية، حيث كانت القدرة على الإقناع والجدل حاسمة في الديمقراطية اليونانية، غير أن السفسطائيين علموا أشياء أخرى إلى جانب ذلك. أفلاطون، الذي يعد سقراط شخصيته نصف الملفقة أحد أكثر المناظرين مراوغةً وإقناعًا على مرّ العصور، مخادع إلى حد ما عندما يهاجم السفسطائيين.

سواء تمتع السفسطائيون بالنزاهة أم لا، فقد كانوا متنقلين غالبًا، كما هو حال عديد من أولئك الذين كان ولاؤهم الأول للأفكار. ربما أن هذا الولاء لشيء غير مادي مثل الأفكار، يميز المفكر من الذي يرتبط ولاؤه بالناس والمكان، لأن الولاء الذي يقيّد الأخير غالبًا ما يدفع الأول من مكان إلى آخر. إنه ارتباط يستلزم الانفصال. الأفكار أيضًا ليست محصولًا شعبيًا أو يمكن الاعتماد عليه مثل الذرة، وكثيرًا ما يتحتم على أولئك الذين يزرعونها مواصلة السعي وراء ما يؤيدها بقدر ما ينبغي عليهم السعي إلى الحقيقة أيضًا. كانت مهن عديدة في ثقافات عديدة، من موسيقيين إلى أطباء، مهن رُحَل، تمتلك نوعًا من الحصانة الدبلوماسية للشقاقات بين المجتمعات التي تعمل على إبقاء أعضائها داخل مناطقها. كان أرسطو نفسه ينوي في البداية أن يصبح طبيبًا، مثلما كان والده، وكان الأطباء آنذاك أعضاء في رابطة سرية للمسافرين الذين زعموا أنهم من سلالة إله الشفاء. لو أنه أصبح فيلسوفًا في عصر السفسطائيين لكان مترحلًا على أي حال، فمدارس الفلسفة المستقرة أُنشئت في أثينا لأول مرة في عصره.

من المستحيل الآن البت في ما إذا كان من عادة

أرسطو ومشَائيه السير أثناء حديثهم عن الفلسفة أم لا، لكن الربط بين التفكير والمشي يتكرر في اليونان القديمة، كما استوعبت العمارة اليونانية المشي كنشاط اجتماعي وتحادثيَ. ومثلما أخذ المشاؤون اسمهم من الممشى في مدرستهم، كذلك سُمَي الرواقيون على اسم الرواق، أو العمد، في أثينا، أكثر ممر لارواقي في رسوماته(1)، حيث كانوا يسيرون ويتحدثون. بعد ذلك بوقت طويل، انتشر الارتباط بين المشي والتفلسف حتى أن أوروبا الوسطى لديها أماكن تربط الاثنين: طريق الفيلسوف Philosophenweg الشهير في هايدلبرغ حيث يُقال إن هيغل مشى، ممر الفيلسوف Philosophen-damm في كونيغسبيرغ الذي كان يمر به كانط في نزهته اليومية (حلت محله الآن محطة سكة حديد)، وطريق الفيلسوف Philosopher’s Way الذي ذكره كيركيغارد في كوبنهاجن.

ومن الفلاسفة الذين مشوا -حسنًا، المشي هو نشاط إنساني عالمي- جيريمي بينثام، وجون ستيوارت ميل، وكثيرون آخرون مشوا لمسافات بعيدة. حتى أن توماس هوبز كان لديه عصًا للمشي ركّب فيها قرن حِبر ليدوّن أفكاره مختصرة أثناء نزهته. إيمانويل كانط كان يتجول يوميًا حول كونيغسبرغ بعد العشاء، لكن ذلك لمجرد التمرين، لأنه كان يفكر وهو جالس بجوار الموقد بينما يحدق إلى برج الكنيسة من النافذة. الشاب فريدريك نيتشه يعلن بتقاليدية فخمة: «ألجأ إلى ثلاثة أشياء لأسترخي: شوبنهاور الذي أحبه، موسيقى شومان، وأخيرًا المشي بمفردي». في القرن العشرين، يروي برتراند راسل عن صديقه لودفيغ فيتغنشتاين:

«اعتاد أن يأتي إلى غرفتي في منتصف الليل، وأن يمشي لساعات متقهقرًا فمتقدمًا كأنه نمر في قفص. كان يعلن عند مجيئه أنه سينتحر ما إن يغادر غرفتي. لذلك، رغم نعاسي، لم أشأ أن أتركه يغادر. في إحدى الأمسيات بعد ساعة أو ساعتين من الصمت الميّت، سألته: فيتغنشتاين، هل تفكر في المنطق أم في خطاياك؟ قال: «كليهما»، ثم عاد إلى الصمت». مشى الفلاسفة. لكن الفلاسفة الذين فكروا في المشي أكثر ندرة.

٢. ترسيم المشي

روسو هو من أرسى الأساس للصرح الأيديولوجي الذي سوف يُقدّس فيه المشي نفسه، ليس المشي الذي أخذ فيتغنشتاين إلى الأمام والخلف في غرفة راسل، بل المشي الذي أخذ نيتشه إلى المناظر الطبيعية. في عام ١٧٤٩، أُلقي بالكاتب والموسوعي دينيس ديدرو في السجن لكتابته مقالًا يشكك في ارتباط الخير بـ الله. انطلق روسو، الصديق المقرب لديدرو، إلى زيارته في السجن سائرًا ستة أميال من بيته في باريس إلى سجن «شاتو فانسان». كان ذلك الصيف حارًا جدًا، كما يروي روسو في اعترافاته غير الموثوقة تمامًا (١٧٨١-١٧٨٨)، رغم ذلك مشى لأنه كان فقيرًا جدًا وليس في مقدوره تكبّد السفر بوسائل أخرى. يكتب روسو: «لتخفيف سرعتي، فكّرت في أخذ كتاب معي. في أحد الأيام، أخذت «ميركيور دي فرانس» وقلبتها ألقي نظرة خاطفة على صفحاتها بينما أسير، لمحت هذا السؤال الذي طرحته أكاديمية ديجون لجائزة العام المقبل: هل أدى تقدّم العلوم والفنون إلى إفساد الأخلاق أو الارتقاء بها؟ لحظة قرأت هذا السؤال، رأيت كونًا آخر وأصبحت رجلًا آخر». في هذا الكون الاخر، حاز

هذا الرجل الآخر الجائزة، واشتهر مقاله المنشور بسبب ما جاء فيه من إدانة شرسة لمثل هذا التقدم.

لم يكن روسو مفكرًا أصيلًا أكثر من كونه جريئًا. لقد قدّم أجرأ تعبير عن التوترات القائمة وامتدح، بأكثر حماس ممكن، الحساسيات الناشئة. بات التأكيد على أن الله والملكية والطبيعة كلها شيء واحد متوائم في اتساق أمرًا لا يطاق. كان روسو، بحنق الطبقة الوسطى، بشكوكه الكالفينية السويسرية في الملوك والكاثوليكية، برغبته في أن يكون صادمًا، بثقته العتيدة بنفسه، الشخص الذي يصنع من الهدير البعيد للخلاف معنى سياسيًا محددًا. في «خطاب حول العلوم والفنون»، أعلن أن التعلم بل والطباعة يفسدان ويضعفان الفرد والثقافة: «انظر كيف كان البذخ والفجور والعبودية في الحقب كلها عقابًا للمحاولات المتغطرسة التي بذلناها للخروج من الجهل السعيد الذي وضعتنا فيه الحكمة الأبدية». الفنون والعلوم، أكد روسو، لا تقودان إلى السعادة ولا إلى معرفة الذات، بل إلى الإلهاء والفساد.

الآن يبدو الافتراض القائل بأن الطبيعي والصالح والبسيط صفات مرتبطة ببعضها شائعًا في أحسن الأحوال، لكنه كان استفزازيًا آنذاك. في اللاهوت المسيحي، سقطت الطبيعة والإنسانية من النعيم بعد الفردوس. الحضارة المسيحية هي التي افتدتهما، من أجل ذلك كان الخير حالة ثقافية أكثر من طبيعية. هذه المخالفة الروسَوية والإصرار على أن الإنسان والطبيعة أفضل في حالتهما الأصلية، هي في حقيقتها من بين أمور أخرى، هجوم على المدن، والأرستقراطيين، والتكنولوجيا، والثقافة الرفيعة، واللاهوت أحيانًا، وما زال مستمرًا حتى

اليوم (مع أن الفرنسيين، وهم جمهوره الأساسي والذين ساهم في ثورتهم، كانوا لسببٍ ما أقل استجابة على المدى الطويل لهذه الأفكار من البريطانيين والألمان والأميركيين). طوّر روسو هذه الأفكار أكثر في «خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر» (١٧٥٤)، وفي روايتيه «جولي» (١٧٦١)، و«إميل» (١٧٦٢). تصوّر الروايتان، بطرق مختلفة، حياة ريفية وبسيطة، رغم أنهما لا تعترفان بالعمل اليدوي الشاق لمعظم أبناء الريف. عاشت شخصياته الأدبية، كما عاش هو نفسه عندما كان في أسعد أيامه، في راحة بلا ادعاء، بدعم من كادحين لامرئيين. التناقضات في عمل روسو ليست ذات شأن، فعمله أقل من أن يكون تحليلًا مقنعًا وأقرب إلى أن يكون تعبيرًا عن حساسية جديدة بحماستها الجديدة. ما كتبه روسو بأناقة عظيمة هو أحد تلك التناقضات وأحد الأسباب التي قُرئ، على نطاق واسع، من أجلها.

في «خطاب أصل التفاوت» يصور روسو الإنسان في حالته الطبيعية: «يتجول في الغابات، بلا صناعة، بلا كلام، بلا سكن، بلا حرب وعلاقات، لا حاجة لديه إلى أقرانه البشر، ولا رغبة عنده أيضًا في إيذائهم»، حتى وهو يعترف بأننا لا نستطيع معرفة ما كانت هذه الحالة عليه. تتجاهل الأطروحة بلا مبالاة الروايات المسيحية عن نشوء البشرية وتتجه نحو أنثروبولوجيا مقارنة للتطور الاجتماعي (ورغم أنها تكرر موضوع المسيحية المتمثل في السقوط من النعيم، فإنها تقلب اتجاه هذا السقوط: فهو لم يعد سقوطًا داخل الطبيعة بل داخل الثقافة). في هذه الأيديولوجيا يكون المشي رمزًا للإنسان البسيط، وعندما يكون تجوالًا منعزلًا وريفيًا فهو وسيلة للوجود في الطبيعة وخارج المجتمع.

يملك السائر انفصال المسافر نفسه، ولكنه يسافر بلا ترتيبات وملحقات، معتمدًا على قوة جسده بدلًا من وسائل الراحة التي يمكن صنعها وشراؤها: الخيول والقوارب والعربات. فالمشي، بعد كل شيء، نشاط لم يجر تطويره بشكل جوهري منذ فجر التاريخ.

في تصوير نفسه دائمًا على أنه أحد المشائين، زعم روسو أنه قريب من ذلك المتجوَل المثالي قبل التاريخ. وبالفعل، لقد مشى بكثرة ولمسافات بعيدة طوال عمره. بدأت حياته المتجولة عندما عاد إلى جنيف مرةً من تمشية في الريف يوم أحد، فقط ليجد أنه وصل بعد فوات الأوان: أُغلقت أبواب المدينة. بتهور ونزق، قرر روسو ابن الخمسة عشر عامًا في تلك اللحظة أن يترك مسقط رأسه، ودراسته، ودينه في الأخير؛ استدار أمام البوابات وغادر سويسرا. في إيطاليا وفرنسا، وجد وترك وظائف كثيرة ورعاة وأصدقاء، في حياة بدت بلا هدف حتى ذلك اليوم الذي قرأ فيه «مركيور دو فرانس»، وعثر على موهبته. منذ تلك اللحظة وإلى آخر حياته وهو يحاول استعادة تجواله اللامبالي في شبابه. عن إحدى تمشياته كتب: «لا أتذكر أنني أمضيت طوال حياتي فترة من الوقت خالية تمامًا من المبالاة والقلق مثل تلك الأيام السبعة أو الثمانية التي أمضيتها على الطريق. تركت لي هذه الذكرى المذاق الأقوى لكل شيء ارتبط بها، للجبال خاصة والسفر على الأقدام. لم أسافر هكذا أبدًا إلا في عزّ شبابي، ولطالما كان ذلك مسرّة لي. بحثت مطولًا في باريس عن أي رجلين يتشاركان معي ولعي، يكون كل منهما مستعدًا للمساهمة بخمسين لويسًا من محفظته وسنة من وقته للذهاب إلى إيطاليا في جولة مشي جماعية، بشرط ألا يكون معنا أي مرافق اخر عدا فتى يأتي معنا ليحمل

حقيبة ظهر».

لم يجد روسو مرشحين جديين لهذه النسخة المبكرة من التجوال مشيًا (ولم يشرح أبدًا ضرورة وجود رفيقين لتنفيذها، ما لم يكن الأمر أنهما من سيدفع الفواتير). لكنه واصل المشي في كل فرصة. وزعم في مكان آخر: «لم أفكر أبدًا بهذا القدر، لم أوجد بهذه الحيوية، لم أجرب كثيرًا، ولم أكن نفسي كثيرًا -إن كان في إمكاني استخدام هذا التعبير- كما حدث في الرحلات التي قمت بها بمفردي على قدمي. ثمة شيء في المشي يحرض تفكيري ويحييه. عندما أظل في مكان واحد لا أستطيع التفكير مطلقًا، لا بدَ لجسدي أن يكون في حالة حركة لأشغَل عقلي. مرأى الريف، تعاقب المناظر الجميلة، الهواء الطلق، الشهية السليمة، والصحة الجيدة التي أكتسبها عبر المشي، الأجواء السلسة في النُزل، غياب كل شيء يجعلني أشعر بأنني عالة، كل شيء يذكرني بحالتي. كل هذه أمور خدمتني في تحرير روحي ومنحت تفكيري جرأة أكبر، لأتمكن من الجمع بينهما، أختارهما، وأجعلهما ملكي مثلما أشاء، من دون خوف أو قيد». كان هذا الذي وصفه، بلا شك، المشي المثالي الذي يختاره إنسان حر في صحة جيدة في ظروف سائغة وآمنة، وهذا هو نوع المشي الذي سيأخذه ورثته، وهم كُثر، كتعبير عن الخير، والانسجام مع الطبيعة، والحرية، والفضيلة.

يصوِر روسو المشي باعتباره تمرينًا على البساطة ووسيلة للتأمل في آن. في الوقت الذي كتب فيه الخطابات، كان يمشي وحيدًا في غابة بولونيا بعد العشاء، يفكر بإمعان «في مواضيع للأعمال التي ينبغي كتابتها ولا أعود حتى يهبط الليل». لم تنشر

الاعترافات، التي جاءت منها هذه المقاطع إلا بعد موت روسو (في ١٧٦٢، خرقت كتبه في باريس وجنيف، وأصبحت حياته منفى متجولًا). قبل أن تنتهي الاعترافات كان قراؤه قد ربطوا بينه وبين جولات المشي الهائمة. جاء جيمس بوزويل المحب إلى روسو لزيارته بالقرب من نوشاتيل في سويسرا، كتب: «لأعدَ نفسي للمقابلة الرائعة، خرجت وحدي. تمشيت بلا وجهة أتأمل، بمحاذاة نهر لاريوز في وادٍ بري جميل تحيط به الجبال الضخمة، بعضها مغطى بصخور عابسة، وبعضها الآخر مغطى بالثلج المتلألئ». بوزويل، الذي كان في الرابعة والعشرين من عمره، واعيًا بذاته مثل روسو وأكثر توجسًا بشأن ذلك، كان يعلم مسبقًا أن المشي والعزلة والبرية عادات روسَوية، وكان يكسو عقله بهذه التأثيرات كما كان يتأنق استعدادًا لمقابلة احتفالية.

العزلة حالة غامضة عبر كتابات روسو. في «خطاب في أصل التفاوت»، يصور البشر في حالتهم الطبيعية منعزلين يسكنون غابة فيها كل ما يحتاجون إليه. لكنه في أعماله التي تتناول حياته الشخصية، يصور العزلة -ليس كحالة مثالية- مواساةً وملجأ لرجل تعرض للخيانة وخيبة أمل. في الواقع إن كثيرًا من كتاباته تدور حول إن كان ينبغي للمرء أن يتواصل مع نظرائه البشر وكيف. كان روسو مفرط الحساسية حد البارانويا ومقتنعًا بأنه على صواب في ظل أكثر الظروف التباسًا، وقد بالغ في رد فعله على أحكام الآخرين، لكنه لم يستطع أبدًا كبح أفكاره وأفعاله الخارجة عن المألوف والتي غالبًا ما تكون قاسية. من الشائع اليوم، أن كتاباته تجعل من تجربته إنسانية، وأن تصويره لسقوط إنسان من البساطة والنعيم إلى الفساد هي أقرب إلى أن تكون بورتريه لسقوط روسو نفسه

من البساطة والأمان السويسري أو من سذاجة الطفولة إلى حياته المجازفة خارج سويسرا بين الأرستقراطيين والمثقفين. سواء كان الأمر كذلك أم لا، فإن رؤيته كانت مؤثرة جدًا حتى أن قلّة، في الوقت الحاضر، لا يعرفونها تمامًا.

أخيرًا، في نهاية حياته، كتب «هواجس المتنزه المنفرد بنفسه»، Les Rêveries du promeneur solitaire في الأصل (١٧٨٢)، وهو كتاب عن المشي وليس عنه. يُسمّي كل فصل من فصوله نزهة، وفي النزهة الثانية، يوضح فرضيته: «أما وقد عزمت على أن أصف مألوف حالتي الذهنية في أغرب موقف يمكن لإنسان أن يجد نفسه فيه، فلم أر طريقة أبسط وأضمن لإتمام هذا المشروع إلا أن أضع سجلًا أمينًا أثبت فيه نزهاتي المنفردة والهواجس التي تملؤها»(2). كل واحدةٍ من هذه المقالات الشخصية القصيرة تشبَه سلسة الأفكار أو الانشغالات التي قد يتلهى بها الواحد منا أثناء المشي، رغم غياب أي دليل على أنها ثمرة نزهات بعينها. العديد منها تأملات في عبارة ما، بعضها ذكريات، بعضها أكثر قليلًا من مجرد بثِ لشكواه. بمجموعها، تُظهر المقالات العشر (ظلت الثامنة والتاسعة مسودتين، والعاشرة مات قبل أن يكملها عام ١٧٧٨) رجلًا لاذ بأفكار تجوالاته وانهماكاتها النباتية، وكان يتذكر ويبحث من خلالها عن مأوى أكثر أمانًا.

المشاء الانفرادي موجود في العالم إنما في منأى عنه، لديه انفصال المسافر بدلًا من ارتباط العامل، والمقيم، والعضو في مجموعة. يبدو أن المشي بات نمط الوجود الذي اختاره روسو، لأن بإمكانه داخل المشي أن يعيش في الأفكار وأحلام اليقظة، وأن

يكون مكتفيًا بذاته، وأن ينجو، بالتالي، من العالم الذي يشعر بأنه خانه. إنه يوفر له مكانًا موضوعيًا يتكلم منه. كبنية أدبية، فإن قصة التجوال تشجع على الاستطراد والتداعي، بخلاف الشكل الأكثر صرامة للخطاب أو التقدم بتسلسل زمني في السرد السيري أو التاريخي. بعد قرن ونصف، طوّر جيمس جويس وفيرجينيا وولف، في محاولة لوصف أعمال الذهن، الأسلوب المسمى تيار الوعي، وفي روايتهما «يوليسيس» و«السيدة دالواي»، تتضح أفكار وذكريات أبطالهما بشكل أفضل أثناء المشي.

هذا النوع من التفكير اللامتبلور التداعوي هو الأكثر ارتباطًا بالمشي، ويشير إلى أن المشي ليس فعلًا تحليليًا بل ارتجاليًا. هواجس روسو واحدة من أولى صور هذه العلاقة بين التفكير والمشي. يمشي روسو وحده، والنباتات التي يجمعها والغرباء الذين يصادفهم هم الكائنات الوحيدة التي يذكرها برقة. في النزهة التاسعة، يتذكر مشيه القديم، تبدو ذكرياته هذه شرائح تنزلق الواحدة منها ببطء من الأخرى، كقطع تلسكوب تركّز في ماضيه البعيد. يبدأ بنزهة قام بها قبل يومين إلى المدرسة العسكرية، ثم ينتقل إلى تجواله خارج باريس قبل عامين، ثم إلى تسكعه في الحديقة مع زوجته قبل أربع أو خمس سنوات، وأخيرًا يروي حادثة قديمة جدًا، حتى أنها سابقة لهذه الأخيرة بسنوات عديدة، حين اشترى من فتاة فقيرة كل التفاح الذي كانت تبيعه ووزعه على قنافذ جائعة تتوارى في الجوار. ما جلب عليه هذه الذكريات كلها قراءته نعيًا لإحدى معارفه الذي ورد فيه حبها للأطفال، أثار ذلك شعور روسو بالذنب نحو أطفاله المهجورين (بالرغم من أن الباحثين المعاصرين يشككون أحيانًا في أنه أنجب أطفالًا فعلًا، لكن اعترافاته تقول إن لديه

خمسة أطفال من تيريز -ارتبط بها بزواج بموجب القانون العام(3)- ووضعهم جميعًا في دور الأيتام). تحاجج هذه الذكريات ضد تهمة لم يوجهها أحد إليه سواه، وهي تفعل ذلك بإعلان حبه للأطفال كما ظهر في هذه اللقاءات العرضية. كانت المقالة دفاعًا اجتراريًا لمحاكمة متخيلة. تنقل الخاتمة الموضوع إلى المحن التي جلبتها عليه شهرته وعجزه عن المشي في سلام بين الناس من دون أن يتعرف إليه أحد. لقد أعيق حتى في أكثر التبادلات الاجتماعية سطحيةً، وحدها أرض أحلام اليقظة التي تركت له حرية التجوال. كتب معظم الكتاب أثناء إقامته في باريس معزولًا بفعل شهرته وشكوكه.

إذا كان أدب المشي الفلسفي قد بدأ مع روسو، فذلك لأنه من أول مَن اعتقدوا أن من الجدير تسجيل الظروف المحيطة بتأملاته بالتفصيل. إن كان راديكاليًا، فإن أكثر أفعاله راديكالية كان إعادة تقييم الشخصي والخاص، اللذين من أجلهما اعتبر المشي والعزلة والبرية شروطًا ملائمة. إذا كان ملهِمًا للثورات، الثورات في الخيال والثقافة وكذلك في التنظيمات السياسية، فإنها كانت ضرورية بالنسبة إليه فقط للإطاحة بأي عوائق تحول دون تجربة بهذا الشكل. إن القوة الكاملة لثقافته ومحاججاته الآسرة كانت في سبيل استعادة وإدامة مثل هذه الحالات في الذهن والحياة كما يصف الأمر بنفسه في «هواجس المتنزه المنفرد بنفسه». في نزهتين، يستعيد فترات متقطعة من السلام الريفي الأعز لديه. في النزهة الخامسة الشهيرة، يصف السعادة التي وجدها في جزيرة سان بيير على بحيرة بيين، بعد أن فرَّ إثر رجمه وطرده من «موتييه» بالقرب من نوشاتيل، حيث زاره بوزويل. «علام كانت تقوم

هذه السعادة إذن؟» يسأل بلاغيًا، ويواصل وصف الحياة التي يمتلك فيها قليلًا ولم يفعل فيها سوى قليل، باستثناء دراسة النبات والقارب. إنها المملكة الروسوية المسالمة التي تتمتع بامتيازات كافية بحيث لا تتطلب أي عمل يدوي، ولكنها خالية من التكلف والحياة الاجتماعية لملاذ أرستقراطي.

النزهة العاشرة أنشودة للسعادة الريفية المماثلة التي كان ينعم بها مع راعيته وعشيقته لويز دو فاران عندما كان مراهقًا. لقد كتبها بعد أن وجد بديلًا لسانت بيير في ملكية إرمينونفيل أخيرًا. مات في الخامسة والسبعين، تاركًا النزهة العاشرة قبل أن تكتمل. قام الماركيز دي جيراردين، مالك إرمينونفيل، بدفن روسو في جزيرة من أشجار الحور هناك وأقام رحلة حج لمحبيه المخلصين العاطفيين الذين جاؤوا لزيارته تقديرًا لذكراه. تضمنت الرحلة خط سير يعلّم الزائر ليس كيفية المشي عبر الحديقة في اتجاه القبر وحسب، بل وكيف يشعر أيضًا. تحولت ثورة روسو الخاصة إلى ثقافة عامة.

٣. المشي والتفكير والمشي

سورين كيركيغارد فيلسوف آخر لديه كثير ليقوله عن المشي والتفكير. اختار مدنًا -أو مدينة واحدة، كوبنهاغن- كمكان للمشي ودراسة مواضيعه البشرية، ولو أنه قارن تجوالاته الحضرية هذه برحلات اكتشاف نباتات الريف: كان البشر هم العينات التي جمعها. وُلد بعد مئة عام من روسو في مدينة بروتستانتية أخرى، وكان يعيش بطريقة تختلف تمامًا عن حياة روسو: معايير التقشف القاسية التي وضعها لنفسه لا تشبه تدليل روسو لنفسه في شيء. حافظ على انتمائه إلى مسقط

رأسه، وعائلته، ودينه طوال حياته، مع أنه تشاجر معهم جميعًا. من نواحٍ أخرى -في عزلته الاجتماعية، وكتاباته الغزيرة للأعمال الأدبية والفلسفية، ووعيه الغاضب بذاته- فإن التشابه بينهما قوي. عاش كيركيغارد، وهو ابن تاجر ثري ورع، على ميراثه وطوع بنان والده معظم حياته.

في ذكرى ينسبها إلى أحد أسمائه المستعارة ولكن من شبه المؤكد أنها تخصه، يخبرنا كيف أن والده، بدلًا من أن يتركه يغادر المنزل طفلًا كان يذرع حجرته معه ذهابًا وإيابًا، ويصف له العالم بحيوية ووضوح كبيرين، حتى بدا أن الصبي رأى بعينيه كل ذلك التنوع الذي وصفه والده. عندما كبر الصبي سمح له والده بأن ينضم إليه ويصف معه: «ما كان في البداية ملحمة أصبح الآن دراما. أصبحا يتحاوران. إذا كانا يمشيان طرقًا معروفةً جيدًا لهما، فإنهما يراقبان بعضهما بحدة للتأكد من أنهما لم يفوّتا شيئًا، إذا كانت الطريق غريبة على يوهانس(4) فقد كان يخترع شيئًا ما، في حين أن خيال الأب الجامح كان قادرًا على تشكيل كل شيء، واستخدام كل شغف طفولي كعنصر من عناصر الدراما، بالنسبة إلى يوهانس، بدا كما لو أن العالم يظهر إلى الوجود أثناء حواره مع أبيه، كما لو كان الأب هو الرب وأنه المفضل عنده.

المثلث بين كيركيغارد وأبيه وربّه سوف يلتهم حياته(5)، ويبدو أحيانًا كما لو أنه صنع إلهه على صورة أبيه. بهذه النزهات داخل الغرفة، يظهر أن والده كان يعمل واعيًا على تشكيل الشخصية الغريبة التي سيكونها كيركيغارد. وصف نفسه كرجل عجوز فعلًا في الطفولة، كشبح، كجوّال، ويبدو أن تلك الخطى ذهابًا وإيابًا كانت بمثابة

تعليمات للعيش في عالم لا متجسد سحري من صنع الخيال يعيش فيه ساكن حقيقي واحد فقط، هو نفسه. حتى تلك الأسماء المستعارة الكثيرة التي نشر تحتها عديدًا من أشهر أعماله، ليست إلا وسائل ليفقد نفسه وهو يكشف عن نفسه، ويصنع من وحدته حشدًا. طوال حياته راشدًا، لم يستقبل كيركيغارد ضيوفًا في المنزل أبدًا، وفي الواقع لم يكن لديه طوال حياته شخصًا يمكنه أن يسميه صديقًا، بالرغم من معارفه الكثيرين. تقول إحدى بنات أخته إن شوارع كوبنهاغن كانت «غرفة الاستقبال» بالنسبة إليه، وكانت متعة كيركيغارد اليومية الكبيرة أن يجوب شوارع مدينته. كانت وسيلة الوجود بين الناس لإنسان لا يمكنه أن يكون مع الناس، وطريقة ينعم بها بالدفء الإنساني الخافت للقاءات القصيرة، وسلامات المعارف، ومحادثات الآخرين المسموعة. السائر وحده حاضر ومنعزل عن العالم من حوله، إنه أكثر من متفرج ولكنه أقل من مشارك. المشي يخفّف أو يشرعن هذا الاغتراب: ينفصل المرء باعتدال لأن المرء يمشي، وليس لأن المرء عاجز عن التواصل. مثل روسو، أمدّ المشي كيركيغارد بفيض من اللقاءات العابرة بالبشر، وسهّل في الوقت نفسه الإمعان في التفكير.

في ١٨٣٧، تمامًا عندما كان عمله الأدبي في بدايته، كتب كيركيغارد: «الغريب أن مخيلتي في أفضل حالاتها حين أكون جالسًا بمفردي في تجمع كبير، حين يستلزم الضجيج واللغط أن يكون للمخيلة ركيزة من الإرادة إن شاءت التمسك بغايتها، من دون هذا المحيط تنزف حتى الموت وأنت في عناق منهك مع فكرة غامضة». وقد وجد الصخب الذي يبحث عنه نفسه في الشارع. بعد أكثر من عقد من الزمان، أعلن في يوميات أخرى: «كي أتحمل

توترًا ذهنيًا مثل توتري، أحتاج إلى تشتُت، تشتتات لقاءات الصدف في الشوارع والأزقة، لأن التواصل مع قلة من الأفراد حصرًا ليس تشتتًا في حقيقته». في هذه الأقوال وغيرها يقترح أن الذهن يعمل على نحو أفضل عندما يكون محاطًا بالإلهاء، وأنه يركز في فعل الانسحاب من الصخب المحيط بدلًا من الانعزال عنه. كان يبتهج بالتنوع المضطرب لحياة المدينة، قائلًا في موضع آخر من يومياته: «في هذه اللحظة بالذات هناك آلة أرغن يدوي في الشارع تعزف وتغني - رائعة؛ تلك الأشياء العرضية والتافهة في الحياة هي المهمة».

في يومياته، يصر على أنه ألَف أعماله جميعها على قدميه. «كُتب معظم «إما/أو» مرتين فقط (طبعًا إضافة إلى ما فكرت فيه أثناء المشي، ولكن هذا هو الحال دائمًا)، في الوقت الحاضر، أحب أن أكتب ثلاث مرات»، يقول أحد المقاطع -هناك كثير مثل هذا المقطع- معترضًا على الزعم بأن تمشياته الطويلة ليست إلا دلالة على البطالة، فقط كانت، في واقع الأمر، أساس عمله الغزير. ذكريات الآخرين عنه تظهره في لقاءات وهو يتمشى، ولكن لا بدَ من وجود فترات انقطاع طويلة وعزلة يمكنه خلالها ترتيب أفكاره ومراجعة كتاباته اليومية. ربما كانت تسكعات المدينة تلهيه ليقدر على نسيان نفسه بما يكفي لتفكير أكثر جدوى، فأفكاره الخاصة غالبًا ما تكون تشابكات ملتفَة من الوعي بالذات واليأس. في مقطع من يومياته عام ١٨٤٨، وصف كيف شعر وهو في طريقه إلى البيت: «مثقل بالأفكار الجاهزة للتدوين، منهك وفي حالة من الوهن، بالكاد استطعت المشي». غالبًا ما كان يقابل رجلًا فقيرًا، وإن رفض التحدث إليه فإن الأفكار تهرب: «وأغرق في أفظع معاناة روحية من فكرة أن الله يمكن

أن يفعل بي ما فعلته بهذا الرجل. وأنني لو أخذت الوقت الكافي للتحدث مع الرجل الفقير، لما سارت الأمور هكذا». لقد منحه الظهور في الأماكن العامة دوره الاجتماعي الوحيد تقريبًا، وكان متخوفًا بشأن تفسير الآخرين لأدائه على خشبة كوبنهاغن. بطريقة ما، كانت ظهوراته في الشارع تشبه ظهوراته على الصفحة المطبوعة: يحاول أن يكون متواصلًا، ليس بقرب كبير، وبشروطه الخاصة. مثل روسو، كان لديه علاقة صارمة مع العامة. اختار أن ينشر عديدًا من أعماله بأسماء مستعارة ثم أن يشكو من اعتباره كسولًا متعطلًا، فلم يكن أحد يدري أنه عاد إلى المنزل بعد تسكعه ليكتب. بعد فسخه خطوبته بريجين أولسن، ما سيصبح المأساة المعرّفة لحياته، واصل رؤيتها في الشارع ولكن ليس في أي مكان آخر. بعد سنوات، ظهر كلاهما أكثر من مرة في نفس الشارع بجانب الميناء، كان قلقًا بشأن ما يعنيه ذلك. كان الشارع، وهو أكثر مكان عابر لمن لديه حياة خاصة، المكان الأكثر خصوصية بالنسبة إليه.

جاءت الأزمة الكبرى الأخرى في حياته الخالية من الأحداث عندما كتب هجومًا صغيرًا ضد مجلة «قرصان» (كورسير) الدنماركية الساخرة. رغم إعجاب محررها به، بدأت المجلة في نشر صور وفقرات تهزأ به، واستقبله أهل كوبنهاغن بالسخرية. كانت معظم النكات خفيفة إلى حد ما - رسموه يلبس بنطالًا برجلين مختلفتي الطول، وسخروا من أسمائه المستعارة المعقدة وأسلوبه التركيبي، ونشروا صورًا له كشخص نحيل يرتدي معطف الفراك الذي يشبه تنورة تصل إلى ساقيه الرفيعتين كأنهما شوكتان. غير أن هذه المحاكاة الساخرة جعلته معروفًا بشكل أكثر مما كان يرغب في أن يكون، كان قلقًا حد الألم من أن يهزأ به أحد أو من

رؤية الاستهزاء به في كل مكان. يظهر أن كيركيغارد بالغ في تأثير كلمات مجلة «قرصان» وعانى بشكل مريع، لأسباب ليس أقلها أنه لم يعد يشعر بحرية التجوال في المدينة: «لقد تخرَب محيطي. بسبب كآبتي وعملي الهائل، كنت في أمس الحاجة إلى حالة من العزلة في زحمة الناس لأرتاح. يئست. لم يعد في إمكاني العثور عليها. الفضول يحيط بي في كل مكان». يذكر أحد كتاب سيرته أن هذه الأزمة الأخيرة في حياته، بعد أزمة والده وخطيبته، هي التي دفعته إلى مرحلته الأخيرة ككاتب لاهوتي بدلًا من أن يكون كاتبًا فلسفيًا وجماليًا. مع هذا، استمر في المشي في شوارع كوبنهاغن، وفي إحدى تلك النزهات انهار ونُقل إلى المستشفى ومات بعدها ببضعة أسابيع.

كيركيغارد هجين، مثل روسو، كاتب فلسفي وليس فيلسوفًا خالصًا. عملهما في الغالب وصفي، يستدعي الذكريات، وشخصي، غامض بشكل شعري، وهو ما يتناقض بحدة مع الحجج العقلانية الدقيقة والتي تعتبر مركزية في التقليد الفلسفي الغربي. تترك كتاباتهما مساحة للبهجة ولظهور الشخصية وشيئًا محددًا مثل صوت صندوق أرغن يدوي في الشارع أو أرانب في جزيرة. اتجه روسو إلى الرواية والسيرة الذاتية والأدب، وكان اللعب بالأشكال محوريًا في عمل كيركيغارد: من ذلك كتابة تذييل ضخم لمقال قصير نسبيًا، صناعة طبقات من الأسماء المستعارة في نصوصه مثل الغلب الصينية. ورثته ككاتب، هم التجريبيون في الأدب، أمثال إيتالو كالفينو وخورخي لويس بورخيس، اللذين يلعبان بطريقةٍ يصوغ بها الشكل والصوت والمرجع والأدوات الأخرى المعنى.

يمكننا مطالعة مشي روسو وكيركيغارد لأنهما كتبا عنه فقط، كتبا في أعمال محددة ذات طابع شخصي ووصفي أكثر من أي شيء آخر -«اعترافات» روسو و«هواجسه»، و«يوميات» كيركيغارد- بدلًا من البقاء في المجال اللاشخصي والكليّ للفلسفة في أوضح صورها. ربما يتناسب المشي مع هذا الشكل من الكتابة لأنه في حد ذاته طريقة يجذر بها المرء أفكاره في تجربة شخصية ومتجسّدة للعالم. ولهذا غالبًا ما يناقش معنى المشي في مجالات أخرى غير الفلسفة: في الشعر، والروايات، والرسائل، واليوميات، وروايات المسافرين، والمقالات الشخصية. كذلك، يركز غريبا الأطوار هذان في المشي كوسيلة لدوزنة اغترابهما، وكان هذا النوع من الاغتراب ظاهرة جديدة في التاريخ الفكري. لم يكونا منغمسين في المجتمع من حولهما -عدا السنوات الأخيرة لكيركيغارد التي تلت قضية مجلة «قرصان»- ولا منسحبين منه بطريقة دينية تأملية. كانا في العالم ولكنهما ليسا منه. المشاء المنفرد بنفسه مهما كان طريقه أو طريقها قصيرًا، فهو لا يَقرّ بين الأماكن، ينجذب إلى الفعل بدافع الرغبة والافتقار إلى الرغبة، بانفصال المسافر بدلًا من ارتباط العامل، المقيم، العضو في مجموعة.

٤. الموضوع المفقود

في أوائل القرن العشرين، تناول أحد الفلاسفة المشي بشكل مباشر باعتباره شيئًا جوهريًا لمشروعه الفكري. بالطبع كان المشي قد استخدم كمثال قبل ذلك. أحب كيركيغارد الاستشهاد بديوجانيس: «عندما رفضت المدرسة الأيلية الحركة(6)، تقدم ديوجانيس، كما يعلم الجميع، كمعارض لهم. لقد تقدم حرفيًا، من حيث أنه لم

ينطق بل مشى عدة مرات جيئة وذهابًا، مفترضًا أنه بفعل ذلك يكون قد دحض فكرة الأيلية بشكل مقنع» . في مقالته «عالم الحاضر المعيش وتكوين العالم الخارجي المحيط بالكائن الحي» التي نشرها عام ١٩٣١، وصف الفينمنولوجي إدموند هوسرل المشي على أنه التجربة التي نفهم بها جسدنا من حيث علاقته بالعالم. قال إن الجسد هو تجربتنا لما هو موجود هنا دائمًا، والجسد أثناء الحركة يختبر وحدة جميع أعضائه باعتباره المستمر «هنا» الذي يتحرك نحو وعبر «هناك» مختلفة. بمعنى أن الجسد هو الذي يتحرك ولكن العالم يتغير، وهذا ما يميز أحدهما عن الآخر: فالسفر يمكنه أن يكون وسيلة لتجربة استمرارية الذات هذه وسط تدفق العالم وبالتالي البدء في فهم كل منهما وعلاقتها ببعضهما. يختلف طرح هوسرل عن التكهنات السابقة المتعلقة بكيفية تجربة الشخص للعالم عبر تركيزه في فعل المشي بدلًا من تركيزه في الحواس والذهن.

ومع ذلك، فإن هذه مكاسب هزيلة. قد يتوقع المرء أن يكون لدى نظرية ما بعد الحداثة ما تقوله عن المشي، بالنظر إلى أن الحركة والوجود الجسدي كانا من بين موضوعاتها الرئيسية - وعندما يصبح الوجود الجسدي حرَ الحركة فإنه يمشي(7). كثير من النظرية المعاصرة ولد من احتجاج النسوية على الطريقة التي جعلت بها النظرية السابقة من تجربة الذكر المحددة جدًا تجربة كليَة، مثلما فعلت أحيانًا مع تجربة البيض ذوي الامتيازات. تؤكد كل من النسوية وما بعد الحداثة على أن خصوصيات التجربة الجسدية للفرد ومكانها يشكلان منظوره العقلاني. دفنت تلك الفكرة القديمة عن الموضوعية من أنها التحدث من «لا مكان» -التحدث مع تجاوز

خصوصيات الجسد والمكان- كل شيء جاء من موقفٍ ما، وكل موقفٍ كان سياسيًا (في وقت سابق بكثير، أبدى جورج أورويل رأيه: «الرأي القائل بأن على الفن ألا يكون سياسيًا رأي سياسي في حد ذاته»). ولكن أثناء تفكيك هذه الكلّية الزائفة عبر التأكيد على دور الجسد الإثني والجنساني في الوعي، عمَم هؤلاء المفكرون، على ما يبدو، ما يعنيه أن يكون لك وجود جسدي وإنساني من خلال تجربتهم الخاصة -أو غياب تجربتهم- كأجسام يظهر أنها قادت وجودًا سلبيًا إلى حد كبير في ظروف معزولة بشدة.

إن الجسد الموصوف مرارًا وتكرارًا في نظرية ما بعد الحداثة لا يعاني تحت العناصر، ولا يواجه سلالات أخرى، أو يختبر خوفًا بدائيًا، أو يعاني في طريقه إلى النشوة، أو يجهد عضلاته إلى الحدود القصوى. بالمختصر، إنه جسد لا ينخرط في مجهود بدني أو في قضاء وقتٍ في الفضاء الطلق. يبدو أن مصطلح «الجسد» الذي يستخدمه ما بعد الحداثيين غالبًا ما يتحدث عن كائن سلبي، ويظهر هذا الجسد، معظم الوقت، على طاولة الفحص أو في السرير. إنه ظاهرة طبية وجنسية، فهو موقع للأحاسيس والعمليات والرغبات أكثر من كونه مصدرًا للفعل والإنتاج. بعد أن تحرر من العمل اليدوي وتموقع في غرف الحرمان الحسي للشقق والمكاتب، لم يبقَ لهذا الجسد سوى الإيروتيكية كبقايا لما يعنيه أن يتجسد. هذا لا يعني الاستهانة بالجنس والإيروتيكية كفعلين رائعين وعميقين (وذوي صلة بتاريخ المشي كما سنرى)، فقط لطرح أنه جرى التأكيد عليهما لأن الجوانب الأخرى في الكينونة الجسدية ضمرت بالنسبة إلى عديد من الناس. هذا الجسد الذي تقدمه إلينا مئات من المجلدات

والمقالات، هذا الجسد السلبي الذي يعتبر النشاط الجنسي والوظائف البيولوجية هي العلامات الوحيدة للحياة فيه، في الواقع ليس الجسد البشري الكلّي بل الجسد الحضري ذي الياقات البيضاء، أو إنه الجسد النظري بالأحرى ذلك الذي لا يمكن أن يكون ملكًا لأحد. وبما إن أبسط مجهود بدني لا يظهر أبدًا: فإن هذا الجسد الموصوف في النظرية لا يشعر بأي ألم حتى من حمل الأعمال الكاملة الضخمة لكيركيغارد عبر الحرم الجامعي. «إذا كان الجسد مجازًا لتموضعنا في المكان والزمان وبالتالي لمحدودية الإدراك والمعرفة البشرية، فإن جسد ما بعد الحداثة ليس جسدًا على الإطلاق»، كتبت سوزان بوردو، إحدى المنظَرات النسويات التي تعارض هذه النسخة من التمثيل الجسدي.

السفر، الموضوع الكبير الآخر في جديد نظرية ما بعد الحداثة، يتعلَق بالوجود في حركة مستمرة، وقد فشلت كل من النظرية والواقع في أن يعدَل أي منهما الآخر، ويبدو أننا نقرأ عن جسد ما بعد الحداثة الذي يُنقَل بالطائرات والسيارات المندفعة، أو حتى يتحرك من دون أي وسيلة واضحة، سواء أكانت عضلية أو ميكانيكية أو اقتصادية أو بيئية. الجسد ليس أكثر من طردٍ في طريقه، قطعة شطرنج سقطت على مربع آخر، لا يتحرك بل يُحرّك. بمعنى ما، هذه مشاكل ظهرت من مستوى التجريد في النظرية المعاصرة. كثير من المصطلحات الخاصة بالمواقع والتنقل -كلمات مثل: الرُحّل، اللامركزية، المهمش، الانتزاع Deterritorialization، الحدود، المهاجر، والمنفى- ليست مرتبطة بأماكن وأشخاص محددين، بل تمثّل عوض ذلك أفكارًا عن انعدام الجذور والتدفق المستمر وهو نتيجة لنظرية لا أساس لها

مثل موضوعها المفترض. حتى في هذه المساعي إلى التصالح مع العالم المادي للأجساد والحركة، ينزع التجريد عنها ماديتها مرة أخرى. الكلمات نفسها تبدو كأنها تتحرك بحرية وإبداع، غير مثقلة بمسؤوليات وصف محدد.

فقط في الكتابات التي تخالف المتفق عليه يصبح الجسد فاعلًا. في كتاب إيلين سكاري الرائع «الجسد متألمًا: تفكيك العالم وصنعه»، تدرس أولًا كيف يدمِّر التعذيب العالم الواعي لموضوعاته، ثم تصور كيف أن الجهود الإبداعية -مثل صناعة القصص والأشياء- تعيد بناء ذلك العالم. تصف الأدوات والأشياء المصنعة على أنها امتدادات للجسد في العالم وبالتالي فإنها طرق لمعرفته. توثق سكاري كيف تنفصل الأدوات أكثر فأكثر عن الجسم نفسه، حتى تصبح عصا الحفارة التي تطيل الذراع آلةَ حفر تحلُّ محل الجسم. رغم أنها لم تناقش المشي في كتابها بشكل مباشر إطلاقًا، إلا أن عملها يقترح مقاربات فلسفية للموضوع. يعيد المشي الجسد إلى حدوده الأصلية مرة أخرى، إلى شيء مرن وحساس وهش، لكن المشي نفسه يمتد إلى العالم كما تفعل تلك الأدوات التي تكثّر الجسم. الممر هو امتداد للمشي، والأماكن المخصصة للمشي هي أنصبة لهذا السعي، والمشي هو طريقة لصناعة العالم مثلما هو طريقة للوجود فيه. وهكذا يمكن تقصي أثر الجسد السائر في الأماكن التي صنعها: ممرات وحدائق وأرصفة، كلها آثار تصرفات حرّضها الخيال والرغبة. عصي للمشي، أحذية، خرائط، مطرات، حقائب ظهر، كل هذه نتائج مادية أخرى لتلك الرغبة. يشترك المشي في صناعة وتشغيل هذا العنصر الحاسم من انخراط الجسد والعقل مع العالم، ومعرفة العالم عبر الجسد والجسد عبر العالم.

الفصل الثالث
نهوض وسقوط
منظِّرو المشي على قدمين

كان مكانًا فارغًا مثل ورقة بيضاء. كان المكان الذي بحثت عنه دائمًا. من نوافذ القطارات والسيارات، في مخيلتي، في جولاتي عبر أكثر المناطق وعورة، تدعوني المساحات المسطحة، واعدة إياي بالمشي كما كنت أتخيله. والآن وصلت إلى مسطح خالٍ، كان قاعًا لبحيرة جفت، حيث يمكنني المشي بلا انقطاع وبحرية مطلقة. في الصحراء هناك عديد من قيعان البحيرات أو الأحواض الجافة، منها ما جَرّف منذ فترة طويلة ومنها ما يتشكل كل عام، وصارت سطحًا مستويًا وجذابًا يبدو مثل ساحة رقص عندما ينشف. في هذه البقاع تكشف الصحراء معظم نفسها: قاسية، مفتوحة، حرة، مغوية للتطواف، مختبرًا للإدراك، مقياسًا، ضوءًا، مكانًا للوحدة فيه مذاق فخم كما في البلوز. هذا المكان، بالقرب من حديقة شجرة جوشوا الوطنية، في صحراء موهافي جنوب شرق كاليفورنيا، كان أحيانًا قاع بحيرة، لكنه معظم الوقت سهلًا نقيًا من تراب متشقق لم ينمُ فيه شيء قط. بالنسبة إلى هذه المساحات الكبيرة فإنها تعني الحرية، وحرية النشاط اللاواعي للجسد والنشاط الواعي للذهن، الأماكن التي يخفق فيها المشي بإيقاع ثابت كأنه نبض الوقت نفسه. يفضّل بات، رفيقي في هذه النزهة على قاع البحيرة، تسلق الصخور، فكل حركة تعني عملًا منفردًا يستحوذ على انتباهه وقلّما ترقى إلى أن تصير إيقاعًا. إنه اختلاف في الأسلوب يتغلغل بعمق في حياتينا: فهو بوذي

بشكل ما ويتصور أن الروحانية هي أن تكون واعيًا للَحظة التي أنت فيها، بينما أنا مهووسة بالرمزية، والتأويلات، والتواريخ، والنوع الغربي من الروحانية الذي يتموضع في مكان أقل في الهُنا وأكثر في الهُناك. غير أننا نتفق على أن نكون في البرية كطريقة مثالية للوجود.

المشي، كما أدركت منذ زمن طويل في صحراء أخرى، هو الكيفية التي يقيس بها الجسم نفسه أمام الأرض. على قاع البحيرة هذا، كل خطوة أخذناها قرّبتنا من إحدى سلاسل الجبال التي بدت تحت تأثير الضوء آخر العصر مائلة للزرقة، وأحاطت أفقنا مثل مدرجات ترتفع فوق الإستاد. تصوروا قاع البحيرة كأنه مستوى هندسي مسطح تقيسه خطواتنا مثل ساقي فرجار تتأرجح إلى الأمام والخلف. سجّلت القياسات أن الأرض كانت كبيرة ونحن لم نكن، نفس الأخبار الجيدة والمرعبة التي تأتي بها معظم تمشيات الصحراء. في عصر هذا اليوم، حتى الشقوق في الأرض تلقي بظلال حادة طويلة، ومن سيارة بات الفان امتد ظل يشبه ناطحة سحاب. تحركت ظلالنا بجانبنا على يميننا، تنمو أطول وأطول، أطول مما رأيتها في أي وقت مضى. سألته كم طولها في ظنه، فطلب أن أقف مكتوفة الأيدي وسوف يقيسها بخطوات قدميه. واجهت الشرق في ظلي، نحو الجبال الأقرب التي امتدت نحوها كل الظلال، وبدأ يمشي. وقفت وحدي، ظلّي مثل طريق سفر طويل قطعه بات. تراءى لي في هذا الهواء الشفاف، كما لو أنه لا يطول إلا ليقصر. عندما استعملت إبهامي وسبابتي كإطار له وقربتهما كان ظلّه يمتدَ إلى الجبال. وما إن وصل بات عند ظل رأسي حتى انزلقت الشمس فجأة تحت الأفق. مع ذلك تغير العالم: فقد السهل

طلاءه الذهبي، وأصبحت الجبال بلون أزرق أغمق، وتغبّشت ظلالنا الحادة أكثر. ناديته ليتوقف عند الظل الضبابي لرأسي، وعندما قطعت المسافة تجاهه، أخبرني بأنه عدَ مئة خطوة - ٢٥٠ أو ٣٠٠ قدم- لكن تمييز ما كان يشكّل ظلي أصبح أصعب وأصعب بينما كان يبتعد. عدنا إلى الفان مع اقتراب الليل، انتهت التجربة. لكن أين بدأت؟

اعتقد روسو أن في الإمكان العثور على الطبيعة الحقيقية للإنسانية في أصولها، وأن فهم هذه الأصول يعني أن نفهم من نحن ومن يجب أن نكون. موضوع الأصول البشرية في حد ذاته تطوّر بشكل كبير منذ أن جمع بعض الأوصاف الغامضة للعادات غير الأوروبية، مع بعض التكهنات التي لا أساس لها عن «الهمجي النبيل» Noble Savage. لكن السجال القائل إن مناقشة من كنا في الأصل -سواء كان الأصل من عام ١٩٤٠ أو قبل ثلاثة ملايين عام- هي مناقشة من نحن أو من ينبغي أن نكون، ازداد قوة مع مرور الوقت. لطالما فكرت كتب شعبية إلى جانب مقالات علمية في ما إذا كنا نوعًا متعطشًا إلى الدماء أو عنيفًا أو نوعًا جماعاتيًا communitarian وأي اختلافات جندرية شُفّرت في جيناتنا. غالبًا يكون الاثنان (الكتب الشعبية والمقالات العلمية) مجرد قصص -حول من نكون، أو يمكن، أو ينبغي- تُروى من قبل الجميع: من المحافظين الذين يدافعون عن الاكتفاء بالتقاليد، إلى الباحثين عن الصحة دعاة العودة إلى تناول النظام الغذائي البدائي المكتشف للتو. هذا، بالطبع، يجعل موضوع «من كنا» موضوعًا سياسيًا في الصميم. كان العلماء الذين يبحثون عن أصول الإنسان في خلاف حول هذه الأسئلة المتعلقة بالطبيعة البشرية، وفي السنوات الأخيرة أصبح

المشي جزءًا أساسيًا من حواراتهم.

لم يكن لدى الفلاسفة الكثير حول معنى المشي، بخلاف علماء الاونة الأخيرة الذين لديهم كثير جدًا. بدأ علماء الإحاثة والأنثروبولوجيون وعلماء التشريح جدالًا محمومًا وكثيرًا ما كان متحزبًا حول متى ولماذا نهض القرد السلف على رجليه الخلفيتين ومشى طويلًا حتى أصبح جسده جسدنا المنتصب الذي يخطو على رجلين. كانوا فلاسفة المشي الذين أبحث عنهم، يتكهنون بلا آخر حول ما يقوله كل شكل من أشكال الجسم عن وظيفته، ثم كيف أن تلك الأشكال والوظائف تُضاف إلى إنسانيتنا في النهاية، رغم أن ما تتكون منه هذه الإنسانية قابل للنقاش بالقدر نفسه. المعطى الوحيد أن المشي باستقامة هو الدمغة الأولى لما صار الإنسانية. أيًا كان السبب الذي أدى إلى المشي على قدمين، فقد كان المشي بدوره سببًا إلى ما هو أكثر بكثير: فتح آفاقًا جديدة واسعة من الاحتمالات، وخلق من بين أمور أخرى زوجًا احتياطيًا من الأطراف المتدلية من الجسم المنتصب، زوجًا يبحث عن شيء يمسك به أو يصنعه أو يدمره، الذراعان تحررتا وتطورتا إلى أن أصبحتا أكثر أدوات المعالجة تعقيدًا في العالم المادي. يرى بعض العلماء أن المشي على قدمين هو الآلية التي جعلت أدمغتنا تتوسع، والبعض الآخر يرى أنه البنية التي أسست جنسانيتنا. لذلك، رغم أن الجدل حول أصول المشي على قدمين مليء بالأوصاف التفصيلية لمفاصل الورك وعظام القدم وطرق التأريخ الجيولوجي، فإنه في النهاية يتعلق بالجنس والتضاريس المحيطة والتفكير.

يُصوَّر تفرد البشر عادة باعتباره مسألة وعي. مع

هذا، فجسد الإنسان لا يشبه أي شيء آخر على الأرض، وبشكل ما فقد شكّل هذا الجسد الوعي. مملكة الحيوان ليس فيها مثل هذا العمود من اللحم والعظم الذي يُخشى عليه دائمًا من السقوط، هذا البرج الفخور ليس ثابتًا. الأنواع القليلة الأخرى ذات القدمين -الطيور والكنغر- لها ذيول وخصائص أخرى تحقق لها التوازن، كما أن معظم هذه الحيوانات ذات القدمين تقفز بدلًا من أن تمشي. إن الخطوة الواسعة المتناوبة التي تسير بنا فريدة من نوعها، ربما لأنها ترتيب متزعزع. الحيوانات ذوات الأربع مستقرة مثل الطاولة عندما تكون أرجلها الأربع كلها على الأرض، لكن البشر يتوازنون بحذر على أقدامهم قبل بدئهم التحرك. حتى الوقوف بثبات يتطلب توازنًا فذًا، كما يعلم أي شخص شاهد ثملًا أو كان ثملًا هو نفسه.

بقراءة قصص عن المشي البشري، من السهل أن ينقاد تفكيري إلى السقوط، بمعنى السقطات والعثرات التي لا حصر لها، تلك المحتمل حدوثها بشكل فجائي لمخلوق قائم عليه أن يوازن كل ثقله الذي ينزاح من قدم واحدة إلى أخرى وهو يتحرك. جون نابير في مقاله عن الأصول القديمة للمشي كتب: «المشي البشري نشاط فريد يتمايل خلاله الجسم، خطوة خطوة، على حافة الكارثة. مشي الإنسان على قدمين قد يبدو كارثيًا لأن الحركة الإيقاعية لتقدم الساق الأولى ثم الأخرى وحدها ما تمنعه من السقوط على وجهه». من الأسهل ملاحظة هذا عند الأطفال، في مرحلة مبكرة، في حين أن الجوانب العديدة التي ستتحد بسلاسة لاحقًا في فعل المشي ما تزال متفرقة ومرتبكة. يتعلمون المشي بملاعبة السقوط - يميلون إلى الأمام بأجسامهم ثم يسرعون إلى إبقاء أرجلهم

تحت تلك الأجسام. تبدو أرجلهم الممتلئة المتقوسة وكأنها تتأخر أو تحاول اللحاق، وغالبًا ما تُحبط أكثر من مرة قبل أن تتقن الفن. يبدأ الأطفال في المشي لمطاردة الرغبات التي لن يشبعها أحد لهم: الرغبة في ما لا تطاله أيديهم، في الحرية، في الاستقلال عن الحدود الآمنة للجنة الأمومية. إذن فالمشي يبدأ كسقوط مؤجل، ويلتقي السقوط مع السقوط من الجنة.

ربما كان سفر التكوين في غير محلّه عند مناقشة العلم، لكن غالبًا ما يكون العلماء هم من ساقوه إلى هذا، عن غير قصد أو بقصد. فمثلها مثل أي أسطورة خلق، تحاول القصص العلمية تفسير هويتنا، ويبدو أن بعضها يعود إلى أسطورة الخلق المركزية للثقافة الغربية، تلك الأعمال التي قام بها آدم وحواء في الفردوس. كان عديد من الفرضيات تخمينية إلى درجة مبالغ فيها، ويبدو أنها لم تستند إلى الأدلة بقدر ما استندت إلى الرغبات الحديثة أو الأعراف الاجتماعية القديمة، لا سيما فيما يتعلق بأدوار الجنسين. خلال الستينيات من القرن الماضي، حظيت سردية «الرجل الصياد» باستقبال واسع واشتهرت من خلال كتب مثل: «سفر التكوين الإفريقي» لروبرت أردري، بعبارة افتتاحية مشهورة: «ليس بالبراءة، وليس في آسيا، ولد الإنسان». اقترحت هذه السردية أن العنف والعدوان جزءان لا يمكن التخلص منهما في طبيعة الإنسان، ولكنها بررت ذلك باقتراح أن السمتان كانتا وسيلة تطورنا (أو تطور الذكور، إذ تميل معظم النظريات السائدة إلى أن الإناث لم يفعلن شيئًا سوى تمرير جينات شركائهن المتطورين). السيناريوهات الأقدم التي تتحدى مروية الرجل الصياد، كما كتبت الأنثروبولوجية النسوية أدريان

زيلمان: «تشير إلى أوجه تشابهٍ بين القول إن الصيد دفع الجنس البشري نحو الإنسانية من ناحية، والأسطورة التوراتية للطرد من عدن بعد أكل حواء لشجرة المعرفة من ناحية أخرى». يرى الباحثون أن المصيرين -الصيد والطرد- هما نتيجة لفعل الأكل، اللحوم في الأول والفاكهة المحرمة في الاخر. ويوضحون أن تقسيم العمل -الرجال كصيادين، والنساء كجامعات- يعكس تقسيم الأدوار المعطى بوضوح لآدم وحواء في سفر التكوين. وبالمثل ذهبت النظرية، خلال ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، إلى أن المشي البشري تطور خلال فترة تغير جذري في المناخ، عندما تحولت الأنواع من شجريَة تقطن الغابات إلى مخلوقات من السافانا، وهو طرد آخر من الجنة. الآن، تراجعت هيمنة الصيد والسكن في السافانا من التفسيرات التطورية. لكن اللغة لا تزال قائمة: العلماء اليوم يتقصون أصول الإنسان ليس في الحفريات بل في جينات تصف سلفنا المشترك المفترض بأنه حواء الإفريقية أو حواء الميتوكوندرية.

بحث هؤلاء العلماء عمّا يريدون العثور عليه أحيانًا، أو وجدوا ما كانوا يبحثون عنه. ظلَت خدعة إنسان بلتداون من عام ١٩٠٨ إلى نهايتها في عام ١٩٥٠ مصدقة، لأن العلماء البريطانيين كانوا تواقين إلى دليل على وجود مخلوق كبير الدماغ وله فك حيوان. أشارت العظام إلى أن ذكاءنا كان من عمر قديم جدًا وأسعدهم أن الدليل ظهر في إنجلترا. ضنعت نماذج كثيرة من إنسان بلتداون الذكي على هيئة رجل إنجليزي، إلى أن أثبتت التقنيات الجديدة أنه كاذب جرى تركيبه من فك قرد حديث وجمجمة بشرية. عندما وجد ريموند دارت جمجمة طفل في جنوب إفريقيا عام ١٩٢٤ والتي تبين

أنها، بعكس إنسان بلتداون، أصلية، رفض الأسياد البريطانيون الذين سرّهم بلتداون تصديقها سلفًا للإنسان. شكك علماء العصر في صدقها لأنهم آثروا ألا يكونوا قد أتوا من إفريقيا، ولأن جمجمة طفل تونغ Taung، كما كان يُطلق عليها، كانت ذات قحف صغير ولكن من الواضح أنها كانت تسير منتصبة، ما يشير إلى أن ذكاءنا جاء متأخرًا وليس مبكرًا خلال تطورنا. هناك فتحة في قاعدة الجمجمة تسمى الثقبة العظمى يتصل الحبل الشوكي من خلالها بالدماغ. كانت هذه الثقبة العظمى لطفل تونغ في وسط الجمجمة، مثلنا، وليس في الخلف، كما هو الحال في القردة، لذا كان واضحًا أن هذا المخلوق مشى منتصبًا ورأسه فوق العمود الفقري بدلًا من أن يتدلى منه. مثل معظم جماجم الأسترالوبيثيسين أو البشرانيين الذين سيتطورون إلى البشر، فإن هذه الجمجمة للعين الحديثة تبدو مثل منزل بنسب غريبة: الرواق المحيط بالحاجب والفك البارز ضخم، ولا وجود للعلية التي يقف عليها الدماغ الحديث. اقترح معظم علماء التطور الأوائل أن خصائصنا البشرية -المشي، والتفكير، والصنع- نشأت معًا، ربما لأنهم وجدوا أن من الصعب أو من المزعج حتى تخيل إنساننا البدائي وقد شاركنا بعضًا من بشريتنا فقط. طوّرت فرضية دارت المضادة اعتمادًا على المعثورات الكينية المذهلة التي وجدها لويس وماري في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن الماضي، وأكدها كلها تقريبًا اكتشاف دونالد جوهانسون الشهير لهيكل «لوسي» والمتحجرات المتعلقة به في إثيوبيا في السبعينيات. المشي كان أولًا.

في الوقت الحاضر، يُعتبر المشي بجسد منتصب

هو الروبيكون(8)، النوع المتطور الذي هجَن ليصبح بشرانيًا، متمايزًا عن جميع الرئيسيات الأخرى وأسلاف البشر. تمتد هناك قائمة بالتفاصيل المغرية التي حصلنا عليها منذ أن أصبحت أجسادنا ثنائية الحركة، قائمة من تثنيات وتقوسات الجسم واستطالاته، بدءًا من الصف المستقيم لأصابع القدم والقوس الوحشي للرجل، صعودًا إلى الأعلى إلى الساقين الطويلتين المستقيمتين، وصولًا إلى الردفين، دائريتين وبارزتين بفضل العضلة الألوية الكبرى التي تكبر بشكل واضح لدى المشائين، وهي عضلة صغيرة في القرود ولكنها أكبر عضلة في جسم الإنسان، انتقالًا إلى المعدة المسطحة، والخصر المرن، والعمود الفقري المستقيم، والأكتاف المنخفضة، والرأس المنتصب فوق رقبة طويلة. تتوازن الأجزاء المختلفة للجسم منتصبًا بعضها فوق بعض مثل أجزاء العمود، بينما يكون وزن رؤوس وجذوع الكائنات رباعية الأرجل معلقًا بالعمود الفقري مثل طريق جسرٍ معلق، مع زوج من الأرجل الشبيهة بالدعائم في اتجاه الطرفين. القردة العليا تمشي على البراجم: كائنات تكيفت مع الحياة في الغابات الاستوائية، تتحرك مسافات قصيرة على الأرض بين الأشجار، على أطراف أمامية طويلة تمنحها نوعًا من الوضع القطري المائل. لدى مقارنتها بالبشر فإن للقردة ظهورًا مقوسة، وبلا خصر، وبأعناق قصيرة، وصدورًا على شكل أقماع مقلوبة، وبطونًا بارزة، وأوراكًا وأردافًا ضامرة، وسيقانًا مقوّسة، وأقدامًا مسطحة ذات أصابع كبيرة قابضة.

حين أفكر في هذا التاريخ التطوري للمشي، أرى خيال شخص صغير، مثل رفيقي في قاع البحيرة

الجافة، لكن الوقت فجر والخيال هذه المرة يقترب مني، مثل نقطة يصعب تمييزها من بعيد، تبدو غريبة ثم تصبح خيالًا منتصبًا، وفي النهاية، عندما تدنو، فإنها مجرد سائرٍ آخر. ولكن ما الذي كان يلقي بظلاله الطويلة وسط المسافة؟ كانت لوسي -كما أطلقوا على الهيكل العظمي الصغير لأوسترالوبيثكس أفارينسيس البالغة من العمر ٣.٢ مليون عام والتي عُثر عليها في إثيوبيا عام ١٩٧٤، وافترضوا من تفاصيل مختلفة أنها أنثى- شبيهة بالقرود من نواحٍ عديدة. كان لديها شيء شبيه بخصر أو رقبة، ورجلان قصيرتان، وذراعان طويلتان، والقفص الصدري القردي الشبيه بالقمع. ومع ذلك، كان حوضها عريضًا ومسطحًا، ما منحها مِشية مستقرة بسبب تباعد مفاصل الورك والتي تستدق تدريجيًا حتى الركبتين المتقاربتين، مثل البشر وعلى عكس الشمبانزي (التي تتسبب وركها الضيقة وركبتاها المتباعدتان في تمايلها من جانب إلى آخر عندما تمشي منتصبة). يقول البعض إنها كانت ستصبح عداءة مروعة ولن تكون ممن يمشون كثيرًا. لكنها مشت، هذا أقرب إلى الأكيد، ثم تأتي السجالات حول مشيتها.

حلّل عشرات العلماء عظامها وأعادوا تكوين لحمها، مشيتها، حياتها الجنسية، بعشرات الطرق المختلفة وتناقشوا حول ما إذا كانت تمشي بشكل جيد أو سيئ. يمنح الاكتشاف امتيازًا معينًا في التفسير لصاحبه، لذلك أخذ يوهانسون، الذي كان يعمل في متحف كليفلاند، العظام التي وجدها في هادار، إثيوبيا، إلى صديقه أوين لوفجوي، عالم التشريح في جامعة ولاية كليفلاند وخبير في التنقل الذاتي البشري. أصدر لوفجوي الحكم الأرثوذكسي. في كتابه «لوسي»، ذكر يوهانسون أن لوفجوي قال

عن مفصل ركبة أفارينسيس الذي أحضره في العام السابق:

- هذا يشبه مفصل الركبة الحديث. كان هذا القزم الصغير ثنائي الحركة مكتملًا.

- ولكن هل يمكنه أن يمشي منتصبًا؟ سألت بإلحاح.

- صديقي، يمكنه المشي منتصبًا. اشرح له ما هو الهامبرغر وسوف يسبقك إلى أقرب مطعم ماكدونالدز تسع مرات من عشرة.

جاء مفصل ركبة جوهانسون كأول دعم مادي لنظرية لوفجوي الجريئة القائلة بأن المشي على قدمين بدأ وأتقن في وقت أبكر بكثير مما افترض أي عالم آخر. في العام التالي، أكد هيكل لوسي العظمي -أو الأربعون في المئة التي عُثر عليها منه- فرضيته حول العصور القديمة للمشي البشري، مثلما فعلت آثار أقدام زوج من المشاة يبلغ عمرها ٣.٧ مليون عامًا، والتي عثر عليها فريق ماري ليكي في لايتولي بتنزانيا عام ١٩٧٧. لكن لماذا أصبحت هذه المخلوقات تتحرك على قدمين؟ بحلول عام ١٩٨١، طوَر لوفجوي تفسيرًا معقدًا لسبب نهوضنا ومشينا. أصبحت مقالته العلمية «أصل الإنسان» المنشورة عام ١٩٨١ النقطة المحورية للنقاش في هذا السياق حول أسباب ظهور المشي منذ أربعة ملايين سنة أو أكثر. طوَر لوفجوي أطروحة دقيقة رأت أن تقليل الوقت بين الولادات سيزيد من معدل بقاء الأنواع. كتب: «في معظم أنواع الرئيسيات، تعتمد لياقة الذكور إلى حد كبير على نجاحهم في التزاوج» - أي القدرة أو الفرصة للتزاوج وبالتالي نقل جيناتهم. واقترح أن سلف الإنسان في العصر الميوسيني، قبل خمسة ملايين سنة وأكثر، غير

سلوكه. قال بأن الذكور بدءوا في تأمين الطعام للإناث، وهكذا صار بمقدور الإناث وقد أصبح غذاؤهن مؤمّنا إنجاب مزيد من الأطفال، من حيث أزيح تحدي إطعام أنفسهن وصغارهن عن كاهلهن، وولدت الأسرة النووية التي يرأسها ذكر. بكلمات أخرى، اتسعت لياقة الذكور لتشمل تزويد المؤونة، ما أتاح لهم تمرير تلك الجينات بشكل متكرر ومؤكد. كتب لوفجوي في ملخص عام ١٩٨٨ أن: «المشي على قدمين برز في هذا المخطط الإنجابي الجديد، فمن خلال تحرير اليدين بات بمقدور الذكر أن يحمل الطعام الذي جمعه من مكان بعيد عن رفيقته». لكنه أضاف أن مثل هذا الانفصال اليومي بين الجنسين سيكون لصالح الذكور وراثيًا فقط في حال تمكنوا من العودة إلى المنزل ونشر جيناتهم الخاصة دون غيرها، وبالتالي لا بد أن يكون السلوك اختير للإناث أحاديات الزوج والذكور القادرين على تحمل المسؤولية. أوضح لوفجوي: «يمكن أن يوضع السلوك الجنسي الفارق جدًا للإنسان تحت المجهر الآن. إناث البشر مستقبلات جنسية دائمًا (...) ويمكن اعتبار سلوك الذكور ثابتًا بالمثل». وبما إنها على عكس الإناث في معظم السلالات الأخرى، لم تعد تبعث إشارات لأوقات خصوبتها، فقد مارسا الجنس كثيرًا بهدف التكاثر والترابط. إذا اعتبرنا أن هذه هي أسطورة الخلق، فهي أسطورة تكون فيها الأسرة المكونة من والدين أكبر سنًا بكثير من الجنس البشري، والذكور البشرانيين شركاء وآباء متنقلين ومسؤولين، والإناث متطلبات، ومخلصات، شريكات قاعدات في البيت ولم يكنّ شريكات في تطور الحركة على قدمين.

خُلفت أسطورة «الإنسان الصياد» التي ظهرت في الستينيات بنظريتين في السبعينيات. اقترحت

إحداهما التي أطلق عليها «المرأة الجامعة» أن النظام الغذائي البدائي كان معظمه نباتيًا يُجمع في الأغلب -كما هو الحال في مجتمعات الصياد -الجامع اليوم- من قبل الإناث. وركزت الأخرى في أن تقاسم الطعام أمر أساسي في ضمان البقاء وتكوين قاعدة منزلية يُجلب الطعام إليها ويُشارك فيها، ما يقود إلى وعي اجتماعي أكثر تعقيدًا. في هذه النظرية، يحل العشاء الأول الجماعاتي محل الرياضة الدموية (الصيد) لدى آردري، باعتباره الحدث الذي سيَّرنا نحو الإنسانية. جمع لوفجوي جوانب كلٍّ من هاتين النظريتين الجديدتين ليبتكر نظريته «الرجل الجامع»، الذي أحضر الطعام إلى المنزل وشاركه مع رفيقته وذريته فقط. لم تقترح نظريته أن المشي كان عملًا ذكوريًا وحسب، وأن الذكور المعنيين كانوا ممتلئين بفضائل الأسرة، بل وأن الفضائل المعنية هذه هي التي جعلتنا نمشي. في الحقيقة لقد قال إن بإمكان لوسي وأمثالها المشي أفضل مما نفعل، علاوة على أن النوع فقد قدرته على التسلق.

كنت أقيم مع بات في كوخه خارج «حديقة شجرة جوشوا الوطنية» مباشرةً أثناء كتابة هذا الفصل. منهمكة أحاول فرز بحر من المواد أمامي، أروي له نظريات حول سبب تحولنا إلى المشي على قدمين، وعن تفاصيل التشريح والوظيفة، كان يضحك غير مصدق لأكثرها غرابة وهو يقول: «أهناك ناس يحصلون على منح ومناصب من أجل هذا؟» كان اقتراح آر. دي. جوثري عام ١٩٧٤ المفضل لديه، إذ يقول إنه عندما أصبح البشرانيون يمشون على قدمين، استخدم الذكر قضيبه الذي أصبح مكشوفًا الآن وقد انتصب جسده كـ«جهاز تهديد» يخوف به الخصوم، لقد تكهنا بفضل هذه النظرية بأصول الضحك البشري. في اليوم التالي،

بعد أن عاد إلى المنزل من عمله مرشدًا للزائرين أعلى وأسفل الوجوه الصخرية طوال اليوم، كان يسترخي وبيده مشروب حين قرأت له هجوم عالمة الأنثروبولوجيا دين فولك على لوفجوي. لفت انتباهه مصطلح لوفجوي «الرقابة التزاوجية» Copulatory Vigilance، وزاد ضحكه أكثر على الأشياء الغريبة التي كنت مستغرقة فيها. ليس أن عالمه كان محصنًا ضد الجدية: بينما كان يتسلق من أجل المتعة في اليوم السابق، كنت قد استلقيت في الظل لا ألوي على شيء، حين بدأت أقلب كتابه الإرشادي واستمتعت بقراءة بعض أسماء طرق التسلق أعلى وأسفل الصخور العملاقة الكثيرة في المتنزه: «خيط الأسنان المشيخي البروتستانتي» بجانب «عود الأسنان الأسقفي» بالضبط. هناك «مخاط على مصباح» يسخر فيه من أسلوب «التسلق بأناقة» المسمى «أجساد على التضاريس»، وعدد لا يحصى من النكات على كلاب البودل الصغيرة، والنكات السياسية، والتشريحية التي تصف طرقًا عمودية أخرى فوق الصخور. في ذلك المساء، بينما كنت أقرأ له نظرية المشي على قدمين، والسمَان يتمايل قرب الفناء الخلفي والشمس الغاربة دفعت ظلال التلال أبعد وأبعد عبر الوادي، أقسم إنه سيجعل أصدقاءه الذين أسسوا وأطلقوا أسماء عديد من مسارات التسلق في المتنزه يطلقون على المسار التالي اسم «الرقابة التزاوجية»، ليكون معلمًا غامضًا لنظريةٍ حول فقدان قدرتنا على التسلق وليسجل رأيه في النظريات المنتشرة عن أصول الإنسان. اشتهرت نظرية لوفجوي فقط لأن لا أحد يمكنه أن يقاوم مهاجمتها.

من بين أول من انتقدها عالما التشريح جاك

ستيرن وراندال سوسمان في جامعة ولاية نيويورك في ستونيبروك، وقد ذهبت لزيارتهما. رجلان غير رياضيين لهما شوارب متطابقة رمادية مقصوصة، وكانا يشبهان إلى حد ما «ولروس» و«النجار»، ستيرن النجار القصير وسوسمان هو ولروس الضخم(9). تحدثا معي لساعات في مكتب مليء بالعظام والكتب، وكان كلاهما يمسك بين فينة وأخرى بحوض الشمبانزي أو بقالب لعظم الفخذ الأحفوري بغية توضيح نقطة ما. متحمسان لعملهما بوضوح، كانا ينطلقان في محادثات تخرج عن الموضوع وتتركني أتخلف عنهما، وكانوا سعداء أيضًا بأن يهزموا زملاءهم في هذا المجال الإشكالي. قالا إن أحافير جوهانسون من عصر الأوسترالوبيثيكوس أفارينيسيس تشير إلى أنها لسلالة لم تزل في مرحلة تعلم المشي والتي، وفقًا للأدلة -أذرع كبيرة وأرجل صغيرة وأصابع أيدٍ وأقدام معوجّة- استمرت في تسلق الأشجار بشكل جيد ومتكرر لفترة طويلة بعد ذلك. سمة أخرى من سمات أحافير أفارينيسيس كان الحجم مقارنة بالجندر: إذا كانت الهياكل العظمية الكبيرة والصغيرة التي وجدها يوهانسون ورفاقه في إثيوبيا من نفس السلالة (وهو ما يعترض عليه ريتشارد ليكي وآخرون)، فلا بد أن تمثل الأحجام إناثًا صغيرة وذكورًا كبيرة، ما يستبعد ممارستها الزواج الأحادي الذي يقترحه لوفجوي. فعادة ما تمارس سلالات الرئيسيات حيث الذكور أكبر بكثير -البابون والغوريلا- الزواج التعددي. الأنواع التي لا يختلف حجم الذكر فيها عن الأنثى، مثل قرود الجبون، هي فقط التي تمارس الزواج الأحادي. لذا فإن نسختهما من لوسي كانت سيئة المشية،

ذات قدمين مرنتين كبيرتين، متسلقة جيدة إلى حد كبير بذراعين طويلتين وقويتين، وربما كانت جزءًا من مجموعة الزواج التعددي حيث تقضي الإناث الصغيرة وقتًا أطول فوق الأشجار من الذكور الكبيرة.

قال سوسمان: «عندما بدأنا هذا العمل، ولا أعتقد أن من الغرور قول هذا، فإن أغلب الباحثين في هذا المجال يقولون إننا تطورنا في السافانا، في أراضي السهول المفتوحة في جنوب إفريقيا أو في السافانا شرق إفريقيا. أعتقد أن هذا كله كلام فارغ. أعتقد أن ما حدث هو أن أفارينسيس كان يعيش في الغابة وفي فسيفساء الريف المفتوح كما ترون اليوم في أماكن مثل الكونغو الفرنسية أو على طول الأنهار حيث يوجد كثير من الأشجار. أعني، ربما استمر هذا لمدة مليون عام عندما كان هناك حيوان يتسلق ويتدرب على المشي على قدمين في آن». أضاف أن الصور القديمة التي أعادت تجسيد هذه المرحلة من التطور أظهرت هذه الكائنات تتسكع عبر الأراضي العشبية، أما الصور الأحدث فتظهرها في موائل أكثر اختلاطًا، في أحدث مقالات «ناشونال جيوغرافيك» هناك رسومات تضع هذه الكائنات في غابات وبعض منها على الأشجار. أن هناك مخلوقات عاشت في الغابات وتسلقت الأشجار أمر أصبح واضحًا جدًا، قال ستيرن، لكن أحدًا لم يتكبد عناء أن ينسب إلى ستيرن وسوسمان الفضل في دفع هذه الفكرة في وقت مبكر.

كان الجدل السابق دائريًا: تعلم البشرانيون المشي بهدف التنقل في السافانا، فإن نجوا في السافانا، فلا بد أنهم كانوا مشاة مؤهلين. بدا أن السافانا

صورة للحرية، مساحة بلا حدود والاحتمالات فيها بلا حدود أيضًا، مساحة أنبل من الغابة البدائية التي كانت أقل شبهًا بالغابة المفتوحة لتجوال روسو بمفرده، وأقرب إلى الأدغال التي أرسلت منها جين غودول وديان فوسي تقاريرهما عن الرئيسيات. قال ستيرن لاحقًا: «ما يشغلني أكثر هو طريقة مشيهم على الأقدام. كتبت ورقة تقول إنهم لا يستطيعون المشي كما نفعل نحن. مشيهم ليس سريعًا، وليس فعالًا من حيث الطاقة (...) هل نحن مخطئون؟ هل كانوا يمشون منتصبين بشكل جيد حقًّا؟» قال سوسمان: «أم أنهم يجمعون تسلقًا جيدًا للأشجار بمشي سيئ، وانعكست النسب بالتدريج...». وتابع ستيرن: «الحجة التي تريحني أحيانًا أن الشمبانزي أنفسهم يمشون على أربع أرجل بشكل مربع فعلًا، بالقياس إلى مشي ذوات الأربع. من ثمّ فإذا كانوا يمشون بهذا السوء لسبعة ملايين سنة، فربما أننا كنا نمشي على قدمين بشكل مربع أيضًا لبضع ملايين من السنين».

في عام ١٩٩١، أقيم مؤتمر تناول أصول المشي على قدمين راجع فيه ثلاثة أنثروبولوجيين نظريات المشي الحالية كلّها في نوع من ستاند-آب كوميدي أكاديمي. وصفوا «فرضية شليب» Schlepp Hypothesis، التي فسرت المشي باعتباره تكيفًا لحمل الطعام والرضّع وأشياء أخرى مختلفة، و«فرضية البيك-ابوو»(10) وتنطوي على أن وقوف الإنسان حدث لرؤية ما فوق عشب السافانا، «فرضية الترانشكوت» التي، أدهشت بات مثل نظرية غوثري، إذ ربطت المشي على قدمين باستعراض قضيب الذكر، ولكن ليس لترهيب الذكور الاخرين بل لإثارة إعجاب الإناث، فرضية «البلل

التام»، والتي تُعنى بالخوض في الماء والسباحة أثناء مرحلة التطور المائية المقترحة، فرضية «التتبع» Tagalong، والتي تتبعت القطعان المهاجرة عبر تلك السافانا الخالدة، فرضية «أهبة الاستعداد» Hot to Trot، وهي واحدة من أكثر النظريات المفكر فيها بجدية، وتزعم أن المشي على قدمين حدّ من التعرض لشمس الظهيرة الاستوائية وبالتالي حرر الأنواع في التنقل داخل موئل مفتوح وحار، وفرضية «قدمان أفضل من أربعة» التي تقترح أن المشي على قدمين كان أكثر كفاءة في استخدام الطاقة من المشي الرباعي، على الأقل بالنسبة إلى الرئيسيات التي ستصبح بشرًا.

يالها من نظريات، رغم أنني، منذ تحدثت إلى ستيرن وسوسمان، اعتدت التفسيرات المتقلبة التي تبدو لشخص عادي يتعرض لمصدر واحد فقط حقيقة مثبتة. ما يزال غموض العظام المستخرجة في إفريقيا، بكميات متزايدة، مؤثرًا، وأعمال تأويلها تذكّر بالإغريق القدماء وهم يقرؤون أحشاء الحيوانات للتنبؤ بالمستقبل، أو الصينيين الذين يرمون عصي الـ«إي تشنغ» لفهم العالم. تفسيرات يُعاد ترتيبها باستمرار حتى تتوافق مع شجرة عائلة تطورية جديدة، ومع مجموعة جديدة من المقاسات. مثال على ذلك، ما حدث أخيرًا إذ أعلن اثنان من علماء الأنثروبولوجيا في زيورخ أن الهيكل العظمي الشهير المعروف بـ لوسي في حقيقته هيكل ذكر، بينما تحاجج الأنثروبولوجية فالك بأن لوسي أصلًا ليست من أسلاف البشر. يظهر علم الحفريات أحيانًا كقاعة محكمة مليئة بالمحامين، كل واحد منهم يلوح بالأدلة التي تؤكد فرضيته ويتجاهل الأدلة التي تتعارض معها (رغم أن ستيرن وسوسمان أثارا إعجابي بالتزامهما الاستثنائي

بالأدلة وليس بالأيديولوجيا). ثمة اتفاق على شيء واحد فقط في هذه القصص المتنافسة حول أحافير العظام، وهو الشيء الذي قالته ماري ليكي عندما كتبت عن آثار الأقدام التي وجدها فريقها في لايتولي: «لا يمكن للمرء أن يبالغ في التأكيد على دور المشي على قدمين في تطور الإنسان. ربما تكون هذه هي النقطة البارزة التي تميز أسلاف الإنسان عن الرئيسيات الأخرى. هذه الإمكانية الفريدة حررت اليدين لاحتمالات لا تعد ولا تحصى من حمل الأشياء وصنع الأدوات وكل المعالجات البارعة والمعقدة. في الواقع، إن التقنيات الحديث كلها نبعت من ذلك التطور الفردي. ومع أنها صيغة مبسطة بعض الشيء، فإن الفكرة الأساسية هي أن هذه الحرية الجديدة للأطراف الأمامية شكلت تحديًا توسّع الدماغ لمجاراته. وهكذا صيغ الجنس البشري».

كتبت فالك ردًا مدمرًا على فرضية لوفجوي في مقال عام ١٩٩٧ بعنوان: «تطور الدماغ في الإناث البشرية: إجابة للسيد لوفجوي». وأعلنت: «وفقًا لهذا الرأي، لم تُترك إناث الإنسان أسلافنا الأوائل فقط على أربع وحوامل وجائعات وخائفات من ممارسة كثير من الحركة في قلب منطقة مركزية، بل إنهن تُركن أيضًا في انتظار رجالهن». ومضت تقول، بعد مراجعة تفاصيل مثل استبعاد احتمالية الزواج الأحادي بين مثل هؤلاء الذكور والإناث بأحجامهما المختلفة: «يمكن أيضًا النظر إلى فرضية لوفجوي على مستوى مختلف تمامًا، أي إنها مشغولة بالأسئلة/بالقلق بخصوص جنسانية الذكر. في أبسط مستوياتها، تركز الفرضية في تطور الطريقة التي مارس/يمارس بها الرجال الجنس». وتتابع موضحة أن سلوك الإناث الرئيسيات البريات

يشير إلى أن أسلاف البشر اخترن شركاء متعددين لممارسة الجنس للإنجاب وللاستمتاع، و«يبدو أن كثيرًا من العالم يخشى أن يكون هذا هو الحال فعلًا كما يتضح من المراقبة الشاملة والسيطرة على السلوك الجنسي في المجتمعات البشرية، فضلًا عن كل أزمات الثقة الذكورية التي تغلي تحت سطح فرضية لوفجوي».

بعد أن رفضت الفكرة القائلة بأن الذكر المتكفل بتوفير الطعام أحضر لحم الخنزير المقدد إلى رفيقته في زواج أحادي والتي لا تغادر مكانها، تتبنى فالك النظرية البديلة والأبسط بكثير التي تقول إن مشي منتصبي القامة قلل من كمية الشمس المباشرة التي تلقاها البشر الأوائل أثناء انتقالهم في المساحات المفتوحة بين بقع من الأشجار، وبالتالي حررهم للتحرك أبعد وأبعد خارج ظلال الغابة. تشرح فالك أن بيتر ويلر، صاحب هذه الفرضية، اقترح أن «هذه الخصائص أدت إلى تبريد الجسم بالكامل فانتظمت درجة حرارة الدم المتدفق إلى الدماغ (من بين أعضاء أخرى)، وساعد في منع ضربة الشمس، وبالتالي فكك قيودًا فسيولوجية على حجم الدماغ في الإنسان». وهكذا حررت التغييرات الأنواع لتنمو أدمغة أكبر وأكبر، وأيضًا للتجول أبعد وأبعد. إنها تدعم نظرية ويلر بمعلومات مستمدة من بحثها الخاص في تطور الدماغ وبنيته وتستنتج -كما فعلت ماري ليكي، رغم أنها فعلت لسبب مختلف- أن مشينا منتصبين لم يخلق الذكاء ولكنه جعل ظهوره ممكنًا.

قد يكون الذكاء موجودًا في الدماغ، لكنه يؤثر في أجزاء أخرى من التشريح. اعتبر تجويف الحوض مسرحًا سريًا يلتقي فيه التفكير بالمشي،

بل ويتصارعان وفقًا لبعض علماء التشريح. الحوض أحد أكثر أجزاء الهيكل العظمي أناقة وتعقيدًا، وهو أيضًا واحد من أصعبها فهمًا، وهو مغطى باللحم والفتحات والمهمات. الحوض، عند جميع الرئيسيات الأخرى، هيكل رأسي طويل يرتفع تقريبًا إلى القفص الصدري، مسطح من الخلف إلى الأمام. مفاصل الورك متقاربة، وتفتح قناة الولادة للخلف، ويتجه اللوح العظمي كله إلى الأسفل حين يكون القرد واقفًا وقفته المعتادة، كما هو حال منطقة معظم ذوات الأربع. أما حوض الإنسان فيميل إلى أعلى ليحمل الأحشاء ويدعم وزن الجسم المنتصب، فيصبح أشبه بزهريّة عريضة مسطحة يرتفع منها جذع الخصر. إنه قصير نسبيًا وعريض مع مجموعة من مفاصل الورك. عرض الحوض هذا مع العضلات المبعِدة التي تمتد من غرف الحرقفة -أي العظم الموجود على كل جانب والذي يتحرك بسلاسة نحو مقدمة الجسم أسفل السرة مباشرة- هو ما يثبّت الجسم أثناء سيره. قناة الولادة تتجه نحو الأسفل، والحوض بأكمله، من وجهة نظر الولادة، نوع من القمع الذي يسقط عبره الأطفال، رغم أن هذا السقوط هو أحد أصعب السقطات البشرية. إذا كان هناك جزء من التطور التشريحي مذكور في سفر التكوين فهو الحوض واللعنة: «تكثيرًا أكثّر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولادًا». ولادة القرود، مثل معظم الثدييات، عملية بسيطة نسبيًا، لكنها شاقة بالنسبة إلى البشر وقد تكون قاتلة في بعض الأحيان للأم والطفل. مع تطور القردة العليا أصبحت قنوات الولادة لدى الإناث أصغر، ومع تطور البشر فإن أدمغتهم كبرت أكثر فأكثر. عند الولادة، يستنزف رأس الرضيع، الذي يحتوي على دماغ بحجم رأس الشمبانزي البالغ فعلًا، قدرة هذا

المسرح العظمي. لكي يخرج، يجب أن يدور بشكل لولبي حتى أسفل قناة الولادة، الآن يتجه إلى الأمام، ثم جانبيًا، والآن إلى الخلف. خلال الحمل، يزيد جسم المرأة الحامل قدرة الحوض عبر إفراز هرمونات تليّن الأربطة التي تمسك عظام الحوض معًا، وفي نهاية الحمل ينفصل غضروف عظم العانة. بسبب هذه التحولات يصبح المشي أكثر صعوبة أثناء الحمل والولادة وبعدها. هناك من يناقش أن حدود ذكائنا مردها قدرة الحوض المحدودة على استيعاب رأس جنين بحجم معين، أو العكس، أن حدود حركتنا مردها تطور الحوض ليتسع لعملية الولادة. وهناك من ذهب إلى أبعد من ذلك بالقول إن استيعاب حوض الأنثى للأطفال ذوي الرؤوس الكبيرة يجعل النساء أقل قدرة على المشي من الرجال، أو يجعلنا جميعًا نمشي بشكل أسوأ من أسلافنا ذوي الأدمغة الصغيرة. بل إن الاعتقاد بأن المرأة تمشي بشكل أسوأ منتشر في جميع أدبيات التطور البشري. يبدو أنها فكرة أخرى من مخلفات سفر التكوين، تلك القائلة إن النساء جلبن لعنة قاتلة للنوع، أو أنهن مجرد مساعدات على طول الطريق التطوري، أو أنه إذا كان المشي مرتبطًا بالتفكير والحرية، فإن النساء تتمتع أو تستحق قدرًا أقل من الاثنين. إذا كان تعلم المشي قد حرر الجنس البشري -للسفر إلى أماكن جديدة، وتجربة ممارسات جديدة، والتفكير- فغالبًا ما ارتبطت حرية المرأة بالجنسانية، جنسانية تحتاج إلى التحكم فيها واحتوائها. لكن هذه أخلاق وليست فسيولوجيا.

في ذلك الصباح الباكر الحلو في «شجرة جوشوا»، بينما كانت الأرانب قطنية الذيل تقفز في الفناء، كنت أشعر بضيق شديد من التاريخ الغامض حول الجندر والمشي، حتى أنني اتصلت بأوين

لوفجوي. أشار إلى بعض الاختلافات بين تشريح الذكور والإناث والتي، كما قال، تجعل حوض المرأة أقل تكيفًا مع المشي بلا شك. قال: «ميكانيكيًا»، «النساء أقل حظًا». حسنًا، سألت للتأكد: هل تحدث هذه الاختلافات فرقًا عمليًا؟ اعترف: «لا، ليس لها أي تأثير في قدرتهن على المشي إطلاقًا». ثم سرتُ عائدة إلى الخارج في ضوء الشمس لأعجب بسلحفاة صحراوية ضخمة تمضغ التين الشوكي في الممر أمام مدخل البيت. ضحك ستيرن وسوسمان عندما سألتهما عمّا إذا كانت النساء تمشي بشكل أسوأ، فعلى حد علمهما، كما قالا، لم يقُم أحد بالتجارب العلمية التي تثبت صحة هذا الادعاء. تميل أجساد العدائين العظام إلى التلاقي في أشكال جسمانية بعينها، أيًا كان جنسهم، ثم فكرا مليًا، لكن المشي لا يعني الركض، والسؤال الأكثر غموضًا هنا هو ما الذي يشكّل «العَظَمَة». سأل ستيرن وسوسمان: ماذا يعني أفضل؟ أسرع؟ أكثر فعالية؟ قالا إن البشر حيوانات بطيئة، وما نتفوق فيه هو المسافة، والحفاظ على وتيرة معينة لساعات أو أيام.

أولئك في المجالات الأخرى الذين يتكهنون حول المشي إنما يتكهنون حول المعاني التي يمكن توظيفه فيها -كيف يمكن جعله أداة للتأمل والصلاة والمنافسة. ما يمنح هؤلاء العلماء، رغم كل مشاجراتهم، أهمية هو سعيهم إلى مناقشة المعاني الجوهرية في المشي- ليس ما نصنعه فيه بل كيف صنعنا. المشي نقطة ارتكاز غريبة في النظرية التطورية لبني البشر. ما دفعنا إلى الخروج من مملكة الحيوان هو التحول التشريحي، لنحتل في نهاية المطاف مركزنا الفردي للهيمنة على الأرض. الآن يستمر المشي كقيد، لم يعد يأخذنا إلى مستقبل

رائع ولكنه يربطنا بالماضي القديم، بنفس المشية قبل مئة ألف أو مليون، أو إذا سايرت لوفجوي فقبل ثلاثة ملايين سنة. ربما أتاح للأيدي أن تعمل وللدماغ أن يتوسع، لكنه ظلّ ليس قويًا أو سريعًا بما يكفي. إذا كان قد ميزنا ذات مرة عن بقية الحيوانات، فهو الآن -مثل الجنس والولادة، مثل التنفس والأكل- يربطنا بحدود البيولوجيا.

في صباح اليوم السابق لمغادرتي، ذهبت للمشي في الحديقة الوطنية، ابتدأت من الصخور حيث كان بات يعلّم التسلق، أراقب سرعتي لأحافظ على البرودة والرطوبة. كان والد بات قد أخبره، وهو أخبرني بدوره، بأن تضاريس المكان ليست نفسها في طريق الذهاب والعودة، لذلك عليك أن تستدير دائمًا وترمق المنظر خلفك ذلك الذي ستراه عند عودتك. إنها نصيحة جيدة لهذا المشهد المربك. لقد بدأت وسط مجموعة كبيرة من الصخور، أو أرخبيل أو حي من ركام الحجر كل واحد بحجم مبنى ضخم، يقاطعون المناظر مثل المباني، لذلك عليك أن تعرف مساحة الأرض والمعالم المحلية لتستخدمها كدليل، بدلًا من الاعتماد على المشاهد البعيدة لتحديد وجهتك مثلما هو الحال في الصحاري الأخرى. مع شمس الصبح على يساري، سرت جنوبًا بطول ممر يقطع طريقًا فيصبح طريقًا متواريًا في حد ذاته مع حزم من العشب في الوسط، انعطف نحو الجنوب الغربي وانتهى إلى طريق آخر مطروق بكثرة. اندفعت السحالي الصغيرة تختبئ بين الشجيرات لدى مروري، وفي كل فيء ثمة نمو خفيف لعشب أخضر رقيق بارتفاع بوصة أو اثنتين بعد هطل الأمطار منذ بضعة أسابيع. منجرفة عبر الفضاء المترامي، الصامت لولا الريح وخطوات الأقدام، شعرت أني صافية

ولأول مرة منذ مدة لم أكن مستعجلة، كنت في زمن الصحراء بالفعل. وصل طريقي إلى النهاية المسدودة لحدود ملكية خاصة، درت حولها، معتقدة أن في وسعي أن أجد طريقًا آخر للعودة إلى الكتلة الصخرية، أتلاعب بفكرة أن أضيع. ظهرت سلاسل الجبال واختفت في الأفق بينما كنت ألتف حول السهل وعدت إلى الصخور. في الأخير، قابلت النقطة التي عبرت فيها دربي الطريق المهمل، ووجدت آثار قدميَ تسيران في الاتجاه الآخر، وظبعت متعرجة فوق آثار أقدام بهتت لمن مروا في الأيام الفائتة، تعقبث أثر مروري من هنا قبل ساعة أو أكثر رجوعًا إلى حيث بدأت.

الفصل الرابع
الطريق الشاق إلى النعمة
بعض الحج

جاء المشي من إفريقيا، من التطور، ومن الضرورة، وذهب إلى كل مكان، بحثًا عن شيء ما عادةً. الحج هو أحد أنماط المشي الأساسية، السير بحثًا عن شيء لاملموس، ونحن كنا على طريق الحج. غُطيت الأرض الحمراء بين أشجار الصنوبر والعرعر بمزيج لامع من حصى الكوارتز ورقائق حجر اللُّكاث وقشور حشرات الزيز التي عادت إلى الاختباء تحت الأرض ثانية لسبعة عشر عامًا آخر(11). كان طريقًا معبّدًا وغريبًا للمشي، مبهجًا ومفقرًا في آن، مثل كثير من مناطق نيومكسيكو. كنا نسير إلى تشيمايو في يوم الجمعة العظيمة. كنت أصغر الستة الذين انطلقوا إلى تشيمايو في ذلك اليوم، والوحيدة التي ليست من أهل المنطقة. اندمجت هذه المجموعة قبل بضعة أيام، عندما سألت شخصيات مختلفة، بمن فيهم أنا، غريغ إن كان يمانع أن نرافقه. اثنان من الستة كانوا من مجموعة الناجين من مرض السرطان التي يشرف عليها غريغ، واحد يعمل مساحًا والثانية ممرضة، صديقتي ميريدل أحضرت جارها ديفيد، وهو نجار.

مع أننا كنا على طريقنا الخاص -أو بالأحرى طريق غريغ- فقد انضممنا إلى رحلة الحج السنوية الكبرى إلى سانتواريو دي تشيمايو، وبالتالي كنا نسير كحجاج. الحج هو أحد الصيغ الأساسية التي يمكن أن تأخذها رحلة - السعي بحثًا عن شيء ما، وإن كان التحول الشخصي فقط، الرحلة نحو هدف، وللحجاج، يعدّ المشي عملًا. غالبًا ما يجري

تخيل المشي العادي كما لو كان لعبًا، مهما كان ذلك اللعب تنافسيًا وصارمًا، ويستخدم معدات وتقنيات لجعل الجسم أكثر راحة وأكثر كفاءة. أما الحجاج، فيحاولون في كثير من الأحيان أن يجعلوا رحلتهم أصعب، مستذكرين أصل كلمة سفر travel من كلمة travail عمل، والتي تعني أيضًا الكد والمعاناة وآلام الولادة. منذ العصور الوسطى، وبعض الحجاج يسافرون حفاة أو بالحجارة في أحذيتهم، أو صائمين، أو بثياب تكفيرية خاصة. لا يزال الحجاج الأيرلنديون في كروغ باتريك يتسلقون ذلك الجبل الصخري حفاة في يوم الأحد الأخير من كل شهر يوليو، ويكمل الحجاج في أماكن أخرى الرحلة على ركبهم. لاحظ أحد متسلقي جبل إفرست الأوائل طريقة الحج الأشق في التبت: «يسافر هؤلاء المتدينون والبسطاء مسافة ألفي ميل أحيانًا، من الصين ومنغوليا، ويغطون كل شبر من الطريق بقياس طولهم على الأرض». كتب الكابتن جون نويل: «يسجدون وينبطحون على وجوههم، ويتركون علامة على التراب بأصابعهم الممتدة أعلى قليلًا فوق رؤوسهم، ثم ينهضون ويضعون أصابع أقدامهم عند العلامة التي رسموها ثم يسجدون وينبطحون على وجوههم كرة أخرى، يمددون أنفسهم وأذرعهم على الأرض ويتمتمون بصلاة تكررت مليون مرة فعلًا».

في تشيمايو، يأتي عدد قليل من الحجاج كل عام حاملين صلبانًا، بدءًا من خفيفة الوزن والمحمولة نسبيًا إلى تلك الضخمة التي ينبغي جرها بإنهاك خطوة إثر خطوة. داخل الكنيسة وجهتهم، ثمة صليب محفوظ على يمين المذبح، وتعلن لوحة معدنية صغيرة بجانب حامله: «هذا الصليب رمز لشكر الله على العودة الآمنة لابني رونالد إي.

كابريرا من مهمة قتالية في فيتنام. أنا رالف أ. كابريرا وعدت بأن أقوم بالحج مشيًا لمسافة ١٥٠ ميلًا من غرانتس نيومكسيكو إلى تشيمايو. وقد انتهت رحلة الحج هذه يوم ٢٨ نوفمبر ١٩٨٦». توضح لوحة كابريرا والصليب الخشبي المعقود، الذي يبلغ ارتفاعه ستة أقدام تقريبًا مع المنحوتة الفلكلورية للمسيح، أن الحج عمل، أو بالأحرى عمل في اقتصاد روحي يكافأ فيه الجهد والحرمان. لم يوضح أحد إطلاقًا ما إذا كان هذا الاقتصاد هو الاقتصاد الذي تُتكبد فيه الأرباح مقابل العمل المبذول أو تُصقل الذات فيه لتصير شيئًا أكثر استحقاقًا لمثل هذه المنفعة، ولا أحد يحتاج إلى ذلك، الحج مغروس في الثقافة الإنسانية على مستوى العالم تقريبًا بوصفه وسيلة حرفية للرحلة الروحية، مثلما يُفهم الزهد وإجهاد الجسد على مستوى عالمي تقريبًا باعتبارهما من سبل التطور الروحي.

بعض رحلات الحج، مثل رحلة سانتياغو دي كومبوستيلا شمال غرب إسبانيا، تكون مشيًا من بدايتها إلى نهايتها، فالحج يبدأ من الخطوة الأولى، والرحلة نفسها هي الجزء الأهم. في أيامنا هذه، يمكن أن تبدأ رحلات أخرى، مثل الحج الإسلامي إلى مكة أو زيارات الطوائف المختلفة إلى القدس، بالطائرات، ولا يبدأ المشي إلا عند الوصول إلى المدينة (رغم أن مسلمي غرب إفريقيا قد يقضون أعمارًا أو أجيالًا في المشي ببطء نحو السعودية، وقد نشأت ثقافة كاملة من المترحلين ووجهتهم الأخيرة مكة). أما الحج إلى تشيمايو فلا يزال على الأقدام، رغم أن معظم المشاة لديهم سائق يوصلهم وسوف يأتي ليعيدهم. إنها رحلة حج تحدث في ثقافة تعتمد بكثافة على السيارات، تلك التي نراها

على طول الطريق السريع شمالًا من مدينة «سانتا في» ثم على كتف الطريق الأصغر شمال شرق تشيمايو. قبل الوصول إلى البلدة، في الأميال القليلة الأخيرة، يغص جانب الطريق بالسيارات التي يتبع سائقوها العائلة أو الأصدقاء، ونتيجة لهذا الازدحام يصبح هواء بلدة تشيمايو خانقًا من كثافة أول أكسيد الكربون، أما الطريق من سانتا فصاعدًا فمرصعة أيضًا بلافتات تدعو إلى إبطاء السرعة والانتباه للحجاج المشاة عند القيادة.

بدأ طريق غريغ على بعد اثني عشر ميلًا تقريبًا شمال «سانتا في» وقطع الريف لينضم إلى بقية الحجاج على بعد أميال قليلة فقط من تشيمايو. وصلنا في الثامنة صباحًا إلى الأرض التي اشتراها هو وزوجته مالين منذ فترة طويلة، وبالنسبة إليه كانت الرحلة تربط أرضهم بالأرض المقدسة الواقعة شمالًا على بعد ستة عشر ميلًا أو نحو ذلك. كان الأمر منطقيًا لبقيتنا أيضًا؛ لم يكن أي منا كاثوليكيًا أو حتى مسيحيًا، والمشي عبر الريف أتاح لنا أن نكون في فردوس غير المؤمنين، الطبيعة، قبل وصولنا إلى هذه الوجهة، أكثر الوجهات الدينية تقليديةً. ظللت مضطرة إلى تذكير نفسي بأن الأمر لم يكن رحلة استكشاف برية وتغلبت على رغبتي في التحرك بسرعتي الخاصة والاستمتاع بوقتي. وكما تبين لاحقًا، فإن البطء هو ما يجعل هذه الرحلة صعبة.

مثل كثير من مناطق شمال نيومكسيكو، يلف بلدة تشيمايو جوَ من القدم السحيق يميزها عن البقية النشاءة من الولايات المتحدة. دمج الهنود هنا المناظر الطبيعية بالمباني الحجرية، والقطع الخزفية، والنقوش على الصخور، وظل شعب

بويبلو، ونافاجو، وهوبي يكوّن جزءًا مرئيًا بوضوح من السكان. السكان من أصل إسباني هم أيضًا نسبة كبيرة وقديمة من أهل المكان، وقد أسس أسلافهم «سانتا في» كأول مدينة مأهولة بالأوروبيين في ما أصبح تاليًا الولايات المتحدة. لم يُنس هذان الشعبان ولم يُقض عليهما كما حدث في أجزاء أخرى من البلاد، لا أحد يتخيل أن هذا المشهد كان برية مقفرة قبل مجيء اليانكي. وفي الواقع يميل هؤلاء اليانكي إلى استعارة الثقافات والاستمتاع بها، فيصبحون خبراء في العمارة باللِّبن وفي شغل الفضة الهندية وفي رقصات البويبلو والحرف اليدوية الهسبانية وطقوس الجميع، بما في ذلك الحج.

قبل مجيء الغزاة، كان يسكن تشيمايو أسلاف شعب تيوا بويبلو المعاصر، وقد أطلقوا على التل فوق «سانتواريو تسي مايو» اسم «موضع الرقائق الحجرية الجيدة». تعود سجلات الاستيطان الإسباني في وادي تشيمايو إلى عام ١٧١٤، ويقال إن الساحة الواقعة في الطرف الشمالي من هذا الوادي الزراعي الضيق ذي المياه الجيدة هي واحدة من أفضل الأمثلة المتبقية للعمارة الكولونيالية في المنطقة. مثل كثير من أجزاء نيومكسيكو، فهي منعزلة. يقول أحد أبنائها، دون أوسنر، عن تاريخ المكان إن سكان الساحة لم يتزوجوا أو يزوجوا من الناس في بوتريرو في الطرف الجنوبي من الوادي. في العصر الاستعماري، مُنع المستوطنون الإسبان من السفر من دون إذن، وتطورت هوية محلية مرتبطة بالأرض بتزمّت. في قرية أخرى شمال نيومكسيكو كنت أعيش فيها في العام الذي سبق رحلة الحج هذه، أبدى أحدهم ذات مرة ملاحظة لاذعة عن أحد الجيران: «إنهم ليسوا من هنا. نحن

نتذكر عندما انتقل جدهم الأكبر إلى هنا». اللغة الإسبانية المستخدمة هنا قديمة، ومن الملحوظ أن الثقافة السائدة مستمدة غالبًا من إسبانيا ما قبل عصر التنوير. في روابطها الزراعية والمحلية القوية وتقاليدها، في الفقر المنتشر على نطاق واسع، في آرائها الاجتماعية المحافظة وتديّنها وكاثوليكيتها السحرية، تبدو هذه الثقافة في كثير من الأحيان وكأنها آخر معقل للعصور الوسطى.

تقع كنيسة سانتواريو في الطرف الجنوبي من تشيمايو، في ساحة خاصة بها، صغيرة وليست مرصوفة خلف شارع مليء بالمنازل المتهالكة المبنية من اللِّبن والمتاجر التي تحمل لافتات مكتوبة بخط اليد وغلقت عليها عقود الريسترا(12). قبورٌ تملأ فناء هذه الكنيسة الصغيرة المبنية أيضًا من طوب اللِّبن. تغطي جدرانها الداخلية جداريات بهتت ألوانها تُصوِّر القديسين والمسيح معلقًا على صليب أخضر بأسلوب يذكرنا بالرسم البيزنطي والرسم الهولندي في بنسلفانيا(13). المصليّات الشمالية هي التي تجعل هذه الكنيسة استثنائية. المصلى الأول مزدحم بصور يسوع ومريم والقديسين الذين جلبهم المصلون، وتختلط الصور المرسومة يدويًا مع أيقونات ثلاثية الأبعاد وأيقونات ديكوباج، وعذراء غوادالوبي الفضية اللامعة، ونسخة مطبوعة ومطلية ومتشققة من العشاء الأخير. أما الجدار الخارجي لهذا المصلى فتغطيه الصلبان، وأمامه صف متراص من العكازات المعلقة، يشكل الألمنيوم الفضي لها سطحًا منتظمًا يشبه قضبان السجن التي يسترق مسيحيون كُثر النظر من بينها.

وبعد عبور بوابة منخفضة تفتح نحو جهة

الغرب يأتي الجزء الأهم في الكنيسة، وهو مصلى صغير به فتحة في أرضيته غير المعبدة يغرف منها الحجاج ترابًا ليأخذوه معهم لدى عودتهم. هذا العام كانت هناك ملعقة بلاستيكية خضراء صغيرة في الحفرة، مأخوذة من علبة مسحوق غسيل يغرفون بها من التراب الرملي الرطب والمفتت. كان الناس يشربون هذه التراب المخلوط بالماء، وما زالوا يجمعونه ويضعونه على المناطق المريضة والمصابة من أجسادهم ويكتبون إلى الكنيسة رسائل عن معجزات شفائهم. العكازات المعلقة هنا، كما هو حالها في عدة مواقع للحج، تشهد على التعافي من العرج.

عندما أتيت إلى هنا أول مرة قبل بضع سنوات، كنت قد سمعت عن عديد من آبار الماء المقدسة، لكنني ذهشت عندما وجدت بئرًا مقدسة من التراب. لا تعتد الكنيسة الكاثوليكية عمومًا بالتراب وسيطًا للقداسة، لكن بئر التراب في تشيمايو حالة استثنائية. يستخدم عالما الأنثروبولوجيا فيكتور وإديث تيرنر مصطلح «تعميد الطقوس» لوصف استيعاب الكنيسة الكاثوليكية للممارسات المحلية أثناء انتشارها عبر أوروبا والأمريكتين. ولهذا السبب، مثلًا، كان كثير من الآبار المقدسة في أيرلندا مقدسًا قبل أن يكون مسيحيًا. يُعتقد اليوم أن قبيلة تيوا اعتبرت الأرض هنا مقدسة أو أن لها قوة تأثير علاجية قبل مجيء الإسبان، ورأت القبيلة أن النساء الإسبانيات اكتسبن، أثناء انتشار طاعون الجدري في ثمانينيات القرن الثامن عشر، بعضًا من عاداتهم. إن اعتبار الأرض مقدسة يعني ربط الأدنى والأكثر مادية بالأعلى والأثيري لردم الفجوة بين المادة والروح. ويلمح، بشكل تخريبي، إلى أن العالم كله قد يكون مقدسًا وأن المقدس يمكن أن يكون

تحت الأقدام بدلًا من فوقها. في زيارات سابقة، أفهمت من خلال ما قيل لي إن البئر يفترض أن تملأ نفسها بنفسها بطريقة سحرية، وأن حالة اللانضوب هذه كانت وما تزال مادة للمعجزات منذ أبواق الشرب التي لا نهاية لها في الأدب السلتي ومضاعفة يسوع نفسه للأرغفة والأسماك. من المؤكد أن الحفرة في أرضية الكنيسة الترابية ما تزال بحجم دلو فقط بعد ما يقرب من قرنين على قيام المصلين بالغرف من ترابها للعودة بحفنة منه إلى حيث أتوا. لكن الأدبيات الدينية التي اشتريتها من مكان مجاور للكنيسة أوضحت أن الكهنة يضيفون ترابًا من مكان مبارك آخر، وفي يوم الجمعة العظيمة يوضع صندوق كبير مملوء بهذا التراب على المذبح.

تقول القصة إنه خلال أسبوع الآلام في أوائل القرن التاسع عشر، كان دون برناردو أبيتا، مالك أراضٍ من السكان المحليين، يؤدي أعمال الكفارة المعتادة لمجتمعه الديني في التلال حين رأى نورًا يسطع من حفرة في الأرض، حيث وجد صليبًا فضيًا فيها، ولدى حمله إلى كنائس أخرى، كان يُعثر عليه مرة أخرى في الحفرة في تشيمايو. بعد عودة الصليب إلى الحفرة ثلاث مرات، أدرك دون برناردو أن المعجزة مرتبطة بالموقع، فبنى كنيسة صغيرة هناك بين عامي ١٨١٤ و١٨١٦. كانت السمة العلاجية للأرض معروفة بالفعل عام ١٨١٣، حيث قيل إن رمي قبضة من ترابها في النار يهدئ العواصف. تتناسب قصة المعجزة مع النمط السائد في عديد من مواقع الحج، ولا سيما «دورة الرعاة» في العصور الوسطى، حيث يكتشف راعي البقر أو الراعي أو المزارع صورة مقدسة في الأرض أو في أي مكان متواضع آخر وسط انبثاق ضوء إعجازي أو موسيقى أو كلمات من الوحوش. صورة لا يمكن

نقلها، فالمعجزة والمكان واحد. كتب الباحثان تيرنر عن الحج المسيحي: «جميع مواقع الحج تشترك في هذا: يُعتقد أنها أماكن حدثت فيها معجزة، وما تزال تحدث، وقد تحدث مرة أخرى».

يقوم الحج على فكرة أن المقدس ليس لاماديًا بشكل مطلق، وأن هناك جغرافيا تمتلك قوى روحية. يسير الحج على خط دقيق بين الروحاني والمادي في تركيزه في القصة وموقع الأحداث: رغم أن البحث هو بحث عن الروحانية، يُسعى إليها عبر التفاصيل الأكثر مادية، حيث ولد بوذا أو حيث مات المسيح، حيث توجد الآثار أو أينما يتدفق الماء المقدس. أو لربما أنه يوفق بين الروحي والمادي، فالحج يجعل الجسد وأفعاله تعبّر عن رغبات النفس ومعتقداتها. يجمع الإيمان بالفعل، والتفكير بالعمل، ومن المنطقي أن يتحقق هذا الانسجام عندما يكون للمقدس حضور وموقع ماديان. كثيرًا ما اعترض بروتستانت، وكذلك بوذيون ويهود، على الحج باعتباره نوعًا من عبادة الأيقونات وأكدوا على ضرورة البحث عن الروحانيات داخل النفس باعتبارها لا مادية، وليس خارج النفس في العالم.

هناك علاقة من التعضي بين الرحلة والوصول في الحج المسيحي، كما هو الحال في رياضة تسلق الجبال. أن تسافر من دون أن تصل سيكون فعلًا ناقصًا بقدر ما هو أن تصل من دون أن تكون سافرت. المشي إلى هناك يعني الكد لاستحقاق ذلك، من خلال الكدح ومن خلال التحول الذي يحدث أثناء الرحلة. يتيح الحج إمكانية التحرك ماديًا، عبر إجهاد المرء لجسده، خطوة بخطوة نحو تلك الأهداف الروحية اللاملموسة التي يشق إدراكها بأي طريقة أخرى. إننا في حيرة أبدية بشأن كيفية

التحرك نحو الغفران أو التعافي أو الحقيقة، غير أننا نعرف كيف نمشي من هنا إلى هناك مهما بلغت الرحلة من عسر. نميل أيضًا إلى تخيل الحياة رحلةً، والخروج في رحلة استكشافية فعلية يقبض على هذا التصور ويحيله إلى شيء ملموس، ويؤديه عبر الجسد والخيال في عالم تروحنت جغرافياه. السائر الذي يقاسي على طول طريقٍ ما يطلب مكانًا نائيًا هو أحد أكثر الصور الآسرة والكونية لما يعنيه أن تكون إنسانًا، والتي تقدِّم الفرد صغيرًا ومنعزلًا في عالم ضخم، يركن إلى قوة الجسد والإرادة فقط. في الحج تشع الرحلة بالأمل في أن بلوغ الوجهة المادية سيجلب معه عوائد روحية. لقد حقق الحاج أو الحاجة قصة خاصة به أو بها، وبهذه الطريقة أيضًا أصبح جزءًا من الدين المؤلف من قصص السفر والتحول.

يلتقط تولستوي هذا في توق الأميرة ماريا في «الحرب والسلام»، بينما تطعم عددًا لا يحصى من الحجاج الروس الذين يمرون بمنزلها: «عندما كانت تستمع إلى حكايات الحجاج، كثيرًا ما تحمست بشدة لحديثهم البسيط الطبيعي بالنسبة إليهم، والمفعم بالمعاني العميقة بالنسبة إليها، كانت على وشك التخلي عن كل شيء والهروب من المنزل عدة مرات. في خيالها، تصورت نفسها بالفعل ترتدي خرقًا خشنة ومعها محفظتها ومستخدموها، وتسير على طريق مترب». تخيلت أن حياتها المليئة بالعزلة المتكلفة تصبح واضحة وخفيفة وكثيفة في وجود هدف يمكنها التحرك نحوه. يعبّر المشي عن بساطة من يحج وعن امتلائه بمبتغاه. كما كتبت نانسي فراي عن رحلة الحج الطويلة إلى سانتياغو دي كومبوستيلا في إسبانيا: «عندما يبدأ الحجاج بالمشي تبدأ أشياء في الحدوث لتصوراتهم عن

العالم عادة، وتستمر على مدار الرحلة: يطورون إحساسًا متغيرًا بالوقت، وتأوّجًا في الحواس، ووعيًا جديدًا بأجسادهم وبالمناظر الطبيعية... عبّر شاب ألماني عن ذلك هكذا: في تجربة المشي، كل خطوة فكرة. لا يمكنك الهروب من نفسك».

في الخروج إلى الحج، يترك المرء خلفه تعقيدات مكانه في العالم -الأسرة والارتباطات والمكانة والواجبات- ويصبح سائرًا بين السائرين، ليس هناك أرستقراطية بين الحجاج إلا في الإنجاز والإخلاص. يتحدث الباحثان تيرنر عن الحج كحالة بينية - حالة وجود المرء بين هويتيه الماضية والمستقبلية، وبالتالي خارج النظام المكرس، في حالة من الاحتمالية. تأتي البينية Liminality من الكلمة اللاتينية limin، أي العتبة، وقد تخطى الحاج هذا الخط رمزيًا وجسديًا: «يُجرَّد البينيون Liminars من المكانة والسلطة، ويزاحون من البنية الاجتماعية التي أُقرَت وحوفظ عليها بالسلطة والقوة. وتجري تسويتهم ضمن حالة اجتماعية متجانسة من خلال الانضباط والشقة. غير أن عجزهم الدنيوي هذا يمكن تعويضه بسلطة مقدسة، سلطة الضعفاء، المستمدة من انبعاث الطبيعة من جديد حين تُزال السلطة البنيوية من ناحية، ومن ناحية أخرى من تلقي المعرفة المقدسة. كثير مما كان مقيدًا بالبنية الاجتماعية يُحرر، لا سيما الشعور بالرفاقية والتواصل، أو الـ«كوميونيتاس»(14).

بدأنا بقدر كافٍ من السهولة، على جسر خشبي مسطح يقطع جدولًا يسقي الضفاف المحيطة محولًا إياها إلى خصوبة نادرة، ثم قطعنا حقل ذرة يعود إلى غريغ ومالين محفوفًا بالسنديان. من هناك مررنا من فوق قناة للري وعبرنا السياج الذي يفصل

أرضهما عن محمية نامبي، الأول من بين أسيجة كثيرة سنزحف تحتها أو نتدافع فوقها أو نفك مزلاج بوابة مثبت بالأسلاك ونمر منها. في المحمية، مررنا بالقرب من شلالات نامبي، كان في إمكاننا سماع هدير في مضيقها لكننا لم نتمكن من رؤيتها. أحببت أننا لم نرها، كان ذلك تذكيرًا بأننا لسنا في نزهة في الطبيعة ولا في منطقة أشخاص مشبعين بالتقاليد الأوروبية السائدة لمثل هذه النزهات.

لدى اقترابنا صار في إمكاننا سماع صوت الشلال، وبالذهاب إلى نقطة نتوء صخري والوقوف عليها رأينا جزءًا منه، لكن الرؤية الواضحة الوحيدة الممكنة على طريقنا ستكون اللمحة السريعة أثناء الهبوط من الجرف إلى القناة العميقة في الأسفل. ألقينا نظرة خاطفة على الحواف البيضاء الرغوية وقاع المجرى السفلي ثم تابعنا طريقنا. خلال النصف الأول من الرحلة، كنا نساير بعضنا خطوات بعض، ورغم أن الطريق فشل تمامًا في محاكاة صورته المتماسكة جدًا على الخرائط الطبوغرافية التي أطلعنا عليها غريغ، فإن الطرق الأخرى وقنوات الري والمعالم جعلته واضحًا بما فيه الكفاية بالنسبة إليه.

«أينما تذهب، أنت هناك»، كان يقول كلما سأله أحد منا إن كنا ضعنا. أمضينا صباحًا مبهجًا. قالت سو إنها كانت تتوقع منا أن نواصل في صمت كئيب، لكن الجميع رووا القصص وعلقوا بملاحظات. تناولنا أول وجبة خفيفة تحت شجرة خشب القطن على جانب الطريق قرب خزان سان خوان في محمية نامبي المجاورة لأرض غريغ، ثم مشينا عبر ضواحي بلدة المحمية بخيولها وأشجار الفاكهة وكوخ العرق(15) ومراعي الجاموس والعديد من المنازل

المتناثرة. على طول الطريق المؤدي إلى نامبي، أخبرتنا ميريدل عن أول تجربة لها في «العصر الجديد» في «سانتا في»، حين كانت «الأورا» لديها متوازنة في السبعينيات، كل واحد فينا استفسر وفكر في هذا المفهوم بشكل مختلف. علمتنا سو الاختصار AFGO ،another fu....g growth opportunity «فرصة... أخرى للتطور»، للإشارة إلى عدد كبير من الفرص الروحية (والانتهازيين) في «سانتا في». ثلاثة من مجموعتنا تلقوا تربية مسيحية، وأنا كشفت جزئيًا عن مرجعيتي حين ساعدت ميريدل في الاحتفال بعيد ميلادها الخمسين في عشاء العبور (بيساح) في اليوم التالي لمسيرتنا (نشأت على أنها يهودية غير متدينة، وأنا نشأت على أنني لا شيء من قبل أم كاثوليكية سابقة وأب يهودي لا يمارس اليهودية). وبما إن العشاء الأخير كان في يوم البيساح الذي يحتفل بالهروب من مصر، أضيفت الجمعة العظيمة وعيد الفصح إلى العيد اليهودي، وأقيم هذا الحج فوق طبقات من اللقاءات والمعاناة والتنقل والموت.

بدأنا نتباعد بعضنا عن بعض في شمال مستوطنة نامبي عندما وصلنا إلى امتداد الأرض الوعرة من الخث(16) الخشن، مع أعمدة نحتتها الرياح من الحجر الأحمر ترتكز على مساحة حارة خانقة من الرمل والحصى والتراب الأحمر يصل حتى المنحدرات الحمراء البعيدة. تباطأ مشي المرأتين الأخريين، وواصل الرجلان اللذان لا أعرفهما التقدم. التقينا كلنا عند طاحونة الهواء، التي شكلت تحولًا في التضاريس والاتجاه، استرخينا حولها في ظل خزانها الفارغ من الماء. بعد ذلك، قرر غريغ وسو أخذ طريق آخر بالالتفاف حول التل لأنها كانت

منهكة، بينما سيكمل البقية منا الطريق مباشرة. كشفت الأرض الوعرة عن مزيد من تلك التضاريس المعقدة والهضاب التي يصعب العبور منها، وبدلًا من المرور فوق التل الوحيد كما توقعت، وجدنا أنفسنا نصعد ونهبط عددًا لا يحصى من مرتفعات التربة الحمراء الممسمرة بالأشجار. نادينا عليهما، لكننا لم نعثر عليهما، فواصلنا السير. كان أحد الرجال قد تقدَم بعيدًا إلى الأمام، والاخر يمشي أسرع من ميريديل. إنها امرأة رياضية، لكن جسدها صغير وقد أصيبت في ركبتها، فأصبحت خطواتها أقصر. كان تفرقنا هكذا مثبطًا. عندما أفكر في ما كنا نفعله، كان ينبغي أن يكون أشبه بتجربة الجنة المتحققة: الأصدقاء الأعزاء والمعارف الجدد اللطيفون يتحركون عبر مناظر طبيعية متنوعة نحو هدف رائع تحت سماء لازوردية. لكن، للأسف، أجسادنا مختلفة وأساليبنا مختلفة. شعرت بالإحباط خلال الساعات القليلة الماضية بسبب وتيرة المشي. يتوقف شخص ما لسحب منظاره أو للتشاور، ويتوقف الجميع لفترة طويلة. الوقوف أو التجول ببطء يؤلم قدمي، لهذا تكون المتاحف ومراكز التسوق أكثر إيلامًا من الجبال.

وإذا كان الشيطان يكمن في التفاصيل، فإن شيطاني كان في حذائي الثقيل الذي ظننت أنني طوعته لكنه بدأ يضغط على قدمي من جديد. لذلك تأرجحت في مشيي بين الرجل الذي أمامي والمرأة التي خلفي حتى وصلنا أخيرًا إلى الأراضي العشبية المفتوحة. وصل ثلاثة منا معًا إلى الطريق على الجانب الاخر من المراعي. كان هناك سيل مستمر من المشاة والسيارات يمر -الذي في المقدمة كان صعودًا، والمتأخر كان يتحرك في الاتجاهين- وانضممنا ميريدل وأنا إليه. أصبحنا الان جزءًا من

مجتمع أكبر بكثير ممتد لعشرات الأميال على طول الطريق السريع وهو خط الحج الرئيسي. بقايا زجاجات المياه الفارغة وقشور البرتقال كانت دليلًا على وجود المتطوعين على طول الطريق، أشخاص يأتون كل عام ويقيمون طاولات تحمل شرائح من البرتقال والماء والمشروبات الغازية والكعك، وأحيانًا حلوى عيد الفصح التي كان الجميع مدعوًا للأخذ منها. كان هذا واحدًا من أكثر الأجزاء المؤثرة في رحلة الحج بالنسبة إليّ، هؤلاء الأشخاص الذين لم يخرجوا لخلاص أنفسهم ولكن لمساعدة آخرين على القيام بذلك.

في يوم الجمعة العظيمة من العام السابق، أذهلتني قلة استعدادات معظم الحجاج للمشي لمسافات طويلة. كانت ملابسهم اليومية التي أتوا بها بمثابة توبيخ لي على ملابسي، فهذه ليست رحلة كشفية. وثابر كثير من الناس ذوي الوزن الزائد ممن بدا كأنهم لم يمشوا كثيرًا من قبل. هذا العام كان اليوم أكثر دفئًا، كل شيء كان مختلفًا: مع أقدامنا المتألمة وحقائبنا، ظهرنا أكثر جدية وإصرارًا من الحجاج الشباب المبتهجين الذين يرتدون سراويلهم القصيرة الملونة والجينز والقمصان (رغم أن جيري زوج ميريدل قال عندما لقينا في تشيمايو إنه رأى امرأة من بلدة صغيرة جدًا تسير مرتدية فستانًا أبيض فاخرًا: «ذلك النوع من الثياب الذي تتزوجين أو تدفنين فيه». وقبل يومين وعلى بعد ثلاثين ميلًا غربًا، رأيت رجلين يرتديان زيًا عسكريًا يسيران شرقًا، أحدهما يحمل صليبًا كبيرًا). في كل مرة انضممت فيها إلى رحلة الحج، كان لدي شعور غريب بأنني كنت أسير جنبًا إلى جنب مع أناس في عالم آخر، عالم المؤمنين، أناس بالنسبة إليهم سانتواريو التي يصعدون الطريق إليها تحتضن قوة محددة

في كوزموس منظم حول الثالوث، والدة الرب والقديسين وجغرافيا الكنائس والأضرحة والمذابح وطقوس الأسرار المقدسة. لكنني عانيت مثل أي حاج. كانت قدماي تقتلني.

رحلات الحج ليست أحداثًا رياضية، ليس فقط لأنها تعاقب الجسد غالبًا، ولكن لأن من يقوم بها عادة هم أولئك الذين يسعون إلى استعادة صحتهم أو صحة من يحبون. إنهم الأقل، عوض أن يكونوا الأكثر، جاهزية. أخبرني غريغ، عندما اتصلت به لأسأله عمّا إذا كان في إمكاني الانضمام إلى الحج معه، أنه حين أصيب بسرطان الدم عقد صفقة مع الآلهة. وفي إطار مزاجه المرح المتساهل نفسه الذي يستخدمه في مواضيع أخرى، كانت شروط الصفقة مرنة: أنه إن عاش سيحاول أن يذهب إلى الحج عندما يستطيع. كانت هذه سنته الثالثة في طريق الحج، والذي أصبح أسهل كل سنة. قبل أربعة أعوام، عندما كان مريضًا مرضًا قاتلًا، سار جيري وميريديل بدلًا منه وأحضرا له بعض التراب من سانتواريو.

في أسبوع عيد الفصح الذي كنا نسير فيه إلى تشيمايو، ستقام رحلة حج مماثلة من باريس إلى تشارتر للمرة الثانية، وسوف تتجمع حشود أكبر بكثير من المسيحيين في روما والقدس. في نصف القرن الأخير أو نحو ذلك، تطورت مجموعة واسعة من رحلات الحج العلمانية وغير التقليدية التي وسعت مفهوم الحج إلى المجالات السياسية والاقتصادية. قبل وقت قصير من مغادرتي، نظمت مسيرة في سان فرانسيسكو لإحياء ذكرى عيد ميلاد المزارع سيزار شافيز، تحت شعار «مسيرة من أجل العدالة» تقطع المدينة، وفي ممفيس بولاية

تينيسي احتفل ناشطو الحقوق المدنية بالذكرى الثلاثين لاغتيال مارتن لوثر كينغ هناك بمسيرة أخرى. في الجنوب الغربي خلال شهر إبريل، كان في إمكاني بدلًا من الحج الانضمام إلى تجربة صحراء نيفادا بقيادة الفرنسيسكان في مسيرة السلام السنوية من لاس فيغاس إلى موقع اختبار نيفادا (أشبه بطريق حج آخر من تشيمايو إلى لوس الاموس، مسقط رأس القنبلة الذرية على بعد ثلاثين ميلًا غربًا). ثم كان هناك سباق المشي السنوي الذي تنظمه جمعية ضمور العضلات في الأسبوع الأول من إبريل، ومسيرة «ووك أميركا» WalkAmerica التابعة لـ«مسيرة دايمز» March of Dimes في نهاية الأسبوع الأخير من الشهر نفسه. كما عثرت على نشرة في غالوب بنيومكسيكو، لشركة «الأميركيون الأصليون من أجل العمل المجتمعي»، أعلن فيها عن سباق الصلاة السنوي الخامس عشر على الجبل المقدس لمسافة عشرة كيلومترات، وكيلومترين من «الجري/المشي للمرح» في فلاغستاف في شهر يونيو، والذي يشبه «سباق الروح» الذي نظمته القبائل الخمس التي تقاوم مكب النفايات النووية المقترح في وادي وورد في جنوب شرق كاليفورنيا، وكنت أعلم أن المسيرات السنوية لسرطان الثدي والإيدز تقام في حديقة البوابة الذهبية في سان فرانسيسكو ومواقع أخرى في جميع أنحاء البلاد. ولا شك أن شخصًا ما يسير عبر القارة في مكان ما لسبب وجيه آخر. كل هذه كانت ثمار الحج أو تكييفًا لشروطه.

تخيلوا تلك النسخ المعدَلة من الحج نهرًا عظيمًا من السائرين يتدفق من منابع عدة. تأتي أول قطرة صغيرة، مثل ذوبان الجليد في شهر مارس من نهر متجمد مرتفع، من امرأة واحدة منذ نصف قرن

تقريبًا. في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، انطلقت امرأة معروفة للعالم فقط باسم «حاجة السلام»، تعهدت «بالبقاء جوالة إلى أن تتعلم البشرية طريق السلام». تلقت منذ سنوات نداء لتفعل ذلك عندما كانت تسير طوال الليل عبر الغابة وشعرت، على حد تعبيرها: «برغبة كاملة، من دون أي تحفظات، في إعطاء حياتي لله وللخدمة»، واستعدت لتلبية هذا النداء بالمشي لمسافة ٢٠٠٠ ميل على درب الأبالاتش(17). نشأت في مزرعة ونشطت في سياسات السلام قبل أن تتخلى عن اسمها وتبدأ رحلة الحج، كانت شخصية أمريكية مميزة، صريحة وواثقة بأن بساطة الحياة والفكر الذي ساعدها يمكن أن يساعد الجميع. رواياتها المبهجة عن السنوات الطويلة التي قضتها في السير على الطرق والتحدث مع الذين لقيتهم ليست مثقلة بالتعقيد أو العقيدة أو الشك ووافرة بعلامات التعجب.

بدأت حاجة السلام رحلتها بالانضمام إلى موكب صحن الورود Rose Bowl Parade في باسادينا، ثمة شيء في بدئها الأوديسا الخاصة بها من هذا الاحتفال المبتذل يذكر بشخصية دوروثي في «ساحر أوز»، فتاة المزرعة العازمة على فعل المستحيل «أنا أستطيع» تقول، فتبدأ مغامرتها من درب الطوب الأصفر وسط رقص الفنشكنز(18). واصلت المشي لثمانية وعشرين عامًا في جميع أنواع الطقس وفي كل ولاية ومقاطعة كندية وكذلك أجزاء من المكسيك. كانت في الخامسة والأربعين عندما انطلقت في حجها لأول مرة، ترتدي بنطالًا وقميصًا باللون الأزرق الداكن، وحذاء تنس، وسترة زرقاء داكنة ظبع على صدرها عبارة حاجة

السلام Peace Pilgrim وتغيرت العبارة المكتوبة على ظهرها على مر السنين من «المشي من الساحل إلى الساحل من أجل السلام» إلى «المشي ١٠٠٠٠ ميل من أجل نزع السلاح العالمي» ثم إلى «٢٥٠٠٠ ميل على القدمين من أجل السلام». يظهر شيء من تقواها العملية والحيوية في تفسيرها لاختيار اللون الأزرق الداكن، حيث كتبت: «لا يظهر عليه الاتساخ، ويمثل السلام والروحانية». رغم أنها تعزو صحتها الاستثنائية وقدرتها على التحمل إلى روحانيتها، فمن الصعب ألّا نتساءل إن كان العكس هو الصحيح. واصلت حجها بملابسها البسيطة وسط عواصف ثلجية ومطر وعواصف ترابية قاسية وحرارة مرتفعة، تنام في المقابر، في محطة غراند سنترال، على الأرضيات، وعلى أريكة أحد معارفها الجدد الذين يتوالون بلا آخر.

رغم أن معظم كتاباتها ليست متحزبة، فإنها اتخذت موقفًا قويًا بشأن السياسات القومية والعالمية، وجادلت ضد الحرب الكورية والحرب الباردة وسباق التسلح والحرب بشكل عام. كانت الحرب في كوريا ما تزال مستمرة عندما انطلقت من باسادينا، وكذلك الترهيب الذي مارسه السيناتور جو مكارثي ضد الشيوعيين، واحدة من أكثر الفترات كآبة في التاريخ الأمريكي، حيث دفع الخوف من الحرب النووية ومن الشيوعية معظم الأمريكيين إلى أقبية الامتثال والقمع. حتى الجدال من أجل السلام كان يتطلب شجاعة بطولية. أن تنطلق، مثلما فعلت حاجة السلام في اليوم الأول من عام ١٩٥٣، من دون أي شيء أكثر من لبسها الوحيد، الذي تحتوي جيوبه على «مشط، وفرشاة أسنان قابلة للطي، وقلم حبر جاف، ونسخ من رسالتها، ومراسلاتها الحالية»، كان أمرًا مذهلًا. وبينما كان

الاقتصاد مزدهرًا وأصبحت الرأسمالية مقدسة باعتبارها سرًا من أسرار الحرية، انسحبت من الاقتصاد النقدي، ولم تحمل أو تستخدم المال أبدًا لبقية حياتها. تقول عن افتقارها إلى الممتلكات المادية: «فكروا كم أنا حرة! إذا كنت أرغب في السفر، فما عليّ سوى الوقوف والرحيل. ليس هناك ما يقيدني». كانت نماذجها مسيحية إلى حد كبير، رغم ذلك يظهر أن رحلة حجها نشأت من نفس أزمة الثقافة والروحانية في خمسينيات القرن الماضي التي دفعت جون كيج وغاري سنايدر وعديدًا من الفنانين والشعراء الآخرين إلى إجراء تحقيقات حول بوذية زن وغيرها من التقاليد غير الغربية، والتي أرسلت مارتن لوثر كينغ إلى الهند لدراسة تعاليم غاندي حول اللاعنف والساتياغراها أو قوة الروح.

أغلب من يحيدون عن الاتجاه السائد ينسحبون من مساحاته أيضًا، لكن حاجة السلام انسحبت من الأول لتدخل الأخيرة، حيث سيكون لزامًا عليها أن تجسّر الفجوة بين معتقداتها والأيديولوجيا القومية - لقد كانت مبشرة بقدر ما كانت حاجة. شرعت في السير مسافة ٢٥ ألف ميل من أجل السلام، واستغرق الأمر منها تسع سنوات لتحقيق ذلك. بعد ذلك، واصلت المشي من أجل السلام لكنها توقفت عن عدّ الأميال. وكما قالت: «أمشي إلى أن أحصل على مأوى، وأصوم إلى أن أحصل على طعام. لا أطلب، بل يُعطى لي من دون طلب. أليس الناس طيبين! ... أمشي عادةً بمعدل خمسة وعشرين ميلًا يوميًا، حسب عدد الأشخاص الذين يتوقفون ليتحدثوا معي في الطريق. قطعت نحو خمسين ميلًا في يوم واحد للحفاظ على موعد أو لأنني لم أجد مأوى متاحًا. في الليالي الباردة جدًا أمشي طوال الليل

لأظل دافئة. ومثل الطيور أهاجر شمالًا في الصيف وجنوبًا في الشتاء». فيما بعد أصبحت متحدثة في لقاءات عامة معروفة على نطاق واسع وقبلت في بعض الأحيان توصيلة بسيارة أحدهم تأخذها إلى اجتماعات ستلقي فيها كلمة. ومن سخرية القدر أنها ماتت في حادث سيارة في يوليو ١٩٨١.

مثل كل من يحج، دخلت الحالة البينية التي وصفها تيرنر لاحقًا، تاركة وراءها هوية عادية، بالأشياء والظروف التي تدعم هذه الهويات، لتحقيق تلك الحالة من البساطة المجهولة والغاية الواضحة اللتين تاقت إليهما أميرة تولستوي ماريا. أصبح مشيها شهادة على قوة قناعاتها ويقترح عدة أشياء: الأول أن العالم كان في ورطة من الصعوبة بمكان حتى أنها اضطرت هي نفسها إلى التخلي عن اسمها العادي وحياتها العادية لمحاولة مشافاته. الثاني أنها إذا تمكنت من الانفصال عن المألوف والمضي في ما تريد دون حماية بـ مالٍ ومبانٍ ومكان في العالم، فربما أن التغيير والثقة العميقين أمران ممكنان على نطاق أوسع. والثالث هو أنها الحاملة: مثل المسيح الذي يحمل خطايا جميع أتباعه أو كبش الفداء العبري الذي طرد إلى البرية مثقلًا بخطايا المجتمع، فقد تحملت المسؤولية الشخصية عن حالة العالم، وكانت حياتها شهادة وتكفيرًا مثلما كانت مثلًا أيضًا. لكن ما هو ليس تقليديًا في تجربتها أنها كيفت شكلًا دينيًا، وهو الحج، ليحمل محتوى سياسيًا. تعامل الحج التقليدي مع المرض وشفاء النفس أو الأحباء، وتعامل حجها مع الحرب والعنف والكراهية كأوبئة تخرّب العالم. المحتوى السياسي الذي دفعها والطريقة التي سعت بها إلى تحقيق تغييرٍ ما عبر التأثير في أقرانها من البشر بدلًا من التدخل الإلهي،

جعلها الأولى في حشد من الحجاج السياسيين المعاصرين.

تنبأت بهذا التحول في طبيعة الحج، من المناشدة للتدخل الإلهي أو المعجزة المقدسة إلى المطالبة بالتغيير السياسي، فلم يعد المتفرج إلهًا أو آلهة، بل عموم الناس. ربما أن فترة ما بعد الحرب كانت نهاية الاعتقاد بأن التدخل الإلهي وحده يكفي؛ لقد فشل الله في منع المحرقة اليهودية، واستولى اليهود على أرض الموعد بوسائل سياسية وعسكرية. وتوقف الأميركيون من أصل إفريقي، الذين استخدموا لأمدٍ مجازات الأرض الموعودة، عن الانتظار أيضًا. وفي ذروة حركة الحقوق المدنية، قال مارتن لوثر كينغ إنه ذاهب إلى برمنغهام لقيادة المظاهرات إلى أن «يطلق فرعون سراح شعب الله». تجمع المسيرة الجماعية بين أيقونة الحج وصورة المارش العسكري والإضراب العمالي والمظاهرة: إنها استعراض للقوة وكذلك للقناعة، ومناشدة للقوى المؤقتة وليس الروحية، أو ربما في حالة حركة الحقوق المدنية الاثنين على حد سواء.

بسبب مشاركة عديد من الكهنة، وممارسة اللاعنف، ولغة الخلاص الديني، بل والاستشهاد أحيانًا، كانت حركة الحقوق المدنية أكثر تشبعًا بمزاج وصور الحج من معظم النضالات. تعلق الأمر في جزء كبير منه بحقوق السود ومعركتها التي خيضت أولًا في المواقع المتنازع عليها: الجلوس في الحافلات ثم مقاطعتها، وإحضار الأطفال إلى المدارس، والجلوس على كاونترات الغداء. لكنها وجدت زخمها في الأحداث التي وحدت الاحتجاج أو الإضراب مع الحج: في المسيرة من سلما إلى مونتغمري بهدف تقديم التماس المطالبة بحق

التصويت، والمسيرات العديدة في برمنغهام وفي أنحاء البلاد كلها، حيث بلغت أوجها في واشنطن. في الواقع، كان «حج الصلاة» أول حدث كبير نظمه مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية (SCLC) الذي أسس حديثًا عند نصب لنكولن التذكاري في واشنطن العاصمة، في ١٧ مايو ١٩٥٧، وهو الذكرى الثالثة لحكم المحكمة العليا لصالح الفصل العرقي في المدارس. وقد سُمّيت التظاهرة بهذا الاسم لجعلها تبدو أقل تهديدًا، فالحج يوجه نداء بينما المسيرة تطالب. تأثر كينغ تأثرًا عميقًا بكتابات وأفعال المهاتما غاندي، واقتبس منه المبدأ العام المتمثل في اللاعنف وخصائص المسيرات والمقاطعات التي عجلت بتحرير الهند من الحكم البريطاني. ربما كان غاندي هو مؤسس الحج السياسي بمسيرته الشهيرة التي امتدت ٢٠٠ ميل في عام ١٩٣٠، «مسيرة الملح» حين مشى والعديد ممن كانوا يعيشون في الداخل إلى البحر لصنع ملحهم بأنفسهم منتهكين القانون البريطاني والضرائب البريطانية. اللاعنف يعني أن الناشطين يطلبون من مضطهديهم التغيير بدلًا من قسرهم عليه، ويمكن أن يكون أداة استثنائية لمن هم أقل قوة ينتزعون بها التغيير من الأقوى.

بعد ست سنوات من تأسيس مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية، قرر مارتن لوثر كينغ أن المقاومة اللاعنفية في حد ذاتها لا تكفي، ولا بد من الكشف علنًا عن العنف الذي مارسه دعاة الفصل العنصري في الجنوب ضد السود على الملأ قدر الإمكان. لن يظل الجمهور من المضطهدين وحسب بل سيصبح العالم. كانت هذه هي إستراتيجية نضال برمنغهام، ربما كانت الحلقة المركزية لحركة الحقوق المدنية، التي بدأت يوم الجمعة العظيمة

عام ١٩٦٣ مع المسيرة الأولى من بين عديد من المسيرات أو المواكب. ومن هذه الاحتجاجات جاءت الصور الأشهر، حيث ضَدَ الناس بخراطيم إطفاء الحريق ذات الضغط العالي، ووحشية الكلاب البوليسية، وهي الصور التي أثارت السخط في جميع أنحاء العالم. قُبض على كينغ ومئات آخرين بسبب مسيرة برمنغهام. وبعد أن بدأ عدد البالغين المستعدين للخروج يتراجع، جُند طلاب المدارس الثانوية وتطوَع أشقاؤهم الأصغر سنًا، ساروا من أجل الحرية بابتهاج جريء، وفي الثاني من مايو من ذلك العام اعتُقل ٩٠٠ من هؤلاء الأطفال. خروجهم إلى الشوارع وهم يعلمون أنهم معرضون لخطر الهجوم والإصابة والاعتقال والموت يتطلب تصميمًا استثنائيًا، ويبدو أن الحماس الديني للمعمدانيين الجنوبيين وكذلك الأيقونات المسيحية للاستشهاد قد شدَت من عزائمهم. بعد شهر من بدء حملة برمنغهام، ذكر أحد كتّاب سيرة كينغ: «قاد القس تشارلز بيلابس وغيره من قساوسة برمنغهام أكثر من ٣٠٠٠ شاب في رحلة حج للصلاة عند سجن برمنغهام وهم يغنون «أريد أن يمشي يسوع معي» بينما يتحركون».

لأشهر عديدة ظلّت صورة فوتوغرافية لمسيرة سلما-مونتغمري عام ١٩٦٥ معلقة على ثلاجتي. إنها صورة تقول شيئًا عن هذه المسيرة الملهمة، التقطها مات هيورن، وتُظهر تدفقًا من المتظاهرين بعرض ثلاثة أو أربعة أشخاص يتحركون من اليمين إلى اليسار عبر الصورة. لا بد أنه استلقى على الأرض ليأخذها، لأنها ترفع الأشخاص عاليًا مقابل سماء شاحبة وملبدة بالغيوم. كأنهم يعرفون أنهم يسيرون نحو التحول وفي التاريخ، خطواتهم واسعة، أيديهم مرفوعة، ثقة في هيئة أجسادهم تعبر عن الإرادة

التي يذهبون بها لمقابلة ذلك التحول. وجدوا في هذه المسيرة طريقة لصنع تاريخهم بدلًا من التعذب بسببه، طريقة لقياس قوتهم واختبار حريتهم، حركتهم تعبر عن الإحساس نفسه بالمصير والمعنى الذي يتردد صداه في الخطابة التي لا تقهر لكينغ بصوته العميق.

في عام ١٩٧٠، أُخذ شكل الحج إلى ما هو أبعد عن أصوله عندما نُظم أول سباق تحمل للمشي «ووكاثون» بواسطة «مسيرة الدايمز». يقول توني تشوبا، الذي يعمل على هذه المسيرات منذ عام ١٩٧٥ وهو مؤرخها غير الرسمي، إن الأمر كان محفوفًا بالمخاطر في ذلك الوقت، لأن المشي في الشوارع بشكل جماعي كان مرتبطًا بمظاهرات أكثر تطرفًا. كان أول المشاركين في المسيرة من طلاب المدارس الثانوية في سان أنطونيو بتكساس، ومن كولومبوس بأوهايو، وضَمت «المسيرة» الأولى على غرار حملةٍ جرت سابقًا لجمع التبرعات لمستشفى في كندا. يقول إن المطر هطل على المسيرتين (في تكساس وأوهايو)، ولم يكن هناك مال، إنما كان هناك قدرات كبيرة. خرج الناس بالفعل ومشوا. ومع تقدم السنوات، اختصر المسار من خمسة وعشرين ميلًا إلى عشرة كيلومترات، وكبرت المشاركات بسرعة. في العام الذي مشينا فيه إلى تشيمايو من أرض غريغ، كان من المتوقع أن ينضم ما يقرب من مليون شخص إلى ما يعرف بـ«مسيرة الدايمز» وهي الآن WalkAmerica، سيجمعون حوالي ٧٤ مليون دولار للرعاية الصحية للرضع ورعاية ما قبل الولادة ودعم البحوث. رعت شركتا كي -مارت وكيلوغز المسيرة من بين شركات أخرى. وتبنت مئات المنظمات هذا الهيكل لماراثون المشي -شركات ترعى الحدث مقابل فرص ترويجية ومشاة

يجمعون الأموال لصالح المؤسسة الخيرية- وأغلبها تتعامل مع الأمراض والرعاية الصحية.

في الصيف الماضي، صادفت مسيرة الإيدز السنوية الحادية عشرة في سان فرانسيسكو في حديقة «غولدت غيت». تجول حشد كبير من أشخاص يرتدون سراويل قصيرة وقبعات حول المنطقة التي سينطلقون منها في ذلك اليوم المشمس، حاملين عديدًا من المشروبات والإعلانات وعينات المنتجات المجانية. تكوَن كتيب المئة صفحة للمسيرة كله تقريبًا من إعلانات لعشرات الشركات الراعية -شركات الملابس وسمسرة البيوت- التي كانت لديها أيضًا طاولات حول العشب. كان الجو غريبًا، وسط صالة الألعاب الرياضية والمؤتمرات مليئًا بالشعارات والإعلانات. ومع ذلك، لا بد أنه كان بالنسبة إلى بعض المشاركين فيه جوًا عميقًا. في اليوم التالي، قالت الصحيفة إن ٢٥ ألفًا من المشاة جمعوا ٣.٥ مليون دولار لمنظمات الإيدز المحلية، ووصفت أحد المشاركين وقد ارتدي قميصًا ظبعت عليه صورة ولديه اللذين توفيا بسبب الإيدز، وقال: «لن نتجاوز الأمر أبدًا. المشي هو وسيلة للتعامل معه».

أصبحت مسيرات جمع الأموال هذه هي النسخة الأمريكية السائدة من الحج. ابتعدت بطرق عديدة عن طبيعتها الأصلية، ولا سيما في التطور من المناشدة الدينية للتدخل الإلهي إلى طلب المال من الأصدقاء والعائلة بشكل عملي. ومع ذلك، مهما كانت هذه المسيرات مبتذلة، فإنها تحتفظ بكثير من محتوى الحج: موضوع الصحة والشفاء، ومجتمع الحجاج، وتحقيق الهدف من خلال المعاناة أو على الأقل إجهاد الجسد. المشي أمر حاسم

في هذه الفعاليات، أو على الأقل كان كذلك. ثم ظهرت ماراثونات الدراجات الهوائية إلى الوجود، أما آخر إهانة لهذا الشكل المتغير من الحج فهي المسيرة الافتراضية، بما في ذلك مسيرة «بلا مشي» nonwalk التابعة لمعهد سان فرانسيسكو للفنون، وفيها يُطلب من الأشخاص التبرع بالمال ويُعطون قميصًا من دون أن يكونوا ملزمين بالحضور، وكذلك «مسيرة «إلى أن ينتهي» الإلكترونية» Until It's Over e-March التابعة لمنظمة «إيدز أكشن»، والتي اقترحت أن يوقع المشاركون أسماءهم إلكترونيًا في رسالة على الإنترنت كبديل من المسير أو المشي.

لحسن الحظ، فإن مارثونات المشي ليست نهاية القصة. رغم استمرار ظهور أشكال متحولة من الحج، فإن الأشكال القديمة تزدهر أيضًا، من الحج الديني إلى المسيرات السياسية الطويلة. بعد شهر من قيام ٢٥ ألف شخص بالمشي مسافة عشرة كيلومترات لجمع الأموال لمنظمات مكافحة الإيدز في سان فرانسيسكو، أنهى مستشار تأهيل وإصلاح أفراد العصابات جيم هيرنانديز والمسؤولة عن تنظيم مسيرة مكافحة العنف هيذر تايكمان مسافة ٥٠٠ ميل من شرق لوس أنجلوس إلى ريتشموند، كاليفورنيا، حاملين أكثر من ١٥٠ صورة لشباب راحوا ضحايا جرائم قتل، والتقوا المراهقين على طول الطريق. وفي عام ١٩٨٦، شكّل مئات الأشخاص مسيرة السلام الكبرى، ساروا عبر الولايات المتحدة معًا للمطالبة بنزع السلاح في رحلة حج جماعية خلقت لنفسها ثقافتها الخاصة وهيكل دعمها وكان لها تأثير كبير في بعض البلدات الصغيرة التي مرت منها. بدأت المسيرة كنوع من فعالية دعائية، ولكن في مكان ما على طول الطريق الطويل،

سيطر المشي نفسه عليها وأصبح السائرون أقل اهتمامًا بالإعلام والميديا والرسائل وأكثر اهتمامًا بما كان يحدث داخل أنفسهم. وفي عام ١٩٩٢، فعلت مسيرتان أخريان من أجل السلام عبر القارات الشيء نفسه تقريبًا، ومثل المشاة في مسيرة السلام الكبرى، استلهموا فكرة المسيرة من حاجة السلام. وأقيمت مسيرات مماثلة عبر الاتحاد السوفييتي وأوروبا خلال أوائل التسعينيات. وفي عام ١٩٩٣، أعاد جامعو الفراولة وغيرهم من أنصار عمال المزارع المتحدين (UFW) تمثيل المسيرة العظيمة الممتدة لثلاثمائة ميل من ديلانو إلى ساكرامنتو والتي نظمها سيزار شافيز عام ١٩٦٦ وأسماها حجًا.

حتى من هم على درجة عالية من الثقافة يخضعون لإلحاح الرغبة في الحج. بغض النظر عن البنية الفوقية للدين فإن محنة المشي اختبار مقنع. كتب المخرج فيرنر هيرزوغ: «في نهاية نوفمبر ١٩٧٤، اتصل بي صديق من باريس وأخبرني بأن لوته أيسنر (مؤرخة سينمائية) كانت مريضة جدًا ومن المحتمل أن تموت. قلت: هذا لا ينبغي أن يحدث، لا تستطيع السينما الألمانية الاستغناء عنها الآن، ولن نسمح بموتها. أخذت سترة وبوصلة وحقيبة من القماش الخشن تحتوي على الضروريات. كان حذائي متينًا وجديدًا حتى أنني كنت أثق به. انطلقت على الطريق المباشر إلى باريس، بكل إيمان، معتقدًا أنها ستبقى على قيد الحياة إذا أتيتها ماشيًا. كما أنني أردت أن أكون وحدي مع نفسي». مشى عدة مئات من الأميال من ميونيخ في الشتاء، مبتلًا غالبًا، رائحته كريهة غالبًا، عطشان غالبًا، ويعاني ألمًا شديدًا في جزء من قدميه وساقيه.

هيرتزوغ، كما يعلم أي شخص شاهد أفلامه،

مولع بالعواطف العميقة والسلوك المتطرف مهما كان غامضًا، وفي مذكراته عن رحلته الطويلة إلى باريس، اتخذ سمات أحد المهووسين في أفلامه. مشى في جميع الأحوال الجوية، رغم أنه قبل أحيانًا أن يوصله أحدهم، نام في الحظائر والبيوت المتنقلة المخصصة لاستخدامات العروض التي اقتحمها، وكذلك في منازل غرباء وفنادق صغيرة. يصف نثره المختصر المشي والمعاناة واللقاءات الثانوية وأجزاء من المشهد. الأوهام المفصلة التي تبدو في حد ذاتها خطوطًا عريضة لأفلامه منسوجة في وصف محنته. في اليوم الرابع: «كنت أتغوط حين مر أرنب على مسافة ذراع مني من دون أن يلحظني. كان هناك بقعة بلون البراندي على فخذي الأيسر تؤلمني من أعلى الفخذ إلى الأسفل مع كل خطوة. لماذا يمتلئ المشي بالمحن؟». في اليوم الحادي والعشرين، وضع قدميه في غرفة أيسنر، فابتسمت له: «في لحظة عابرة رائعة، تدفق شيء رقيق عبر جسدي المنهك بشدة. فقلت لها: افتحي النافذة، من هذه الأيام الأخيرة فصاعدًا صار في إمكاني الطيران».

نحن أيضًا وصلنا، مشينا على امتداد الطريق المنحني إلى تشيمايو. جلست أنا وسال وانتظرنا ميريدل على الرصيف. مرت أمامنا سيارات ورجال شرطة وأطفال يحملون حلوى الـ سنوكونز المثلجة، خلفنا أشجار الفاكهة المتقزمة مزهرة في مرعى عشبي مليء بالنتوءات. بعد ذلك، ذهب سال للوقوف في الطابور الطويل أمام سانتواريو، وذهبت لشراء عصير الليمون لنا من كشك طعام متنقل صغير عند الزاوية بالقرب من كنيسة سانتو نينو، حيث اعتاد الناس على تقديم أحذية الأطفال، إذ يُقال إن سانتو نينو، وهو نسخة من

المسيح الطفل، قد أبلى حذاءه وهو يقوم بجولات الرحمة في أنحاء الريف ليلًا. كان لطيفًا أن أعود إلى أرض مألوفة. أعرف ما كان موجودًا داخل سانتواريو، وفكرت في آلاف الصلبان المغزولة في السياج المشبّك خلف الكنيسة الخارجية في الأسفل، والصلبان المصنوعة من الأغصان الصغيرة والأكبر حجمًا لكروم العنب وأشجار خشب القطن، ثم فكرت في قناة الري التي تتدفق على الجانب الآخر من الوادي، في السياج، والنهر الضحل السريع الذي يمر عبر المدينة، وكشك البوريتو الذي يبيع بدائل خالية من اللحوم للصوم الكبير، والمنازل القديمة المبنية من اللّبن وبيوت المقطورات التي بدأ يظهر عليها القدم، وعديد من اللافتات الفظة: «ملاحظة: من فضلك لا تترك متعلقاتك من دون مراقبة في أي وقت»، «لسنا مسؤولين عن السرقة»، «احذر من الكلاب». تشيمايو مدينة فقيرة جدًا، معروفة بالمخدرات والعنف والجريمة بقدر ما هي معروفة بالقداسة. كان جيري ويست ينتظر زوجته، ميريدل، أمام تلك الكنيسة، وأنا قمت بآخر مشوار على قدمي مع الليمونادا، حملت العصير إلى سال لأودعه، وانطلقت إلى وجهتي النهائية. سيأتي عشرة آلاف حاج إلى المدينة تقريبًا ويقفون في الطابور للذهاب إلى الكنيسة في ذلك اليوم، جيري وجد غريغ وسو يقفان في الطابور للدخول أيضًا. عندما غادرنا بعد طلوع القمر، كان مزيد من الناس ما زالوا يمشون على كتف الطريق الضيق في الليل، مجموعات غامضة لم تغد تبدو احتفالية في الظلام، بل مخلصة وهشة.

الفصل الخامس
متاهات وكاديلاك
المشي في مجال الرمزي

لم أمانع ألّا أدخل الكنيسة في تشيمايو مع الطابور الطويل من الحجاج الصابرين، من حيث أن لديّ وجهة أخرى أقصدها. في العام الفائت مشيت الأميال الستة الأخيرة تقريبًا من رحلة الحج، وفي محاولة اللحاق، بعد ذلك، بصديقي الذي جاء بسيارته، مررت بالقرب من سيارة كاديلاك رسمت عليها مراحل درب الصليب. واصلت المشي بعد أن ألقيت نظرة سريعة عليها، ثم قمت بأبطأ رد فعل في العالم. أصبحت الكاديلاك ذات المحطات الأربع عشرة لدرب الصليب تبدو استثنائية أكثر فأكثر، مزيج رائع يختصر لغات ورغبات رمزية كثيرة في عربة إلهية غريبة واحدة. قال جيري إنها موجودة أمام كنيسة سانتو نينو التي تقع على بعد مئة ياردة من الطريق، ولذا خرجت لرؤيتها ثانية.

طويلة بلون أزرق فاتح مظهرها ناعم إلى حد ما، كما لو أن الجسم المعدني استحال إلى مخمل أو طرحة رقيقة ومنسابة، كانت كاديلاك الـ ١٩٧٦ هذه تناقضًا. درب الصليب ملفوف حول جسمها الطويل الناحل، أسفل خط من معدن الكروم يشطرها أفقيًا. أدين يسوع في الجزء الخلفي من جهة السائق وحمل الصليب وتعثر وواجه دربه على محيط السيارة إلى أن ضلب من جهة الراكب في وسطها عند مقبض الباب، ودفن في آخرها. وعلى امتداد جانبي السيارة، رسمت سماء رمادية داكنة يملؤها البرق، ما يجعل مكان الامه في نيومكسيكو بسحبها الرعدية المتقلبة. يظهر يسوع مرة أخرى

على صندوق السيارة كراس كبير مغبّش يحمل تاجًا من الأشواك، محاطًا بالملائكة والورود ذات الشوك وذلك النوع من الأشرطة المتموجة المطبوع بالنقوش في اللوحات الدينية المكسيكية من العصور الوسطى والقديمة. الأشواك في كل مكان تذكير إضافي بالطبيعة الجافة لتشيمايو والقدس، الورود الشائكة نفسها تزين غطاء المحرك، حيث كانت مريم، والقلب الأقدس، وملاك، وقائد المئة.

ضممت هذه السيارة لينظر إليها وهي واقفة في مكانها، لكنها احتفظت بإمكانية الحركة. لا يهم إذا ذهبت السيارة بعيدًا، فقد كان ذلك ممكنًا، ويمكن لهذه الصور أن تندفع بسرعة على الطريق السريع، تعصف بها الرياح وقطرات المطر تتساقط على جانبيها. تخيلوا أنها تسير بسرعة سبعين على طرق السفر بين الولايات، تمر عبر الهضاب وبقايا بيوت الطوب وقطعان الماشية وربما بعض اللوحات الإعلانية للتجارة ببضائع هندية مزيفة، ومطاعم ديري كوينز، والموتيلات الرخيصة، إنها كنيسة سيستينا ثمانية سيلندر وقد انقلب داخلها خارجها مسرعة نحو أفق مقفر تحت سماء متقلبة. ظهر الفنان آرثر ميدينا، وهو رجل نحيف مضطرب بشعر أسود مموج، بينما كنت أبدي إعجابي، وانحنى على الكوخ الخشبي المجاور يتلقي الثناء والأسئلة. لماذا كاديلاك؟ سألته، ويبدو أنه لم يفهم فرضيتي بأن السيارة الفاخرة ليست أكثر شيء طبيعي وحيادي يمكن أن ترسم عليه الصور المقدسة. فسألته عن سبب طلاء السيارة بهذا الموضوع، فقال: «لتقديم شيء إلى الناس في الصوم الكبير»، وبالفعل كان يعرضه هنا كل عام.

قال إنه رسم سيارات أخرى وأنه لديه سيارة

لإلفيس، ثم ألمح بكآبة إلى أن فنانين آخرين من المنطقة يقلدونه. صحيح، هناك سيارة أخرى طويلة من موديلات السبعينيات مركونة بالقرب من سانتواريو أمام متجر من اللّبن المطلي بالأبيض، رُسم ذلك المتجر نفسه بدقة على جانب السيارة المواجه للشارع، بينما غطت صورة سانتواريو المشعة صندوق محركها. وهذا ما جعلها سيارة ذات معنى مذهل مثل سيارة ميدينا، وهو تحويل المكان الثابت إلى تمثيلات ديناميكية مسرعة. يعود تقليد السيارات الـ «لو-رايدر»(19) بتصميمها الخاص إلى أكثر من ربع قرن في شمال نيومكسيكو. السيارة الأخرى مرسومة بشكل محترف أكثر، من دون أن يعني أن ميدينا كان فنانًا أقل مهارة، لكن معظم هذه السيارات يتمتع بجماليات تقليدية تأتي من طريقة معينة في التعامل مع بخاخة الألوان، وقد جعل ميدينا شخصياته بسيطة ومسطحة أكثر وخلق جوّا ضبابيًا غزيرًا. يمكن القول إن معظم سيارات الـ «لو رايدر» باروكيّه مع شكل ساخر من الواقعية المفرطة، بينما كان لسيارة ميدينا شيئًا من القوة الدينية المسطحة للرسم في العصور الوسطى.

شطحة جنونية، سيارة عن المشي، سلعة فاخرة عن المعاناة والتضحية والإذلال. وحدت السيارة بين تقاليد مشي مختلفة جذريًا، أحدهما إيروتيكي والآخر ديني. هذه السيارات المصممة كأغراض فنية وكمركبات تمثل نسخة محدثة من العرف الإسباني القديم الذي أصبح الآن أميركيًا لاتينيًا، وهو الباسيو أو الكورسو. لمئات السنين، كان التنزه في الساحة وسط المدينة عادة اجتماعية في هذه الأماكن، تسمح للشباب بالالتقاء والمغازلة والتمشي معًا، وتطلّب ذلك بالضرورة أن يكون لدى القرى

والمدن، من أنتيغوا في غواتيمالا إلى سونوما في كاليفورنيا، ساحة مركزية للقيام بذلك (النزهات العادية في شمال أوروبا تحدث في الحدائق العامة وعلى الأرصفة وفي الجادات). في بعض مناطق المكسيك وأماكن أخرى، كانت هذه العادة رسمية إلى درجة أن الرجال كانوا يمشون في اتجاه والنساء في الاتجاه الآخر، مثل الخطوات الممتدة لـ«رقصة الخط»، غير أن معظم الساحات اليوم أصبحت مواقع لنزهات أقل تنظيمًا. التنزه هو مجموعة فرعية من المشي مع التأكيد على الحركة البسيطة البطيئة والتواصل الاجتماعي والاستعراض. إنه ليس وسيلة للوصول إلى أي مكان، لكنه وسيلة للوجود في مكان ما، حركاته دائرية من الأساس، سواء أكانت على الأقدام أو بالسيارة.

خلال الأيام التي كنت أكتب فيها هذا الكتاب، التقيت خوسيه، صديق أخي ستيف، في حديقة دولوريس بعد موكب عيد العمال في سان فرانسيسكو وسألته عن هذا الطقس. في البداية قال إنه لا يعرف عنه شيئًا، وبينما كنا نتحدث، بدأت مزيد من التفاصيل تعود إليه أكثر فأكثر، وأشرقت عيناه مع الذكريات القديمة التي تتدفق في ضوء جديد. في مسقط رأسه في السلفادور، كانت هذه العادة تسمى «التجوال حول الحديقة»، رغم أن الحديقة تعني الساحة الموجودة وسط المدينة. المراهقون هم من كانوا يستخدمون الحديقة غالبًا للاختلاط والتعارف، ويرجع ذلك، في جزء منه، إلى أن المنازل الصغيرة والطقس الحار جعل من هذا الاختلاط مزعجًا، على الأقل في ذلك العمر. ولم تكن الفتيات يذهبن إلى الحديقة بمفردهن، لهذا كثيرًا ما استدعي ليكون نوعًا من القزم المرافق

لأخته الكبرى وبنات عمومته الجميلات الثلاث. قضيت أمسيات أسبات وآحاد كثيرة من طفولته وهو يلعق مخروط الايسكريم ويتجاهل أحاديثهن مع الشبان. أتاح طقس الباسيو، مثل كل نزهات التودد الأقل تنظيمًا في أماكن أخرى، للناس البقاء بصريًا في الأماكن العامة وعلى انفراد لفظيًا، ما يمنحهم مساحة كافية للتحدث، ويبقيهم تحت إشرافٍ لما قد يزيد قليلًا عن الحديث. لم يستطع أحد تحمل البقاء في القرية، قال خوسيه، لذلك فإن الرومانسيات التي اشتعلت خلال تلك التسكعات في الحدائق العامة قلّما قادت أحدًا إلى الزواج. غير أن الناس حين يعودون لزيارة قراهم كانوا يذهبون إلى تلك الحدائق للتجوال فيها من جديد، ليس لمقابلة أناس آخرين بل لاستعادة ذلك الجزء من ماضيهم. كل بلدة صغيرة وقرية في السلفادور، وغواتيمالا أضافت مقترحًا، كان لديها صيغة من هذا الطقس، و«كلما كانت البلدة أصغر، يكون هذا الطقس أكثر أهمية للحفاظ على سلامة الناس العقلية». توجد نسخ أخرى من باسيو المشاة في إسبانيا، وجنوب إيطاليا، وكثير من أمريكا اللاتينية، يقلب هذا الطقس العالم إلى نوع من قاعات الرقص والمشي إلى رقصة فالس بطيئة.

من الصعب معرفة كيف اجتمعت السيارة المرسومة والموكب، لكن الموكب هو خليفة الباسيو أو كورسو إلى حد كبير، حيث تتحرك السيارات بسرعة التنزه والشباب في الداخل يتغازلون ويتحدّون بعضهم بعضًا. قامت ميريديل، رفيقتي في رحلة الحج في تشيمايو، في عام ١٩٨٠ بتصوير أولى مجموعات الصور الفوتوغرافية الخاصة بها عن نيومكسيكو، وهو مشروع وثائقي عن راكبي سيارات الـ «لو-رايدر». في تلك الفترة، كانت الثقافة

الفرعية في ازدهار، وكانت السيارات تتجول ببطء في الساحة القديمة وسط «سانتا في». حالهم حال سائقي الـ «لو-رايدر» في معظم الأمكنة، واجه هؤلاء الركاب عداء السلطات المدنية التي حولت الشوارع الأربعة المحيطة بالساحة إلى مستديرةٍ باتجاهٍ واحدٍ واتخذت خطوات أخرى لحظر هذه الممارسة. لكن ميرديل عندما أكملت سلسلة صورها، أقامت معرضًا لعملها في الساحة، دُعي إليه سائقو الـ لو رايدر، حيث عُرضت عديد من سياراتهم هناك. من خلال وضعهم في سياق الفن الراقي، أعادت ميرديل فتح المساحة أمامهم وقدمت أعمالهم وعالمهم إلى الآخرين في المنطقة. كان أكبر افتتاح فني في تاريخ «سانتا في»، حيث الناس بخلفياتهم المتعددة يتجولون حول الساحة لينظروا إلى السيارات والصور الفوتوغرافية وإلى بعضهم، باسيو الفن.

رغم أن رحلة السيارات هذه جاءت من طقس الباسيو، فإن صورها تحدثت أحيانًا عن تقليد مختلف كليًا. في ولاية نيومكسيكو المتدينة، حملت السيارات صورًا دينية أكثر بكثير مما حملت الـ «لو-رايدر» في كاليفورنيا مثلًا، وأصبحت ميريدل ترى في كثير منها كنائس صغيرة، وذخائر مقدسة، بل وتوابيت بسبب التنجيد المخملي الفخم. رحلة السيارات تعبر عن ثقافة الشباب المتدين والمتهتك في احتفالاته في الوقت نفسه كوحدة ليست قابلة للتقسيم، لا كمجموعة تناقضات. كما أنها تعبر عن شيء ما يتعلق بمركزية السيارة في نيومكسيكو، حيث يصعب العثور على أرصفة ومسالك للمشاة على جانبي الطريق، وتتمحور الحياة الريفية والحضرية على السواء حول السيارة (حتى في رحلة الحج، كان سائقو الـ «لو-رايدر» في رحلتهم

على الطريق يقومون بالدوران حولنا نحن المشاة).
ما زلت أستغرب أن تتوقف الباسيو عن أن تكون حدثًا للمشاة وتصبح حدثًا للمركبات. السيارات تعمل أحسن ما يكون كأجهزة استبعادية، كمساحة خاصة متنقلة، حتى وإن سيقت بأبطأ ما يمكن فلن تسمح بمباشرية اللقاء وسيولة الاتصال التي يحققها المشي. ومع ذلك، لم تعد سيارة ميدينا مجرد مركبة، بل أصبحت شيئًا. وقف بجانبها لتلقي الثناء، ومشينا حولها أقل من مؤمنين يمشون على درب الصليب وأقرب إلى خبراء يتجولون في معرض فني.

درب الصليب في حد ذاته واحد من تلك الأشياء الثقافية المكونة من طبقات عديدة وضعت بعضها فوق بعض. الطبقة الأولى هي المسار المفترض للأحداث، بدءًا من إدانة يسوع وحتى وضع جثته في القبر في الكهف، وهي مشي من منزل بيلاطس إلى الجلجثة، وهذا هو ما يقلّده الحجاج الذين يجرون الصلبان إلى تشيمايو. خلال الحروب الصليبية، كان الحجاج في القدس يجوبون مواقع هذه الأحداث، يصلّون أثناء ذهابهم، ويضعون طبقة ثانية، طبقة من التتبع الديني لمسار الأحداث، وهذا جعل الحج أقرب إلى السياحة. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر أنشأ الرهبان الفرنسيسكان الطبقة الثالثة من خلال إضفاء الطابع الرسمي على الطريق كسلسلة من الأحداث الثابتة -المراحل الأربع عشرة- وتجريدها من موقعها الأصلي. من هذا التقليد تأتي محطات الأعمال الفنية للصليب -عادة ما تكون أربع عشرة لوحة صغيرة أو مطبوعة تمتد أعلى وأسفل صحن الكنيسة- التي تزين جميع الكنائس الكاثوليكية تقريبًا، وهي فكرة تجريدية مذهلة. لم يعد ضروريًا أن نكون في القدس لتعقب

هذه الأحداث التي وقعت قبل ألفي عام. الزمان هو الماضي، والمكان هو مكان آخر، لكن المشي والمخيلة وسيلتان كافيتان للدخول في روح هذه الأحداث (معظم التوصيات الخاصة بصلاة درب الصليب تؤكد على إعادة إحياء أحداث الصلب، بحيث لا يكون فعل صلاة فحسب، بل تماهيًا وتخيّلًا). المسيحية دين قابل للحمل، وحتى هذا الطريق الذي كان خاصًا بالقدس صُدّر إلى جميع أنحاء العالم.

المسار هو تفسير مسبق لأفضل طريقة لاجتياز منطقة ما، واتباع طريق هو قبول تفسير ما، أو ملاحقة أسلافك عليه كما يفعل العلماء والمتتبعون والحجاج. السير بالطريقة نفسها يعني تكرار شيء عميق، التحرك عبر المساحة نفسها بالطريقة نفسها هو وسيلة لأن تصبح الشخص نفسه، وتفكر في الأفكار نفسها. إنه شكل من أشكال المسرح المكاني، ولكنه أيضًا مسرح روحي يحاكي فيه المرء القديسين والآلهة على أمل الدنو منهم، وليس تقمص شخصياتهم أمام آخرين فقط. هذا ما يجعل الحج، بتأكيده على التكرار والتقليد، متميزًا وسط جميع طرق المشي. إذا لم يتمكن أحد من أن يشبه إلهًا بأي طريقة أخرى، فيمكنه على الأقل أن يمشي مثله. وبالفعل، في محطات الصليب، يظهر يسوع في أكثر حالاته إنسانية يتعثر، يتعرق، يتألم، يسقط ثلاث مرات ويموت أثناء افتدائه لـ«السقوط» الأول. وبحلول الوقت الذي أصبح فيه درب الصليب سلسلة من الصور في أي كنيسة، في أي مكان، كان المصلون يرسمون طريقًا لم يعبر من مكان بل يعبر من قصة. يمتد درب الصليب على طول صحن الكنائس حتى يتمكن العابدون من السير بأنفسهم إلى داخل القدس، إلى داخل القصة المركزية

للمسيحية. هناك أدوات أخرى، إلى جانب درب الصليب، تتيح للناس الدخول جسديًا في القصة. وجدت واحدة في الصيف الماضي. كان لديّ موعد لمقابلة بعض الأصدقاء في البار البولينيزي القديم الشهير «تونغا رووم» في فندق فيرمونت أعلى «نوب هيل».

بعد المشي مسافة في «نوب هيل»، مرورًا بمحل بقالة يعلن عن بيع الكافيار، مرورًا بصبي صيني يقفز فرحًا، مرورًا بالبالغين الأقل سعادة في هذا الحي الفاخر، وحول الجزء الخلفي من كاتدرائية غريس، مشيت عبر فناء كانت النافورة فيه تلعب وشاب يلوح بالكتاب المقدس ويتمتم بشيء ما. وفي الجانب البعيد من المكان رأيت شيئًا جديدًا أسعدني هناك، متاهة. بأسمنت شاحب وداكن، كررت المتاهة النمط الحجري في كاتدرائية تشارتر: إحدى عشرة دائرة متحدة المركز مقسمة إلى أرباع يمتد عبرها ممر ينتهي عند زهرة لها ست بتلات في المركز. كنت قد وصلت قبل موعدي فمشيت في الممر. كانت الجولة مثيرة حتى أنني لم أعد أرى الأشخاص القريبين جيدًا وبالكاد وصلتني أصوات حركة المرور وأجراس الساعة السادسة.

داخل المتاهة، توقف السطح ثنائي الأبعاد عن أن يكون مساحة مفتوحة يمكن للمرء أن يتحرك عبرها بأي حال من الأحوال. أصبح الالتزام بالممر المتعرج ضروريًا، وبعين واحدة مثبتة عليه بدت مساحة المتاهة واسعة وقهرية. يصل طول الممر الأول بعد المدخل تقريبًا إلى مركز الحلقات الإحدى عشرة، ثم يلتف مثل ثعبان يدور ويدور، أقرب وأبعد، ولكن ليس بالقرب الذي وعد به في البداية، إلا بعد فترة طويلة، عندما يتباطأ السائر ويصبح منغمسًا في

الرحلة، التي يمكن أن تستغرق ربع ساعة أو أكثر، حتى في متاهة يبلغ قطرها أربعين قدمًا مثل هذه. تلك الدائرة أصبحت عالمًا أعيش وفق قواعده، وفهمت المغزى من الدهاليز: عليك أن تدير ظهرك لهدفك للوصول إليه أحيانًا، وقد تكون أبعد ما تكون عندما تكون الأقرب، وأحيانًا يكون الطريق الوحيد هو الطويل. بعد ذلك المشي الحذر والنظر إلى الأسفل، كان سكون الوصول مؤثرًا بعمق. نظرت إلى أعلى أخيرًا لأرى أن غيومًا بيضاء في صورة مخالب وريش تتراكض بفوضوية نحو الشرق في سماء زرقاء. كان إدراك أن المجازات والمعاني يمكن نقلها مكانيًا يخطف الأنفاس، عندما تبدو أبعد ما يمكن عن وجهتك ثم تصل فجأة حقيقة واضحة جدًا في الكلمات، لكنها حقيقة عميقة عند اكتشافها بقدميك.

كتبت الشاعرة ماريان مور عن «الضفادع الحقيقية في حدائق خيالية»، المتاهة تتيح لنا أن نكون مخلوقات حقيقية في فضاء رمزي. فكرت في قصة أطفال بينما كنت أمشي، أكثر كتب الأطفال التي أحببتها مليئة بالشخصيات التي تسقط في الكتب والصور وتصبح حقيقية، وتتجول في الحدائق حيث تدب الحياة في التماثيل، وأشهرها، تلك التي تعبر إلى الجانب الآخر من المرآة(20)، حيث كانت قطع الشطرنج والزهور والحيوانات كلها حية ومزاجية. تقترح هذه الكتب أن الحدود بين الواقعي والتمثيلي ليست ثابتة، وأن السحر يحدث عندما يتم عبور أحدهما. في مساحات مثل المتاهة، نعبر، نحن نسافر حقًا، حتى لو كانت الوجهة رمزية فقط، وهذا في مستوى مختلف تمامًا عمّا هو التفكير في السفر أو النظر إلى صورة مكان قد نرغب في السفر إليه. لأن الحقيقي في هذا

السياق ليس أكثر أو أقل مما نسكنه جسديًا. المتاهة تعني رحلة رمزية أو خريطة للطريق إلى الخلاص، ولكنها خريطة يمكننا السير عليها فعلًا، ما يؤدي إلى التباس الفرق بين الخريطة والعالم. إذا كان الجسد هو سجل الواقع، فإن القراءة بالقدمين حقيقية، على عكس القراءة بالعينين فقط. وأحيانًا تكون الخريطة هي المنطقة.

في كنائس العصور الوسطى، كانت هذه المتاهات -التي كانت شائعة في السابق، ولكنها موجودة الآن في عدد قليل من الكنائس- تسمى أحيانًا «الطريق إلى القدس» وكان المركز هو القدس أو الجنة نفسها. رغم أن مؤرخ شبكات الدهاليز والمتاهات دبليو إتش ماثيوز يحذر من غياب دليل مكتوب على الاستخدام المقصود لها، فمن المعتقد على نطاق واسع أنها قدمت إمكانية ضغط الحج في المساحة المدمجة لأرضية الكنيسة، مع تمثيل صعوبات التقدم الروحي من خلال التقلبات والمنعطفات. في كاتدرائية غريس في سان فرانسيسكو، أنشئت المتاهة من قبل مشرَعة الكاتدرائية لورين أرتريس في عام ١٩٩١. «المتاهات»، كتبت «تكون على شكل دائرة عادة، لها مسار متعرج ولكن له مغزى، من الحافة إلى المركز ثم تعود إلى الخارج مرة أخرى. كل شخص لديه طريق واحد فقط، وبمجرد أن نختار الدخول فيه، يصبح الطريق كناية عن رحلتنا عبر الحياة». منذ ذلك الحين، بدأت أرتريس في تأسيس ما يشبه طائفة المتاهة، حيث قامت بتدريب ما يقرب من ١٣٠ شخصًا لتقديم ورش عمل وبرامج حول المتاهة تسمى «مسرح التنوير»، حتى أنها قامت بنشر رسالة إخبارية ربع سنوية حول مشروع المتاهة (بما في ذلك بضع صفحات مخصصة لترويج وبيع البضائع

ذات الصلة بالمتاهة مثل حقائب اليد والمجوهرات وغيرها من الأغراض). تنتشر المتاهات كأدوات روحية في جميع أنحاء البلاد، وتشهد متاهات الحدائق أيضًا حركة إحياء. في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، حدث نوع مختلف تمامًا من انتشار المتاهة، في أعمال فنانين مثل تيري فوكس، وفي أواخر الثمانينيات، أصبح أدريان فيشر مصمم متاهات الدهاليز ناجحًا في بريطانيا، حيث صمَم وبنى متاهات حديقة في قصر بلينهايم والعشرات من المواقع الأخرى.

المتاهات ليست مجرد أدوات مسيحية، رغم أنها تمثل دائمًا نوعًا من الرحلة، أحيانًا رحلة مبادرة أو موت أو بعث أو خلاص، وأحيانًا رحلة خطوبة. يبدو أن بعضها يشير فقط إلى مدى تعقيد أي رحلة، أو صعوبة العثور على الطريق أو معرفته. لقد ذكرها اليونانيون القدماء كثيرًا، ورغم أن متاهة كريت الأسطورية التي سُجن فيها وحش المينوتور لم يُعثر عليها مطلقًا وربما لم تكن موجودة على الإطلاق، فإن الشكل الذي يسمى الآن المتاهة الكريتية ظهر على عملاتها المعدنية. عُثِر على متاهات أخرى: منحوتة في الصخر في سردينيا، ومكتشفة على سطح صخري في جنوب أريزونا وكاليفورنيا، ومصنوعة من الفسيفساء من قبل الرومان. في الدول الإسكندنافية ثمة ما يقرب من خمسمئة متاهة معروفة من أحجار مصفوفة على الأرض، حتى القرن العشرين، كان الصيادون يسيرون بها قبل الإبحار إلى البحر لضمان صيد جيد أو رياح مناسبة. استخدمت متاهات التراب في إنجلترا -محفورة في الأرض- من قبل الشباب في ألعاب إيروتيكية، غالبًا ما يركض فيها صبي نحو فتاة في المركز، ويبدو أن تعرجات المتاهة

وانعطافاتها ترمز إلى تعقيدات العلاقة. أما المتاهات الشهيرة المصنوعة من أسيجة نباتية في تلك البلاد فهي ابتكار لاحق أكثر أرستقراطية من حدائق عصر النهضة. يميز عديد ممن كتبوا عن الدهاليز والمتاهات بين النوعين. المتاهات، بما في ذلك معظم متاهات الحدائق، فيها عديد من التشعبات التي صمّمت لإرباك من يدخلها، في حين أن الدهاليز لها طريق واحد فقط، ويمكن لأي شخص يواصل السير عليه العثور على جنة المركز وتتبع الطريق إلى المخرج. يبدو أن هناك مغزى مجازيًا آخر مدمجًا في هذين الهيكلين، لأن المتاهات تمثل ارتباكات الإرادة الحرة في غياب وجهة واضحة، والدهليز طريق صارم وغامض إلى الخلاص.

مثل درب الصليب، تقدم المتاهة والدهليز قصصًا يمكننا أن نسير في داخلها لنسكنها جسديًا، قصصًا نتتبعها بأقدامنا كما بأعيننا. ثمة تشابه ليس فقط بين هذه الهياكل الموظفة رمزيًا ولكن بين كل مسار وكل قصة. جزء مما يجعل الطرق والممرات والمسارات فريدة من نوعها بوصفها هياكل مبنية هو أنه لا يمكن للمتفرج الثابت أن ينظر إليها ككل في وقت واحد. إنها تتكشف بمرور الوقت بينما المرء يسافر عبرها، تمامًا كما تفعل القصة عندما يستمع المرء إليها أو يقرؤها، والمنعطف الحاد يشبه تطور الحبكة، الصعود الحاد هو بناء للتشويق إلى المنظر من القمة، ومفترق الطريق تفرع لقصة جديدة، والوصول هو نهاية القصة. فكما أن الكتابة تسمح للمرء بقراءة كلام الغائب، فإن الطرق تجعل تتبع طريق الغائب ممكنًا. الطرق هي سجل لأولئك الذين سلكوا من قبل، واتباعها يعني اتباع من لم يعودوا هنا - ليسوا قديسين وآلهة بعد الآن، بل رعاة، وصيادين، ومهندسين، ومهاجرين، وفلاحين

إلى السوق، أو مسافرين. إن هياكل رمزية من قبيل المتاهات تلفت الانتباه إلى طبيعة جميع المسارات، وجميع الرحلات. هذا هو السبب وراء العلاقة الخاصة بين الحكاية والسفر، وربما السبب وراء ارتباط الكتابة السردية ارتباطًا وثيقًا بالمشي. الكتابة هي شق طريق جديد عبر تضاريس الخيال، أو التنبه إلى وجود ملامح جديدة على طريق مألوف. أن تقرأ هو أن تسافر عبر تلك التضاريس مع المؤلف كدليل، دليل قد لا يتفق المرء معه أو يثق به دائمًا، ولكن يمكن، على الأقل، الاعتماد عليه في أن يأخذ المرء إلى مكان ما. كثيرًا ما تمنيت أن تكون عباراتي مكتوبة كسطر واحد يمتد في المسافة ليكون واضحًا أن الجملة طريق والقراءة سفر (حسبتها مرة ووجدت أن نص أحد كتاباتي سيكون أربعة أميال إذا تم فرده كسطر واحد من الكلمات بدلًا من وضعه في صفوف على صفحات، أو لفه مثل خيط على بكرة). لعل تلك اللفائف الصينية التي يفتحها المرء أثناء قراءته تحافظ على شيء من هذا المعنى. خطوط الأغاني(21) لدى السكان الأصليين في أستراليا من أشهر الأمثلة التي تخلط بين المناظر الطبيعية والسرد. خطوط الأغاني هي أدوات للتنقل عبر الصحراء العميقة، في حين أن المشهد الطبيعي هو أداة ذاكريَة لاستعادة القصص: بكلمات أخرى، القصة خريطة، والتضاريس سرد.

إذًا القصص أسفار، والأسفار هي قصص. ولأننا نتخيل الحياة نفسها كرحلة، فإن هذا المشي الرمزي، وفي الواقع جميع أشكال المشي، له مثل هذا الوقع. عمل العقل والروح عصي على التخيل مثلما هي طبيعة الزمن، لذلك نميل إلى تحويل كل هذه الأشياء اللاملموسة إلى مجاز باعتبارها

أشياء مادية تتموقع في الفضاء. هكذا تصبح علاقتنا بها مادية ومكانية: نتحرك نحوها أو نبتعد عنها. وإذا أصبح الزمان مكانًا، فإن تكشّف الزمن الذي يشكل الحياة يصبح رحلة أيضًا، مهما قلّت مسافة السفر في المكان أو كبرت. لقد أصبح المشي والسفر مجازين مركزيين في الفكر والكلام حتى أننا بالكاد نلحظهما. تحتوي اللغة الإنجليزية على عدد لا يحصى من مجازات الحركة: التوجه باستقامة، التحرك نحو الهدف، المضي كل المسافة، المضي قدمًا، أشياء تعترض طريقنا، تعيدنا إلى الوراء، تساعدنا في العثور على طريقنا، أعطنا إشارة البدء، أعطنا الضوء الأخضر بينما نقترب من المحطة الأساسية، نتقدم في العالم، نصل إلى مفترق الطريق، نسدد خطوتنا، نأخذ خطوات. الشخص المضطرب هو روح ضائعة، خطوة في غير محلها، فقد إحساسه بالاتجاه، يواجه صراعًا ممتدًا أو يسير في تراجع، يمر بمرحلة صعبة، يدور في دوائر، يصل إلى لامكان. وهناك عبارات منمقة من الأقوال والأغاني - طريق زهرة الربيع، الطريق إلى الخراب، الطريق السريع والطريق المنخفض، الشارع السهل، الشارع الوحيد، وبولفار الأحلام المحطمة. يظهر المشي في عبارات شائعة عديدة: ضبط الخطوة، اتخاذ خطوات كبيرة، خطوة كبيرة إلى الأمام، المحافظة على الخطوة، سدد خطى، التزم بالخط، مشى على خطاه. يجري تصوّر الأحداث النفسية والسياسية كأحداث مكانية: من ذلك قول مارتن لوثر كينغ في خطابه الأخير: «لقد صعدت قمة جبل»، ليصف حالة روحية، مرددًا الحالة التي وصل إليها يسوع بعد صعوده الجبل فعليًا. كان كتاب كينغ الأول بعنوان: «خطوة نحو الحرية»، وهو العنوان الذي تردد بعد أكثر من ثلاثة

عقود في السيرة الذاتية لنيلسون مانديلا: «طريق طويل إلى الحرية» (بينما كتبت مواطنته السابقة دوريس ليسينغ المجلد الثاني من مذكراتها: «المشي في الظل»، ثم هناك «مراحل في طريق الحياة» لكيركيغارد، أو كتاب المنظّر الأدبي أمبرتو إيكو «ست نزهات في الغابات المتخيلة»، وفيه يصف قراءة كتاب بالتجوال في الغابة).

إن كانت الحياة نفسها، أي مرور الوقت المخصص لنا، توصف بأنها رحلة، فغالبًا ما يتم تخيلها على أنها رحلة على الأقدام، تَقدُمْ حاجٍ قاطعًا تضاريس تاريخه الشخصي. كثير ما نتخيلنا، عندما نتخيل أنفسنا، نمشي: «عندما كانت تسير على الأرض» هي إحدى الطرق لوصف وجود شخص ما، ومهنته هي «مسيرته الحياتية»، والخبراء هم «الموسوعة المتنقلة»، و«سار مع الله» هي طريقة العهد القديم لوصف حالة من البركة. إن صورة السائر وحيدًا نشيطًا يمر عبر العالم بدلًا من أن يستقر فيه، هي رؤية قوية لما يعنيه أن تكون إنسانًا، سواء كان ذلك إنسانًا يجتاز الأراضي العشبية أو شخصية صمويل بيكيت يمشّط طريقًا ريفيًا يهبطه ببطء. مجاز المشي يصبح حرفيًا مرة أخرى عندما نمشي بالفعل. إذا كانت الحياة رحلة، فعندما نسير، فإن قيامنا بـ رحلتنة حياتنا يصبح ملموسًا، بأهداف يمكننا التقدم نحوها، وتطور يمكننا رؤيته، وإنجازات يمكننا فهمها، مجازات متحدة بالأفعال. متاهات، رحلات حج، تسلق جبال، نزهات استكشافية لمسافات طويلة لها وجهات واضحة ومرغوبة، كلها تسمح لنا بأخذ الوقت المخصص لنا كرحلة حرفية ذات أبعاد روحية يمكننا فهمها من خلال الحواس. إذا كانت الرحلة والمشي مجازين مركزيين، فإن الرحلات كلها والمشي كله يتيحان لنا دخول الفضاء الرمزي نفسه

كما تفعل فينا المتاهات والدهاليز والطقوس، وإن لم يكن بنفس المستوى من الجاذبية.

هناك عديد من المجالات الأخرى التي يتم فيها الخلط بين المشي والقراءة. وكما كان لمتاهة الكنيسة شقيقتها العلمانية في متاهة الحديقة، كذلك فإن قراءة محطات الصليب لها نظيرها العلماني في حديقة النحت. كان من المتوقع أن يتعرف أوروبيو ما قبل الحداثة على مجموعة كبيرة من الشخصيات في الرسم والنحت والزجاج الملون، من القديسين -القديس بطرس بمفتاحه، والقديسة لوسي بعينيها على طبق- إلى النعم والفضائل الأساسية والخطايا المميتة. في معظم الكنائس ثمة ترجمة فنية لجزء من الكتاب المقدس، فكاتدرائية متطورة مثل «تشارتر» تضم صورًا مثل: «الفنون الحرة السبعة» و«العذارى الحكيمات والحمقاوات»، إضافة إلى مشاهد من حياة المسيح مرتبة رمزيًا. رغم أن معرفة الكتب كانت أقل بكثير، إلا أن معرفة الصور كانت أعلى بما لا يقاس، وكان في إمكان المتعلمين التعرف على الآلهة والبشر من الأساطير الكلاسيكية وكذلك الأيقونات المسيحية. لأن المصادر كانت أدبية في العادة، وكل شخصية تمثل قصة، ويمكن ترتيب هذه القصص في تسلسلات مختلفة وغالبًا ما تكون تسلسلات يمكن «قراءتها» من خلال التجول بجانبها (منحوتات من قبيل «الحرية» أو «الربيع» لم تكن تجسيدات سردية، لكنها قد تُرتب في تسلسل سردي، بينما كان الآلهة والأبطال يظهرون غالبًا في لحظة حاسمة من قصة مألوفة، ما يجعل النحت مكافئًا للقطة من فيلم). كان عديد من الحدائق حدائق نحت، ليس بالمعنى العصري الحديث للنباتات كإطار تصويري لمجموعة من العناصر الفردية، بل كمساحات كاملة

يمكن «قراءتها»، ما يجعل الحديقة مساحة فكرية بقدر ما هي مكتبة. كانت التماثيل، وأحيانًا العناصر المعمارية، ترتب في تسلسلات يفسرها المتجول أثناء مروره، وكان جزء من سحر هذه الحدائق هو أن المشي والقراءة، والجسد والعقل، كانا متحدين بتناغم هناك.

الأروقة المعمَدة، التي كانت جزءًا من مسكن الرهبان ودير الراهبات، تحمل أحيانًا قصصًا مسيحية مفصلة. عادة ما يكون رواقًا مربعًا حول حديقة في مركزها بئر أو حوض أو نافورة، وكان الرواق المعمَد هو المكان الذي يمكن للرهبان أو الراهبات المشي فيه من دون مغادرة المساحة التأملية المحددة للرهبانية. رتبت حدائق عصر النهضة التماثيل الأسطورية والتاريخية بشكل مدروس. وبما إن السائر يعرف القصة أصلًا، فلا داعي إلى قول أي كلمات، ولكن في مكان وزمان المشي وبينما يلتقي التماثيل، يُعاد سرد القصة إلى حد ما بمجرد استدعائها في الذهن. هذا يجعل الحديقة مساحة شعرية وأدبية وأسطورية وسحرية. ضمّت الحدائق الكبرى في فيلا ديستي في تيفولي سلسلة من النقوش البارزة التي تحكي حكايات تحولات أوفيد. السردية المفقودة تمامًا هي المتاهة في فرساي، التي دمرت عام ١٧٧٥، وكان تمثال إيسوب يقف فيها إلى جانب مجموعات مجسمة لشخصيات حكاياته الخرافية: «كل شخصية ناطقة في مجموعات قصصه الخرافية كانت مجسدة»، يكتب دبليو. إتش. ماثيو: «يتدفق منها تيار من الماء يمثل الكلام، وكانت كل مجموعة مصحوبة بلوحة منقوشة تعرض أبياتًا، مناسبة إلى حد يقل ويكثر، للشاعر دو بنسيراد». هكذا كانت المتاهة أنطولوجيا ثلاثية الأبعاد

يتحد فيها المشي والقراءة والنظر في رحلة إلى أخلاق الخرافات ومعانيها. كانت فرساي، وهي أكبر الحدائق الرسمية في أوروبا، تمتلك البرنامج النحتي الأكثر تعقيدًا، فيه متاهة إيسوب مجرد تفرع بسيط، حيث نظمت جميع منحوتاتها تقريبًا حول الصورة المركزية للويس الرابع عشر ملك الشمس (الإضافات والإزالات اللاحقة تجعل فك رموزها الآن صعبًا). عمل سبعون نحاتًا على أن تتحدث المنحوتات والنوافير والنباتات ذاتها للناظر عن قوة الملك، وأدمجت في الطبيعة وجُيّرت فيها من خلال تصوير الشمس وإله الشمس الكلاسيكي أبولو بحجم جعل الرمزي، ليس نموذجًا مصغرًا، بل امتدادًا كبيرًا للعالم. بعد قرن، تحولت الحديقة الرسمية الشهيرة في «ستو» في باكنغهام، إنجلترا، إلى منظر طبيعي أكثر برية، ولكن تلالها وبساتينها كانت مرصعة بزخارف معمارية سياسية واضحة. كان «معبد الفضيلة القديمة» يقع بالقرب من «معبد الفضيلة الحديثة» المدمر، وبعد البركة، هناك معبد الشخصيات البريطانية البارزة، الشعراء ورجال الدولة الذين يروقون لمالك الحديقة من حزب الويغ. أدانت هذه التركيبة حالة عالم القرن الثامن عشر في حين جعلت الويغ ورثة النبلاء القدماء. ثمة عناصر أخرى أكثر طرافة في «ستو» للقادرين على قراءة المساحة والرمزية: على سبيل المثال كانت الصومعة القريبة من معبد فينوس تمثل النُسك المضادة للحسية. إذا كان السرد سلسلةً من الأحداث المترابطة، فإن حدائق النحت هذه حولت العالم إلى كتاب من خلال وضع هذه الأحداث في مساحة واقعية على بعدٍ يكفي «لقراءتها» من خلال المشي (وجعلت من فرساي وستو كتبًا للبروباغندا السياسية). أحيانًا يكون ما سيقرأ في الحديقة

أقل حزفيّة. «يمكن لممر حديقةٍ ما -كتب مهندسو المناظر الطبيعية تشارلز دبليو مور، وويليام جيه ميتشل وويليام تورنبول- أن يصبح خيطًا لحبكة، ويربط اللحظات والأحداث في سرد. وقد يكون البناء السردي سلسلة بسيطة من الأحداث لها بداية ووسط ونهاية، مزخرفة بالتعرجات والاستطرادات والانعطافات التصعلكية. يمكن أن تصاحبه طرق موازية (حبكات فرعية)، أو يتفرع بشكل خادع إلى أزقة مسدودة مثل السيناريوهات البديلة التي تُستكشف في رواية بوليسية. مساهمة لوس أنجلوس في هذا النوع هي ممشى النجوم في شارع هوليوود، حيث يقرأ السائحون أسماء المشاهير وهم يدوسون عليها بأقدامهم.

في بعض الأحيان، يغطي المشاة محيطهم بتخيلاتهم ويسيرون في مناطق مخترعة بالفعل. كتب المبشر الأمريكي والمهووس بالمشي جون فينلي إلى أحد أصدقائه: «قد تكون مهتمًا بمعرفة أن لدي لعبة صغيرة ألعبها وحدي: وهي أنني أمشي في جزء من العالم بقدر الأميال التي أمشيها هنا يوميًا، ونتيجة لذلك، فقد مشيت عشرين ألف ميل تقريبًا في السنوات الست الماضية، ما يعني أنني قد قطعت جزءًا من الأرض في دائرة تعادل محيط الكرة الأرضية. الليلة الماضية، أنهيت مسافة ألفي ميل منذ الأول من يناير عام ١٩٣٤ وبفعل ذلك وصلت إلى فانكوفر من جهة الشمال». لقد اجتاز المهندس المعماري النازي ألبرت سبير العالم في مخيلته بينما كان يمشي ذهابًا وإيابًا في ساحة سجنه، مثل كيركيغارد ووالده. بعد عودتها إلى مانهاتن وجدت الناقدة الفنية لوسي ليبارد أن في مقدورها الاستمرار في تمشيتها اليومية التي كانت جزءًا أساسيًا من إقامتها لمدة عام في ريف إنجلترا:

«بطريقة شبه خارجة عن الجسد: خطوة بخطوة، الطقس، الملمس، المناظر، الفصول، مصافات الحياة البرية».

هناك جانب عملي جدًا في تتبع مسار ما ولو كان وهميًا، وهو أنه يعني أساسًا تتبع روح أو فكرة عبرته من قبل. في أبسط حالاته، يتيح هذا التتبع عودة ذكريات الأحداث فجأة عندما يصادف الشخص مواقع تلك الأحداث. أما في أعقد حالاته، فإنه وسيلة للحفظ غيبًا. هذه هي تقنية «قصر الذاكرة»، إرثٌ آخر من اليونان الإغريقية استخدم حتى عصر النهضة على نطاق واسع. كانت هذه التقنية وسيلة لتخزين كميات كبيرة من المعلومات في الذاكرة، مهارة أساسية قبل أن تحلَ الكلمة المكتوبة، بفعل الورقة والطباعة، محلَ الذاكرة لتخزين كثير من المعلومات الروتينية. فرانسيس ياتس التي أعاد كتابها الرائع «فن الذاكرة» تاريخ هذه التقنية الغريبة إلى عصرنا تصف آليات عمل نظامها بالتفصيل: «ليس من الصعب فهم المبادئ العامة للذاكريَة»، تكتب: «الخطوة الأولى تثبيت سلسلة من الأماكن أو المواقع في الذاكرة. كان النوع الأكثر شيوعًا، وإن لم يكن الوحيد، من نظام الأمكنة الذاكرية المستخدم هو المعماري. أوضح وصف لهذه العملية هو الذي قدمه كوينتيليان لتشكيل سلسلة من الأماكن في الذاكرة، يقول: لا بدَ من تصور وتذكَر مبنى واسع ومتنوع قدر الإمكان، الفناء الخارجي، غرف المعيشة، غرف النوم، ردهات الاستقبال، دون تجاهل التماثيل والزخارف الأخرى التي تزين الغرف. ثم توضع الصور التي ينبغي تذكر الخطبة من خلالها في الأمكنة التي حفظت غيبًا لدى تخيل المبنى. وبمجرد الحاجة إلى استعادة الحقائق، تُزار جميع هذه الأمكنة تباعًا وتُطلب

الودائع المختلفة من الأوصياء عليها. وعلينا أن نفكر في الخطيب القديم باعتباره يتحرك مستخدمًا الخيال عبر مبنى ذاكرته بينما يلقي خطبته، يسترد الصور من الأمكنة التي أودعها فيها».

الذاكرة، مثل العقل والزمن، لا يمكن تصوّرها من دون أبعاد مادية، فتخيلها كمكان مادي يجعلها تتحول إلى منظر محتوياته محددة المواقع، وأي شيء له موقع محدد يصبح الاقتراب منه ممكنًا. وهذا يعني، إذا تخيلنا الذاكرة كمساحة حقيقية -مكانًا، مسرحًا، مكتبة- يجري تصوّر فعل التذكر كفعل واقعي، أي مادي: كالمشي. التركيز يكون دائمًا في أداة القصر المتخيل، حيث وُضعت المعلومات غرفةً تلو الأخرى، وشيئًا تلو الآخر، لكن وسيلة استرجاع المعلومات المخزنة كانت المشي عبر الغرف كزائر في متحف يعيد الأشياء إلى الوعي. المشي عبر نفس المسار مرة أخرى يمكن أن يعني التفكير في الأفكار نفسها من جديد، كما لو كان التفكير والأفكار أشياء ثابتة في منظر طبيعي يكفي أن تعرف كيف تتنقل فيه. على هذا النحو، يكون المشي قراءة، حتى عندما يكون كل من المشي والقراءة متخيلين، ويصبح منظر الذاكرة نصًا ثابتًا كالمنظر في الحديقة أو المتاهة أو درب الصليب. ولكن إذا كان الكتاب قد حجب قصر الذاكرة كمستودع للمعلومات، فقد أبقى على بعض من أنماطها. وبعبارة أخرى، إذا كان هناك مشي يشبه الكتب، فهناك أيضًا كتب تشبه المشي وتستخدم نشاط «القراءة» للمشي لوصف عالمٍ ما. أكبر مثال هو «الكوميديا الإلهية» لدانتي، حيث تُستكشف العوالم الثلاثة للروح بعد الموت من قبل دانتي يرشده فيرجيل. إنها نوع من السجلات السفرية اللاأرضية، تتحرك بسرعة ثابتة عبر المناظر

والأشخاص، تحتفظ دائمًا بإيقاع الرحلة. الكتاب دقيق جدًا في جغرافيته إلى درجة أن عديدًا من الطبعات تحتوي على خرائط، وتقترح ياتس أن هذا العمل الأدبي كان في الواقع قصرًا للذاكرة من نوع ما. مثل العدد الهائل من القصص قبله وبعده، فإن «الكوميديا» قصة سفر، تتماشى فيها حركة السرد بحركة الشخصيات عبر مناظر متخيلة.

الجزء الثاني
من الحديقة إلى البرية

«كما العذراء المحبوبة موضع رعاية والدتها، تنسحب بعيدًا عن المدينة إلى الهواء الطلق النقي في الريف، ذهبت من الأوبرا، والحديقة، والتجمعات، والمسرحيات، إلى النزهات الصباحية والصلوات لثلاث ساعات يوميًا...».

الشاعر الإنجليزي ألكسندر بوب (١٦٨٨-١٧٤٤)، مقطع من قصيدة «رسالة إلى الآنسة بلاونت».

***

«اجتمعوا في طريقهم إلى الهايد بارك. تفاخر السير فيليب طوال الطريق الذي مشوه بقدرة رأسه على تحمل شرب الكحول. احتج كلارنس بالزعم أن رأسه أقوى من أي رجل في إنجلترا، وتابع بأنه يلاحظ، في هذه اللحظة بالذات، أنه يمشي أفضل من أي شخص في المجموعة، بما في ذلك السير فيليب بادلي. كان السير فيليب بادلي مشّاء معروفًا، فقام مباشرة بتحدي بطلنا في المشي معه مقابل أي مبلغ يرضيه».

الروائية الأيرلندية ماريا إيدجورث (١٧٦٨-١٨٤٩)، من رواية «بليندا».

***

«في المساء، مشيت وحدي إلى البحيرة هابطًا متنزه كرو بارك بعد الغروب، رأيت الدخول المهيب لألوان الليل، وآخر بريق من شعاع شمس يتلاشى على قمم التلال، والصفاء العميق لأزهار النجمية، وظلال طويلة للجبال تترامى على الأرض حتى كادت تلامس أبعد نقطة من الشاطئ. من بعيد، سمعت هدير الشلالات الذي لم يكن مسموعًا

خلال النهار. تمنيت أن يظهر القمر، لكنه كان معتمًا وصامتًا، مختبئًا في كهفه بين حالاته الشهرية».

الشاعر الإنجليزي توماس غراي (١٧١٦-١٧٧١)، من كتاب الرحلة «مذكرات في البحيرات».

***

«في اليوم التالي لممارستها الحب لأول مرة مع ويليام جودوين، انسحبت ماري ولستونكرافت في حالة من القلق والشك في نفسها: اعتبر ما حصل بيننا هذيانات حمى... وسأعود ثانيةً كما كنت، مشاءةً منعزلة».

المؤرخ الإنجليزي إ. بي. طومسون (١٩٢٤-١٩٩٣)، مقطع من كتاب «صناعة الطبقة الإنجليزية العاملة».

***

«أمضيت اليوم التالي أتجول في الوادي. وقفت بجانب منابع نهر أرفيرون، الذي يتدفق من نهر جليدي ويهبط بطيئًا من قمة التلال ليحيط بالوادي... منحتني هذه المشاهد الرائعة أعظم عزاء كنت قادرًا على تلقيه. رفعتني من ضآلة المشاعر، ورغم أنها لم تزِل حزني، فقد أخفتته وهدأته».

الروائية الإنجليزية ماري شيلي، من رواية «فرانكنشتاين».

***

«ذلك الذي لم يعرف هذه الأحاسيس، لم يتلذذ أبدًا باستراحة باردة بجانب ينبوع بعد مشي متعب في يوم صيفي...

في مثل هذه اللحظات، إن لم أجد أي تعاطف، ولم تسمح لي شارلوت بالتمتع بالمواساة المحزنة التي أجدها حين تغسل يدها بدموعي، فإنني أبتعد عنها وأهيم في الريف، أو أتسلق جرفًا شديد الانحدار،

أو أشق طريقًا لا يمكن تقصيه في غابة وأنا مجروح وممزق بالأشواك والنباتات المتشابكة، عند ذاك أجد بعض الراحة...

حل أوسيان محل هوميروس في قلبي. يا له من عالم يحملني إليه هذا الشاعر! لنتجول في مروج تعصف بها الريح وتستحضر بضوء القمر الشاحب أرواح أسلافنا...

عند الظهر ذهبت للمشي بجانب النهر. لم تكن لديّ شهية. بدا كل شيء من حولي كئيبًا».

غوته، مقاطع مختلفة من «آلام فيرتر».

***

«عندما كانت صحته [كوليردج] جيدة، ومن المؤكد أنه كان كذلك لفترات طويلة، قام بمفرده بأروع جولات المشي وتسلق الجبال حول البحيرات. كان في الواقع أول من مشوا على المنحدرات في العصر الحديث، وأول شخص مشهور من خارج مجال الرياضة ينطلق لتسلق قمم الجبال، فقط من أجل الاستمتاع بذلك. وكان صعوده عام ١٨٠٢ إلى سكافيل بايك، أعلى قمة في ليكلاند، أول تسلق مسجل لذلك الجبل العظيم».

الكاتب البريطاني هنتر ديفيز (١٩٣٦)، «وليام وردزوورث: سيرة ذاتية».

***

«قلت إنه أنهى فورًا قصيدة رائعة لإله المراعي بان -ولمّا لم يكن معه نسخة منها، توسلت إلى كيتس أن يلقيها- وهو ما فعله بطريقة شبه غنائية (مؤثرة إلى أبعد حد) بينما يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا...».

الرسام الإنجليزي بنيامين هايدون (١٧٨٦-١٨٤٦)، مقطع من مذكراته.

***

«تمشيتنا قبل الإفطار وبعد الاستحمام هي أفضل وجبة في اليوم. بدأت أنا وإليزابيث في تذوقها واكتشاف مدى فائدتها للعقل والجسد. من المفترض أن التمشيات تجعلنا جزءًا من الموسم بأكمله، مثلما تجعل زهرة».

المصلح والتربوي الأميركي أموس برونسون ألكوت (١٧٩٩-١٨٨٨)، من مذكراته.

***

«أخيرًا، بينما كنا نسير متثاقلين على طول الطرق المتربة، أصبحت أفكارنا مغبرة مثلها، توقفت كل فكرة بالفعل، وانهار التفكير، أو استمر بشكل مغيّب فقط في نوع من إيقاع نغمة ختامية لمادة الفكر المشوشة، ووجدنا أنفسنا نكرر بشكل آلي بعض أبيات قصائد روبن هود الحكائية».

الكاتب والمفكر الأميركي هنري ثورو (١٨١٧-١٨٦٢)، «مشوار إلى واتشوسيت».

***

«وفي مناسبة أخرى، عندما كنت أسير بمفردي، وصلت إلى ليزارد، سألت إن كان في إمكانهم إعطائي سريرًا. «هل اسمك السيد تريفيليان؟» سألوني، قلت: لا، هل تتوقعون وصوله؟ قالوا: نعم، وزوجته هنا بالفعل. تفاجأت بذلك، لأنني علمت أنه يوم زفافه. وجدتها تقبع وحيدة، لأنه تركها في مدينة «ترورو» قائلًا إنه لا يستطيع مواجهة اليوم بأكمله من دون المشي قليلًا. وصل قرابة العاشرة ليلًا منهكًا تمامًا بعد أن قطع الأربعين ميلًا في وقت قياسي، بدا لي أنها بداية غريبة لشهر عسل».

الفيلسوف البريطاني برتراند راسل (١٨٧٢-١٩٧٠)،

من مذكراته.

***

«الإيقاع في الأصل إيقاع القدمين. كل إنسان يمشي، وبما إنه يمشي على قدمين يضرب بهما الأرض بالتناوب، وبما إنه لا يتحرك إلا إذا واصل فعل ذلك، سواء بقصد أو بغير قصد، ينشأ صوت إيقاعي... للحيوانات أيضًا مشيتها المألوفة، غالبًا ما تكون إيقاعاتهم أكثر ثراءً ومسموعةً أكثر من إيقاعات البشر، تهرب الحيوانات ذات الحوافر في قطعان مثل أفواج من الطبّالين...

معرفة الحيوانات التي كان محاطًا بها والتي هددته والتي اصطادها، كانت أقدم معرفة للإنسان. تعلم التعرف على الحيوانات من خلال إيقاع حركتها. أقدم كتابة تعلم قراءتها كانت آثارهم، كانت نوعًا من التدوين الإيقاعي مطبوعًا على الأرض الناعمة. الأعداد الكبيرة من القطعان التي اصطادوها امتزجت في مشاعرهم بأعدادهم التي كانوا يتمنون أن تكون كبيرة، وعبروا عن ذلك بحالة محددة من الإثارة الجماعية التي سأسميها الحشد الإيقاعي أو النابض. وكانت وسيلة تحقيق هذه الحالة هي في المقام الأول إيقاع أقدامهم، مكررًا ومضاعفًا».

إلياس كانيتي، «الحشود والسلطة».

***

«جبال، ما يثير الإعجاب، شعور متنامٍ بالرعب، جاذبية الـ ، مثل خلفية، جمال الـ ، متعة الـ، فلسفة «اعرف نفسك»، ورجال، التصوف، الشعور الرومانسي نحو، الموقف العلمي، التسامي، شروق الشمس المرئي من، المشي، والنساء».

من إدخالات الفهرس في نهاية كتاب «ساقا المهر:

دراسة في المشي» للكاتب البريطاني موريس ماربلز (١٩٠١...).

***

«منذ أيام ليزلي ستيفن، كانت المبررات الذكية لحياة التسلق قليلة ومتباعدة، وغامضة في أحسن الأحوال (انظر كتابات جورج مالوري). بالمناسبة يبدو أن حب الطبيعة ليس له علاقة كبيرة بالأمر. المتسلقون المتفوقون، بشكل عام، ليسوا فرحين بالمشي لمسافات طويلة، ولا هم بصبورين مع تقلبات الطقس، ويفتقرون إلى الحساسية لرهافة المناظر الطبيعية».

المتسلق والكاتب الأمريكي ديفيد روبرتس (١٩٤٣-٢٠٢١)، «ديبورا: سرد البرية».

***

«غواية التحدي والاختبار، ومتعة الإنجاز، والاتصال مع بساطة أسلافنا، والهروب من الوجود المبتذل العادي، والعثور على القيم، والجمال، والرؤية. هذه أمور تستحق العيش، وربما الموت، من أجلها».

هاميش براون، في وصف لكيفية تسلقه لجبال مونرو الـ٢٧٩، أو القمم التي يزيد ارتفاعها على ٣٠٠٠ متر في إسكتلندا.

***

«هناك أنواع شتى من المشي، بدءًا من الخروج عبر الصحراء في خط مستقيم، إلى ذلك النسج المتعرج عبر الشجيرات الكثة. نزول التلال الصخرية والسفوح شديدة الانحدار تخصص في حد ذاته. خطوة رقص غير منتظمة -متغيرة دائمًا- للمشي على الألواح وركام الحصى. يتبع التنفس

والعين ذلك الإيقاع المتباين دائمًا. النزول ليس حركة منتظمة على وتيرة واحدة مثل عقارب الساعة أبدًا، بل إنه مرن، قفزات صغيرة، خطوات جانبية، البحث عن مكان مكشوف جيدًا لوضع قدمك على صخرة، والوقوف عليها، مواصلة المشي بطريقة متعرجة، وكل ذلك بتعمّد».

غاري سنايدر، «جبال زرقاء تمشي دائمًا».

***

«ويتغير معنى الأرض تمامًا: مع النموذج القانوني يُعاد توطين المرء باستمرار حول وجهة نظر ما، في مجال ما، وفقًا لمجموعة من العلاقات الثابتة، لكن مع النموذج المتنقل، فإن عملية الانتزاع تشكل الإقليم نفسه وتوسعه».

جيل دلوز وفليكس غواتاري، «دراسة في علم الترحال».

***

«تشوهات العمود الفقري شائعة جدًا بين عمال المطاحن. بعضها ينجم عن العمل الزائد، والبعض الآخر عن تأثير العمل الطويل بصحة بدنية ضعيفة في الأصل، أو أضعفها الطعام السيئ. ويبدو أن التشوهات أكثر شيوعًا من هذه الأمراض، وكانت الركب مثنية إلى الداخل، وأربطتها مترهلة وضعيفة في كثير من الأحيان، والعظام الطويلة في الساقين منثنية. كانت النهايات السميكة لهذه العظام الطويلة عرضة بشكل خاص للانحناء والنمو بلا تناسق، هؤلاء المرضى كانوا يأتون من المصانع التي تكون ساعات العمل الطويلة فيها أمرًا شائعًا».

الفيلسوف الألماني فريدريك إنجلز (١٨٢٠-١٨٩٥)، «حالة الطبقة العاملة في إنجلترا».

***

«كتب لي الرجل، عن طريق وكيله، أو سكرتيره، أو أي شخص آخر: السير ليستر ديدلوك، البارون، يقدم تحياته إلى السيد لورانس بويثورن، ويلفت انتباهه إلى أن المسلك الأخضر الذي يمر بجوار البيت القديم للقسيس، والذي أصبح الآن ملكًا للسيد لورانس بويثورن، طريق من حق ليستر، وهو في الواقع جزء من منتزه تشيسني وولد، والذي يجد السيد ليستر أن إغلاقه مناسب».

الروائي الإنجليزي تشارلز ديكنز، «البيت الموحش».

***

الفصل السادس
الطريق خارج الحديقة

١. سائران وثلاثة شلالات

قبل أسبوعين من نهاية القرن، ذهب أخ وأختَه للمشي عبر الثلج. كانت بشرتهما شاحبة، علَق أصدقاء بأن حالتهما السيئة واضحة من مشيتهما، لكن التشابه بين الاثنين انتهى عند هذا الحد. كان طويل القامة، ذا أنف روماني، هادئ، أما هي فصغيرة الحجم، ولها عينان متقدة لاحظهما الجميع. في اليوم الأول من رحلتهم، ١٧ ديسمبر/كانون الأول، قطعا مسافة اثنين وعشرين ميلًا على ظهور الخيل قبل أن يفترقا عن صديقهم، صاحب الخيول، ثم سارا اثني عشر ميلًا أخرى إلى مسكنهما: «أفضى مشي الأميال الثلاثة الأخيرة في الظلام، قطعنا ميلين منهم فوق طريق متجمد، إلى ألم شديد في أقدامنا وكواحلنا. في صباح اليوم التالي، تغطَت الأرض بطبقة رقيقة من الثلج كافية لجعل الطريق أملس من دون أن يكون زلقًا». كما حدث في اليوم السابق، انعطف المسافران عن طريقهما لرؤية شلال وسط هذه التضاريس الجبلية. كان صباحًا صقيعيًا بشدة، تابع الأخ في رسالته عشية عيد الميلاد: «عواصف الثلج تتهددنا، لكن الشمس مشرقة ونشيطة، أمامنا مهمة طولها ٢١ ميلًا علينا أن نؤديها في نهار شتوي قصير. عند الاقتراب أكثر، بدا أن الماء يسقط عبر قوس عالٍ أو بالأحرى مشكاة تشكَلت تدريجيًا وفي هدوء في جدار قلعة قديمة. غادرنا هذا المكان بصعوبة ولكننا كنا في قمة الانتشاء».

بعد الظهر، وصلا إلى شلال آخر، تتحول مياهه إلى

ثلج أثناء تساقطها وسط الجليد. أكمل: «كان التيار يندفع من بين صفوف الجليد في دفقات مختلفة في قوتها وبكتل من الماء تتغير كميتها بين لحظة وأخرى. أحيانًا كان الماء يلقي بنفسه في الحوض في منحنى واحد متصل، وأحيانًا أخرى كان ينقطع في منتصف سقوطه تقريبًا، وعندما يندفع نحونا، يسقط جزء من الماء على مسافة ليست ببعيدة من أقدامنا مثل أقوى وابل رعد. في مثل هذه الحالة، يتملكك كل لحظة شعور بحضور السماء. فوق أعلى نقطة من الشلال، تطايرت سحب كبيرة تشبه الصوف فوق رؤوسنا وظهرت السماء بزرقة أكثر وضوحًا من العادة». بعد الانعطاف إلى الشلال، سارا الأميال العشرة التالية في ساعتين وربع: «بفضل الريح التي كانت تسير خلفنا والطريق الجيد». يظهر أنه يستمتع ببراعتهما في المشي بقدر استمتاعه بالمناظر من حوله تقريبًا. استغرقتهما سبعة أميال أخرى للوصول إلى مكان استراحتهما التالي، وفي الصباح سارا إلى كيندال، بوابة أرض البحيرات، حيث جاءا للعيش.

كان القرن الذي يقتربان منه بنفس سرعة الاقتراب من منزلهما الجديد هو القرن التاسع عشر، وكان المنزل كوخًا على مشارف قرية غراسمير الصغيرة الواقعة على ضفاف البحيرة، كان المتجولان القويان، كما خمن كثيرون بالفعل، هما وليام ودوروثي وردزوورث. ما فعلوه في تلك الأيام الأربعة عبر جبال «البينينز» في شمال إنجلترا، وما فعلاه وما سيفعلانه كمتجولين، كان أمرًا استثنائيًا. ما الذي يجعل الأمر هكذا، من الصعب تحديد ذلك. سافر الناس على الأقدام من قبل إلى مسافات أبعد بكثير وفي ظروف أسوأ بكثير. بدأ الناس قبل ولادة الشاعر وأخته بما يقرب من ثلاثين عامًا في

تقدير بعض من أكثر سمات الريف البريطاني بريّة -الجبال، الجروف، المستنقعات، العواصف، البحر وكذلك الشلالات. وفي فرنسا وسويسرا، بدأ عدد قليل من الناس في تسلق الجبال- وتحقق الوصول إلى قمة «الجبل الأبيض» أعلى قمة في أوروبا، قبل أربعة عشر عامًا. يقال إن وردزوورث ورفاقه من المشائين جعلوا من المشي شيئًا آخر، شيئًا جديدًا، وبالتالي أسسوا سلالة كاملة انبثق منها كثير، من أولئك الذين يمشون للمشي في حد ذاته، ولمتعة الوجود بين المناظر الطبيعية. معظم مَن كتبوا عن هذا الجيل الأول من الرومانسيين اقترحوا أنهم هم أنفسهم قدموا المشي كفعل ثقافي، كجزء من تجربة جمالية.

كتب كريستوفر مورلي في عام ١٩١٧: «لطالما تصورت أن المشي كفن رفيع لم يُمارَس كثيرًا قبل القرن الثامن عشر. نعلم من كتاب السفير جوسوراند الشهير كم عدد عابري السبيل الذين كانوا في الخارج على الطرق في القرن الرابع عشر، ولم يكن أي من هؤلاء في الخارج لملذات التأمل والمناظر الطبيعية. بشكل عام، فإن المشي عبر الريف من أجل البهجة الخالصة المتمثلة في إيقاعية وضع قدم قبل الأخرى كان نادرًا قبل وردزوورث. دائمًا أفكر فيه كواحد من أول من وظف ساقيه كأداة للفلسفة». لم يكن مورلي بعيدًا عن الواقع، في جملته الأولى، رغم أن جزءًا كبيرًا من القرن الثامن عشر قد مر قبل أن يولد وردزوورث عام ١٧٧٠. ولكنه بعد ذلك يخلط بين المشي باعتباره فنًا جميلًا والمشي عبر البلاد، وهو المكان الذي يتسلل فيه الارتباك. منذ مورلي، جرى تناول موضوع المشي والثقافة الإنجليزية في ثلاثة كتب، وكلها تذهب أبعد من ذلك في اقتراح أنه في أواخر القرن الثامن

عشر، عندما انطلق وردزوورث وأقرانه على قدم وساق، بدأ هذا المشي.

كتب موريس ماربلز المبهج «شانكس بوني: دراسة المشي» عام ١٩٥٩، و«المشي والأدب والثقافة الإنجليزية» لآن دي. والاس عام ١٩٩٣، و«الشعر الرومانسي وسفر المشائين» لروبن غارفيس عام ١٩٩٨، كلها أعمال تستخدم الكاهن الألماني كارل موريتز كحالة توضيحية. أثناء سيره عبر إنجلترا عام ١٧٨٢، غالبًا ما وجد موريتز نفسه محتقرًا ومطرودًا على يد أصحاب الفنادق الصغيرة وعمالهم، بينما كان سائقو العربات يسألونه باستمرار عمّا إذا كان يريد توصيلة. فخلص إلى أن طريقة سفره هي التي جعلته يبدو غريب الأطوار بالنسبة إلى أولئك الذين التقى بهم: «يبدو أن المسافر مشيًا في هذا البلد يعتبر نوعًا من الإنسان الوحشي، أو شاذًا - هو الذي يحملق إليه، ويشفق عليه، ويشتبه فيه، ويتجنبه كل من يقابله». عند قراءة كتابه، يفكر المرء في ما إذا كان لباسه أو أسلوبه أو لهجته هي التي أزعجت الأشخاص الذين لقيهم، وليس مشيه فقط. لكن تفسيره مقبول إلى حد كبير من قبل الثلاثة الذين استشهدوا به.

ظلّ السفر في حد ذاته عسيرًا حتى أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا. كانت الطرق فظيعة وتعاني من قطاع الطرق على خيولهم وأمثالهم من المشاة، الحرّابين. من كانوا يستطيعون تحمل التكاليف كانوا يسافرون على حصان أو بمركبة كبيرة تجرها خيول، أو عربة صغيرة، أو في أسوأ الأحوال في مقطورة، أحيانًا مع أسلحة. غالبًا ما كان المشي على طول الطرق العامة يدل على أن السائر إما فقير أو عابر سبيل، على الأقل حتى سبعينيات القرن الثامن

عشر، قبل أن يبدأ عديد من المثقفين وغريبي الأطوار بالمشي فيها من أجل المتعة. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت الطرق تتحسن من حيث الجودة والسلامة، وأصبح المشي وسيلة سفر أكثر تقديرًا. على أعتاب القرن التالي، قضى الـ وردزوورثيان وقتًا رائعًا في المشي، ليس فقط على الطرق، بل في التلال والطرق الجانبية أيضًا، وكان الخوف من التعرض لجريمة أو ما يسيء إلى السمعة أبعد ما يكون عن ذهن كل منهما، فقد سلبهما المنظر واستمتعا بقدراتهما الخاصة على المشي في الطقس الذي من شأنه أن يُبقي معظم الناس مجتمعين في منازلهم.

زار الاثنان ليك ديستركت (أرض البحيرات) قبل ستة أعوام من مشيهما في منتصف الشتاء: «مشيت وأخي إلى جانبي، من كيندال إلى غراسمير، ثمانية عشر ميلًا، وبعد ذلك من غراسمير إلى كيسويك، خمسة عشر ميلًا، عبر أكثر مناطق الريف بهجةً على الإطلاق»، كتبت دوروثي في أول تدفق بعد متعة تلك الرحلة الاستكشافية عام ١٧٩٤، ثم كتبت بشكل دفاعي إلى عمتها: «لا أستطيع أن أمرر ذلك الجزء من رسالتك الذي تتحدثين فيه عن أني أتسكع في أنحاء الريف على قدمي. بعيدًا عن اعتبار الأمر بمثابة إدانة لي، لقد اعتقدت أن مما يسرَ أصدقائي أن يسمعوا أنني أملك الشجاعة لأفيد من القوة التي وهبتني الطبيعة إياها، لكنها منحتني متعة بلا حدود، أكثر بكثير من تلك التي كان يمكن أن أتلقاها من الجلوس مسترخية على كرسي طويل، كما أن المشي وسيلة وفرت عليّ ثلاثين شلنًا على الأقل». إذا أخذنا دوروثي وردزوورث في عام ١٧٩٤ بدلًا من كارل موريتز في عام ١٧٨٢ كشاهد لنا، فسنجد أن المشي عبر الريف كان مسيئًا إلى النساء كفعل

مستهجن لا يليق بالسيدات.

رغم أن وردزوورث، بمعنى ما، هو الأب المؤسس (وبالتالي دوروثي) للذائقة الحديثة التي شكّلت أجزاء أكثر متعة في عالمنا وخيالات من يعيشون فيه، فإنه هو نفسه كان وريثًا لتقليد طويل، ولذا فمن الأدق رؤيته كمحول، نقطة ارتكاز، محفز لتاريخ المشي في المشهد الطبيعي. صحيح أن من سبقوه لم يسيروا كثيرًا على الطرق العامة (وبالنسبة إلى الجزء الأكبر من أحفاده المعاصرين فهم لا يفعلون ذلك أيضًا لأن السيارات جعلت الطرق خطرة وبائسة مرة أخرى). رغم أن كثيرين سبقوه في السفر على الأقدام بدافع الضرورة، فإن قليلًا منهم فعل ذلك من أجل المتعة، ولذلك استنتج المؤرخون أن المشي من أجل المتعة كان ظاهرة جديدة. في الواقع، أصبح المشي بالفعل نشاطًا مهمًا، ولكن ليس مثل السفر. يمكن العثور على عدد قليل من أسلاف وردزوورث من المشاة يسافرون على الطرق العامة، لكن كثيرًا منهم كانوا يتسكعون في الحدائق والمتنزهات.

٢. درب الحديقة

في منتصف القرن التاسع عشر، كتب ثورو: «عندما نسير، نذهب بشكل طبيعي إلى الحقول والغابات: ماذا سيحدث لنا إذا مشينا فقط في حديقة أو ممشى مظلل بالأشجار؟» بالنسبة إلى ثورو، يبدو أن الرغبة في التنزه في المساحات البرية التي لم يجر التدخل فيها لم يعد لها تاريخ، بل أصبحت طبيعية، إن كانت الطبيعة تعني الحقيقة الخالدة التي وجدناها، وليس المحدد التاريخي الذي صنعناه. رغم أن كثيرين في أيامنا يذهبون إلى الحقول والغابات للتنزه، فإن الرغبة في القيام بذلك ترجع،

إلى حد كبير، إلى ثلاثة قرون من تربية معتقدات وأذواق وقيم معينة. قبل ذلك، لم يمش أصحاب المكانة الذين يبحثون عن المتعة والتجربة الجمالية إلا في حديقة أو ممشى ظليل. تذوق الطبيعة الذي كان راسخًا بالفعل في زمن ثورو وضخم في عصرنا، له تاريخ غريب، وهو التاريخ الذي جعل الطبيعة نفسها ثقافية. لفهم دوافع اختيار الناس المشي في مساحات طبيعية معينة بأجندات معينة، لا بد للمرء أولًا أن يفهم كيف تشكل هذا الذوق وانبثق من الحدائق الإنجليزية.

نميل إلى الاعتقاد بأن أساسات ثقافتنا طبيعية، لكن كل أساس كان له بناة وأصل، بمعنى أنه بناء إبداعي، وليس حتمية بيولوجية. وكما بشَرت الثورة الثقافية في القرن الثاني عشر بالحب الرومانسي كموضوع أدبي في الأول ثم كوسيلة لتجربة العالم، كذلك خلق القرن الثامن عشر ذوقًا للطبيعة من دونه ما كان لويليام ودوروثي وردزوورث أن يختارا المشي مسافات طويلة في منتصف الشتاء، والابتعاد عن مسارهما الشاق أصلًا للاستمتاع بالشلالات. لا يعني ذلك أن أحدًا لم يشعر بهيامٍ أو أعجب بمسطح مائي قبل هذه الثورات المتعاقبة، بل يعني أن نقول إن إطارًا ثقافيًا قد وضع من شأنه أن يغرس مثل هذه الاتجاهات في الجمهور الأوسع، ويمنحهم طرقًا تقليدية معينة للتعبير، وينسب إليهم قيمًا تعويضية معينة، ويغير العالم المحيط لتعزيز تلك الاتجاهات. ليس من المبالغة التأكيد على عمق تأثير هذه الثورة في تذوق الطبيعة وممارسة المشي. لقد أعادت تشكيل العالم الفكري والمادي، فأرسلت مجموعات من المسافرين إلى وجهات غامضة حتى الآن، وأنشأت عددًا لا يحصى من المتنزهات والمحميات والمسارات والأدلة

والنوادي والمنظمات ومجموعة واسعة من الفنون والأدب لم يسبق لها مثيل قبل القرن الثامن عشر.

تبرز بعض التأثيرات كمعلم وتترك إرثًا يمكن تتبعه مع ورثة واضحين. لكن التأثيرات الأعمق تتغلغل في تضاريس الثقافي مثل المطر وتغذي الوعي اليومي. من المرجح ألا يُكتشف مثل هذا التأثير، فهو يظهر كما لو أنه الطريقة التي حصلت بها الأشياء دائمًا، الطريقة الطبيعية أو حتى الوحيدة للنظر إلى العالم. هذا هو التأثير الذي كان يدور في ذهن شيلي عندما كتب: «الشعراء هم مشرِّعو العالم المجحودون». مثل هذا التأثير هو التذوق الرومانسي للمناظر الطبيعية، للأماكن البرية، للبساطة، للطبيعة كمثال، للمشي في الطبيعة باعتباره اكتمال العلاقة مع هذه الأمكنة وتعبيرًا عن الرغبة في البساطة والنقاء والعزلة. هذا يعني أن المشي أمر طبيعي، أو بالأحرى جزء من التاريخ الطبيعي، ولكن اختيار المشي في المناظر الطبيعية كتجربة تأملية أو روحية أو جمالية له سلالة ثقافية محددة. هذا هو التاريخ الذي تحول إلى طبيعة بالفعل بالنسبة إلى ثورو والذي أخذ المشائين أبعد وأبعد - لأن تاريخ المشي المتغير لا ينفصل عن الذوق المتغير للأمكنة التي يُمشى فيها.

السبب الحقيقي الذي يجعل وردزوورث وأقرانه هم المؤسسين لتقليد المشي لأسباب جمالية وليسوا محولين له هو أن رحلات المشي التي سبقتهم كانت عادية. في الواقع، لم تكن تلك النزهات القصيرة في الأماكن الامنة إلا نتيجة عرضية لتاريخ العمارة والحدائق، فليس لها مراجع خاصة بها، بل تُذكر في الروايات والمذكرات والرسائل فقط. يتم إخفاء جوهر تاريخها في تاريخ

آخر، وهو تاريخ إنشاء أمكنة للمشي، أمكنة أصبحت أكبر حجمًا وأكثر أهمية ثقافيًا مع مرور القرن الثامن عشر. إنه أيضًا تاريخ التحول الجذري للذوق، من الشكل الرسمي شديد التنميق إلى الشكل غير الرسمي والطبيعي، الذي يبدو، في أصوله، تاريخًا تافهًا للأرستقراطية الخاملة وعمارتها، لكنه في نتائجه أسس بعضًا من أكثر الأماكن والممارسات التخريبية والمبهجة في العالم المعاصر. أصبحت ذائقة المشي والمساحات الطبيعية بمثابة حصان طروادة الذي من شأنه أن يضفي في نهاية المطاف طابعًا ديمقراطيًا على عديد من الساحات، وفي القرن العشرين أسقط بالفعل الحواجز المحيطة بالممتلكات الأرستقراطية.

يمكن تعقب ممارسة المشي من خلال الأمكنة. مع حلول القرن السادس عشر، عندما بدأت القلاع تتحول إلى قصور وبيوت فخمة، أصبحت المعارض -وهي غرف طويلة ضيقة مثل الممرات، رغم أنها لا تؤدي إلى أي مكان غالبًا- جزءًا من التصميم، وقد استخدمت لممارسة الرياضة في الداخل. «شدد أطباء القرن السادس عشر على أهمية المشي يوميًا للحفاظ على الصحة، وجعلت المعارض ممارسة الرياضة ممكنة عندما كان الطقس يحول دون ممارستها في الخارج» يكتب مارك جيروارد في كتابه «تاريخ المنزل الريفي». (أصبح المعرض في نهاية المطاف مكانًا اللوحات، ورغم أن صالات المتحف لا تزال مكانًا يتجول فيه الناس، إلا أن التنزه لم يعد هدفًا). أضافت الملكة إليزابيث ممشى هو عبارة عن شرفة مرتفعة في قلعة وندسور، وسارت هناك لساعة قبل العشاء كل يوم لا يكون الطقس فيه عاصفًا. كان المشي ما يزال من أجل الصحة أكثر من المتعة، رغم أن الحدائق استعملت

أيضًا للمشي، ولا بد أن هناك نوعًا من المتعة قد تراكم هناك. لكن ذائقة المناظر الطبيعية كانت لا تزال محدودة إلى حد ما. في ١١ أكتوبر ١٦٦٠، ذهب صمويل بيبس(22) للتنزه في حديقة سانت جيمس بعد العشاء، لكنه لم يلحظ إلا مضخات المياه التي تعمل هناك. بعد ذلك بعامين، في ٢١ مايو ١٦٦٢، كتب أنه ذهب هو وزوجته للتنزه في حديقة وايت هول، لكنه أبدى اهتمامًا أكثر بالملابس الداخلية لعشيقة الملك في الحديقة الخاصة، ومن الواضح أنها كانت معلقة هناك لتجف. كان المجتمع هو ما يهمه وليس الطبيعة، ولم تكن المناظر بعد موضوعًا مهمًا للرسم والشعر البريطاني، كما ستصبح. وإلى أن أصبحت البيئة المحيطة مهمة، كان المشي مجرد حركة وليس تجربة.

مع ذلك، كانت هناك ثورة تجري في الحدائق. أحيطت حديقة القرون الوسطى بأسوار عالية، وذلك جزئيًا لتوفير الأمن في الأوقات المضطربة. في صور هذه الحدائق، غالبًا ما يجلس شاغلوها أو يتكئون، يستمعون إلى الموسيقى أو يتحدثون (كانت الحديقة المغلقة -منذ «نشيد الإنشاد»، كناية عن الجسد الأنثوي، وعلى الأقل منذ ظهور تقليد المحظيات- موقع المغازلة والمحظيات). جعلت الزهور والأعشاب والأشجار المثمرة والنوافير والآلات الموسيقية من الحدائق أماكن تتحدث إلى جميع الحواس، ويبدو أن العالم خارج هذا الحرم الحسي يوفر أكثر من تمرين كافٍ، حيث كان نبلاء العصور الوسطى لا يزالون منخرطين جسديًا في الأعمال العسكرية وشؤون إدارة الممتلكات. وبينما أصبح العالم أكثر أمانًا وتحول مكان السكن الأرستقراطي إلى قصر أكثر من كونه حصنًا، بدأت

حدائق أوروبا في التوسع. بدأت الزهور وأشجار الفاكهة تختفي من الحدائق، فقد كان هذا التوسع موجهًا إلى العين. كانت حديقة عصر النهضة مكانًا يمكن للمرء أن يمشي ويجلس فيه، وترامت أطراف حديقة الباروك. وكما كان المشي تمرينًا لأولئك الذين لم يعودوا في حاجة إلى العمل، كذلك كانت هذه الحدائق الشاسعة مساحات مزروعة لم تعد في حاجة إلى إنتاج أي شيء أكثر من التحفيز العقلي والجسدي والاجتماعي لمن يتمشون فيها.

لو لم تكن الحديقة الباروكية عرضًا متفاخرًا للثروة والقوة، لكان من الممكن وصف تجريدها بالتقشف. شُكّلت الأشجار والأسيجة لتشكّل قسرًا مربعات وأقماعًا. صُمِمت المسارات والطرق والممرات كخطوط مستقيمة، ضُخت المياه في النوافير أو في برك بأشكال هندسية. انتصر النظام الأفلاطوني، وفرض المثالي على المادة الفوضوية للواقع. مدّت هذه الحدائق هندسة العمارة وتماثلها إلى العالم العضوي. لكنها ما زالت توفر فرصًا للتصرفات غير الرسمية والخاصة: طوال تاريخها، كانت إحدى الوظائف الرئيسية للحدائق الأرستقراطية منح الناس مكانًا للانسحاب من المنزل إلى التأمل أو المحادثة الخاصة. في إنجلترا، أضاف ويليام وماري حدائق جديدة إلى هامبتون كورت في عام ١٦٩٩، وهي حدائق يمكن للمرء المشي فيها لمسافة ميل قبل الوصول إلى الجدار. أخذت أهمية الممشى أو الممر كجزء من الحدائق تتزايد، وهي بالمقابل دليل غير مباشر على تزايد شعبية المشي (في هذا السياق، تعني كلمة «الممشى» مسارًا واسعًا بما يكفي ليمشي فيه شخصان جنبًا إلى جنب، ويمكن تسميته بدرب المحادثة). كتبت الرحالة والمؤرخة الإنجليزية سيليا فينيس عن حديقة زارتها بالقرب

من بداية القرن الثامن عشر: «هناك مماشٍ مرصوفة بالحصى وأخرى مغطاة بالعشب وممرات حميمة، وهناك ممشى واحد بطول الحديقة من العشب المقصوص والذي جرت تسوية سطحه يسمى «الممشى المتعرج»، وفيه مسافات متروكة من الجانبين وزوايا، وهناك الجدار الذي يجعلك تعتقد أنك في نهاية الممشى قبل أن تكون قد وصلت فعلًا عدة مرات». لكن جدران الحديقة كانت تتلاشى، وأصبح التمييز بينها وبين المساحات الطبيعية خلفها أصعب فأصعب. بُنيت الحدائق الإيطالية في عصر النهضة على منحدرات مطلّة على الريف من ورائها وتربط الحديقة بالعالم، لكن نادرًا ما كانت الحدائق الفرنسية والإنجليزية تُبنى بهذه الطريقة، حيث يمتد خط الرؤية إلى جدار الحديقة فقط، ثم امتد لاحقًا عبر مجموعة متنوعة من الفتحات في جدار الحديقة.

عندما ظهر الـ«ها-ها» إلى الوجود في العقود الأولى من القرن الثامن عشر، انهارت أسوار الحدائق في بريطانيا. إنه خندق لامرئي تقريبًا من أي مسافة كانت، قيل إنه سُمي بـ ها-ها لأن المتنزهين كانوا يتفاجؤون به فيهتفون «ها ها!»، مدهوشين من سياج لامرئي يتيح لسكان الحديقة التحديق إلى المسافة أمامهم من دون انقطاع. فحيثما ذهبت النظرة سرعان ما يتبعها السائر. تتكون معظم العزب الإنجليزية من سلسلة مساحات يتزايد التحكم فيها: المتنزه العام والحديقة والمنزل. استمرت المتنزهات العامة، التي كانت في الأصل محميات للصيد، في لعب دور منطقة عازلة بين الطبقات المرفهة والأراضي الزراعية والعمال من حولها، وغالبًا ما كانت توفر الأخشاب ومساحة للرعي. أما الحديقة فكانت مساحتها أصغر بكثير وتحيط

بالمنزل. تكتب سوزان لاسدون في تاريخها لهذه المتنزهات عن الطرق المستقيمة للأشجار المزروعة في المتنزهات والحدائق في القرن السابع عشر: «وفرت هذه الطرق الظل والمأوى للمشي، الذي جعله تشارلز الثاني رائجًا، وأصبح الآن أمرًا ضروريًا في الحدائق العامة... من المؤكد أن حب الهواء وممارسة الرياضة كان بالفعل «موضة إنجليزية». نُظَمت جولات المشي من قبل الفلاك في حدائقهم الريفية الخاصة، وأصبح المشي جزءًا من متعة الحديقة مثل الصيد والقيادة وركوب الخيل. وصارت التمشيات نفسها مثيرة للاهتمام، مع تطور الاعتبارات الجمالية من المشهد الثابت البسيط من النافذة أو الشرفة، إلى شيء يأخذ في الاعتبار وجهة نظر متحركة أكثر... في الحقيقة، كان السائر يطوف الحديقة بشكل دائري وأصبح ذلك طريقة معتمدةً لمشاهدة الحدائق والمتنزهات في القرن الثامن عشر. وولَت منذ أمد الأيام التي كان فيها التنزه آمنًا على شرفة القلعة -الجذابة- فقط».

كانت الحديقة بشكلها المعتمد أنماطًا من أسيجة نباتية مقصوصة وأحواضًا هندسية وأشجارًا في صفوف منظمة، كأنها تشير إلى أن الطبيعة فوضى يفرض عليها الإنسان النظام (في إيطاليا في عصر النهضة، كانت اللوحات التي تجسد طبيعة برية عذراء موضع تقدير كبير، الأمر الذي لم يكن ينطبق على الأرض البرية البكر نفسها). في إنجلترا، أصبح التصميم الرسمي للحديقة يقل مع تقدم القرن الثامن عشر، وفكرة المناظر التي تقلد الطبيعية التي يمكن أن يطلق عليها اسم Jardin Anglais، أو الحديقة الإنجليزية، أو حديقة المناظر الطبيعية هي إحدى المساهمات الإنجليزية العظيمة في الثقافة الغربية. ومع اختفاء الحاجز البصري الذي

كان يفصلها عن محيطها، أصبح تصميم الحديقة أقل انفصالًا. في عام ١٧٠٩، قال أنتوني أشلي كوبر، كونت شافتسبري: «يا لها من طبيعة مجيدة! عادلة جدًا، وخيّرة على نحو غامر! ... لن أقاوم بعد الآن الشغف الذي ينمو داخلي تجاه أشياء طبيعية لم يفسد الفن ولا الغرور أو نزوة الإنسان نظامها الأصيل عبر انتهاك تلك الحالة البدائية. حتى الصخور الخام، والكهوف الطحلبية، والمغارات العشوائية التي لم تصل إليها يد إنسان، وشلالات المياه المتكسرة، وكل تلك النعم الرهيبة في البرية نفسها، باعتبارها من تمثل حقيقة الطبيعة ستكون أكثر إقناعًا، وستظهر بعظمة تتجاوز مهزلة الحدائق الأميرية». البلاغة تسبق الفعل، فقد مرت عقود عديدة قبل أن تفسح الحدائق الأميرية المجال أمام البرية. لكن نظرة شافتسبري المتفائلة إلى الطبيعة باعتبارها خيرًا في أصلها انضمت إلى التفاؤل بأن في إمكان الناس الاستيلاء على الطبيعة أو تحسينها أو اختراعها في حدائقهم.

«الشعر والرسم والبستنة، أو علم المناظر الطبيعية، أمور يعدها أصحاب الذوق أخوات ثلاثًا، أو نعمًا ثلاثًا جديدة تجمل الطبيعة وتزينها»، هذا ما أعلنه هوراس وولبول، ذواق الجمال الثري الذي فعل كثيرًا لغرس الذوق الرومانسي في أصحابه. أحد افتراضات هذا التصريح هو أن البستنة مثلها مثل أكثر ممارسات الشعراء والرسامين تقديرًا، إذ كانت تلك الفترة نوعًا من العصر الذهبي للاهتمام بالحدائق - أو نوعًا من عصر الحضانة نشأ فيه تذوق الطبيعة من تلك الحدائق والقصائد واللوحات. فرضية أخرى هي أن الطبيعة تحتاج إلى من يجملها ويزينها، على الأقل في حالة الحديقة، واقترحت اللوحات بعض الطرق التي يمكن من

خلالها القيام بذلك. من بين التأثيرات في حديقة المناظر الطبيعية الناشئة في إنجلترا كانت المناظر الطبيعية الإيطالية في القرن السابع عشر، تلك التي رسمها كلود لورين، ونيكولاس بوسين، وسلفاتور روزا، مع أرضها المتموجة الممتدة نحو آفاق بعيدة، وأجمات أشجارها التي تشبه الريش وتحدد المسافة، ومسطحاتها المائية الصافية. ومبانيها وأطلالها الكلاسيكية (وفي حالة رسومات روزا، فقد جعلتها الجروف والسيول وقطاع الطرق الأقرب إلى الفن القوطي بين الثلاثة). أُضيفت معابد وجسور ذات أعمدة لجعل الحدائق الإنجليزية شبيهة بالريف الإيطالي كما هو مرسوم في هذه اللوحات، وللإشارة أيضًا إلى أن إنجلترا كانت وريثة فضائل روما وجمالياتها. قال ألكسندر بوب: «كل أعمال البستنة رسمٌ للمناظر الطبيعية»، وكان الناس يتعلمون النظر إلى الطبيعة في الحدائق كما تعلموا النظر إلى الطبيعة في اللوحات.

ورغم أن توزيع العناصر المعمارية -مثل الآثار والمعابد والجسور والمسلات- على الحدائق استمر لعقود، فإن موضوع الحدائق أصبح الطبيعة نفسها، نسخة محددة جدًا منها، الطبيعة كعرض بصري من النباتات والمياه والفضاء، شيء نقي لا بد من تأمله بهدوء. على العكس من الحديقة بشكلها الرسمي والحديقة في اللوحة التي كانت لها وجهة نظر مثالية واحدة يمكن مشاهدتها من خلالها، فإن حديقة المناظر الطبيعية الإنجليزية «طلبت أن تُستكشف وأن تُكتشف مفاجآتها وزواياها الخفية من خلال المشي»، كما كتب مؤرخ الحدائق جون ديكسون هانت. تضيف كارولين برمنغهام، في تاريخها عن العلاقات بين الطبقة والمناظر الطبيعية: «في حين قامت الحديقة

الرسمية الفرنسية على إطلالة محورية واحدة من المنزل، فإن الحديقة الإنجليزية كانت سلسلة من المناظر القُطرية المتعددة المعدّة ليكتشفها المرء وهو يمشي عبرها». باستخدام مصطلحات عفا عليها الزمن، أصبحت الحديقة سينمائية أكثر منها تصويرية؛ صُممت بحيث تتم تجربتها أثناء الحركة كسلسلة من التركيبات تذوب بعضها في بعض بدلًا من أن تكون صورة ثابتة. لقد أصبحت مصممة الآن من الناحية الجمالية والعملية أيضًا للمتنزهين، وبدأ المشي والنظر يصبحان متعتين مرتبطتين.

كانت هناك عوامل أخرى في تحول الحديقة المتزايد إلى النمط البري، لعل أهمها كان معادلة حديقة المناظر الطبيعية بالحرية الإنجليزية. كانت الأرستقراطية الإنجليزية تغرس تذوق الطبيعة، بمعنى ما، يعدّون أنفسهم ونظامهم الاجتماعي من ناحية سياسية طبيعيًا، بخلاف الفرنسي المصطنع. وهكذا فإن سعيهم إلى قضاء أوقات فراغهم في الريف، وميلهم إلى التقاط صور لأنفسهم في الطبيعة الصامتة، وإنشاءهم للحدائق التي تقلد الطبيعية، وتربيتهم لذائقة المناظر الطبيعية، كلها أمور لها معنى سياسي ضمني، كما أشار برمنغهام في ملاحظة ذكية. ومع ذلك تشمل التأثيرات الأخرى تقارير عن الحدائق الصينية، حيث كانت المسارات والممرات المائية متعرجة ولولبية، وكان التأثير الإجمالي يحتفي بتعقيدات الطبيعة بدلًا من إخضاعها. لم تحمل «الصينيات» المبكرة ولا محاكاة الطبيعة كثيرًا من التشابه مع جذورها، ولكن القصد كان موجودًا ويتطور. وأخيرًا، يظهر هذا الذوق المتغير ثقة فائقة، فالحديقة الرسمية المغلقة والقلعة نتيجتان مباشرتان لعالم خطر يحتاج المرء إلى الحماية منه حرفيًا وجماليًا. وعندما

تهدم الجدران، فإن الحديقة تقترح أن هناك نظامًا في الطبيعي بالفعل، وأنه على تناغم مع مجتمع «طبيعي» يتمتع بمثل هذه الحدائق. إن الميل المتزايد إلى الآثار والجبال والسيول والمواقف المخيفة والحزن، والأعمال الفنية التي تدور حول هذه الأشياء، يشير إلى أن الحياة أصبحت ممتعة إلى أبعد الحدود بالنسبة إلى الطبقة الثرية في إنجلترا إلى درجة أنهم أعادوا الأهوال والمخاوف التي كان الناس يجاهدون لتحاشيها ذات يوم، أعادوها كترفيه. كذلك ازدهرت التجربة الخاصة والفن غير التقليدي في أمور أخرى، ولا سيما في ظهور الرواية.

الحديقة النموذج لهذا التطور هي حديقة «ستو» في باكنغهام. مرت «ستو» نفسها بمعظم مراحل الحديقة الإنجليزية في القرن الثامن عشر، وتقف الآن كنوع من معجم للبستنة في ذلك القرن، من معابدها ومغارتها وصومعتها وجسورها إلى بحيرتها ومناظرها الطبيعية. كانت تملك بعضًا من أقدم التصاميم والزخارف الصينية والعمارة القوطية في إنجلترا. استبدل مالكها، فيسكونت كوبهام، بـ«حديقة الصالون» الرسمية التي أنشئت في عام ١٦٨٠ حديقة رسمية أكبر بكثير، قام بتغييرها ومحوها ببطء مع تقدم القرن الجديد. في البداية، حوّلت الحقول الإليزية، مع معابدها الثلاثة المذكورة في الفصل السابق(23)، إلى شيء بخطوط أكثر نعومة وأكثر تموجًا، وتبعتها بقية الحديقة في النهاية. أصبحت التمشيات المستقيمة متعرجة، ولم يعد السائرون فيها يتنزهون بل يتجولون. يصف كريستوفر هاسي حديقة «ستو»، العاصمة السياسية لحزب الويجز، بأنها تحول

السياسة إلى عمارة الحدائق، وتخفف من التصميم الرسمي للمساحات: «لتتناغم مع إنسانية العصر، وإيمانها بالحرية المنضبطة، واحترامها للميزات الطبيعية، وإيمانها بالفرد، رجلًا كان أو شجرةً، وبغضها للطغيان سواء في السياسة أو في الزراعة». عمل معظم مهندسي المناظر الكبار في ذلك العصر لصالح كوبهام، وكان من بين ضيوفه عديد من الشعراء والكتاب العظام. توسعت الحدائق باستمرار، لتضم عشرات الأفدنة في المرة الواحدة. يلخص أحد مؤرخي الحديقة: «في غضون ثلاثين عامًا، انتقل ذوقه من الانشغال بالترتيبات المنتظمة للمروج ذات المدرجات والتماثيل والمسارات المستقيمة... إلى محاولة لرسم ثلاثي الأبعاد، وخلق صورة مثالية للمناظر الطبيعية».

كانت «ستو» موضع احتفاء في العديد من القصائد والصور واليوميات، وموقعًا مركزيًا في ثقافة العصر، سواء كموضوع أو ملاذ. «قُدني إلى تمشيات واسعة ممتدة/ جنة ستو المهيبة الحسناء.../ بينما هناك مع الجولة المسحورة/ أسير في البرية المنمقة»، كتب جيمس طومسون، الذي كان ضيفًا خلال معظم عامي ١٧٣٤ و١٧٣٥، في قسم «الخريف» من قصيدته «الفصول». هذه القصيدة الناجحة إلى درجة كبيرة من الشعر المرسل الذي يصف السنة المتغيرة والدراما الصغيرة في المناظر الطبيعية ربما قامت أكثر من أي عمل أدبي آخر بغرس ذائقة التمتع بالمناظر الطبيعية، في القرن التاسع عشر كان ج. إم. دبليو. تيرنر ما زال يلحق أجزاء كبيرة من القصيدة بلوحاته. كتب بوب مطولًا عن أمجاد الحديقة أيضًا، ووصف في رسالة يومًا نموذجيًا في «ستو» في ثلاثينيات القرن الثامن عشر: «كل واحد منا يتخذ طريقًا مختلفًا، ونهيم

فيها إلى أن نلتقي ظهرًا». زار ولبول وريث كوبهام «ستو» عام ١٧٧٠. بعد الإفطار، أمضت المجموعة يومها في المشي في الحدائق «أو قادوا العربات مكشوفة حتى حان وقت ارتداء ملابسهم» لتناول العشاء. أصبحت الحديقة هائلة، مكانًا يستغرق استكشافه يومًا كاملًا مشيًا، ولا توجد حدود واضحة تفصله عن المناطق الريفية المحيطة.

في ذلك العام، مشى المعماري القوطي ساندرسون ميلر إلى هناك مع عدد من الأشخاص، بمن فيهم لانسيلوت كيبابليتي براون الملقب بـ«كيبابليتي» (القدرة)، مهندس المناظر الطبيعية الذي كان من المقرر أن يكمل الثورة في تصميم الحدائق بمساحاته غير المزخرفة من المياه والأشجار والعشب. أنشأ براون الوادي الإغريقي في «ستو»، وهو أكبر وأسهل امتداد للحديقة (ورغم أنه يبدو طبيعيًا تمامًا، فقد حُفر الوادي نفسه بأيدي عمالٍ كثيرين، الذين لا نعرف وجهات نظرهم حول البستنة). لم تعد الحديقة البراونية، التي أقصت النحت والعمارة إلى حد كبير، تحيي ذكرى التاريخ البشري والسياسة. لم تعد الطبيعة إطارًا، بل موضوعًا. ولم يعد المتجولون في مثل هذه الحديقة يُوجَّهون نحو تأملات جاهزة حول الفضيلة أو فرجيل، لقد كانوا أحرارًا في أفكارهم الخاصة بينما يتبعون المسارات المتعرجة (رغم أن تلك الأفكار قد تكون حول الطبيعة، أو بالأحرى الطبيعة كما عرفناها من خلال ما لا يحصى من النصوص). تحولت الحديقة من مساحة استبدادية وعامة ومعمارية بشكل جوهري، إلى بريَة خاصة ومنعزلة.

لم يكن الجميع على استعداد لقبول حديقة المناظر الطبيعية كما تصورها براون. كتب السير

جوشوا رينولدز، رئيس الأكاديمية الملكية: «إن البستنة، بقدر ما هي فنًا، أو بقدر ما تستحق هذه التسمية، هي انحراف عن الطبيعة، فإن كان الذوق الحقيقي، كما يعتقد كثيرون، يتمثل في إبعاد كل مظهر للفن، أو أي أثر لخطى الإنسان، فلن تكون حديقة بعد الآن». كان رينولدز يتهيأ لفعل شيء ما. وبينما أخذ الفرق بينها والمساحات الطبيعية يتلاشى بالتدريج، فقدت الحديقة ضرورتها، قال ولبول عن مهندس المناظر الطبيعية ويليام كينت إنه «قفز من السياج ورأى أن الطبيعة كلها كانت حديقة». إذا كانت الحديقة مجرد فضاء بصري ممتع للتجول لا أكثر، يمكن إذن العثور على حدائق بدلًا من صناعتها، ويمكن أن يتوسع تقليد المشي في الحديقة ليصبح رحلة السائح. بدلًا من النظر إلى عمل الإنسان، في إمكان مشاء المناظر الطبيعية النظر إلى أعمال الطبيعة، وقد أصبح النظر إلى الطبيعة كعمل فني ثورة عظيمة. وبمصطلحات شافتسبري، أفسحت الحدائق الأميرية الطريق أخيرًا إلى البرية؛ لقد أصبح العالم غير البشري موضوعًا مناسبًا للتأمل الجمالي.

بدأت الحديقة الأرستقراطية كجزء من القلعة المحصنة، وذابت حدودها ببطء؛ إن ذوبان الحديقة في العالم هو علامة على مدى الأمان الذي أصبحت عليه إنجلترا (وبدرجة أقل، جزء كبير من أوروبا الغربية، فسرعان ما قُلِّدت موضة الحديقة الإنجليزية). بدءًا من عام ١٧٧٠ تقريبًا، شهدت إنجلترا «ثورة نقل» تمثلت في تحسين الطرق، وانخفاض الجرائم على جانب الطريق، وأسعار أرخص، تغيرت طبيعة السفر في صميمها. قبل منتصف القرن الثامن عشر، لم يكن هناك كثير في أخبار الأسفار عن تلك الأرض الواقعة بين المعالم

الدينية أو الثقافية. ثم ظهرت طريقة جديدة تمامًا للتنقل. كانت المسافة المقطوعة، في الحج والسفر، بين المنزل والوجهة المقصودة إزعاجًا أو محنةً. وعندما أصبحت هذه المسافة نفسها مشهدًا طبيعيًا، أصبح السفر غاية في حد ذاته، توسيعًا للتنزه في الحديقة. بمعنى أن من الممكن للتجارب على طول الطريق أن تحل محل الوجهات كغاية للسفر. وإن كان المشهد بأسره هو الوجهة، فقد وصل المرء بمجرد انطلاقه في هذا العالم الذي يمكن النظر إليه كما لو أنه حديقة أو لوحة. ظلَ المشي لفترة طويلة فعلًا ترفيهيًا، ثم انضم إليه السفر، لم تكن إلَا مسألة وقت قبل أن يصبح السفر على الأقدام في حد ذاته جزءًا شائعًا من متع التنقل من أجل التمتع بالمناظر الخلابة، وأصبح بطؤه في النهاية فضيلة. كانت النقطة التي يسافر الشاعر الفقير وأخته نحوها عبر الريف الثلجي من أجل متعة النظر والمشي تقترب. اندفع وردزوورث بنفسه لاحقًا إلى كتابة دليل لـ«أرض البحيرات»، والذي لخص فيه التاريخ الذي يجري تقصيه هنا. كتب في عام ١٨١٠: «خلال الستين عامًا الماضية، انتشرت ممارسة تسمى بستنة الزينة في إنجلترا في ذلك الوقت. مع الإعجاب بهذا الفن، وفي بعض الحالات معارضته، تولدت متعة تخص أجزاء منتقاة من المناظر الطبيعية: وبدلًا من حصر ملاحظات المسافرين في المدن، أو المصانع، أو المناجم، بدءوا (شيء لم يُسمع به من قبل حتى ذلك الحين) التجول في الجزيرة بحثًا عن مواقع منعزلة تتميز بعظمة أو جمال الأشكال التي يمكن مشاهدتها في الطبيعة هناك».

٣. اختراع سياحة المناظر الطبيعية

صادف الرحالة الألماني التعس كارل موريتز،

الذي شعر بالرفض في عديد من محطات الرحلة التي خاضها على قدميه، عددًا كبيرًا من المشائين، رغم أنه لم يهتم ولا قراؤه من العصر الحديث بهم كثيرًا. لم يكترث مرويتنز إلى أناس رآهم يسيرون من غرينتش إلى لندن، في حين يقول عن حديقة سانت جيمس في لندن: «ما يعوض، بشكل كبير، عن المستوى المتوسط لهذه الحديقة هو العدد المذهل من الأشخاص الذين يتريضون هنا في المساء حين يكون الطقس جيدًا. إن أفضل مسارات المشي لدينا (في ألمانيا) لم تكن مزدحمة مثلما هي في سانت جيمس، حتى في ذروة الصيف. هذا المساء جرّبت لأول مرة متعة الانتشاء في الاختلاط بحرية مع هذا الزحام من الناس الذين ارتدى معظمهم ملابس أنيقة وجميلة». في الواقع، يقترح موريتز أن المشي أكثر أناقة كهواية، أو أكثر أناقة كهواية علنية في إنجلترا منه في ألمانيا، وإن لم يكن السفر على الأقدام بنفس الأناقة (وهو يكشف أيضًا عن كونه متعجرفًا، وهو ما قد يكون السبب وراء ازدرائه حالة مشي العامة على الطرق). خلال فترة وجوده في لندن، زار حدائق رانيلاغ وفوكسهول أيضًا. كانت هذه المواقع الشهيرة، من نفس عائلة المعرض الريفي ومدينة الألعاب الحديثة، تقدم الموسيقى والعروض والنزهات والمرطبات في أجواء الحديقة، حيث يتوافد كل من طبقة النبلاء والطبقة الوسطى هناك للتسلية المسائية. مثل مشائي العصر الحديث في ساحات ومتنزهات أمريكا اللاتينية أو أي كرنفال أو مركز تسوق الآن، كانوا هناك لينظروا إلى بعضهم وإلى المناظر من حولهم أيضًا، وغالبًا ما كانت فرق الأوركسترا والتمثيل الإيمائي والمشروبات الباردة وغيرها من وسائل الترفيه تعزز المشهد العام. كان التنزه الاجتماعي

جانبًا آخر من ثقافة المشي المزدهرة، والتي تطورت أكثر لحظاتها عزلة في الحديقة الخاصة والعامة. «لدى أهل لندن ولع بالمشي مثلما هم في بكين مولعين بركوب الخيل»، كتب أوليفر غولدسميث على لسان زائر صيني واصفًا فوكسهول: «إحدى وسائل الترفيه الرئيسية للمواطنين في الصيف هنا هي الاجتماع عند حلول الظلام في حديقة ليست بعيدة عن المدينة، حيث يتسكعون، ويظهرون في أفضل ملابسهم وأحسن وجوههم، ويستمعون إلى حفل موسيقي يصدح في الحديقة مخصص لهذه المشاوير».

جانب آخر مهم من رحلات موريتز كان زيارته للكهف الشهير في منطقة «بيك ديستركت» Peak District في ديربيشاير شمال إنجلترا، وليس بعيدًا عن «أرض البحيرات» (24)Lake District. وقد كان هناك بالفعل دليل سياحي لتحصيل رسوم الدخول إليها وإظهار عجائبها له. ظهرت «سياحة المناظر الطبيعية» إلى حيز الوجود في منطقة «بيك ديستركت» وأرض البحيرات وويلز وإسكتلندا. وكما كان تطوير حديقة المناظر الطبيعية الإنجليزية محاطًا بموجة من القصائد الوصفية والمراسلات، تلقى نمو السياحة تشجيعًا ومعلومات من الكتيبات الإرشادية، والتي كانت مثل الكتيبات الحديثة وسرديات السفر، تخبرنا بما يجب رؤيته وأين يمكن العثور عليه. وبعضها -ولا سيما أعمال رجل الدين ويليام غيلبين- يعلمنا أيضًا كيف ننظر ونرى. كانت ذائقة المناظر الطبيعية علامة على الرقي، وأولئك الذين يرغبون في أن يصبحوا ذواقة فيها تلقوا تعليمًا ليكونوا خبراء مناظر الطبيعية. يشك المرء في أن معاصري

غيلبين، الذين عدوه كاتبًا مؤثرًا جدًا، استشاروه بالطريقة التي استشارت بها الأجيال اللاحقة خبراء الإيتيكيت حول الشوكة التي ينبغي استخدامها أو أصول شكر المضيفة، لأن كتابات غيلبين ظهرت في الفترة التي كانت الطبقة الوسطى فيها تتبنى الذوق الأرستقراطي وتفضيلاته لجماليات المناظر الطبيعية. كانت حديقة المناظر الطبيعية ترفًا، قلَة فقط من أمكنهم بناءها أو استخدامها، أما تلك المناظر الطلقة في الطبيعة فمتاحة للجميع، وأصبح في إمكان مزيد ومزيد من أفراد الطبقة المتوسطة السفر للاستمتاع بها حيث أصبحت الطرق أكثر أمانًا وسهولة ووسائل النقل أرخص. كان تذوق المناظر الطبيعية شيئًا ينبغي تعلمه، وكان غيلبين مرشدًا لكثيرين.

«ستسعى إلى أن تملك كل كتاب يعلمها كيف تعجب بشجرة قديمة ملتوية»، يقول إدوارد عن ماريان داشوود الرومانسية في رواية «عقل وعاطفة» لجين أوستين. كتب الناقد جون باريل: «في أواخر القرن الثامن عشر في إنجلترا، يمكن للمرء، بمعنى ما، القول إن التأمل البسيط في المناظر الطبيعية، بصرف النظر عن التعبير عنها في الرسم أو الكتابة أو أي شيء آخر، بات مسعى مهمًا، فمجرد الاستمتاع بالمناظر الطبيعية كان أمرًا جوهريًا، يشبه تقريبًا ممارسة شكل من أشكال الفن في حد ذاته. كان التمتع بذوق رفيع في تقديرها نجاحًا اجتماعيًا له قيمة تمامًا مثل إجادة الغناء أو إتقان كتابة خطاب مهذب. تُدفع بطلات عدد من روايات أواخر القرن الثامن عشر إلى إظهار هذا الذوق بمهارة توشك أن تكون تباهيًا، ولا يتعلق الأمر فقط بالحقيقة البسيطة المتمثلة في امتلاك حس رفيع في تلقي جماليات الطبيعة أم لا، بل

أيضًا تمايز الذائقة ضمن الإطار العام، هذه مسألة عدّها بعض الروائيين مؤشرات مشروعة للدلالة على اختلاف الشخصية. تؤكد ماريان داشوود على رومانسيتها عبر تفضيلها الأشجار القديمة الملتفّة، رغم أنها تعتذر عن الجانب العصري لحسها: «هذا حقيقي جدًا... بات هذا الإعجاب بالطبيعة مجرد رطانة. يتظاهر الجميع بأنه يشعر ويحاول أن يصف بحساسيةٍ وأناقةٍ كأنه أول من عرَف الجمال التصويري». هي تتحدث أيضًا عن غيلبين، الذي أدخل مصطلح «تصويري» إلى الاستخدام الشائع، والذي كان يعني في الأصل أي منظر طبيعي يشبه صورة أو يمكن إدراكه كصورة، إلى أن أصبح في النهاية يعني نوعًا من المناظر الطبيعية البرية الشعثاء الوعرة والمعقدة.

علّم غيلبين الناس أن يتأملوا المناظر الطبيعية كما يتأملون صورة. تعطي كتاباته اليوم لمحة عن تلك الهواية الحديثة المنجذبة إلى المناظر الطبيعية والمساعدة الضرورية لتعلمها. يخبر غيلبين قراءه عمّا ينبغي البحث عنه ثم كيف يمكن وضع إطار له في الخيال. فهو يعلن عن إسكتلندا، على سبيل المثال: «لولا هذا النقص العام في الأشياء(25)، وخاصة الغابات، في المناظر الإسكتلندية، لم يكن لدي أدنى شك في أنها كانت تنافس تلك الموجودة في إيطاليا. الخطوط العريضة الكبرى موجودة، كل ما نريده هو شيء من التشطيب». هذا يعني أنه يمكن فهم الموضوع الجديد للتضاريس الإسكتلندية من خلال المقارنة بكل من الفن والمناظر الجليلة في إيطاليا. ألف غيلبين كتيبات إرشادية حول أجزاء كثيرة من إنجلترا، ولا سيما منطقة البحيرات، وكذلك ويلز وإسكتلندا،

حيث قدم قائمة بالمواقع المناسبة للزيارة. انضم آخرون إليه، فكتب ريتشارد باين نايت، في عمله البغيض والمؤثر(26) رغم ذلك عام ١٧٩٤: «المنظر الطبيعي: قصيدة تعليمية في ثلاثة كتب»: «دعونا نتعلم، أمام المناظر الواقعية الخلابة، أن نتتبع/ التفاصيل الحقيقية لجثة الرسام».

مثل تذوق المناظر الطبيعية، يبدو التركيز في الفن التصويري ووجود سياحة المناظر أمورًا عادية لقارئ اليوم، ومع ذلك فقد بدأت في القرن الثامن عشر. جاءت جولة الشاعر توماس غراي الشهيرة في منطقة البحيرات عام ١٧٦٩ بعد عامين من قدوم أول سائح خصوصًا للاستمتاع بالمشاهد والكتابة عنها، وكتب غراي عنها أيضًا. بحلول نهاية القرن، أصبحت البحيرات وجهة سياحية راسخة، كما ظلت منذ ذلك الحين، وذلك بفضل غيلبين ووردزوورث ونابليون: حيث بدأ المسافرون الإنجليز الذين كانوا يسافرون إلى الخارج في السابق بالسفر حول جزيرتهم أثناء اضطرابات الثورة الفرنسية والحروب النابليونية. سافر السياح بالعربات ثم بالقطار (وفي النهاية بالسيارة والطائرة)، قرؤوا كتيباتهم الإرشادية، وتأملوا مناظرهم الطبيعية. اشتروا الهدايا التذكارية. وعندما وصلوا مشوا. في الأصل، يبدو أن المشي كان عرضيًا، وهو جزء من عملية التنقل للعثور على أفضل إطلالة. لكن بحلول مطلع القرن، أصبح المشي جزءًا أساسيًا من بعض المشاريع السياحية، وبدأت جولات المشي وتسلق الجبال في الظهور.

٤. طهن على تنورتها الداخلية

تجاهلت جين أوستن الحروب النابليونية في رواياتها، لكنها تناولت بوضوح موضوعات ملحة

أخرى. في عملها «دير نورثانغر» سخرت من الذوق الرائج آنذاك للرواية القوطية بعناصر تشويقها المأتمية والبغيضة، وتهكمت في «عقل وعاطفة» Sense and Sensibility على الآراء الرومانسية لشخصيتها الأساسية ماريان داشوود حول الحب والطبيعة. وقبلت، في وقت لاحق من حياتها، مكانة المناظر الطبيعية بشكل أكبر، وفي روايتها الأخيرة، «مانسفيلد بارك»، ساوت أكثر من مرة بين حساسية البطلة لجمال الطبيعة وفضائلها الأخلاقية.

رواياتها -بمن فيها من شابات لطيفات في ظروف ريفية أيضًا- مؤشر رائع لاستخدامات المشي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ولا شيء مثل «كبرياء وتحامل». إن المرور على نزهات شخصية إليزابيث بينيت تغلق تحقيقنا في ظروف انطلاق ويليام ودوروثي وردزوورث إلى غراسمير في ديسمبر ١٧٩٩ (جدير بالذكر هنا أن رواية «كبرياء وتحامل» نشرت عام ١٨١٣، إلا أن النسخة الأولى كانت مؤلفة عام ١٧٩٩). كانت أوستن نظيرة لهما، وهي تتيح لنا إلقاء لمحة على العالم الرصين الذي خرجوا منه وذلك الذي مشوا عليه.

المشي موجودٌ في كل مكان من رواية «كبرياء وتحامل». تمشي البطلة في كل مناسبة ممكنة وفي كل مكان، والعديد من اللقاءات والمحادثات المهمة في الكتاب تجري أثناء سير شخصيتين معًا. يشير المشي كممارسة عارضة في الرواية إلى أي مدى كان جزءًا من نسيج الحياة اليومية لمن هم شخصيات لطيفة مثل أوستن. كان المشي نشاطًا أنثويًا بشكل خاص طوال القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر في إنجلترا. كتبت دوروثي وردزوورث

في رسالة عام ١٧٩٢: «لقد كن سيدات ريفيات، مولعات طبعًا بما يمكن لسيدة في الريف أن تتسلى به، المشي». كان شيئًا يشغلن به أنفسهن. نجد في كتابات الرجال كثيرًا عن تصميم الحدائق والإعجاب بها، أما في رسائل وروايات النساء فغالبًا ما نقابل أشخاصًا يسيرون، ربما لأنهن يتناولن الحياة اليومية على نحو أكثر دقة، أو ربما لأن الأنشطة المسموحة للإنجليزيات أو السيدات منهن قليلة جدًا. بين المهمات الاجتماعية لإليزابيث بينيت، بطلة «كبرياء وتحامل»، أنها تقرأ بكثرة، وتكتب الرسائل، وتخيط قليلًا، وتعزف على البيانو بشكل مقبول، وتمشي.

ليس بعد وقت طويل من بدء الرواية، أصيبت جين بينيت شقيقة إليزابيث بالبرد وهي في طريقها إلى نيذرفيلدز، منزل خطيبها السيد بينغلي، وذهبت إليزابيث لتمريضها. يعد المشي أمرًا ضروريًا إلى حد ما هنا، نظرًا إلى أنها «ليست فارسة»، ولا يتوفر سوى حصان واحد، لا حصانين، لسحب العربة. لكن حيويتها الجريئة التي تقدمها بطلةً فاتنةً تجعلها أيضًا مشاءةً نهمة -«لا أرغب في تجنب المشي. المسافة لا شيء عندما يملك المرء دافعًا، ثلاثة أميال فقط»- والمشي هو أول دليل أساسي على أنها ليست شابة تقليدية. لم تصل إليزابيث إلى أن تفعل ما فعلته دوروثي وردزوورث عندما قامت عمتها بتوبيخها، إلا أنها تسير بالمثل خارج حدود اللياقة لنساء طبقتها، ولدى الشخصيات في منزل السيد بينغلي الكثير لتقوله حول هذه المسألة. يكمن التجاوز في أنها خرجت إلى العالم بمفردها، وفي أنها حولت نزهتها الشاعرية إلى شيء نفعي. كانت حقيقة أنها مشت ثلاثة أميال في وقت مبكر جدًا من ذلك اليوم، في مثل هذا الطقس القذر،

وحدها، أمرًا لا يصدق للسيدة هيرست والآنسة بينغلي، وكانت إليزابيث مقتنعة بأنهما تزدريانها بسبب ذلك. عندما تكون بعيدة لا يمكنها سماعهما، بينما ترعى أختها التي أصيبت بنزلة برد خطرة، تستغيبها المرأتان وتتكلمان عن الوحل على تنورتها الداخلية وعن «نوعها البغيض من النساء اللواتي يتبجحن باستقلاليتهن، واللامباليات باللياقة والأصول في معظم البلدات الريفية». من ناحية أخرى، يشير السيد بينغلي إلى أن رحلتها الخارجة عن الأصول هذه «تكشف قوة العاطفة التي تحملها لأختها وهو أمر جميل»، بينما يشير السيد دارسي إلى عينيها وكيف أشرقتا بعد الرحلة.

بعد أيام قليلة، بينما تقطعت السبل بجين وإليزابيث في هذا المنزل، أظهر سكانه لهما النوع الصحيح من المشي، أي داخل حدود شجيرات الحديقة والمجتمع، ولا تزال الآنسة بينغلي توبخ إليزابيث أمام السيد دارسي. «في تلك اللحظة، تقابلت الآنسة بينغلي والسيد دارسي، مع نزهة أخرى تقوم بها السيدة هيرست وإليزابيث نفسها»، فتأبطت السيدة هيرست ذراع السيد دارسي وترك الثلاثة إليزابيث تمشي بمفردها. شعر السيد دارسي بفظاظة تصرفهم فقال على الفور: هذا الممشى ليس واسعًا بما يكفي لحفلتنا هذه. من الأفضل أن نذهب إلى الشارع الواسع. لكن إليزابيث، التي لم تكن لديها أدنى رغبة في البقاء معهم، أجابت ضاحكة: لا أبدًا، ابقوا كما أنتم المكان يتسع لكم. أنتم مجموعة متناغمة ومميزة عندما تكونون معًا، سيفسد منظركم وجود شخص رابع. وداعًا».

انتقدوا مشاويرها راجلةً عبر الريف، متجاوزة حدود اللياقة. وها هي تسخر من خصوصية

حديقتهم بتلميحها أنهم أصبحوا جزءًا من الأشياء الجمالية في الحديقة، وهي أشياء تتأملها كجزء من المشهد، ليس فيه شيء شخصي مثل الأشجار والماء. في ذلك المساء، تتجول الآنسة بينغلي في الحدود الضيقة لغرفة الرسم، حيث تجتمع كل شخصيات منزل «نيذرفيلدز» باستثناء جين. تقول أوستن: «كان قوامها أنيقًا، وكانت مشيتها جميلة» اتسعت حدة مراقبة هؤلاء الكسالى بعضهم سلوك بعض إلى انتقاد طريقة حركة أحدهم وقامته، وكانت مشية الشخص جزءًا مهمًا من مظهره أو مظهرها. وعندما دعت الآنسة بينغلي إليزابيث إلى الانضمام إليها وهي تذرع صالة الرسم، لاحظ السيد دارسي أنهما تمشيان معًا إما لمناقشة أمور خاصة على انفراد أو لأنهما: «تدركان أن جسد كل منكما يظهر بأروع ما يمكن أثناء المشي». ويمكن أن يكون المشي لاستعراض جسديهما أو للانسحاب لتبادل الأسرار أو كليهما.

تشير هذه الرواية وروايات أخرى من ذلك العصر إلى أن المشي يسمح بعزلة مشتركة للمحادثات المهمة. كان إتيكيت ذلك الزمن يتطلب من أهل المنزل الريفي وضيوفه قضاء يومهم معًا في الغرف الرئيسية، من هنا كان المشي في الحديقة يوفر تخففًا من هذا الشرط، وقد يذهب أحدهم للمشي بمفرده أو مع آخر (تطورت هذه الممارسة، فغالبًا ما تُجري الشخصيات السياسية الحديثة محادثات مهمة وهي تمشي لتجنب التنصت). ما إن تعافت جين، حتى بدأت بالمشي والقيل والقال مع أختها إليزابيث في جنبات تملكها عائلتهما. يمكن النظر إلى كتاب «كبرياء وتحامل» بوصفه جردًا غير مقصود لأنواع المناظر الطبيعية المتاحة للمشي. حين يقترب الكتاب من نهايته، تظهر ميزات

أخرى لحدائق بينيت عندما تهرع السيدة كاثرين إلى مخاطبة إليزابيث بشأن نواياها تجاه السيد دارسي: «يا آنسة بينيت، يبدو أن هناك نوعًا جميلًا من النباتات البرية الصغيرة في جانب من جوانب أرضكم. يسرني أن أتجول هناك إن تفضلت عليَ بصحبتك»، قالت متظاهرة وهي تسعى إلى محادثة خاصة مع إليزابيث. صاحت والدتها: «اذهبي يا عزيزتي وأخبري سيادتها عن ممرات المشي المختلفة. أعتقد أنها ستسر بزيارة الصومعة». وهذا يتيح لنا أن نعرف أنها حديقة من منتصف القرن الثامن عشر بحجم واسع نوعًا ما، وبها قطعة على الأقل من الزينة المعمارية.

أما ما تضمنته حديقة الليدي كاثرين بالضبط فلن نعرف عنه أبدًا. نعرف فقط عن «الممشى المفضل» لإليزابيث الذي يوصف أثناء إقامتها لدى الليدي كاثرين، فالممشى يمتد بطول البستان المفتوح الذي يحاذي هذا الجانب من الحديقة، حيث ممر موارب ومخفي وحلو، لا يقدَره أحد غيرها على ما يبدو، فيه شعرت بأنها بعيدة عن تطفل السيدة كاثرين، وليس بعيدًا عن السيد دارسي: «أكثر من مرة التقت إليزابيث السيد دارسي فجأة في نزهاتها. شعرت بحظها السيئ يعاندها بقوة». تخبره ساخرة بأن هذه «مطاردتها المفضلة» من حيث كانت حريصة على تجنبه. هو يحبها بالطبع وكثيرًا ما انضم إليها في الحديقة ساعيًا إلى محادثة خاصة معها: «أذهلها أثناء لقائهما الثالث أنه كان يطرح بعض الأسئلة الغريبة غير المترابطة، حول سعادتها بالعيش في هانسفورد، وحبها للتمشي وحدها...». بالنسبة إلى الكاتبة وقرائها، مثلما للسيد دارسي، تعبر هذه التمشيات الفردية عن الاستقلالية التي تأخذ البطلة حرفيًا خارج المجال الاجتماعي للبيوت وساكنيها،

إلى عالم أوسع وأكثر وحدة تكون فيه حرة التفكير: المشي يعبر عن الحرية الجسدية والذهنية. رغم أن جين أوستن لم تقل كثيرًا عن المناظر الطبيعية في هذه الرواية كما فعلت في «مانسفيلد بارك»، فإن حساسية إليزابيث للمناظر الطبيعية هي إحدى سمات ذكائها المرهف. ليس السيد دارسي بل مقاطعته «بيمبرلي» التي تبدأ في تغيير رأيها فيه، والمشي في حديقته يصبح عملًا حميمًا بشكل غريب. «لم تر أبدًا مكانًا فعلت فيه الطبيعة أكثر من هذه الحديقة، أو حيث لم تتداخل الجمالية الطبيعية مع ذوق أخرق... في تلك اللحظة شعرت بأنها إن أصبحت سيدة بيمبرلي فربما أن هذا يعني شيئًا ما!» من الواضح أنها كانت طالبة عند غيلبين، حين غادر الجميع للتنزه بمحاذاة النهر، تفحصت الإطلالة من كل نافذة في المنزل، فظهر ذوق مالك المنزل والنهر من كل جانب.

أعرب عمها «عن رغبة في التنزه حول الحديقة كلها، لكنه خشي أن يكون الأمر أكثر من نزهة. وبابتسامة نصر، قيل له إن الطريق يبلغ عشرة أميال». مثلما هو ميل إليزابيث للمشي بمفردها، فإن ملكية السيد دارسي لمنظر طبيعي مهول مصمم بأسلوب المهندس كيبابليتي براون يقول شيئًا عن شخصيته أيضًا. عندما يلتقيان صدفة في هذا المشهد، تنشأ بينهما علاقة أكثر تحضرًا ووعيًا، حيث «سار الاثنان في دائرة الطريق المألوف، والتي أعادتهم إلى المكان نفسه بعد مدة، عند منحدر بين الغابات المعلقة، بالقرب من حافة الماء، في أحد أضيق أجزاء العزبة. عبرا النهر بواسطة جسر بسيط، يتماشى مع الطابع العام للمنظر... والوادي، الذي يتقلص هنا إلى ممر سمح فقط بجدول، وممشى ضيق وسط غيضة شعثاء صغيرة من

شجيرات متناثرة على حافته، تشوقت إليزابيث إلى استكشاف انعطافاته».

استطعامهما المشترك لهذا المشهد هو ما يوفر في النهاية أرضية مشتركة، بالمعنى الحرفي للكلمة، يحلان عليها خلافاتهما. بالطبع، اجتمع بطل وبطلة الرواية في أمجاد بيمبرلي لأن عمها وعمتها عرضا أن يأخذاها إلى «أرض البحيرات»، حين صرخت إليزابيث في نشوة: «يا لها من متعة! يا لها من سعادة! لقد منحتموني حياة جديدة وطاقة. وداعًا لخيبة الأمل، وداعًا للضجر. ما الرجال مقارنة بالصخور والجبال؟». رغم أن الآنسة بينغلي تحقر من شأن العم والعمة لأنهما يعملان في التجارة ويقيمان في جزء متخلف من لندن، فقد أظهرا تحضرهما عبر الانخراط بشكل طبيعي معتدل في سياحة المناظر الطبيعية. لكن الرحلة تنقطع قبل أوانها، ما دفعهم إلى الذهاب إلى ديربيشاير وبيمبرلي، والتي ليست بعيدة من جنوب البحيرات. هناك اجتمعت كل الشخصيات الواعية المحبوبة في الرواية. هنا، تقاطع أوستن المستوى المجرد المتقشف الرفيع لسردها، حيث لا يتدخل إلا الضروري من تفاصيل العالم المادي ولفترة وجيزة، لتقدم إلينا وصفًا فاتنًا لـ بيمبرلي. وعن الريف الذي تقع فيه الأحداث، قالت أوستن مرة: «ليس من أهداف هذا العمل تقديم وصف لديربيشاير». ومع ذلك، فهي تصف قائمة من عزبة تشاتسوورث المهيبة وعجائب الطبيعة في دوفديل وماتلوك وبيك باعتبارها مناطق الجذب التي زارها هؤلاء السياح. تعددية استخدامات المشي واضحة في هذه الرواية. تمشي إليزابيث للهروب من المجتمع، وللتحدث على انفراد مع أختها، ومع خطيبها في نهاية «كبرياء وتحامل». تتمتع بمناظر

الحدائق التقليدية والجديد، والتضاريس البرية في الشمال وفي ريف كنت. تمشي لتتمرن أيضًا كما فعلت الملكة إليزابيث، ولتدخل في محادثات كما فعل صمويل بيبس، وتمشي في الحدائق كما فعل هوريس والبول وألكسندر بوب. وتمشي في أمكنة المناظر الخلابة كما فعل غراي وغيلبين، بل وتمشي أيضًا للتنقل كما فعل كارل موريتز ووردزوورث، وقوبلت هي أيضًا، مثل كل هؤلاء، بالاستهجان. تخرج للتمشّي مرة أو مرتين، كما فعلوا جميعًا. تتواصل إضافة أغراض جديدة إلى ذخيرة المشائين، من دون أن يُترك أي منها، بحيث تزداد معاني المشي واستخداماته باستمرار. أصبح وسيلة للتعبير، كما يمثل أوسع مساحة اجتماعية ومكانية متاحة للنساء اللواتي يعانين من القيود الاجتماعية، وهو النشاط الذي يجدن فيه فرصة لتشغيل الجسد والخيال. في تمشية تمكنت فيها إليزابيث ودارسي من الابتعاد عن رفاقهم، و«واصلت المشي وحدها بجرأة معه»، توصل الاثنان أخيرًا إلى تفاهم، وأخذ تواصلهما وسعادتهما الجديدة وقتًا طويلًا إلى أن تحققا، حتى أن سؤال: «عزيزتي ليزي، تُرى إلى أين كنتما تسيران؟» كان أول ما تلقّته إليزابيث من أختها جين بمجرد دخولهما الغرفة، ومن الآخرين كلهم عندما جلسوا حول المائدة. ولم يكن عليها أن تجيب إلا بأنهما سارا حتى أصبحت خارج نطاق معرفتها. اندمج الوعي بالتضاريس الطبيعية باحتمالات جديدة، بحيث ذهبت إليزابيث حرفيًا «خارج نطاق معرفتها». إنها الخدمة الأخيرة التي قدمها المشي إلى البطلة المضطربة في هذه الرواية.

ملحوظ أيضًا، كمَ المرات التي تظهر فيها كلمة المشي كاسم بدلًا من فعل في هذا الكتاب بل وفي

ذلك العصر برمته: «على مسافة مشي قصير من لونغبورن عاشت عائلة»، «كان المشي إلى ميريتون ضروريًا لاستمتاعهما بساعات الصباح»، «سار الاثنان في مشي لطيف مسافة نصف ميل تقريبًا عبر الحديقة»، «كان المشي المفضل لديها عبر الغابة المفتوحة» وما إلى ذلك. هذه الاستخدامات للكلمة تعبر عن أن المشي قطعة محددة بصفات معروفة، مثل أغنية أو عشاء، بمعنى أن السائر عند خروجه لمشي كهذا ليس مجرد شخص يحرك قدميه بالتناوب، بل إنه يفعل ذلك لزمن معين لا هو بالطويل جدًا ولا بالقصير جدًا، ولغايات لا تثمر عن شيء مشبعٍ سوى الصحة والاستمتاع في وسطٍ ممتع. تشير هذه اللغة ضمنًا إلى وجود انتباهٍ واعٍ بتنقيح الأفعال اليومية. اعتاد الناس المشي، لكنهم لم يستثمروه دائمًا في معانٍ رسمية مثل هذه، وهي معانٍ على وشك أن تتسع أكثر.

٥. خارج البوابة

لطالما صوّر الشعراء الرومانسيون ثوريين يقاطعون كل ما سبقهم. كان وردزوورث الشاب راديكاليًا في السياسة، فضلًا عن أسلوبه وموضوعاته الشعرية، لكنه حمل معه كثيرًا من التقاليد المهذبة للقرن الثامن عشر. عندما وصل غراي إلى منطقة «أرض البحيرات»، ساعد في زيادة شعبية جمال المنطقة. ورغم أن ووردزوث وُلد على حافة مساحاتها الشاسعة المنحدرة والحجرية، إلا أن جمالياتها التقليدية إلى جانب ارتباطه الشخصي بها أعاداه إلى العيش فيها خلال الخمسين عامًا الأخيرة من حياته. من ويلز إلى إسكتلندا إلى جبال الألب، اختار وردزوورث المناظر الطبيعية المعروفة أصلًا للسير عبرها والكتابة عنها. كان السائح المثالي

في بعض النواحي، ذلك الذي يتمتع بموهبة فريدة في تذكر ووصف ما رآه. غير أن علاقته بمنطقة «أرض البحيرات» كانت توازنًا غريبًا من نوعه بين حميمية ابن المكان الواضحة وحماس السائح. انغمس هو وشقيقته في قراءة الأدبيات الموجودة حول المناظر الطبيعية، ودرَب الاثنان أنفسهم كيف ينظران حولهما ويريان مثلما تنظر شخصيتا ماريان داشوود أو إليزابيث بينيت، ثم كيف يستدعيان طريقة النظر هذه في رحلاتهما الاستكشافية اليومية. في عام ١٧٩٤ طلب وردزوورث من شقيقه في لندن أن يرسل إليه كتبه، وأكد على أهمية أن يرسل مجلدات غيلبين عن جولاته في إسكتلندا وشمال إنجلترا. وفي عام ١٨٠٠، بعد سبعة أشهر من تلك المسيرة الطويلة عبر الثلج، كتبت دوروثي في مذكراتها: «في الصباح، قرأت «منظر طبيعي» للسيد نايت [قصيدة تعليمية، مقتبسة سابقًا]. بعد الشاي، تجهزنا للنزهة إلى جبل لوغريغ، زرنا حقولًا من أزهار القمعية البيضاء، وجمعنا الفراولة البرية، ثم تجولنا لنتمكن من مشاهدة رايدل(27). قضينا وقتًا طويلًا مستلقيين ننظر إلى البحيرة، التي توهجت ضفافها تحت الشمس اللاذعة. بدأ السرخس في الاصفرار، وتحول بعضه هنا وهناك إلى الأصفر تمامًا. تنزهنا حول بيت بنسون الخشبي. البحيرة الآن أكثر هدوءًا، وتعكس الألوان الصفراء والزرقاء والأرجوانية والرمادية الجميلة للسماء». كأن دوروثي، في هذا المقطع، تتلقى تعليمات في رسم الطبيعية في الصباح وتنفذها بعد الظهر. كما يشي المقطع بأكثر أنواع المشي شيوعًا لدى آل وردزوورث -ليس السفر إنما النزهات اليومية في الأراضي المحيطة بهم- مشي يشبه في جوانب منه

مشاوير الحدائق اليومية التي تقوم بها سيدات وسادة ينتمي وليام ودوروثي إلى تقاليدهم، وفي بعض النواحي كان مشيهما مختلفًا بشكل جذري.

الفصل السابع

ساقا وليام وردزوورث

«أدينت ساقاه بحدة من قبل كل أنثى، خبيرة بالسيقان، سمعتها تحاضر في الموضوع» كتب توماس دي كوينسي عن ويليام وردزوورث، بمزيج من الإعجاب والعداء الذي حمله معظم الجيل التالي من الشعراء ضد الحضور الطاغي لوردزوورث. «لم يكن هناك أي تشوه مطلق فيهما، ولا شك أنهما كانتا ساقين مفيدتين تتجاوزان معدل متطلبات الإنسان، لأنني أحسب، بناءً على بيانات جيدة، أن وردزوورث باستخدام هاتين الساقين المتطابقتين، قطع من ١٧٥ إلى ١٨٠ ألف ميل إنجليزي - وهو أسلوب من الإجهاد، حل بالنسبة إليه محل النبيذ وكل المشروبات الروحية وكل ما يحرض الروح الحيوانية بالمطلق، كان مدينًا لساقيه بحياة مليئة بالغبطة الصافية، ونحن مدينون لهما بكثير مما هو رائع في كتاباته»(28). سار آخرون قبله وبعده، وذهب شعراء رومانسيون غيره في جولات على الأقدام، لكن وردزوورث جعل المشي محوريًا في حياته وفنه بشكل لا يضاهيه فيه أحد قبله أو بعده. كان يمشي كل يوم تقريبًا في حياته الطويلة، فالمشي وسيلته لمواجهة العالم وطريقة تأليفه للشعر.

لنفهم مشي وردزوورث، من المهم أن نبتعد عن فكرة «التمشية» بمعنى نزهة قصيرة حول مكان لطيف وعن ذلك التعريف الآخر للكتّاب المعاصرين للمشي الرومانسي، والمشي باعتباره سفرًا طويل المسافة. فبالنسبة إليه، لم يكن المشي وسيلة للسفر، بل للوجود. وفي الحادية والعشرين من عمره، انطلق في رحلة على رجليه لمسافة ألفي

ميل، وخلال الخمسين عامًا الأخيرة من حياته، كان يذرع شرفة حديقة صغيرة جيئة وذهابًا لتأليف شعره، وكان نوعا المشي هذين (لمسافة أميال وعلى الشرفة) بنفس الأهمية لديه، كما كان التجوال في شوارع باريس ولندن، وتسلق الجبال، والمشي مع أخته وأصحابه. وجد هذا المشي كله طريقه إلى شعره. كان في إمكاني أن أكتب عن تجواله في وقت سابق، مع الكتّاب الفلاسفة الذين جعلوا المشي جزءًا من عملية تفكيرهم، أو لاحقًا، عندما أتحول إلى تاريخ المشي في المدينة. ولكنه هو نفسه ربط المشي بالطبيعة والشعر والفقر والتشرد بطريقة جديدة وجذابة وكليّة. وطبعًا، كان ووردزورث يثمّن، وبتشدد، كل ما هو ريفي مقارنة بما هو مديني: «سعيد بهذا، أنني مع الطبيعة مشيت/دون أن أتعرض باكرًا/ لتشوهات الحياة المزدحمة...» كما أنه الشخصية التي التفتت إليها الأجيال اللاحقة عند تتبعها تاريخ المشي في المناظر الطبيعية: لقد أصبح «إله الممشى».

ولد وردزوورث عام ١٧٧٠ في كوكرماوث، شمال المناظر الطبيعية الأكثر وحشية وانحدارًا في منطقة أرض البحيرات، وكان يحب في السنوات اللاحقة أن يصور نفسه رجلًا بسيطًا ولد في نوع من الجمهورية الرعوية لأصحاب الأراضي الحرة والرعاة في منطقة البحيرات. في الواقع، كان والده وكيلًا للورد لوثر، وهو طاغية شديد الثراء يمتلك جزءًا كبيرًا من المنطقة. لم يكن الشاعر المستقبلي قد بلغ الثامنة بعد عندما توفيت والدته، أرسلت دوروثي بعيدًا يربيها بعض الأقارب، وأُرسل هو نفسه إلى مدرسة في هوكسهد، في قلب أرض البحيرات. ترك موت والدهم عندما كان وردزوورث في الثالثة عشرة من عمره الأطفال معتمدين على

حسن نية الأقارب وهؤلاء لم يكونوا متحمسين، حيث حرم اللورد لوثر أطفال وردزوورث الخمسة عشرين عامًا من إرث أبيهم الكبير. السنوات التي قضاها في مدرسة هوكسهيد الممتازة كانت مثالية رغم الاضطرابات العائلية أو ربما بسببها. فهناك نصب الفخاخ، وتزلج على الجليد، وتسلق المنحدرات لالتقاط بيض الطيور، وركب القوارب، وسار بلا انقطاع في الليل، وكثيرًا ما مشى في الصباح قبل المدرسة، عندما كان هو وصديقه يقطعان مسافة خمسة أميال حول بحيرة قريبة. هكذا تقول «المقدمة» قصيدته السيرذاتية العظيمة التي تتألف من عدة آلاف من الأسطر، والتي تقدم صورة مذهلة للحياة المبكرة للشاعر حتى مع التسلسل الزمني المشوش والحقائق المحذوفة. وقد أطلقت عائلته عليها اسم «القصيدة إلى كولريدج» The Poem to Coleridge الذي تخاطبه، كما تحمل عنوانًا فرعيًا: «تشكّل عقل شاعر» The Growth of a Poet's Mind يشير بالضبط إلى نوع السيرة الذاتية التي تحملها. كان من المفترض أن تكون «المقدمة» بداية قصيدة فلسفية ضخمة بعنوان: «المنعزل»، والتي لم يكتمل منها سوى «المقدمة» و«الرحلة».

ثُقرأ «المقدمة» كأنها تمشية طويلة واحدة، ورغم انقطاعها فإنها لا تتوقف بالكامل، وهذه الصورة المتكررة للسائر تمنحها الاستمرارية وسط كل استطراداتها وانعطافاتها. يمكن تصور وردزوورث مثل كريستيان في «رحلة الحاج»(29) أو دانتي في «الكوميديا الإلهية»، شخصية صغيرة سائرة في العالم، إلا أنها هذه المرة محاطة ببحيرات ورقصات وأحلام وكتب وصداقات والعديد

من الأمكنة. القصيدة أيضًا نوع من الأطلس الذي يوضح لنا كيف يتشكّل شاعر، فتظهر دور هذه المدينة وذلك الجبل، إذ الأمكنة فيها أكبر من الناس. على نفس المنوال المعادي، ولكن باحترام، الذي أشار به دي كوينسي إلى ساقي وردزوورث، قال الكاتب ويليام هازليت ذات مرة عنه: «إنه لا يرى سوى نفسه والكون». في تاريخ الأدب الإنجليزي، يرتبط صعود الرواية بارتفاع الوعي والاهتمام بالحياة الشخصية، بمعنى الأفكار الخاصة العواطف والعلاقات. وردزوورث ذهب أبعد من روايات عصره في رسم خريطة أفكاره وعواطفه وذكرياته وعلاقاته بالمكان، لكنه يقدم حياته، بغرابة، كما لو أنها تخلو من أي شيء شخصي، فهو يظل متكتمًا بشأن علاقاته الشخصية، ومن هنا جاءت نكتة هازليت.

تكوّن شغفه بالمشي والمناظر الطبيعية في طفولته، أو أنه ذلك الفضول الذي يملكه الأطفال وقد انتشله الشاعر وصقله في سنواته الأخيرة، لكن شغفه بدأ باكرًا جدًا وذهب أبعد من أن يكون مجرد ذوق عصري دارج في تقدير المناظر الطبيعية ووصفها. في الكتاب الرابع من الثلاثة عشر التي تتألف منها «المقدمة»، يصف الشاعر عودته سائرًا إلى منزله من حفلة رقص في مكان من منطقة «أرض البحيرات»، كانت أواخر سنوات مراهقته. استمرت الحفلة طوال الليل، وشهد فيها الفجر «الأكثر ألقًا مما رأيت في حياتي». في وقت مبكر من الصباح، بينما «البحر يضحك من بعيد، وكل الجبال الصلبة ساطعة كأنها سحاب»، يعلن التزمه بمهنته كشاعر: «لم أقطع نذورًا ولكن النذور قُطعت لي» - وأصبح «روحًا مكرسة. واصلت السير/ في نعمة لا تزال باقية». ويبدو أنه في أوائل عشرينياته

فشل بشكل منهجي في كل بديل عن أن يكون شاعرًا واختار التجوال والتأمل كمقدمات لتلبية ندائه: «علَ الدليل الذي اخترته/ لا يكون شيئًا أفضل من سحابة هائمة/ لا أستطيع أن أضل طريقي». يؤكد ذلك في السطور الافتتاحية لهذه القصيدة الضخمة التي انتهى من كتابتها أول مرة عام ١٨٠٥، وراجعها مرارًا خلال حياته، ولم تنشر إلا بعد وفاته عام ١٨٥٠.

كانت نقطة التحول في حياته وفي «المقدمة» رحلته المذهلة عام ١٧٩٠ مع زميله الطالب روبرت جونز عبر فرنسا نحو جبال الألب، عندما كان من المفترض أن يدرس الاثنان لامتحانات جامعة كامبريدج. يعلن كينيث جونستون، أحدث كاتب سيرة لوردزوورث، بشكل درامي: «بفعل العصيان هذا بدأت تجربته كشاعر رومانسي». للسفر جوانبه المارقة والمتمردة من تيه، وخروج عن الحدود، وهروب، لكن هذه الرحلة كانت بحثًا عن هوية بديلة بقدر ما كانت طيشًا. كانت الرحلة الكبرى سمة قياسية لتعليم السادة الإنجليز، كانوا يذهبون بالعربة عادةً لمقابلة أشخاص من طبقتهم ورؤية الأعمال الفنية والآثار في فرنسا وإيطاليا. خبيرا الحدائق والمناظر الطبيعية هوريس والبول وتوماس غراي قاما بمثل هذه الرحلة في عام ١٧٣٩، حيث كتب كل منهما بحماس عن جبال الألب التي عبراها في طريقهما إلى إيطاليا. أما أن تذهب إلى الرحلة سائرًا ثم تختار سويسرا بدلًا من إيطاليا كوجهة للرحلة، فهو فعل يعبر عن انزياح جذري في الأولويات، بعيدًا عن الفن والأرستقراطية قريبًا من الطبيعة والديمقراطية. وعنى الذهاب إلى هناك، في عام ١٧٩٠ بالذات، الانضمام إلى طوفان المتمردين الذين يتجمعون في باريس لاستنشاق الأجواء

المسكرة التي سادت في الأيام الأولى من الثورة الفرنسية، قبل أن يبدأ تدفق الدماء. صارت مرتفعات الألب نفسها، بالفعل، وجهة مركزية لثقافة تقديس المواقع الطبيعية المهيبة، كانت جزءًا من الانجذاب إلى سويسرا، وكذلك كانت حكومتها الجمهورية وارتباطها بروسو أيضًا. كانت محطتهما الأخيرة قبل أن يعودا بالقارب إلى أسفل نهر الراين جزيرة سان بيير، التي كتب عنها روسو في «الاعترافات» وفي «هواجس المتنزه المنفرد بنفسه» باعتبارها نسخة من الفردوس الطبيعي. كان روسو سلفًا واضحًا لوردزوورث، الذي سار كوسيلة وهدف في آن، سار ليؤلف ويكون.

نزل الاثنان في كاليه في الثالث عشر من يوليو/ تموز واستيقظا في اليوم التالي على الاحتفالات المبهجة بالذكرى السنوية الأولى لاقتحام الباستيل، عندما كانت فرنسا: «تقف على قمة الساعات الذهبية/والطبيعة البشرية كأنها ولدت من جديد». تجول وردزوورث ورفيقه جونز في: «قرى وبلدات/ شوارع مزخرفة ببقايا المهرجان/ زهور متروكة لتذبل على أقواس النصر، وأكاليل نوافذ.../ في عراء تحت نجمة المساء رأينا رقصة الحرية، وفي ساعات متأخرة من الظلام كان هناك رقص في الخارج». خطط وردزوورث وجونز لرحلتهما بعناية، وسارا نحو ثلاثين ميلًا يوميًا لتنفيذ خطتهما الطموحة: «كانت مسيرة سريعة عسكرية/ تغيرت صور الأرض وشكلها/ أمامنا بسرعة كما تتغير سحب في السماء./ يومًا بعد يوم، باكرًا ننهض متأخرًا ننتهي،/ من وادٍ إلى وادٍ، ومن تل إلى تل سرنا،/ من مقاطعة إلى مقاطعة عبرنا،/ صيادان متحمسان في مطاردة من أربعة عشر أسبوعًا». إلى هذا الحد كان حماسهما طاغيًا، حتى عبر الاثنان

الألب من دون أن ينتبها، وكم كانت خيبتهما كبيرة حين أدركا ذلك. اجتازا الممر الأخير فعلًا ظانين أن عليهما الصعود إلى ارتفاع أعلى. وبينما كانا يسيران في مسلك صاعد صحح أحد الفلاحين مسارهما ودلّهما ليكملا هبوطهما إلى إيطاليا، حيث تجولا سريعًا عند بحيرة كومو قبل أن يعودا إلى سويسرا. في هذه القصة، يتوقف وردزوورث عند بحيرة كومو، لكن «المقدمة» تحكي عن عودته إلى فرنسا في عام ١٧٩١، حيث واصلت سياساته التطور.

إنه فعل وردزوورثي صرف؛ محاولة فهم الثورة الفرنسية من خلال السير في شوارع باريس وزيارة «كل بقعة قديمة الشهرة أو حديثتها» من «غبار الباستيل» إلى ساحة «شامب دو مارس» ومونمارتر. وربما التقى من البريطانيين هناك العقيد جون أوزوالد و«ستيوارت المشاء»، وهما مثالان لنوع جديد من السائرين. يكتب جونستون: «سافر أوزوالد إلى الهند، وأصبح نباتيًا ثم متبحرًا في الطبيعة، ورجع إلى أوروبا راجلًا عبر البر، وألقى بنفسه في الثورة الفرنسية بنيّة صريحة؛ أن يحملها إلى إنجلترا». سيظهر أوزوولد لاحقًا باسم عائلته الصريح في «الحدوديون»(30) وهي دراما مسرحية شعرية كتبها وردزوورث مبكرًا. أما ستيوارت فشخصية مماثلة لأوزوولد، يخلّد لقبه ذكرى تجوالاته الرائعة -فقد سار هو أيضًا عائدًا من الهند، وكذلك من مختلف أنحاء أوروبا وأميركا الشمالية- ولكن كتبه كانت خطبًا هجّاءة لمواضيع أخرى. كتب كوينسي عن ستيوارت المشاء: «ما ثمَ أرض وطئتها قدم بشر، عدا الصين واليابان على ما أظن، إلا وزارها السيد ستيوارت بهذا الأسلوب الفلسفي، الأسلوب الذي يلزم الإنسان

على التحرك ببطء عبر بلد ما، والتواصل دائمًا مع أهل ذلك البلد». ويشير شخص ثالث غريب الأطوار وهو جون ثيلوال (الذي ورد ذكره في الفصل الثاني)، إلى نمط معين من الناس: أشخاص علّموا أنفسهم بأنفسهم واعتقدوا بالثالوث المتمثل في السياسة الراديكالية، وحب الطبيعة، والمشي إلى أقصى الحدود. أصبح ثيلوال على معرفة جيدة بوردزوورث وكولريدج في أوائل تسعينيات القرن الثامن عشر، لاحقًا من ذلك العقد، وبعد أن نجا بأعجوبة من الإعدام بسبب نشاطه السياسي وجد لديهما ملاذًا. كان لدى وردزوورث نسخة من كتاب ثيلوال «المشّاء»، والذي يتناول وسط استطراداته الفلسفية ظروف المعيشة والعمل للعمال الذين انجذبوا إلى بدايات الثورة الصناعية. تقترح هذه الشخصيات أن السفر، إلى أي مسافة كانت، على الأقدام يعادل فعلًا سياسيًا راديكاليًا في إنجلترا، يعبر عن انفصالية واستعداد للتعرف على الفقراء والتماهي معهم. كتب وردزوورث نفسه في رسالة عام ١٧٩٥: «لديّ أفكار حول استكشاف الريف إلى جهة الغرب منا خلال الصيف المقبل، ولكن بطريقة إنجيلية متواضعة، أي à pied على القدمين»، وفي سطر من «المقدمة» كتب: «هكذا مثل فلاح أواصل طريقي». أن تمشي بهذا الشكل (كفلاح) فعل يستحضر معادلة روسو المعقدة بين الفضيلة والبساطة والطفولة والطبيعة.

في بداية القرن الثامن عشر، ربط الأرستقراطيون الإنجليز بين الطبيعة والعقل والنظام الاجتماعي القائم، واقترحوا أن كل شيء كما ينبغي له أن يكون. لكن الطبيعة إلهة أخطر من أن يتم تتويجها. في أواخر ذلك القرن، ساوى روسو والرومانسيون بين الطبيعة والشعور والديمقراطية، ووصفوا

النظام الاجتماعي بأنه شديد الاصطناع وجعلا الثورة ضد امتياز الطبقة «أمرًا طبيعيًا تمامًا». يلاحظ باسيل ويلي في تأريخه لأفكار القرن الثامن عشر عن الطبيعة: «خلال ذلك الوقت المضطرب ظلت الطبيعة مفهومًا مهيمنًا»، لكن معناه متلون. «حدثت الثورة باسم الطبيعة، وهاجمها بيرك باسم الطبيعة، ورد على بيرك، بالاسم نفسه، توم باين وماري وولستونكرافت و[الفيلسوف الراديكالي ويليام] غودوين»(31). كان التنزه في حدود الحديقة الباذخة والمكلفة يربط المشي بالطبيعة بالطبقات المرتاحة والنظام القائم الذي يضمن راحة هذه الطبقات. أما التجوال في العالم فيربط المشي بطبيعة تتوافق مع الفقراء ومع أي راديكالية من شأنها أن تدافع عن حقوقهم ومصالحهم. كذلك إذا كان المجتمع يفسد الحالة الطبيعية للبشر والعالم، فإن الأطفال والجهلة، في تحوّل جذري في المنظور، هم الأنقى والأفضل. استوعب وردزوورث، وقد كان إسفنجة مثالية لعصره، هذه القيم وسكبها على هيئة شعر استثنائي عن الطفولة -طفولته، وطفولة شخصياته الخيالية العديدة- وعن الفقراء. أخذ على كاهله مهمة روسو وطوّرها، فوصف العلاقة بين الطفولة والطبيعة والديمقراطية بدلًا من أن يناقشها. رغم أن عابدي «إله الممشى» هذا، يتذكرون أول اثنين فقط من هذا الثالوث، إلا أن الثالث (الديمقراطية) يشكل محورًا أساسيًا على الأقل في عمله المبكر. فقد كتب إلى صديق له عام ١٧٩٤: «ربما تعلم بالفعل أنني أنتمي إلى تلك الطبقة البغيضة من الرجال الذين يطلق عليهم الديمقراطيون» واستمر في حديثه بثقة ثبت أنها غير مبررة: «وسأظل من تلك الطبقة إلى الأبد».

في بقعة ما على تلك الطرق، بين أولئك الناس وهذه الأسئلة، التقى وردزوورث بأسلوبه. كانت قصائده الأولى متحذلقة طويلة وغامضة ومرصعة بالصور التقليدية، على غرار قصيدة «فصول» لجيمس تومبسون. ويبدو أن حماسته الثورية وتعاطفه مع الفقراء هما ما أنقذاه من أن يكون شاعر مناظر طبيعية ثانوي (خلال العقد نفسه من تسعينيات القرن الثامن عشر، عرفت كتابات شقيقته دوروثي تحولًا مماثلًا، من التعقيد والغموض عند د. جونسون(32) أو جين أوستن، إلى كتابة وصفية واضحة وواقعية)، وغيرتا كلًا من الموضوع والأسلوب لديه. في مقدمته التي وضعها بأثر رجعي لمجموعة «قصائد قصصية غنائية»، الكتاب التاريخي الذي ألفه مع كولريدج ونُشر في عام ١٧٨٩، قال وردزوورث: «من ثم، كانت الغاية الأساسية المقترحة في هذه القصائد اختيار حوادث ومواقف من حياة عادية، وسردها أو وصفها كلها، قدر الإمكان، بانتقاء لغة دارجة فعلًا بين الناس، وفي الوقت نفسه، إلقاء ظلال معينة من الخيال عليها... اختيرت الحياة المتواضعة الريفية لأن العواطف الأساسية للقلب تجد فيها تربة أفضل... ولأنها تتحدث بلغة أكثر وضوحًا وتأكيدًا». كتب وردزوورث عن الفقراء كأشخاص وليس كشخصيات في حكايات عن الفضيلة أو الشفقة، كما كتب عن المناظر الطبيعية بتفاصيل محددة وليس بتعميمات مبالغ فيها وإلماعات كلاسيكية. كان اختيار لغة أكثر بساطة فعلًا سياسيًا جاء بنتائج فنية مذهلة. الرائع في شعر وردزوورث المبكر توحيده المشي كسعي جذري لمواجهة العالم بتسكع من يُقدِّر المناظر الطبيعية الخلابة. بإعادة النظر،

يبدو أن وجود توترات بين المنظر الطبيعي والفقر كموضوعان شعريان كان ضروريًا. ولكن بالنسبة إلى وردزوورث الشاب في تلك اللحظة المثيرة في بداياته لم يكن هناك أي من هذه التوترات. فالمناظر الطبيعية أشد توهجًا في قصائده لأنها مأهولة بالمشردين بدل حوريات الأساطير، وهذا التوهج يلزم لأن وجودهم في منظر طبيعي حق متأصل لهم، مثلما أنه خلفية للظروف اليائسة التي يعيشها الفقراء. البنية المتكررة لهذه القصائد المبكرة هي عبارة عن نزهة يقطعها لقاء مع أولئك الذين شردتهم الاضطرابات الاقتصادية في ذلك الوقت ثم لقاء رفاق يتجولون. وإن كان الشعراء والفنانون الأوائل قد نظروا إلى أكواخ الفقراء وأجسادهم ووجدوها إما جميلة كصورة وإما مثيرة للشفقة، فلا أحد بمثل صوت وردزوورث وجد أن التحدث إليهم يستحق العناء من قبل. لاحظ ثورو: «عندما نسير، نذهب بطبيعة الحال إلى الحقول والغابات»، لكن وردزوورث اتجه بنفس الشغف إلى الطرق العامة كما ذهب إلى الجبال والبحيرات. يسير الناس في الشوارع من أجل اللقاءات وفي المسارات من أجل العزلة والتمتع بالطبيعية، ويبدو أن وردزوورث وجد على الطريق وسيطًا مثاليًا، مساحة توفر فترات هدوء طويلة تقطعها لقاءات عرضية. وأكد: «أحب طريقًا عامًا: قلما يسرني منظر أكثر منه/ كان له سطوة على خيالي منذ فجر الطفولة/ عندما كان خطه المتلاشي يُرى من بعيد كل يوم، على منحدر عارٍ خارج حدود ما وطئته قدماي، مثل دليل إلى الأبدية، إلى الأشياء المجهولة على الأقل، والتي ليس لها آخر». هذا يعني أن الطريق كان يتمتع بنوع من السحر المنظوري وإغواء المجهول. وكان للطريق أيضًا ناسه: «عندما بدأت أستفسر/ أراقب

وأسأل من ألتقيهم/ عندما تبادلنا كلامًا عاديًا/ كانت الطرق النائية مدارس/ أقرأ فيها عن شغف البشر كل يوم/ رأيت أعماق الأنفس/ الأنفس التي تبدو، لعيون مبتذلة، كأنها بلا أعماق».

بدأ هذا التعلّم خلال أيام دراسته، عندما كان يقيم مع نجار متقاعد وزوجته، ويلتقي الباعة الجائلين والرعاة وشخصيات مماثلة. جعلته هذه التجارب المبكرة يشعر بالراحة مع أناس من طبقة أخرى وبددت لديه، جزئيًا على الأقل، ذلك الحاجز الذهني الذي يفصل الطبقات الإنجليزية بعضها عن بعض. علّق ذات مرة: «لو كنت قد ولدت في طبقة تحرمني مما يسمى بالتعليم الليبرالي، لما كان مستبعدًا، لكوني قوي البنية، أن أتبع أسلوب حياة مثل ذلك الذي قضى فيه بائعي المتجول الجزء الأعظم من أيامه». ولّدت حالة غياب اليقين الرهيبة التي سادت حياته في وقت مبكر -مع وفاة والديه ونقل الأقارب للأطفال من مكان إلى آخر- تعاطفًا مع المشردين، في حين أن شغفه بالسفر جعله يرى هذه الشخصيات المتنقلة، بكلمة واحدة، رومانسية. كان الزمن نفسه متقلقلًا، فقد اهتز النظام القديم بفعل الثورات والانتفاضات في فرنسا وأميركا وأيرلندا، وتشرد الفقراء تحت وطأة المشهد الريفي المتغير والثورة الصناعية التي بدأت تلوح في الأفق. بزغ فجر عالم حديث من بشر ينجرفون تائهين، لا تحصنهم ضمانات مكان ولا عمل ولا أسرة.

يتكرر شخص المتجول في أعمال معاصرين لوردزوورث أيضًا، فقد وفر التجوال أرضية مشتركة حرفيًا بين من يسافرون بحثًا عن المغامرة والمتعة ومن يسافرون بحثًا عن البقاء. إلى اليوم يخبرني الإنجليز أن المشي يلعب دورًا عميقًا

في الثقافة الإنجليزية لأنه من المساحات النادرة التي تغيب عنها الطبقية، الجميع متساوون تقريبًا والكل موضع ترحيب. كتب وردزوورث الشاب عن جنود مُسرَحين، وحرفيين، وباعة جوالين، ورعاة، وأطفال ضائعين، وزوجات مهجورات، وكتب عن «المتشردة»، و«جامع العلق»، و«المتسول العجوز في كمبرلاند»، وغيرهم ممن كانوا يميلون إلى الترحال أو التنقل، حتى أن اليهودي التائه ظهر في شعره وشعر رومانسيين آخرين. وكما قال هازليت في وصفه للتحول الثوري للشعر الإنجليزي على أيدي كولريدج ووردزوورث وروبرت ساوثي: «كانوا محاطين بآلهة الإلهام، حشد من شبان متبطلين فشلة ومجرمين منفيين إلى بوتاني باي، ومتشردات، وغجر، وبنات وادعات في عائلة المسيح، وفتيان مخابيل، وأمهات مجنونات، ومن بعدهم كان طيران بوم وغربان الليل».

ربما أن ذلك البائع المتجول الذي كان من الممكن لوردزوورث أن يكونه هو الراوي الرئيسي لأولى قصائده السردية الطويلة «الكوخ المحطم». إنها سمة نمطية في شعره المبكر حيث يلتقي شاب محظوظ أثناء نزهته شخصًا يروي له الحكاية التي ستشكل جسم القصيدة، بحيث يشكل الشاب وتجوالاته إطارًا للصورة الحزينة، يؤكد على قيمة الحكاية ويعزلها داخل هذا الإطار. هذه المرة، تصل شخصية وردزوورث إلى حطام كوخ، حيث يروي له البائع المتجول قصة مشبَعة بالأسى عن آخر أهل المكان: عائلة يمزقها الفقر بين هائم ومتسكع. كل واحد في القصة يعيش ضمن إيقاع مشيٍ ما: الراوي يتمشى، والبائع جوال، والزوج التحق بالجيش وذهب إلى أرض بعيدة، والزوجة بقلبها المكسور وقد أبلت عشب الممر وهي تذرعه روحة وإيابًا،

ترقب الطريق بانتظار عودته.

حرص المتنزهون في الحديقة على التمييز بين مشيتهم المتمتعة ومشي أولئك السائرين بدافع الضرورة، ولهذا كان البقاء داخل حدود الحديقة وعدم السفر على الأقدام أساسيًا. غير أن وردزوورث سعى إلى لقاء أولئك الذين يمثلون النوع الثاني من المشي (أو استعار كثيرًا من تلك الشخصيات التي التقت بها أخته دوروثي ووصفتها بوضوح في مذكراتها وقد استقى منها كثيرًا). ورغم كل سياساتها الراديكالية الدسمة، فإن قصيدته «المقدمة» شطيرة من ثلاثة عشر كتابًا خبزها هو المنظر الطبيعي. تنتهي القصيدة بتجربة رؤيوية على قمة جبل سنودون في ويلز والتي تقود إلى مونولوغ طويل آخر دون مزيد من التفاصيل الجغرافية. يقوده راعٍ -كان الرعاة من بين أوائل مرشدي الجبال في أوروبا- وصديق لم يذكر اسمه أثناء الليل حتى يتمكنوا من رؤية شروق الشمس من القمة. ولأن الشباب يتمتعون بلياقة بدنية عالية، فقد وصلوا مبكرًا إلى وجهتهم. تترك القصة وردزوورث على قمة الجبل في طوفان مفاجئ من ضوء القمر والمناظر والتجلي. أصبح تسلق الجبل وسيلة لفهم الذات والعالم والفن. لم يعد هروبًا بل عملًا من أعمال الثقافة.

لم يكن المشي موضوعًا لوردزوورث فحسب، بل كان سبيله إلى التأليف. معظم قصائده أُلفت أثناء سيره وتحدثه بصوت عالٍ، إلى رفيق أو إلى نفسه. وكانت نتائج ذلك طريفة غالبًا، فقد وجده سكان غراسمير مخيفًا، وعلق أحدهم قائلًا: «إنه لا يتحدث كثيرًا مع الناس العاديين كما قيل، لكنه يتحدث كثيرًا مع نفسه. وكثيرًا ما رأيت شفتيه

تتحرك». بينما تذكّره أخر: «كان يحرك رأسه قليلًا إلى الأمام، ويضع يديه خلف ظهره. ثم يجول، ويجول، ويجول، ثم يتوقف، ثم يجول، يجول، ويجول، ثم يرجع إلى الطرف الاخر، ثم يجلس ويأخذ ورقة ويكتب قليلًا». في «المقدمة» يصف كلبًا كان يمشي معه، وعندما يقترب منه شخص غريب، يعطيه الكلب إشارة بأن يسكت لئلا يُعتقد أنه مجنون. امتلك وردزوورث ذاكرة مميزة سمحت له باستعادة مشاهد قديمة بتفاصيل بصرية وحيوية عاطفية، واقتباس مقاطع طويلة من الشعراء الذين أعجب بهم، وتأليف القصائد وهو سائر ويكتب النتيجة لاحقًا. معظم الكتاب المعاصرين مقيدون بالمكاتب، فهم مخلوقات داخلية عندما يكتبون، ولا يمكنهم في أي مكان آخر خارج هذا النطاق تحقيق شيء أكثر من خطوط عريضة وأفكار. في أسلوب وردزوورث عودة إلى التقاليد الشفهية تفسر تمتع أفضل أعماله بموسيقى الأغاني وعفوية المحادثات. كأن خطواته صاغت إيقاعًا ثابتًا للشعر مثلما يفعل المترونوم للمؤلف الموسيقي.

إحدى أشهر قصائده «أسطر نُظمت على بعد أميال قليلة من دير تينترن، في زيارة ثانية لضفاف نهر واي أثناء نزهة»(33) -لنذكر عنوانها كاملًا- أُلفت بينما في تمشية مع دوروثي في ويلز عام ١٧٩٨. عند عودته إلى بريستول، دوّن القصيدة كاملة وضمنها، بلا تنقيح، في مجموعة «قصائد قصصية غنائية»، حيث ظهرت باعتبارها آخر وأفضل القصائد في كتابه وعمله، وربما في اللغة الإنجليزية. «دير تينترن» قصيدة مشي في صميمها، إذ تلتقط حالة التأمل، والتحول في الزمن من الذكرى إلى التجربة إلى الأمل أثناء استكشاف مكان

ما. ومثل كثير من شعره المرسل Blank Verse، كتبها بلغة قريبة من الكلام العادي بحيث يمكن قراءتها بسهولة محادثة، ولكن التحدث بها بصوت عالٍ يحيي الإيقاعات القوية لتلك المشاوير قبل مئتي عام.

عام ١٨٠٤ كتبت دوروثي إلى صديقة لها: «إنه يمشي حاليًا، كان خارج المنزل هاتين الساعتين رغم أن المطر يهطل بغزارة طوال الصباح. في الطقس الرطب، يخرج مظلة، ويختار أكثر بقعة محمية، ويمشي ذهابًا وإيابًا، ورغم أن طول مشيته قد يصل أحيانًا إلى ربع أو نصف ميل، فإنه مقيد بسرعة معينة داخل حدود يختارها كما لو كان بين جدران السجن. عادة ما يؤلف أشعاره في الخارج وبينما هو منهمك نادرًا ما يعرف كيف مر الوقت وبالكاد ما كان يشعر بالجو ممطرًا أو صاحيًا». هناك مسار في أعلى الحديقة الصغيرة في كوخ دوف، حيث في إمكانه أن يرى من فوق منزله البحيرة ومعظم السلاسل الجبلية المرتفعة حولها، وهناك كان يسير ويؤلف معظم الوقت. على هذا التراس الذي يبلغ طوله حوالي اثنتي عشرة خطوة، وعلى التراس المماثل للمنزل الأكبر الذي انتقل إليه في عام ١٨١٣ مشى آلافًا عديدة قدَرها الشاعر دي كوينسي من «١٧٥ إلى ١٨٠ ألف ميل إنجليزي». في كتابته عن «العلاقة شبه الفزيولوجية بين الشاعر الذي يؤلف وموسيقى القصيدة»، يقول شيموس هيني عن خطوات وردزوورث الرائح الغادي إنها «لا تقدم رحلة إلى الأمام ولكنها تعوّد الجسم على نوع من الإيقاع الحالم». كما أنها تجعل من تأليف الشعر عملًا بدنيًا، يسير من هنا إلى هناك مثل فلاح يحرث أخاديد أرضه أو يتجول عبر المرتفعات كأنه راعٍ يبحث عن شاة. ربما لأنه كان ينتج الجمال من خلال

العمل الجسدي الشاق، فقد تماهى بلا خجل مع الفقراء الذين يعملون ويسيرون. رغم أنه كان رجلًا قويًا ورياضيًا من الأساس، إلا أن ضغوط الكتابة سببت له صداعًا وآلامًا متكررة في جنبه، لقد دفع نفسه بشراسة إلى هذا الفعل الشعري باعتباره جهدًا بدنيًا. يخلص هيني إلى أن «وردزوورث في أفضل حالاته، لا يقل عن أسوأ حالاته، شاعر مشاء». لو كان وردزوورث شاعرًا رومانسيًا مثاليًا، لكان قد مات في أواخر ثلاثينياته، وهو لا يزال يذرع كوخ دوف المتواضع ذهابًا وإيابًا، تاركًا لنا أول وأفضل نسخة من «المقدمة»، وقصائده الغنائية المبكرة كلها وقصصه عن الفقراء، وأناشيده وأغنيات طفولته، وصورته كشخصية راديكالية سليمة لم تمس. ومن المؤسف لسمعته، وإن كانت مرضية بما فيه الكفاية لنفسه ولأسرته، أنه بقي في غراسمير وبعد ذلك في البيت الكبير في رايدال القريبة حتى سن الثمانين، حيث أصبح أكثر تحفظًا وأقل إلهامًا. قد يقول قائل إنه انتقل من رومانسي عظيم إلى فيكتوري عظيم، وتطلّب هذا التحول كثيرًا من التخلي. ورغم أنه لم يحافظ على إيمانه بسياساته المبكرة، فإنه حافظ على إيمانه بمشيه. من الغريب أن إرثه ليس ككاتب بل كسائرٍ هو ما يحمل التمرد السعيد الذي عاشه في سنواته الأولى.

إحدى آخر نخزات الديمقراطية أصابته في عام ١٨٣٦ وهو في السادسة والستين من عمره. اصطحب ابن شقيق كولريدج في نزهة على ممتلكات خاصة، كما يروي أحد كتاب السير الذاتية: «فجاء اللورد مالك الأرض وأخبرهما أنهما يتعديان على ممتلكاته. وكم أثار ذلك حرج رفيقه عندما زعم أن العامة كانوا يسيرون على هذا الطريق دومًا، وأن اللورد كان مخطئًا في إغلاقه». ويتذكر ابن الأخ

أن «وردزوورث عبر عن وجهة نظره بحرارة أكثر مما أحببت أو مما أستطيع تفسيره. ومن الواضح أنه كان يستمتع بالدفاع عن هذه الحقوق، وبدا وكأنه يعتبر ذلك واجبًا». في نسخة أخرى وقعت المواجهة في قلعة لوثر، حيث كان وردزوورث وابن شقيق كولريدج، واللورد نفسه يتناولان العشاء. أعلن الأخير أن هناك من هدم جانبًا من أسواره وأنه سيجلد الرجل الذي فعل ذلك بالسوط: «سمع الشاعر العجوز المتجهم الجالس في نهاية الطاولة الكلمات، وتأججت النار في وجهه ونهض على قدميه، وأجاب: أنا مَن هدمت جدارك سير جون، لقد كان يعيق حقًا قديمًا في المرور، وسأفعل ذلك مرة أخرى. أنا توري Tory ولكن إذا خدشتني بعمق كافٍ، فسوف تجد أن الويغ Whig ما يزال في داخلي أيضًا»(34).

من بين جميع الرومانسيين الآخرين، يبدو أن كوينسي هو الوحيد الذي كان لديه شغف بالمشي يضاهي شغف وردزوورث، وقد استمر طوال حياته، ورغم أنه من المستحيل قياس المتعة، فمن الممكن أن نقول شيئًا عن الأثر: لم يكن المشي موضوعًا ولا طريقة تأليف للكاتب الأصغر بالطريقة التي كانت بها للكاتب الأكبر. كانت ابتكاراته في مكان آخر. فإليه ينسب موريس ماربلز الفضل في أنه كان أول من ذهب في جولة على قدميه مع خيمة، حيث نام أثناء إقامته في ويلز لتوفير المال (تظهر بدايات صناعة معدات الرحلات الخارجية هنا، في المعاطف الخاصة التي طلب وردزوورث وروبرت جونز خياطتها خصوصًا لجولتهما القارية، وفي عصي المشي الخاصة بكوليريدج، في خيمة كوينسي، في ملابس السفر الغريبة لكيتس). كان أفضل ما

كتبه كوينسي عن المشي هو تطوافه شوارع لندن شابًا معدمًا، نوعًا مختلفًا تمامًا من المشي والكتابة. زميله ويليام هازليت كتب أول مقال عن المشي، ولكنه بدأ نوعًا آخر من أدب التجوال بدلًا من توسيع التقليد الوردزوورثي، ومقاله يصور المشي تزجيةً وقت وليس مهمة. شيللي كان أكثر أرستقراطية وفوضوية من أن يسير، وبايرون أرستقراطي أعرج فلم يكن لديه الكثير ليقوله عن المشي، لقد أبحر شيللي وبايرون وامتطيا وركبا عوض ذلك.

كولريدج، من ناحية أخرى، قضى عقدًا كان فيه شغوفًا بالمشي -من عام ١٧٩٤ إلى ١٨٠٤- وانعكس ذلك على شعره في تلك الفترة. حتى قبل أن يلتقي وردزوورث، خرج في جولة مشي إلى ويلز مع صديقه جوزيف هكس، ثم رحلة أخرى في سومرست في جنوب إنجلترا مع الشاعر روبرت ساوذي (سيصبحان أنسباء مستقبلًا). في عام ١٧٩٧، بدأ كولريدج ووردزوورث سنواتهما الاستثنائية في التعاون في الكتابة، ومشيا في مناطق جنوب إنجلترا نفسها، وخلال إحدى هذه التمشيات انضمت إليهما دوروثي، فكتب كولريدج إحدى أشهر قصائده «الملاح القديم» (التي تتناول، مثل شعر صديقه في ذلك الوقت، موضوعات التجوال والمنفى). مشى كولريدج مع أبناء آل وردزوورث مرات عديدة: كان هناك تجوال تاريخي في منطقة «أرض البحيرات» مع وليام وأخيه الأصغر جون، خلالها قرر وليام العودة إلى موقع طفولته. وهناك عدة مشاوير قصيرة بعد أن انتقل كولريدج وساوذي إلى كيزيك شمال تلك المنطقة، إضافة إلى رحلة أخيرة منهكة إلى إسكتلندا مع وليام ودوروثي ومعهم عربة يجرها حمار. تعب الرجلان أحدهما من الاخر وكان كل يلعب بأعصاب الثاني، انفصلا، ولم يستأنفا

صداقتهما العظيمة كما كانت أبدًا. خلال جولة وحيدة ورياضية في البحيرات، أصبح كولريدج أول شخص يسجل وصولًا إلى قمة «سكافيل بيك»، مع أنه فقد شيئًا من مجد هذا التسلق الصعب بعد أن علق أثناء نزوله ثم تدحرج من أعلى الجبل. بعد عام ١٨٠٤، لم يخرج كولريدج ثانية في رحلة مشي طويلة. صحيح أن الروابط بين المشي والكتابة ليست ظاهرة بشكل واضح أو وافر في أعماله كما هي في أعمال صديقه، إلا أن الناقد روبن جارفيس يشير إلى توقف كولريدج عن كتابة الشعر المرسل بعد توقفه عن التجوال.

تشير التجولات التي قام بها شعراء توقفوا عن المشي كثيرًا بعد ذلك إلى أن السفر على الأقدام كان موضة ناشئة بالفعل. لا شك أن الأدب غير الشعري في الدليل الإرشادي بدأ يخاطب المتجولين في هذه المرحلة، ويشير مفهوم «جولة المشي» إلى أن ضوابط كيفية المشي وما يعنيه ذلك بدأت تتأسس. كما هو الحال مع نزهة الحديقة، فإن المشي لمسافات وفترات طويلة كان يكتسب تقاليد تتعلق بالمعنى والفعل. يتضح هذا في تجربة كيتس العظيمة التي خاضها في مجال المشي. ففي عام ١٨١٨، انطلق كيتس الشاب في تجوال مطول من أجل الشعر، ما يعني أن مثل هذه الرحلات كانت طقوسًا مألوفة للانتقال إلى مرحلة جديدة فضلًا عن أنها صقلٌ للحساسية. كتب كيتس: «قررت خلال شهر أن أحمل حقيبتي على ظهري وأسير في جولة عبر شمال إنجلترا وجزء من إسكتلندا -لتكون بمثابة مقدمة للحياة التي أعتزم عيشها- أي الكتابة والدراسة ورؤية أوروبا كلها بأقل تكلفة. سأتسلق الغيم وأوجد»، وبعد فترة قال في رسالة إلى صديق آخر: «ما كنت لأوافق على أن أقضي

الأشهر الأربعة متشردًا في المرتفعات، ولكنني اعتقدت أن ذلك سيمنحني مزيدًا من الخبرة، وسينزع مني التحاملات، ويعوّدني على مزيد من المشقة، ويعرفني بأرهف المناظر، ويحملني إلى جبال أضخم، ويعزز قدرتي على الوصول إلى الشعر، أكثر من الوقوف في البيت بين الكتب حتى لو أنني كنت سأقرأ هوميروس». بكلمات أخرى، كان التعامل مع الجبال والتعرف عليها تدريبًا شعريًا. ولكنه كالسائرين الذين جاءوا بعده، لم يرِد سوى قدر محدود من المشقة والخبرة. وعاد من أيرلندا مرتاعًا من الفقر المدقع على تلك الجزيرة المضطهدة، وعند قراءة هذا الرفض للتجربة، يفكر المرء في لحظة رئيسية في «المقدمة» ومن الواضح في حياة وردزوورث، فقد كان يسير في فرنسا مع الجندي الثوري ميشيل دو بوبوي، فصادفا فتاة «أكلها الجوع... تزحف» على امتداد أحد الأزقة، قال بوبوي إنها السبب وراء قتالهم. ربط وردزوورث المشي بالمتعة والمعاناة والسياسة والمناظر الطبيعية. لقد أخرج المشي من الحديقة مع إمكانياتها الراقية والمحدودة، لكن معظم من خلفوه أرادوا أن يكون العالم الذي يسيرون فيه حديقة أكبر ليس إلا.

الفصل الثامن
ألف ميل من الأحاسيس التقليدية
أدب المشي

١. النقي

نجت أنواع أخرى من المشي، وفي بداية رواية توماس هاردي «تس من آل دوربرفيل»، يصطدم أحدها بالتقاليد المستمدة من الرومانسية. تحتفل تيس ورفيقاتها من فتيات الريف بمهرجان الربيع عبر «المشي الجماعي»، وهو احتفال يعود إلى ما قبل المسيحية حيث يسرن في موكب عبر الحقول. ترتدي الشابات وبعض النساء الأكبر ملابس بيضاء بالكامل، ويبدأن في «مسيرة موكب، يمشين اثنتين اثنتين، حول الأبرشية» وفي المرج المحدد للاحتفال يبدأن الرقص. كان هناك «ثلاثة شبان برجوازيين، يحملون حقائب ظهر صغيرة مشدودة على أكتافهم وعصيًا قوية في أيديهم. أخبر الإخوة الثلاثة معارفهم العابرين بأنهم يقضون عطلات عيد العنصرة في جولة على الأقدام عبر الوادي...». كان اثنان من أبناء رجل الدين الثلاثة قساوسة، والثالث، الذي كان أقل ثقة في نظام العالم ومكانه فيه، اختار ترك الطريق والرقص مع المحتفلات. تتشارك الفلاحات في مواكبهن والشبان في مشيهم في طقوس الطبيعة، بطريقتين مختلفتين تمامًا. الرجال، بأزيائهم من حقائب الظهر والعصي، طبيعيون بشكل متصنع، وذلك لأن نسختهم من الاتصال بالطبيعة تعني وقت الفراغ، والتخفف من الرسميات، والسفر. أما النساء، بطقوسهن المنظمة التي ورثنها من ماضٍ منسي، متصنعات بشكل طبيعي. أفعالهن تتحدث عن الشيئين المستبعدين

تمامًا من جولة المشي، العمل والجنس، حيث يشاركن في نوع من طقوس خصوبة المحاصيل وحين ينتهي عمل الشبان سيأتون للرقص معهن. الطبيعة، في النهاية، ليست المكان الذي يقضين فيه عطلاتهن بل هو المكان الذي يعشن فيه حياتهن، والعمل والجنس وخصوبة الأرض جزء من تلك الحياة. لكن البقايا الوثنية والطقوس الريفية، رغم أنها ما زالت تمارس، لكنها ليست الطريقة السائدة لتأليه الطبيعة.

الطبيعة، التي كانت عبادة جمالية في القرن الثامن عشر وتحولت إلى عبادة راديكالية مع نهاية ذلك القرن، أصبحت بحلول منتصف القرن التالي ديانة راسخة للطبقة المتوسطة، وفي إنجلترا أكثر بكثير من الولايات المتحدة، وبالنسبة إلى معظم الطبقات العاملة أيضًا. من المؤسف أن هذا الدين أصبح تقويًا لا جنسيًا وأخلاقيًا مثل المسيحية التي دعمته أو حلَت محله. كان الخروج إلى «الطبيعة» عملًا من أعمال التقوى لورثة الرومانسية والفلسفة المتعالية من الإنجليز والأمريكيين والأوروبيين الأوسطيين. وفي مقالة ساخرة بعنوان: «وردزوورث في المناطق الاستوائية»، أكد ألدوس هكسلي: «في المناطق المجاورة لخط العرض خمسين درجة شمالًا، وعلى مدى المئة عام الماضية أو نحو ذلك، كان من المسلَم به أن الطبيعة إلهية ورافعة أخلاقيًا. وبالنسبة إلى الوردزوورثيين الصالحين -ومعظم أصحاب العقول الجادة الآن وردزوورثيون- إما بالإلهام المباشر أو غير المباشر، فإن المشي في الريف يعادل الذهاب إلى الكنيسة، والجولة في ويستمورلاند تعادل الحج إلى القدس».

كان أول مقال يتناول المشي على وجه التحديد

هو «الذهاب في رحلة» لويليام هازليت الذي نشر عام ١٨٢١، وفيه يحدد المعايير الخاصة بالمشي «في الطبيعة» والأدب المتعلق بالمشي الذي سيلي ذلك. ويبدأ المقالة بقوله: «إن أحد أكثر الأشياء متعة في العالم هو القيام برحلة، ولكنني أحب أن أقوم برحلة بمفردي». ويعلن هازليت أن العزلة أفضل أثناء المشي: «فلا يمكنك قراءة كتاب الطبيعة، من دون أن تضطر إلى تكبد ترجمته للآخرين» و«أريد أن أرى أفكاري الغامضة تطفو مثل ندف من زغب الشوك لا أن تشتبك مع علّيق الجدل وأشواكه». يدور جزء كبير من مقاله حول العلاقة بين المشي والتفكير. ولكن عزلته مع كتاب الطبيعة موضع شك، فقد استشهد في سياق المقالة القصيرة بكتب أخرى لفيرجيل وشكسبير وميلتون ودرايدن وغراي وكوبر وستيرن وكوليردج ووردزوورث، إلى جانب سفر رؤيا يوحنا. ويصف يومًا من المشي عبر ويلز بدأه بقراءة كتاب «إلواز الجديدة» لروسو في الليلة السابقة واقتباس شعر الطبيعة لكوليردج أثناء تمشيته. ومن الواضح أن الكتب تحدد نوع التجربة التي ينبغي لهازليت أن يحققها في تجواله -أفكار ممتعة مختلطة، واقتباسات، ومناظر- وقد نجح في تحقيقها. وإذا كانت الطبيعة دينًا، والمشي طقسها الأساسي، فإن هذه هي الكتب التي نُظمت كنصوص مقدسة. أصبح مقال هازليت أساسًا لنوع أدبي. يظهر هذا في كل من مختارات المقالات الثلاث -التي لديّ- وتتناول موضوع المشي، واحدة إنجليزية من عام ١٩٢٠ واثنتان أميركيتان من عام ١٩٣٤ و١٩٦٧، ويستشهد بها كتاب المقالات اللاحقين.

يشترك مقال المشي ونوع المشي الذي يصفه المقال نفسه في كثير من الصفات: فمهما كان مدى تسكعهما، فلا بد أن يعودا إلى المنزل في النهاية من

دون تغيير جوهري. من المفترض أن يكون المشي والمقالة ممتعين، بل وساحرين، وبالتالي لا يضيع أحد أبدًا ويعيش على الحشرات ومياه الأمطار في غابة غير مطروقة، أو يمارس الجنس في مقبرة مع شخص غريب، أو يتعثر في معركة، أو يرى رؤى من عالم آخر. كانت جولة المشي مرتبطة كثيرًا بالقساوسة ورجال الدين البروتستانت الآخرين. والمقالة عن المشي تحمل بعضًا من التجهم الديني. ولا تستطيع معظم المقالات الكلاسيكية أن تقاوم إخبارنا كيف نمشي. بعض هذه الأعمال، بمعزل عن بعضها الآخر، هي كتابات رائعة. تناول ليزلي ستيفن، في مقاله «في مديح المشي» نفس موضوع هازليت عن تأملات العقل، يكتب: «المشي هو الخيط غير الملحوظ الذي يربط الذكريات الأخرى، ومع ذلك فكل تمشية هي دراما صغيرة في حد ذاتها، لها حبكة محددة مع حلقات وكوارث، وفقًا لمتطلبات أرسطو، ومتشابكة بشكل طبيعي مع جميع الأفكار والصداقات والاهتمامات التي تشكل الغذاء الأساسي للحياة العادية». هذا مثير جدًا في حد ذاته، وستيفن، الذي برز كباحث، ومتسلق مبكر لجبال الألب، ومشاء رياضي، كان هو نفسه مثيرًا للاهتمام حتى بدأ يخبرنا بأن شكسبير كان مشاء، وكذلك فعل بن جونسون وآخرين كثر، وصولًا إلى وردزوورث الذي لا يمكن تجاهله. ثم يتسلل الوعظ الأخلاقي إليه، فيقول إن عرج بايرون: «كان شديدًا إلى درجة منعته من التمشي، ولهذا تراكمت في دماغه كل هذه الأمزجة المعتلة التي كان من الممكن التخلص منها في تمشية جيدة في الريف، تسبب ذلك في عيوبه، وتكلفه المرضي، وكراهيته المنحرفة للبشر، أمور دمرت، إلى حد كبير، إنجازات أكثر العقول ذكورة في عصره».

يواصل ستيفن حديثه بعد أن ذكر بضع عشرات من المؤلفين الإنجليز، فيقول: «إن المشي هو أفضل ترياق للميول الكئيبة لدى المؤلفين». ثم تأتي بعض الضرورات الإرشادية -يبدو أن لا أحد من هؤلاء الكتاب قادر على مقاومتها- فيكتب ستيفن أن زيارة الآثار والمعالم «لا ينبغي أن تكون هدفًا صريحًا، بل إضافة عرضية إلى الاهتمام بالمشي».

لا يستغرق روبرت لويس ستيفنسون وقتًا طويلًا للوصول إلى تلك الكلمة المصيرية. فبعد صفحتين أو ثلاث صفحات من بدء مقالته الشهيرة «جولات المشي» عام ١٨٧٦، يعلن: «ينبغي أن تذهب بمفردك للتجوال، لأن الحرية ماهية المشي، لا بد أن تكون قادرًا على التوقف والاستمرار، واتباع هذا الطريق أو ذاك، أينما يأخذك الهوى، ولا بد أن تكون لديك وتيرتك الخاصة، ولا تهرول بجانب بطل في المشي، ولا تتبختر مع فتاة وتضيع الوقت». ويستمر في مدح هازليت وانتقاده: «لاحظ مدى معرفته بنظرية جولات المشي... ومع ذلك، هناك شيء واحد أعترض عليه في كلماته هذه، شيء واحد في ممارسة المعلم العظيم يبدو لي غير حكيم بالمرة. فأنا لا أوافق على القفز والجري». في رحلته الطويلة سيرًا على الأقدام عبر سلسلة جبال سيفين في فرنسا، والتي وصفها في كتابه «رحلات مع حمار»، حمل ستيفنسون مسدسًا لكنه لم يرو إلا المناظر الخلابة والمواقف الطريفة. قلة من كتاب المقالات المكرَسين يستطيعون مقاومة إخبارنا بضرورة أن نمشي لأن ذلك مفيد لنا، أو تقديم إرشادات حول كيفية المشي. في عام ١٩١٣، بدأ المؤرخ جي. إم. تريفليان كتابه «مشي» بقوله: «لديّ طبيبان، ساقاي اليسرى واليمنى. عندما يكون جسدي وعقلي خارج نطاق العمل (وهذان

الجزءان التوأم مني يعيشان قرب بعضهما حتى أن أحدهما يلتقط الكآبة من الآخر) أعلم أنه لن يكون عليّ سوى استدعاء طبيبيّ وسأتعافى من جديد... أفكاري مثل متمردين ملطخين بالدماء يفسقون على متن سفينة استولوا عليها، لكنني أعيدهم إلى البيت عند حلول الظلام، يمرحون ويتعثرون بعضهم فوق بعض مثل كشافة صغار سعداء أثناء اللعب».

لا يخطر لتريفليان احتمالية أن بعضنا قد يفضل أن يظل هؤلاء الكشافة الصغار السعداء على مسافة منّا، لكنها احتمالية تتبادر إلى ذهن كاتب واحد على الأقل، كاتب كفر بهذه الطائفة في عام ١٩١٨. في مقالته «الخروج في تمشية»، انفجر الساخر الإنجليزي الألماني ماكس بيربوم قائلًا: «كلما كنت مع أصدقائي في الريف، كنت أعلم أنه في أي لحظة، ما لم يكن المطر يهطل بالفعل، سيقول أحدهم فجأة: «تعالوا نتمشى!» بتلك النبرة الحاسمة التي لا يحلم باستخدامها في أي موقف آخر. يبدو أن الناس يعتقدون أن هناك شيئًا نبيلًا وفاضلًا بطبيعته في الرغبة في الخروج للمشي». تذهب هرطقة بيربوم أبعد من ذلك، فهو يزعم أن المشي لا يساعد على التفكير إطلاقًا، فرغم أن «الجسد يخرج لأن مجرد قيامه بذلك مؤشر مؤكد على النبل والنزاهة والعظمة الجبارة»، فإن العقل يرفض أن يرافقه. ومع ذلك، فقد كان صوتًا ينادي في برية مكتظة مقتنعة بعكس ما يقول.

على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي، كانت إحدى المقالات عن المشي قد وصلت إلى العظمة، ولكن حتى هنري ديفيد ثورو لم يستطع مقاومة الوعظ. فقد بدأ مقالته الشهيرة «مشي» عام ١٨٥١ قائلًا: «أود أن أتحدث بكلمة عن الطبيعة، والحرية

المطلقة والبرية»، فمثل جميع كُتاب المقالات الاخرين، يربط بين المشي في العالم العضوي والحرية، ومثل جميع الاخرين يعلمنا كيف نكون أحرارًا. «قابلت شخصًا أو شخصين فقط في حياتي كانا يفهمان فن المشي، أي المشي لمسافات طويلة ـ وكانوا يتمتعون بعبقرية، إذا جاز التعبير، في التجول». وبعد صفحة، «ينبغي لنا أن نخرج في أقصر رحلة، ربما، بروح المغامرة الخالدة، لئلا نعود أبدًا... إذا كنت مستعدًا لترك والدك وأمك، وأخيك وأختك، وزوجتك وطفلك وأصدقائك، وألا تراهم مرة أخرى أبدًا - إذا كنت قد دفعت ديونك، وكتبت وصيتك، وسويت شؤونك كلها، وأصبحت رجلًا حرًا، فأنت مستعد للمشي». تعليمات ثورو هي الأجرأ والأكثر وحشية، لكنها لا تزال تعليمات. بعد ذلك بقليل تأتي كلمة «يجب» مرة أخرى: «يجب أن تولد في عائلة المشاة». ثم، «يجب أن تمشي مثل الجمل، الذي يقال إنه الحيوان الوحيد الذي يتأمل أثناء المشي». «عندما طلب مسافر من خادمة وردزوورث أن تريه مكتب سيدها، أجابت: هذه مكتبته، لكن مكتبه في الهواء الطلق».

مع أن مقال المشي كان احتفالًا رسميًا بالحرية الجسدية والعقلية، لكنه ليس المقال الذي فتح العالم لهذا الاحتفال – فقد حدثت هذه الثورة بالفعل. بدلًا من ذلك، كان يتعلق بترويض تلك الثورة من خلال وصف النطاق المسموح به لتلك الحرية. ولم يتوقف الوعظ. ففي عام ١٩٧٠، بعد قرن ونصف من هازليت، كتب بروس تشاتوين مقالًا كان يفترض أن يتناول الرُحّل، ولكنه تحول ليشمل كتاب ستيفنسون «رحلات مع حمار». وكان تشاتوين يكتب على نحو رائع، لكنه دائمًا ما تجنب التمييز بين حياة الترحل -وهو السفر المستمر بأي وسيلة،

ونادرًا ما يكون ذلك على الأقدام- والمشي، الذي قد يكون سفرًا أو لا يكون. وقد أدى طمس هذه الفروق من خلال خلط حياة الترحل بتراثه البريطاني في التجوال إلى جعل الرُحّل رومانسيين، أو رومانسيين على الأقل، وسمح له بأن يتخيل نفسه وكأنه من الرُحّل. بعد استشهاد تشاتوين بـ ستيفنسون بقليل، سار على خطى التقليد بالنصيحة: «أفضل شيء هو المشي. يجب أن نتبع الشاعر الصيني لي بو في «مشاق السفر وتفرعات الطريق العديدة». فالحياة رحلة عبر البرية. وهذا المفهوم، الذي أصبح عالميًا إلى حد الابتذال، ما كان ليواصل البقاء لولا أنه كان حقيقيًا من الناحية البيولوجية. لا يساوي أي من أبطالنا الثوريين شيئًا ما لم يخرج في رحلة مشي جيدة. تحدث تشي جيفارا عن «مرحلة الترحل» من الثورة الكوبية. انظروا ما فعلت المسيرة الطويلة لماو تسي تونج، أو الخروج لموسى. الحركة هي أفضل علاج للكآبة، كما فهم روبرت بيرتون (مؤلف كتاب تشريح الكآبة)».

مئة وخمسون عامًا من الوعظ الأخلاقي! قرن ونصف القرن من النصح والإرشاد! لقد أكد الأطباء على مر القرون أن المشي مفيد جدًا، لكن النصيحة الطبية لم تكن أبدًا السمات الأساسية الجاذبة إلى الأدب. فضلًا عن ذلك، فإن المشي الذي يضمن استبعاد أشياء معينة -الاعتداء، والانهيارات الجليدية- هو المشي المأمون حقًا، ولا يؤيد هذا المشي إلا هؤلاء السادة الوعاظ الذين يبدو أنهم لا يرون الحدود التي وضعوها حول هذا الفعل (ومن بين متع المشي في المناطق الحضرية أنه ليس مأمونًا إلى حد كبير). أقول هذا، أيها السادة، لأن الكُتاب الذين كتبوا عن المشي كلهم أعضاء في نفس النادي على ما يبدو، ليس أحد نوادي

المشي الحقيقية، بل نوعًا من النادي الضمني الذي يجمع أصحاب الخلفيات المشتركة. وهم عمومًا من أصحاب الامتيازات، فمعظم الإنجليز يكتبون وكأن الجميع ذهب إلى أكسفورد أو كامبريدج، بل وحتى ثورو ذهب إلى هارفارد. ويميلون إلى رجال الدين إلى حد ما، وهم دائمًا من الذكور، لا فتيات فلاحات يرقصن ولا صبايا يمشين برقة، مع زوجات بدلًا من أزواج يرحلون، كما توضح المقاطع السابقة. ويضيف ثورو بمراعاة: «لا أدري كيف يتحمل جنس النساء -اللاتي ما زلن محصورات في المنزل أكثر من الرجال- ذلك، لا أعرف». فقد ذهب عديد من النساء بعد دوروثي وردزوورث في جولات طويلة منفردة، بل إن سارة هازليت، زوجة هازليت التي انفصلت عنه، ذهبت في تجوال طويل بمفردها وسجلت مذكرات عن ذلك لم تنشر حينها، مثل معظم الوثائق عن مشي النساء. شهادة فلورا تومسون عن رحلاتها راجلة عبر ريف أوكسفورد شاير لتوصيل البريد في جميع المواسم وكل حالات الطقس هي واحدة من أكثر الأوصاف سحرًا للمشي في الريف، لكنها ليست جزءًا من الأدبيات الأساسية لأنها من تأليف امرأة فقيرة، وتتحدث عن العمل (والجنس، حيث يغازلها حارس الصيد الذي تعبر أرضه بانتظام، دون جدوى)، ومدفونة في كتاب يتحدث عن أشياء أخرى كثيرة. مثل المسافرات العظيمات في القرن التاسع عشر -ألكسندرا ديفيد نيل في التبت، وإيزابيل إيبرهارت في شمال إفريقيا، وإيزابيلا بيرد في جبال روكي- هؤلاء المشاءات شذذن عن المقبول (وسوف يتم تناول الأسباب بالتفصيل لاحقًا، في الفصل ١٤).

بحلول أواخر القرن التاسع عشر، كانت كلمة متشرد كاسم وفعل شائعة بين الكتّاب السائرين،

كما كانت كلمة متشرد وغجري، وفي مكان بعيد في عالم مختلف، بدوي، ولكن اللعب بكلمة متشرد أو غجري هو إحدى الطرق لإظهار أنك لست كذلك حقًا. لا بد وأن تكون معقدًا لترغب في البساطة، ومستقرًا لترغب في الحركة. وعلى العكس من بروس تشاتوين، لا يذهب البدو في جولات على الأقدام. وقد كتب ستيفن غراهام، وهو رجل إنجليزي قام في أوائل القرن العشرين بجولات طويلة رائعة عبر أوروبا الشرقية وآسيا وجبال روكي، إلى جانب كتبه عن رحلات محددة - مجلدًا هجينًا بعنوان «فن التشرد اللطيف». يقدم فيه إرشادات مرحة عن الفن على مدى ٢٧١ صفحة، في فصول عن الأحذية، و«أغاني المسير»، و«التجفيف بعد المطر»، و«مشية المتجاوزين». يبدو أن ثورو وحده من تاه في تفكيره الخاص ووجد نفسه في أماكن مدهشة، وهو ينادي بالتخلي، والمصير المحتوم، وفقدان الذاكرة، ويدافع عن عمله، وقوميته النادرة، ولكن بحلول الوقت الذي ينادي فيه بالأخيرة، فإن أبطاله هم من مستوطنين يلوحون بفؤوس وليسوا مشاةً عُزل. ولعل الحدود ضمنية في شكل المقالة نفسها، التي يُنظر إليها على نطاق واسع باعتبارها نوعًا من القفص الأدبي القادر على احتواء مواضيع صغيرة فقط، على النقيض من عرين الأسد في الرواية والمدى المفتوح في القصيدة. لقد قُلّصت الكتابة والمشي ليناسب الواحد منهما الآخر، على الأقل في هذا التقليد الأساسي في العالم الناطق بالإنجليزية.

٢. البسيط

لا يزال الاعتقاد بأن المشي -المشي في الريف على كل حال- يحمل فضيلة متأصلة صامدًا. والأمثلة في كل مكان. أخيرًا، وجدت مقالًا مزعجًا بشكل

خاص في مجلة بوذية يؤكد أن جميع مشاكل العالم سوف تحل إذا سار زعماء العالم فقط. «ربما يكون المشي هو الطريق إلى السلام في العالم. دع زعماء العالم يمشون إلى موقع المؤتمر بدلًا من ركوب سيارة ليموزين المعدية بالسلطة. أزل طاولات المؤتمر -أيًا كان حجمها وشكلها- واجتمعوا على امتداد ضفاف بحيرة جنيف». هناك مثال آخر لزعيم عالمي يشير إلى أن هذه فكرة مريبة. فقد أراد رونالد ريغان أن يبدأ مذكراته بأهم لحظة في رئاسته، كما يكتب المحرر مايكل كوردا، الذي حاول تحويلها إلى كتاب. وكانت تلك اللحظة لقاءه الأول مع ميخائيل غورباتشوف، بالقرب من جنيف. وجنيف هي مسقط رأس روسو، وكان المشهد الذي وصفه ريغان روسويويًا بامتياز «أدرك ريغان... أن اجتماع القمة لن يؤدي إلى أي شيء. كان الزعيمان محاطين بالمستشارين والمتخصصين أثناء مناقشتهما نزع السلاح، ولم يتمكن الاثنان من إجراء أي اتصال إنساني، لذلك ربت ريغان على كتف غورباتشوف ودعاه إلى الخروج في تمشية. خرج الاثنان، واصطحب ريغان غورباتشوف إلى ضفة بحيرة جنيف». واصل ريغان الحديث قائلًا إنه خلال «مناقشة طويلة صادقة» في تلك المناسبة، اتفقا على التفتيش والتحقق المتبادل بجانب اتخاذ الخطوات الأولى لنزع السلاح النووي. واعترض كوردا على أحد مساعديه قائلًا إن الحكاية كما رواها ريغان، رغم أنها مؤثرة، فإنها إشكالية. لم يتحدث غورباتشوف وريغان لغة أحدهما. وإن حدثت أي نزهة من هذا القبيل فعلًا، فلا بد أن حاشية من المترجمين وأفراد الأمن رافقتهما ليصبح الحدث أشبه بموكب رسمي أكثر من كونه تمشية ودية.

أن تقترح حل مشاكل العالم بتمشية يقوم بها عجوزان على ضفاف بحيرة سويسرية (وفوق هذا في مسقط رأس روسو) كان اقتراحًا بأن البسيط والصالح والطبيعي ما زالوا متوافقين، وأن هؤلاء الزعماء العالميين الذين يملكون القدرة على تدمير الأرض كانوا هم أنفسهم رجالًا بسطاء (والإشارة إلى أنهم بسطاء تعني ضمنًا أنهم صالحون وبالتالي فإن أنظمتهم عادلة وإنجازاتهم شريفة، وهي عبارة عن سلسلة من أحجار الدومينو المصطفة خلف الافتراض الرومانسي الأول). استمرت جمالية الفضائل البسيطة في الانتصار على جمالية الموكب الملكي بما تحمله من دلالات تعقيده وتكلُّفه وناسه الكثيرين الذين يمثلون المجتمع. سار جيمي كارتر في شارع بنسلفانيا في حفل تنصيبه رئيسًا، لكن ريغان جلب مستوى جديدًا من البذخ والاحتفالات إلى البيت الأبيض واقترب أكثر من أي رئيس أميركي آخر من أن يكون ملكًا للشمس. لقد فعل ذلك من خلال إخبارنا بقصص بسيطة عن براءتنا المفقودة، وفسادنا من خلال التعليم والفنون، وقدرتنا على الاعتماد على فضائل الكوخ الخشبي وبالتالي الاستغناء عن الترابطات المعقدة للمجتمع، سواء على المستوى الاقتصادي أو غير ذلك. وكان تصوير نفسه على أنه أحد هؤلاء السائرين على نهج روسو إحدى هذه القصص. إن تاريخ المشي في الريف مليء بالراغبين في تصوير أنفسهم متوازنين وعفويين وإخوة لجميع البشر وللطبيعة، وغالبًا ما يكشفون بهذه الرغبة عن أنفسهم كمتنفذين ومعقدين، مع أن المشاة الاخرين راديكاليون في الصميم خرجوا لتقويض القوانين والسلطات التي تخنق الاخرين مثلما تخنقهم هم أنفسهم.

٣. العهد

مثلما كانت المقالة شكلًا سائدًا للكتابة عن المشي في القرن التاسع عشر، فإن الحكاية الطويلة عن المشي الطويل جدًا هي كذلك للقرن العشرين. ولعل القرن الحادي والعشرين يجلب لنا شيئًا جديدًا تمامًا. ففي القرن الثامن عشر، كانت أدبيات السفر شائعة، ولكن المشاة لمسافات طويلة لم يتركوا سوى قليل من السجلات المكتوبة عن مآثرهم. جولة وردزوورث راجلًا عبر جبال الألب، كما ورد وصفها في قصيدته «المقدمة»، حتى عام ١٨٥٠، وليست «المقدمة» أدب سفر بالضبط. كتب ثورو سردًا عن جولاته سجل فيه تجربته الخاصة بنفس البراعة العلمية التي سجل بها العالم الطبيعي من حوله، ولكن هذه كانت مقالات عن الطبيعة أكثر من كونها أدبًا عن المشي. أول سرد مهم أعرفه عن رحلة مشي طويلة من أجل المشي نفسه هو كتاب جون موير(35) «رحلة الألف ميل إلى الخليج»، والتي تصف رحلة من إنديانابوليس إلى فلوريدا كيز في عام ١٨٦٧ (نشرت بعد وفاته في عام ١٩١٤). كان الجنوب الذي سار فيه جرحًا مفتوحًا ما زال يتقيح من الحرب الأهلية، ولا بد أن المؤرخين الذين يدرسون الحرب الأهلية أحبطوا من إهمال ميور لتسجيل ملاحظات اجتماعية لصالح ملاحظاته حول النباتات، مع أن الكتاب أكثر كتبه العديدة انتشارًا إلى اليوم. كتاباته تجعله أشبه بيوحنا المعمدان الذي عاد من برية جذابة فجأة ليبشر بعجائبها لبقيةٍ منا (برية لأن سكانها الأصليين تم إبعادهم بالقوة وإبادتهم قبل وصول موير، ولكن هذه قصة أخرى). فموير هو مبشر الطبيعة في الولايات المتحدة، حيث يتكيف مع لغة الدين لوصف النباتات والجبال والضوء والتفاعلات التي

أحبها كثيرًا. ولأنه مراقب دقيق الملاحظة مثل ثورو، يميل إلى قراءة الدين في ما يراه. وكان أيضًا واحدًا من أعظم متسلقي الجبال في القرن التاسع عشر، حيث حقق في ثيابه الصوفيه وأحذيته المسمرة الثقيلة إنجازات يصعب على معظم من لديهم معدات حديثة مجاراتها. ورغم أنه يفتقر إلى موهبة وردزوورث الشعرية ونقد ثورو الجذري، لكن موير سار كما تخيل الاثنان المشي، لأسابيع بمفرده في البراري ليتعرف كصديق على سلسلة جبلية بأسرها ويحول شغفه بالمكان إلى انخراط سياسي. جاء هذا بعد عقود من تجواله في الجنوب.

يأتي كتاب «مسيرة الألف ميل» في حلقات، كما هي أغلب كتب المشي. في مثل هذا النوع من أدب الرحلات لا توجد حبكة شاملة، باستثناء الحبكة الواضحة المتمثلة في الانتقال من النقطة أ إلى النقطة ب (أما الكتب ذات الطابع التأملي فالحبكة هي التحول الذاتي على طول الطريق). تلك الكتب التي تتناول المشي من أجل الذات هي أدب الفردوس، قصة ما يمكن أن يحدث عندما لا يكون هناك خطأ عميق، وبالتالي فإن البطل -السليم، الميسور، الخلي- يمكنه أن ينطلق بحثًا عن مغامرة بسيطة. في الجنة، الأشياء الوحيدة التي تثير الاهتمام هي أفكارنا الخاصة، وشخصيات رفاقنا، والصدف والمظهر المحيط من حولنا. للأسف، ليس بالضرورة أن يدهشنا كتّاب المسافات الطويلة بتفكيرهم، ومن المستبعد أن من يكون المشي معه إلى آخر الشارع مضجرًا سيذهلنا في رحلة تمتد ستة أشهر. سماع قصص عن المشي من أناس ننتبه إليهم فقط لأنهم قطعوا مسافات بعيدة، يشبه أن ينصحنا عن الطعام أشخاص كل مؤهلاتهم أنهم فازوا في مسابقات أكل الفطائر.

الكمية ليست كل شيء. ولدى موير أكثر من الكمية ليقدمه. فهو مراقب حاد وممتع للعالم الطبيعي من حوله، ولا يذكر شيئًا عن دوافع سيره في «مسيرة الألف ميل إلى الخليج» إطلاقًا، مع أن ذلك واضح بما فيه الكفاية، فهو قوي، وفقير، والمشي أفضل طريقة لإشباع شغفه بالنباتات. ورغم أنه أحد أعظم المشائين في التاريخ، فإن المشي في حد ذاته نادرًا ما كان موضوعه. لا توجد حدود واضحة بين أدب المشي والأدب العالمي. لا توجد حدود واضحة المعالم بين أدب المشي والكتابة عن الطبيعة، لكن كُتاب الطبيعة يميلون إلى جعل المشي ضمنيًا في أفضل الأحوال، وسيلة للقاءات مع الطبيعة التي يصفونها، ولكن نادرًا ما يكون موضوعًا. يبدو أن الجسد والروح يختفيان في البيئة المحيطة، لكن جسد موير يظهر مرة أخرى عندما ينفد حظه الفردوسي ويدخل في مجاعة بينما ينتظر وصول النقود ثم يصاب لاحقًا بمرض مميت. كتب ثورو حكايات عن المشي رسمت فيها تجربته الخاصة بنفس الدقة العلمية التي وثق بها العالم الطبيعي من حوله، ولكن هذه مقالات عن الطبيعة أكثر من كونها أدبًا عن المشي.

بعد سبعة عشر عامًا من موير، انطلق شاب آخر في عشرينياته للسير مسافة تزيد على ألف ميل، من سينسيناتي إلى لوس أنجلوس. يقول تشارلز ف. لوميس في بداية كتابه «متشرد عبر القارة»: «ولكن لماذا المشي مسافات؟ ألا توجد خطوط سكك حديدية وبولمانات كافية، حتى نضطر إلى السير؟ هذا ما قاله أصدقائي عندما علموا بقراري السفر سيرًا من أوهايو إلى كاليفورنيا، ومن الوارد جدًا أن هذا هو السؤال الذي سيخطر ببالك أولًا عند القراءة عن أطول سير من أجل المتعة الخالصة

مسجَل كرقم قياسي». هذا يعني أنه بدأ يفكر في أصدقائه وقرائه والرقم القياسي، فضلًا عن المتعة. ولكنه استطرد قائلًا: «لم أسع وراء الوقت ولا المال، بل وراء الحياة ـ ليس الحياة بالمعنى البائس للباحثين عن الصحة، فقد كنت رياضيًا مدربًا بصحة جيدة، بل كنت أسعى وراء الحياة بالمعنى الأصدق والأوسع والأحلى، أي الغبطة المثيرة المتدفقة من العيش خارج أسوار المجتمع البائسة، والعيش بجسد مثالي وعقل يقظ... أنا أمريكي وشعرت بالخجل لأنني لا أعرف سوى القليل عن بلدي كما كنت، وكما هم معظم الأمريكيين». بعد تسعة وسبعين صفحة، يقول عن شخص رافقه مدة قصيرة: «إنه كان السائر الحقيقي الوحيد والحيوي الذي قابلته في الرحلة الطويلة برمتها، وكان هناك متعة غامرة في تخطي الأميال الجليدية مع مثل هذا الرفيق». لوميس مغرور، فهناك حكايات يتفوق فيها على أميركيين غربيين أقوياء، وأفاعٍ جرسية، وعواصف ثلجية، ومحاولاته الرصينة لإلقاء النكات على غرار توين تفشل غالبًا. لكنه ينقذ نفسه بحبه الكبير (وغير المعتاد في ذلك الوقت) لشعب الجنوب الغربي وأرضه والحكايات العرضية التي يرويها على حسابه. إنها قصة رائعة، عن الصلابة والقدرة على سبر المكان والتكيف. لم يتمتع السير لمسافات طويلة في أمريكا الشمالية أبدًا بلطف المشي بالعموم. في إنجلترا، يمكن المشي من حانة إلى أخرى أو من فندق إلى فندق (أو في الوقت الحاضر، من نُزل إلى نُزل)، في أمريكا، عادةً ما يكون المشي لمسافات طويلة بمثابة غوص في البرية أو على الأقل بمقياس غير إنجليزي وفي أماكن منفرة كالطرق السريعة والبلدات المعادية.

يبدو أن هناك ثلاثة دوافع وراء هذه الرحلات

الطويلة: فهم التركيبة الطبيعية أو الاجتماعية لمكان ما، وفهم الذات، وتحقيق رقم قياسي، وتمزج معظم هذه الرحلات هذه الدوافع الثلاثة. وكثيرًا ما يُنظر إلى المشي لمسافات شاسعة كنوع من الحج، أو دليل على شكل من الإيمان أو الإرادة، فضلًا عن كونه وسيلة للاكتشاف الروحي والعملي. ومع شيوع السفر، سعى كتّاب الرحلات إلى تجربة أشد تطرفًا وأماكن أكثر نأيًا. إن أحد الفرضيات الضمنية لهذا النوع الأخير من الكتابة هو ضرورة أن تكون الرحلة، وليس المسافر، استثنائية لكي تستحق القراءة عنها (مع أن فرجينيا وولف كتبت مقالة مذهلة عن الخروج إلى أمسية في لندن لشراء قلم رصاص، وكتب جيمس جويس أعظم رواية في القرن العشرين عن وكيل إعلانات سمين يطوف شوارع دبلن). بالنسبة إلى الكتّاب، فإن المشي لمسافات طويلة وسيلة سهلة لخلق استمرارية سردية. إذا كان المسار يشبه القصة، كما اقترحت قبل بضعة فصول، فإن المشي المتواصل لا بد وأن يصنع قصة متماسكة، والمشي الطويل جدًا يصنع كتابًا كاملًا. أو هكذا هو منطق تلك الكتب الحديثة، وهو صحيح إلى حد ما، لا يتخطى السائر كثيرًا مما يراه، وينظر للأشياء عن قرب، والكاتبة تعرّض نفسها للخطر وللأشخاص والأمكنة المحلية. من ناحية أخرى، قد يكون السائر مستهلكًا في المساعي الرياضية إلى درجة يعجز معها عن الانخراط في محيطه، وخاصة عندما يكون مدفوعًا بجدول زمني محدد أو منافسة. البعض منهم تسعدهم هذه الحدود، كما هو حال كولن فليتشر، وهو واحد من هؤلاء الإنجليز الذين لا بد من ذكرهم، وكانت أولى رحلاته الطويلة في عام ١٩٥٨ إلى الجانب الشرقي من كاليفورنيا. ونتج منها كتاب بعنوان: «صيف

الألف ميل»، وهو مزيج من مؤونة الطريق من تجليات قصيرة، ودروس أخلاقية، وقروح، ولقاءات اجتماعية، وتفاصيل عملية. وقد قام بعد ذلك برحلات أخرى، ومثل غراهام كتب دليلًا إرشاديًا بعنوان: «السائر الكامل»، والذي لا يزال الرحالة الراجلون يستخدمونه. وهناك إنجليزي آخر، جون هيلابي، سار ألف ميل عابرًا بريطانيا في عام ١٩٦٨، وكتب عملًا عن هذه الرحلة كان من أكثر الكتب مبيعًا، إضافة إلى عدة كتب أخرى عن رحلات مشي أخرى.

بحلول الوقت الذي شرع فيه بيتر جينكينز في السير لمسافة تزيد على ثلاثة آلاف ميل عبر الولايات المتحدة في عام ١٩٧٣ (برعاية ناشيونال جيوغرافيك)، أصبحت الرحلة عبر البلاد نوعًا من طقوس الانتقال إلى الرجولة الأمريكية، رغم أن الوسيلة في ذلك الوقت كانت المركبة غالبًا. كان عبور القارة يشبه احتضانها أو تطويقها، رمزيًا على الأقل، حيث كان الطريق يلتف حولها مثلما يلف شريط حزمةً. على ما يبدو أن فيلم «الراكب السهل» Easy Rider(36)، الذي كان قد ظهر أخيرًا آنذاك، يستمد بعضًا من حساسيته من قصص الطريق لجاك كيرواك، والتي كانت ممتدة مثل كتب السفر أكثر من الروايات (تحكي رواية Dharma Bums (37) لكيرواك كيف أخرج الشاعر وعالم البيئة غاري سنايدر كيرواك من السيارة إلى الجبال). سعى جينكينز إلى إقامة لقاءات اجتماعية، والأميركا التي يبحث عنها، عكس تلك التي كان موير يبحث عنها، فهي تتألف من أشخاص وليست من أماكن. ومثل وردزوورث في لقاءاته المتواصلة مع شخصيات حريصة على

سرد حكايتها، فإنه يخصص وقتًا يستمع فيه إلى كل من يلتقيه ويحكي عنه في كتابته بحرص يصل إلى السذاجة في «المشي عبر أميركا» و«المشي عبر أميركا II». وفي إطار رد الفعل ضد معاداة أميركا لدى الشباب الراديكاليين في ذلك الوقت، فإن رحلة جينكينز تجعله على اتصال وثيق، بل وأحيانًا صديقًا مع الجنوبيين البيض الذين يكرههم دعاة الحقوق المدنية في الشمال. خلال رحلته، بقي جينكينز مع امرأة من سكان جبال الأبالاش تعيش على ما تنتجه الأرض، ثم عاش مع أسرة سوداء فقيرة عدة أسابيع، وفي لويزيانا وقع في حب طالبة في مدرسة اللاهوت المعمدانية الجنوبية، ودخل في حوارات دينية معها، وتزوج المرأة، وبعد عدة أشهر استأنف سيره معها، ووصل إلى ساحل أوريغون شخصًا مختلفًا تمامًا عن الشخص الذي بدأ الرحلة. هذه رحلة حقيقية كالحياة، حيث يسير جينكنز ببطء كما تتطلب التجربة.

الأدب الذي يتناول تجارب المشي لمسافات طويلة يشبه المنحدر الهابط، حيث تقع كتب مَن يمارسون رياضة المشي لكنهم ليسوا بالضرورة كُتابًا في الأسفل، فالظاهر أن من النادر للسان فضي وفخذين من حديد أن يجتمعا. وأكثر ما قرأت إثارة للإعجاب من تجارب المشي الطويل المعاصرة -وهناك كثير منها الآن- ما كتبته روبين ديفيدسون، التي لم تكن تنوي الكتابة عن المشي أصلًا، لكنها فعلت ذلك ببراعة في كتابها «مسالك» Tracks، الذي يروي رحلتها الممتدة ١٧٠٠ ميل عبر المناطق الأسترالية النائية إلى البحر مع ثلاثة جمال (وتلقت رعاية مثل ملحمة جينكنز، بدعم جمعية الجغرافيا الوطنية). في منتصف الطريق، تشرح تأثير رحلتها في عقلها: «لكن أشياء غريبة تحدث عندما تقطع عشرين ميلًا

في اليوم، يومًا بعد يوم، شهرًا بعد شهر. أشياء لا تصبح واضحة تمامًا إلا لدى استعادتها... تذكرت تفاصيل دقيقة وبالألوان الصريحة كل ما حدث في ماضيّ وجميع الأشخاص الذين كانوا جزءًا منهم. تذكرت كل كلمة من المحادثات التي دارت بيني وبينهم أو تلك التي سمعتها بالصدفة منذ زمن بعيد في طفولتي. بهذه الطريقة قدرت على مراجعة تلك الأحداث بانفصال عاطفي كأنها حدثت لشخص آخر. كنت أعيد اكتشاف موتى منسيين من زمن بعيد وأتعرف عليهم من جديد. كنت سعيدة، لا توجد ببساطة كلمة أخرى لوصف ذلك». تعيدنا روبين إلى أرض الفلاسفة وكتّاب المقالات المشائين، إلى العلاقة بين المشي والعقل، وتفعل ذلك من خلال تجربة متطرفة قليلون من عاشوها.

يبدو أن سبعينيات القرن العشرين كانت عصرًا ذهبيًا للمشي مسافات طويلة، حيث بدأ جينكنز، ديفيدسون، وآلان بوث جميعهم رحلاتهم منتصف السبعينيات. كتاب بوث الرائع «طرق إلى ساتا: المشي ألفي ميل عبر اليابان» :Roads to Sata: A Two-Thousand-Mile Walk Through Japan يعتبر نقطة محورية في تقدم أدب المشي مسافات طويلة. بوث إنجليزي عاش في اليابان سبع سنوات وتعلم لغتها وثقافتها جيدًا، إنه طريف ومتواضع دائمًا، ويستحضر المكان ويصفه بشكل عظيم، وحكواتي رهيب في استعادة الحوارات الكوميدية، يحترم الثقافة ولكنه ليس مبجلًا لها. ويصف رحلته بما فيها بحماس -جوارب وسخة، ينابيع ساخنة، ساكي ومزيد من الساكي، شخصيات كوميدية ومأساوية، طقس حار، وشهوانيون من الجنسين-. ويعلق بسخرية: «في البلدان المتقدمة بشكل صحيح، ينظر السكان إلى المشاة بشك شديد

وقد علّموا كلابهم فعل الشيء نفسه»، لكنه يستمتع بكل شيء رغم ذلك. مثل أغلب كتب الرحلات، فإن كتابه ليس عن المشي. بمعنى أنه ليس عن الأفعال بل عن اللقاءات، تمامًا كما أن «رحلة الألف ميل إلى الخليج» عن علم النبات والاكتشافات الطبيعية، وكما تدور رواية «على الطريق» وفيلم «الراكب السهل» حول محرك الاحتراق الداخلي وتداعياته. والمشي ليس سوى وسيلة للوصول إلى أقصى حد من هذه اللقاءات وربما أقصى اختبار للجسد والروح.

يشكل الاختبار محورًا أساسيًا في جولات المشي الغزيرة التي قامت بها فيونا كامبل، كما ورد في كتابها «القصة بما فيها: جولة حول العالم» The Whole Story: A Walk Around the World. وباعتبارها ابنة رجل عسكري صارم، يبدو أنها كانت تسعى إلى إثبات نفسها له ولها، حيث أصبح المشي نشاطًا هوسيًا لا يختلف كثيرًا عن الأناروكسيا التي تعاني منها أختها (والتي تظهر في كتابها). في عام ١٩٨٣، وهي في السادسة عشرة، نجحت كامبل في السير بطول بريطانيا، ألف ميل، برعاية صحيفة «إيفنينج ستاندارد» اللندنية، بهدف جمع تبرعات لبناء مستشفى. بعد ذلك انطلقت في رحلة مشي حول العالم، ليس حرفيًا، لأن الخط المتواصل الذي يربط سرد من مشوا حول العالم لا علاقة له بروايتها: «يُعرِّف كتاب غينيس للأرقام القياسية المشي حول العالم بأنه يبدأ وينتهي في المكان نفسه، ويعبر أربع قارات، ويغطي ما لا يقل عن ١٦٠٠٠ ميل» كما جاء في مقدمة كتابها. انطلقت كامبل عبر الولايات المتحدة بعد عامين، ثم أستراليا بعد خمسة أعوام، وبطول إفريقيا بعد ثمانية أعوام، إلى أن أنهت جولتها بعد أحد عشر عامًا من الرحلة

الإنجليزية الأولى برحلة شمالًا من إسبانيا إلى القنال الإنجليزي. كانت جولتها متقطعة إلى أبعد حد -تطير عائدة إلى إفريقيا والولايات المتحدة لاستكمال أجزاء تركتها في وقت سابق- ولا يوجد سوى نوع من تسجيل الأحداث يربط كل الأشياء معًا كفعل واحد.

لعل من الخطأ إدراج كامبل مع كتّاب أدب المشي، رغم أنها أنتجت كتبًا، ولا شك أنها جزء من ثقافة المشي. كما أن هناك أسلافًا لها بين الرياضيين المشاة من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر، ممن لم يبالوا أمشوا ألف ميل على مسار أو على طريق محدد أم لا، هؤلاء كانوا موضوعًا للمراهنات الكبيرة. ثم إن المناظر الطبيعية لا تظهر في كتابات كامبل الذي تناولت فيه عدة قارات أبدًا، ولا يمكننا أن نجد فيها أثرًا من وردزوورث. ومع ذلك، فإن الاعتقاد بطبيعة خلاصية للمشي تزداد كلما طال المشي وابتعد، وهو اعتقاد اكتسب حياة رهيبة قائمة بذاتها، ولا شك أن هذا من التراث الفيكتوري، الفيكتوريون أنفسهم هم ورثة وردزوورث. هكذا هو الطريق المتعرج الذي يسلكه التاريخ، تارة مع مجموعة من الرغبات في الأفق، وتارة مع مجموعة أخرى. مثل ديفيدسون، تظهر كامبل منجرفة، فيما يمثل ديفيدسون نسخة أكثر ثقافة وعلى بصيرة أكبر بالذات الجريحة التي تسعى إلى الخلاص من خلال محنةٍ ما، إنه يأتي مزودًا بحساسية أدبية أكثر بكثير وتذوق أكبر للطبيعة منها. أما الشعور بالاغتراب العنيف فهو نفسه معظم الوقت، إنه شعور فتاة شابة تتشبث بعنادها وهدفها الشاق لأنه كل ما تملك. أما جينكنز فأكثر رقة، أقل انغلاقًا، ربما لأن الأمر أسهل لرجل، ربما لأنه ساعٍ أكثر صراحةً: يعرف بالضبط نوع

الحج الذي يسير فيه.

تشبه كامبل، إلى حد ما، متسابقي الـ«ووكاثون» Walkathon، فغالبًا ما تمشي لجمع التبرعات لقضية ما (أو تبحث عن قضية معظم الوقت لتمثيلها فتتمكن أيضًا من جمع التبرعات لرحلاتها، التي كانت مع وجود طاقم الدعم والدعاية وخلافه قد باتت مكلفة جدًا). ومع ذلك فإن المشي خمسين ميلًا في اليوم أمر رائع، والنهوض والقيام بذلك من جديد في اليوم التالي مذهل، والقيام بذلك يومًا بعد يوم عبر المناطق النائية الأسترالية في طقس قبيح أمر قاسٍ. وقد فعلته كامبل، سارت ٣٢٠٠ ميل عبر تلك القارة في خمسة وتسعين يومًا، رقم قياسي عالمي. ساقاها قويتان بلا كلل وسعيها لا هوادة فيه، المسألة أن لا شيء يتبقى من مشيها سوى الإنجاز، لا مناظر طبيعية، ولا متعة، ولقاءات قليلة. ولعشرين ألف ميل تكافح لفهم نفسها بما يكفي لتتغلب على معاناتها، ولكنها غامضة بشكل مقلق بشأن قيمها، ففي لحظة تسعى إلى رعاية الشركات واهتمام وسائل الإعلام، ثم تدين الصحفيين والرأسماليين في أخرى. تهين الأشخاص الذين يقودون السيارات في جولتها الثانية في الولايات المتحدة، بينما في جولتها الأولى كان طاقم دعمها يتبعها في سيارة مقطورة عبر البلاد. ينتهي كتابها بحكاية تقوض كل جهودها، وهي واحدة من بين عديد من المقاطع التي تعبر عن تمجيد غامض للشعوب الأصلية. يتحدى عسكريون بعض السكان الأصليين الأستراليين في سباق جري عبر الصحراء، فيتخلى هؤلاء عن السباق بحثًا عن أقراص العسل. في روايتها تشير كامبل إلى أنها مع السكان الأصليين في ازدراء الأهداف الصارمة، والخبرة القابلة للقياس، والمنافسة، وحتى حفظ

سجلات الأرقام القياسية أو صنعها، باعتبارها طرقًا معيبة للوجود في العالم. المأساة أنها كانت طول الوقت في صف العسكريين.

ربما تعرض كامبل لنا المشي نقيًا. غير أنها الشوائب ما تجعله مستحقًا للجهد، الآراء، الأفكار، اللقاءات، كل تلك الأمور التي تربط العقل بالعالم بوساطة الجسم المتجول، التي تخفف انغماس العقل في الذات. هذه الكتب تشير إلى أن المشي موضوع زلق إلى حد كبير، وأن من الصعب أن يظل التفكير مرتكزًا عليه، فعادة ما يكون المشي حول شيء آخر، حول شخصية السائر أو لقاءاته، حول الطبيعة أو الإنجاز، حتى إنه ليتوقف عن أن يكون معنيًا بالمشي نفسه أحيانًا. ومع ذلك فإن كل هذه الأشياء مجتمعة -متون مقالات المشي وأدب السفر- تشكل تاريخًا متماسكًا وإن كان متعرجًا، يمتد إلى مئتي عام من الأسباب التي تدعو إلى المشي عبر الأرض.

الفصل التاسع
غموض الجبل وصول الجبل

قصة فيونا كامبل عن العسكر الذين يتسابقون عبر مناطق أسترالية نائية نحو خط النهاية بينما ينحرف منافسوهم من السكان الأصليين عن مسار السباق لجمع أقراص العسل تقترح بعض الطرق والأسباب المختلفة للمشي والعيش، أو بعض الأسئلة على الأقل. هل يمكن للمرء أن يعدل الإنجاز العام بالمتعة الخاصة، وهل ينفي الواحد منهما الآخر؟ ما هي أجزاء الفعل التي يمكن قياسها ومقارنتها؟ ماذا يعني الوصول، وماذا يعني التجوال بلا هدف؟ هل المنافسة دافع وضيع؟ هل يمكن تصور الجنود طلابًا في الانضباط والسكان الأصليين طلابًا في الانفصال؟ ففي نهاية المطاف، هناك حجاج يعدّون الوصول إلى نهاية رحلتهم اكتمالًا روحيًا، ويمشي حجاج وصوفيون آخرون بلا توقف أو وجهة، من حكماء الصين في العصور القديمة إلى الفلاح الروسي المجهول الذي كتب «طريق الحاج» في القرن التاسع عشر. هذه الأسئلة حول كيف يسافر المرء ولماذا يفعل تصير أكثر إلحاحًا، أو على الأقل أكثر وضوحًا، مع رحلات الاستكشاف الجبلية.

صعود الجبال هو فن الصعود على الأقدام والأيدي أحيانًا، ورغم التأكيد على فعل التسلق عادةً، فإن الصعود في معظمه مسألة سير (ونظرًا إلى أن المتسلق الجيد يتسلق برجليه قدر الإمكان، فيمكن تسمية التسلق فن المشي العمودي). في الأماكن الأشد انحدارًا ووعورة، يتباطأ الإيقاع الثابت وشبه الواعي للمشي. يمكن لكل خطوة أن تصبح قرارًا منفصلًا بشأن الاتجاه والسلامة، ويتحول فعل

السير البسيط إلى مهارة متخصصة كثيرًا ما تتطلب معدات معقدة. هنا أريد تناول صعود الجبال الذي يتضمن فعل التسلق، ولندع جانبًا رياضة التسلق كتخصص منفصل بمعزل عن صعود الجبال نفسه، وهو تقسيم مصطنع إلى حد ما، ولكن له ما يبرره. رياضة التسلق هي وادٍ جانبي لم يكتشف إلا أخيرًا في تاريخ صعود الجبال، وقد صقلت وتحسنت تقنيات هذه الرياضة بشكل كبير لتناسب اعتلاء أسطح أكثر تحديًا. قد لا تتجاوز مسافة التسلق الشاق مئة قدم، لكن حركة واحدة يمكنها أن تغدو «مشكلة» يمكن حلها بالمثابرة والتدريب المكثف. وفي حين ترتبط دوافع صعود المرتفعات بالرغبة في تذوق المناظر الجبلية، يبدو أن رياضة التسلق التقني تنطوي على متع أخرى. منذ القرن الثامن عشر، والناس يتصورون الطبيعة مناظر، والمناظر هي ما نراه من مسافة معينة، أما التسلق فيضع المرء وجهًا لوجه مع صخرة، في نوع مختلف تمامًا من العلاقة. لعل المواجهة اللمسية، والإحساس الواعي بالجاذبية (والفناء أحيانًا)، والمتعة الحركية لجسدٍ يتحرك بأقصى قدرته، تشكل تجربة مهمة في العلاقة مع الطبيعة وإن كانت أقل تقديسًا واحتفاء على المستوى الثقافي. في بعض الحالات، تختفي المناظر الطبيعية تمامًا عند التسلق، على الأقل في صالات التسلق الداخلية التي أخذت تنتشر بسرعة. كما أن المشي يعزز نوعًا من الوعي حيث يمكن للعقل أن ينجرف بعيدًا عن التجربة المباشرة لعبور مكان معين ويعود إليه، أما تسلق الصخور فيتطلب جهدًا وانهماكًا في الفعل نفسه حتى أن أحد المرشدين أخبرني: «التسلق هو الوقت الوحيد الذي لا يتجول فيه عقلي». التسلق يتعلق بالتسلق، في حين يتعلق صعود الجبال بالجبال.

تبدأ أغلب التواريخ القياسية لصعود الجبال وجماليات المناظر الطبيعية بالشاعر بترارك، «أول رجل يصعد جبلًا من أجل التسلق في حد ذاته، وللاستمتاع بالمنظر من القمة»، كما قال مؤرخ الفن كينيث كلارك. وقبل وقت طويل من تسلق بترارك لجبل فينتو في إيطاليا عام ١٣٣٥، كان هناك آخرون يصعدون الجبال في أجزاء أخرى من العالم. تنبأ بترارك بالممارسة التي نشأت في العصر الرومانسي، السفر في الجبال بهدف المتعة الجمالية والوصول إلى قممها لأسباب دنيوية. لكن تاريخ صعود الجبال في أوروبا يبدأ حقًا في أواخر القرن الثامن عشر، عندما حفز الفضول والحساسيات المتغيرة عددًا قليلًا من الأفراد الجريئين ليس فقط على السفر عبر جبال الألب بل ومحاولة الوصول إلى قممها. وترسّخت الممارسة تدريجيًا لتصبح رياضةً، وتتطلب مجموعة من المهارات وكذلك الافتراضات، مثل افتراض أن الوصول إلى قمة جبل عملٌ له معنى فريد ويتميز عن المشي بين الممرات أو على سفوح التلال. تطور صعود الجبال في أوروبا إلى حد كبير باعتبارها هواية السادة ومهنة للمرشدين، حيث الأولى تعتمد في كثير من الأحيان على الثانية. كذلك هو الأمر في أمريكا الشمالية، حيث أولى عمليات الصعود المسجلة تلك التي قام بها مستكشفون ومساحون في أمكنة بعيدة نائية (يمكن مشاهدة بعض رحلات الصعود في جبال الألب من القرى الواقعة أسفلها بالتلسكوبات، بينما استغرقت بعض رحلات الصعود في أمريكا الشمالية أسابيع من المشي في البراري للوصول إليها). بالطبع، كما يروي المساح العظيم ومتسلق الجبال كلارنس كينغ، عندما وصل في عام ١٨٧١ إلى قمة جبل ويتني، أعلى نقطة في الولايات الثماني

والأربعين المتجاورة، وجد «صخورًا مكدسة على القمة، وثُبت فيها بشكل راسخ سهم هندي يشير إلى الغرب مباشرة». جذبت المرتفعات انتباه الجوالين قبل أن تلد الرومانسية هواية صعود الجبال بكثير.

تشكل أي قمة منفردة أو بقعة مرتفعة نقطة تمركز طبيعية في التضاريس، شيء يركن إليه المسافرون وأهل المكان في تحديد الاتجاهات لأنفسهم. الجبال انقطاع في استمرارية التضاريس، ذروة نقاط مرتفعة، وحواجز طبيعية، وأرضًا ليست أرضية. على الجبال، قد تتحول التغيرات غير المحسوسة في خطوط العرض إلى تحولات مذهلة في الارتفاع. وتتغير البيئة البيولوجية والمناخ بسرعة من سفوح التلال الدافئة إلى المرتفعات الجليدية: فهناك خط الأشجار، وفي الأعلى ما يمكن أن نطلق عليه خط الحياة، الذي لا يعيش أو ينمو بعده شيء، وفوق ١٨ ألف قدم تقريبًا، ما يسميه متسلقو الجبال منطقة الموت، وهي عالم جليدي منخفض الأكسجين حيث يبدأ الجسم في الموت، وتضعف قدرته على التفكير، ويفقد حتى أكثر متسلقي الجبال تأقلمًا بعضًا من خلايا المخ. في الأعلى، تختفي البيولوجيا لتكشف عن عالم تشكله القوى الصارمة للجيولوجيا والمترولوجيا، حيث تغلف السماء عظام الأرض العارية. كان يُنظر إلى الجبال في مختلف الثقافات باعتبارها عتبات بين هذا العالم والعالم الآخر، وأماكن يدنو فيها عالم الأرواح. تُنسب إلى الجبال معانٍ مقدسة غالبًا، ورغم أن عالم الروح قد يكون مرعبًا، فإنه نادرًا ما يكون شريرًا. يبدو أن أوروبا المسيحية وحدها من رأت في الجبال عوالم قبيحة وجحيمية. من المفترض في سويسرا مثلًا، أن التنانين وأرواح الموتى التعساء واليهودي التائه تسكن المرتفعات (حُكم على اليهودي التائه

في الأسطورة بأن يهيم في الأرض حتى المجيء الثاني لأنه أهان المسيح، ويشير اليهودي التائه إلى أن المسيحيين الأوروبيين غالبًا ما كانوا ينظرون إلى التجوال واليهود بعين كارهة). عبّر عديد من الكتاب الإنجليز في القرن السابع عشر عن كراهيتهم للجبال فوصفوها بأنها «عالية وشنيعة» و«قمامة الأرض» و«تشوهات»، وحتى أنها عاهة لحقت بالأرض الملساء المسطحة بعد الطوفان. ورغم أن الأوروبيين قادوا العالم في تطوير صعود الجبال كرياضة حديثة، فهذا لأن الرومانسية استعادت تقدير الأماكن الطبيعية التي لم يفقدها كثير من بقية العالم قط.

كان الإمبراطور الأول للصين من أوائل من سُجّل صعودهم إلى جبل، إذ قاد مركبته الحربية في القرن الثالث قبل الميلاد إلى جبل تاي شان متجاهلًا نصيحة حكمائه الذين اعتقدوا بضرورة أن يمشي إلى الجبل. الإمبراطور الأول معروف أكثر بأنه من بدأ بناء سور الصين العظيم وأحرق الكتب كلها ليبدأ التاريخ الصيني من عنده، وربما محا سجل أولئك الذين صعدوا قبله. ومنذ ذلك الحين سار معظم الناس إلى قمة جبل تاي شان لعدة قرون على الدرج المكون من ٧٠٠٠ درجة تنطلق من مدينة السلام عند سفح الجبل وتمر عبر ثلاث بوابات سماوية وتصل حتى معبد الإمبراطور جايد في الأعلى. سارت الكاتبة والبوذية الأمريكية غريتل إيرليتش إلى جبل تاي شان وغيره من مواقع الحج المرتفعة في الصين وكتبت: «إن العبارة الصينية التي تعبر عن «الذهاب في رحلة حج» ch’ao-shan chin-hsiang تعني حرفيًا: أن يقدم المرء الاحترام للجبل، كأن الجبل إمبراطورة أو أحد الأسلاف الذين عليك أن تركع أمامهم».

في القرن الرابع الميلادي، صعدت حاجة من نوع مختلف تمامًا إلى الجبال على الجانب الآخر من أوراسيا: الحاجة المسيحية إيجيريا. لم يبق لها أي أثر تقريبًا، ولكن مذكرات حجها ما زالت باقية، وإن كانت تلك المخطوطة تشير إلى أنها كانت رئيسة دير أو شخصية دينية أخرى ذات مكانة عالية وأن جبل سيناء في عمق الصحراء المصرية كان من بين مواقع الحج المسيحية التي زارتها آنذاك. قادها رجال دين مقيمون في تلك الصحراء عبر «الوادي الواسع والسهل حيث مكث بنو إسرائيل خلال الأيام التي صعد فيها الرجل المقدس موسى جبل الله» أثناء هروبهم من العبودية في مصر. تسلقت هي ورفاقها المجهولون على الأقدام جبل سيناء الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ٩٠٠٠ قدم «مباشرة إلى الأعلى، كما لو كانوا يتسلقون جدارًا». لاحظت إيجيريا أن سيناء «يبدو كأنه جبل واحد من كل جانب، ومع ذلك، بمجرد دخولك المنطقة، تدرك وجود عدة جبال، ولكن السلسلة كلها تسمى جبل الله». بالنسبة إلى إيجيريا، كان سيناء هو الجبل الذي نزل عليه الله وصعد إليه موسى لتلقي ألواح الشريعة، وتسلقه اعتراف بالإيمان بالكتاب المقدس وعودة إلى موقع أعظم لحظاته. منذ ذلك، بُنيت السلالم على جبل سيناء أيضًا، وكان أحد المتصوفة في القرن الرابع عشر يصعدها كل يوم كطريقة تعبير دينية.

تعمل الجبال، مثل المتاهات وغيرها من الهياكل المبنية، كفضاء مجازي ورمزي. لا يوجد معادل جغرافي أكثر وضوحًا لفكرة الوصول والانتصار من القمة التي ما ثمَ نقطة يمكن الذهاب إليها بعدها (رغم أن عديدًا من حجاج الهيمالايا يطوفون حولها، معتقدين أن الوقوف على القمة تدنيس

للمقدس فيها). قال متسلق الجبال الفيكتوري الرياضي الموهوب والطموح إدوارد ويمبر عن الوصول إلى قمة ماترهورن(38): «ليس هناك ما نرفع أعيننا لنتطلع إليه، كل شيء في الأسفل»، في مزيج واضح من اللغة الحرفية والمجازية. «الرجل الذي يقف هناك... -كأنه شخص في مكان حقق كل ما يرغب فيه- ليس لديه ما يتوق إليه». يمكن أيضًا استخلاص جاذبية التسلق إلى قمة الجبال من استعارات اللغة. تربط كلمات اللغة الإنجليزية وعديد من اللغات الأخرى مثل الارتفاع والصعود والارتقاء بالقوة والفضيلة والمكانة. وهكذا نتحدث عن أن نكون على قمة العالم أو على قمة مجال اختصاصنا، أو في ذروة قدراتنا، أو في طريقنا إلى الأعلى، أو نتحدث عن تجارب الذروة، وذروة حياتنا المهنية، أو عن الصعود والارتقاء في العالم، ناهيك عن المتسلقين الاجتماعيين، والارتقاء الاجتماعي، والقديسين أصحاب العقول العالية، والأوغاد الدون، والطبقات العليا والدنيا طبعًا. وفي علم الكونيات المسيحي، السماء فوقنا والجحيم تحتنا، ويصور دانتي المطهر كجبل مخروطي يصعده بشق الأنفس، ويجمع بين السفر الروحي والجغرافي (بدءًا بما يطلق عليه المتسلقون المعاصرون المدخنة: «صعدنا عبر الشق الضيق، ضغطت علينا الصخور من الجانبين، وكان عبور تلك الأرض في حاجة إلى القدمين واليدين»). يعبر المشي صعودًا هذه الأراضي الميتافيزيقية، بينما يتحرك التطواف بلا هدف في نفس الجبل عبر ميتافيزيقا مختلفة تمامًا.

في اليابان، يجري تصوّر الجبال كمراكز لأكثر من ماندالا ضخمة تنتشر عبر المسطحات الطبيعية

كأنها «زهور متداخلة»، على حد تعبير أحد الباحثين، والاقتراب من مركز الماندالا يعني الاقتراب من مصدر القوة الروحية، وقد يكون الاقتراب غير مباشر. ربما يكون المرء أبعد ما يكون عن وجهته في متاهةٍ وهو أقرب ما يكون إليها، وبصعود جبل، كما وجدت إيجيريا، فإن شكله يتغير مرارًا وتكرارًا بينما يصعده المرء. أمثولة الزن الشهيرة عن المعلِّم الذي كان يرى الجبال قبل دراسته مجرد جبال، ولكنها لم تعد جبالًا أثناء دراسته، وبعد ذلك عادت الجبال لتصبح جبالًا مرة أخرى، يمكن تفسيرها كاستعارة لهذه المفارقة الإدراكية. لاحظ ثورو ذلك وكتب: «بالنسبة إلى المسافر، فإن ملامح الجبل تتغير مع كل خطوة، فلديه عدد لا نهائي من الوجوه، رغم أن شكلها واحد تمامًا»، وهذا الشكل يمكن إدراكه بشكل أفضل من مسافة بعيدة. في كل مطبوعة من عمل الفنان الياباني الشهير هوكوساي «ستة وثلاثون منظرًا لجبل فوجي» (باستثناء واحدة) يلوح المخروط المثالي لفوجي في الأفق إما قريبًا أو بعيدًا قليلًا، فتعتمد عليه الاتجاهات والاستمرارية للمدينة والطريق والحقل والبحر. فقط في طبعة الحجاج الذين يصعدون الجبل يختفي شكل فوجي المألوف والذي يوحد المطبوعات الأخرى. عندما ننجذب نقترب، وعندما نقترب يتلاشى المنظر الذي جذبنا: يتلاشى وجه الحبيب أو يتشقق عندما يقترب المرء لتقبيله، يتحول المخروط الأملس لجبل فوجي إلى صخرة خشنة ترتفع من تحت الأقدام لتحجب السماء في طبعة هوكوساي لحجاج الجبال. كما لو أن الشكل الموضوعي للجبل يذوب في تجربة ذاتية، ويتشظى معنى المشي إلى قمة جبل.

زعمت سابقًا أن المشي نموذج مصغر من الحياة،

أما صعود الجبل فهو مشي أكثر دراماتيكية: فهناك المزيد من الخطر والمزيد من الوعي بالموت، والمزيد من اللايقين بشأن النتيجة، والمزيد من الانتصار بما يعدَ وصولًا لا لبس فيه. «أن تتسلق صخورًا أمرٌ يشبه بقية حياتك، إلا أنه أكثر بساطة وأمانًا... في كل مرة ترتقي منحدرًا صعبًا، تكون قد نجحت في الحياة» هكذا كتب متسلق الجبال البريطاني تشارلز مونتاغيو في عام ١٩٢٤. ما يذهلني في صعود الجبال أنه فعلٌ واحد يعني أشياء كثيرة متباينة. ورغم أن فكرة الحج تبدو دائمة الحضور تقريبًا، فإن صعودات كثيرة تستمد معناها من الأفعال الرياضية والعسكرية أيضًا. يستمد الحج معناه من اتباع الطرق المقدسة إلى وجهات ثابتة، في حين أن أكثر متسلقي الجبال تبجيلًا هم غالبًا أولئك الذين يكونون أول من يصل إلى طريق أو قمة، والذين يحققون رقمًا قياسيًا مثل الرياضيين. كثيرًا ما غدَ صعود الجبال شكلًا نقيًا من أشكال البعثات الإمبريالية، حيث استخدم مهاراتها وفضائلها البطولية، من دون أي مطامع مادية أو عنف مضاد (وهذا هو سبب عنونة متسلق الجبال الفرنسي الرائع ليونيل تيراي مذكراته بـ«غزاة اللامجدي» Conquistadors of the Useless). في السابع عشر من مارس/آذار ١٩٢٣، أثناء جولة لمتسلق الجبال العظيم جورج مالوري ألقى فيها الخطابات بغية جمع تبرعات لرحلة استكشافية إلى قمة إفرست، يبدو أن الأسئلة المتواصلة حول سبب رغبته في صعوده استفزته، فقال أشهر جملة في تاريخ صعود الجبال، والتي يُستشهد بها أحيانًا باعتبارها من حكم الزن: «لأنه موجود». وكانت إجابته المعتادة: «نأمل أن نثبت أن الروح التي بنت الإمبراطورية البريطانية لم

تمت بعد». توفي مالوري ورفيقه أندرو إيرفين في تلك الرحلة، وما زال المؤرخون يناقشون إن كانا قد وصلا إلى القمة فعلًا قبل اختفائهما. (اكتشف جسد مالوري المحطم والمتجمد بعد خمسة وسبعين عامًا، في الأول من مايو ١٩٩٩).

الجزء القابل للقياس من تجربةٍ ما يُترجم إلى لغة بسهولة، لذا فإن أعلى القمم وأسوأ الكوارث هي أكثر جوانب تسلق الجبال شهرة، إلى جانب جميع الأرقام القياسية - أول صعود، وأول صعود من الجهة الشمالية، وأول أمريكي، وأول ياباني، وأول امرأة، وأسرع، والأول من دون استخدام هذا العتاد أو ذلك. بالنسبة إلى الغربيين، ارتبط جبل إفرست بهذه الحسابات دائمًا، الذين التفتوا إليه أول مرة بسبب علم المثلثات(39). ففي عام ١٨٥٢، قام موظف في مكتب المسح المثلثي البريطاني في الهند بإجراء حسابات حول ما كان يُعرف بـ«القمة الخامسة عشرة» -التي كان أهل التبت يطلقون عليها «تشومالونغما»- ليكتشف أنها أطول من كل قمم جبال الهيمالايا حوله. وقد أطلق الموظف الذي قاس ارتفاع القمة الخامسة عشرة عليها اسم رجل لم يلحظ وجودها أصلًا، وهو المساح العام السابق للهند السير جورج إفرست (غيّر الاسم الجديد جنس القمة لأن تشومالونغما تعني «إلهة المكان»). يعتبر السكان المحليون جبل تشومالونغما أقل الجبال المقدسة أهمية، ولكن كتّاب الجبال يطلقون أحيانًا على جبل إفرست (الذي يقع على نفس خط العرض لجنوب فلوريدا) قمة العالم أو سقفه، وكأن كوكبنا الكروي كان في الواقع هرمًا. متسلق الجبال وعالم الدين إدوين بيرنباوم، يكتب ساخرًا: «كل ما يعتبره المجتمع الغربي رقم واحد يميل إلى اكتساب

هالة من التفوق تجعله يبدو أكثر واقعية وقيمة من أي شيء آخر - بكلمة واحدة، مقدسًا». ورقم واحد يتحدد عمومًا بالقياس، فالانتصار في تسلق الجبال، كما هو الحال في الرياضة، يقاس بالأول، والأسرع، والأكثر.

مثل الرياضة، صعود الجبال جهد يأتي بنتائج رمزية فقط، ولكن طبيعة هذه الرمزية تملي كل شيء - على سبيل المثال، لماذا عدَ متسلق الجبال الفرنسي موريس هيرزوغ رحلته الاستكشافية إلى أنابورنا(40)، سابع أعلى جبل في العالم، في عام ١٩٥٠ انتصارًا عظيمًا لأنه وصل إلى القمة وليست فشلًا لأنه أصيب بقضمة الصقيع الشديدة حتى فقد أصابع يديه وقدميه كلها، فحمله أفراد من قبيلة «شيربا» إلى أسفل. لعل السبب في ذلك هو أن هيرزوغ وطئ أرض التاريخ بلا أنانية كما وطِئت إيجيريا أرض النص المقدس. وفي منتصف ستينيات القرن العشرين، قاد ديفيد روبرتس ثاني صعود إلى قمة جبل هنتنغتون في ألاسكا. كما روى في كتابه «جبل خوفي»، بدأت الرحلة الاستكشافية في ماساتشوستس بدراسته لصور الجبل، وتخمينه لمسار جديد للصعود إليه، ورغبته في القيام بشيء لم يقم به أحد من قبل. وهذا يعني أن الرحلة الاستكشافية بدأت بالتمثيل البصري والرغبة في أن يدخل السجل التاريخي، تبعتها أشهر من التخطيط وجمع الأموال واستقطاب المشاركين وجمع المعدات وكتابة القوائم، ولم تتحول الرحلة الاستكشافية إلى انخراط جسدي مع الجبل إلا بعد ذلك بكثير. هذا التوتر بين التاريخ والتجربة، بين الطموح والذاكرة واللحظة يفتنني، ورغم وجوده في جميع الأنشطة البشرية يبدو أنه يصبح أكثر

شفافية على ارتفاعات عالية. التاريخ، دعوني أوضح، يعني فعلًا متخيلًا بوصفه يتموضع داخل سياق من أفعال مماثلة وكما يتصوره آخرون، إنه ينشأ من خيال اجتماعي حول الكيفية التي تتماشى فيها الأفعال الخاصة بالفرد مع الحياة العامة. العقل يحمل التاريخ إلى الأماكن النائية لتحديد ما تعنيه أفعال المرء حتى وهو في تلك الأماكن، ومن بمقدوره أن يحدد ثقل التاريخ على أولئك الذين يحملونه؟

لأن مرتفعات الجبال عادة ما تكون بعيدة عن الأرض المأهولة، ولأن الصوفيين والخارجين عن القانون يذهبون إليها ليختفوا عن الأنظار، ولأن التسلق هو «الوقت الوحيد الذي لا يتجول فيه عقلي»، فإن صنع التاريخ في الجبال يبدو فكرة مفارقة جدًا وصعود الجبال رياضة مفارقة جدًا عندما يُنظر إليها على أنها رياضة. إن كونك أول من يصعد جبلًا يعني دخول المجهول، ولكن تدخله لإدراج مكانٍ ما في تاريخ البشرية ولتجعله معروفًا. هناك من يرفضون تسجيل صعودهم أو تسمية تجارب تسلقهم، وينظرون إلى صعود الجبال باعتباره انسحابًا من التاريخ. كتبت جوين موفات، التي أصبحت أول مرشدة بريطانية معتمدة في تسلق الجبال عام ١٩٥٣، عن الرضا المباشر: «وقبل أن أبدأ في التحرك، انتابني الشعور المألوف الذي أحس به عندما أكون على وشك القيام بأمر صعب: استرخاء ذهني وجسدي، وعضلات منبسطة تمامًا، يرتاح الوجه وتتسع العينان، يصبح الجسم خفيفًا ومرنًا. كيان مرن ومتسق يظهر أثناء التسلق كما يظهر الحصان أثناء القفز. في تلك اللحظة الرائعة -قبل الحركة الصعبة، عندما ينظر المرء ويفهم- تكمن الإجابة في سؤال لماذا يتسلق. أنت تفعل

شيئًا صعبًا، صعبًا إلى درجة أن الفشل قد يعني الموت، ولكن بسبب المعرفة والخبرة، فأنت تفعل ذلك بأمان». قررت موفات وشريكها ذات مرة تسجيل الرقم القياسي لأبطأ عبور على الإطلاق لسلسلة جبال في جزيرة سكاي، وعلى الأرجح أنهما نجحا بمساعدة عاصفة ثلجية مفاجئة.

بدأ تاريخ صعود الجبال في أوروبا كنوع من المنافسة. عقود قبل صعود جبل «مون بلان» (الجبل الأبيض)، أصبح النهر الجليدي المنحدر منه إلى وادي شامونيكس والوادي نفسه من الوجهات السياحية (وما زالا منذ ذلك الحين). كان السكان المحليون، مثل سكان شمال ويلز ومنطقة البحيرات، مستفيدين من تزايد اهتمام المسافرين بالمناظر الطبيعية البرية والوعرة. وكانت إحدى نتائج هذا الاقتصاد السياحي المتنامي أن عالمًا نبيلًا في العشرين من عمره من جنيف، هوراس بنديكت دي سوسير -وصل في عام ١٧٦٠- أصبح مفتونًا بالأنهار الجليدية إلى درجة أنه كرس بقية حياته لدراستها، وأعلن عن جائزة كبيرة لأول من يصل أعلى «مون بلان» الذي يبلغ ارتفاعه ١٥٧٨٢ قدمًا. كانت قمته، أعلى بقعة في أوروبا، مغناطيسًا في السنوات الأولى لعبادة الجبال ورمزًا ثقافيًا لرومانسيي المناظر الطبيعية، وموضوع قصيدة شهيرة لشيللي، وهي أول مقياس لطموح متسلقي الجبال. وفي عام ١٧٨٦ وصل طبيب محلي إلى القمة بمساعدة صياد محلي. كانت محاولة جرت قبل بضع سنوات قد أرهبت أربعة مرشدين حاولوا تسلق الجبل حتى أنهم أعلنوا أنه ليس قابلًا للتسلق. آنذاك، لم يكن أحد في أوروبا متأكدًا من قدرة البشر على النجاة في مثل هذه الارتفاعات العالية. لكن الطبيب المقيم في شامونيكس، ميشيل غابرييل

باكار «وجّه ذكاءه الحاد وخبرته الحادة بالفعل كمتسلق إلى مشاكل البقاء على قيد الحياة في الجبال...»، كما كتب متسلق الجبال اللاحق الشهير إريك شيبتون: «لم يكن باكار يسعى إلى الشهرة، وقلما تحدث عن إنجازاته التي أظهر كثير منها تصميمًا عظيمًا وجلدًا بدنيًا كبيرًا. وعلى ما يبدو أن رغبته في تسلق «مون بلان» كانت مستلهمة من رغبته في أن يكون الأول من أجل فرنسا -ولمصلحة العلم- أكثر من أي رغبةٍ في شهرة لنفسه. كان يحرص، بين أمور أخرى، على إجراء ملاحظات بارومترية في القمة...».

بعد أربع محاولات فاشلة، قام الطبيب بتعيين جاك بالما، وهو متسلق قوي كان يكسب رزقه كصياد وجامع للكريستال. انطلق الاثنان ليلة اكتمال القمر في أغسطس، من دون حبال وفؤوس جليدية كما هو الحال في رياضة صعود الجبال الحديثة، وعبروا شقوق الجليد العميقة بما لا يزيد على زوج من العصي الطويلة. وعندما وصلا إلى وادي الثلج الرهيب، ذلك التجويف العميق المحاط بجدران جليدية حيث استسلم المرشدون الأربعة من قبل، توسل بالما أن يعود أدراجه، لكن باكار أقنعه بمواصلة الرحلة، فصعدا سلسلة من تلال ثلجية في رياح عاتية. وصل الاثنان إلى القمة في وقت مبكر من المساء، بعد أربع عشرة ساعة من انطلاقهما، أجرى باكار قياساته، ونزلا لقضاء الليل تحت صخرة. وفي الصباح، أصيب كلاهما بحروق الريح وقضمة الصقيع، كما أصيب باكار بالعمى الثلجي وكان لا بد من قيادته أثناء النزول. يخلص شيبتون إلى القول: «إذا حكمنا على الجهد البدني الخالص وحده، فإن الصعود الأول لجبل مون بلان كان أداءً مذهلًا». لم تنته القصة عند هذا الحد، بدأ بالما ينشر بخبث

قصصًا يزعم فيها أنه من استكشف الطريق وقاد البعثة، وأن باكار لم يكن أكثر من مجرد حمولة يجرها. وتزايدت أقاويله حتى ادعى أن باكار انهار على بعد عدة مئات من الأقدام أسفل القمة وأنه أكمل الصعود وحده. ولم تنكشف الحقيقة إلا في القرن العشرين، واستعاد الطبيب الشجاع مكانته بين أبطال التسلق الجبلي. لقد خان أحد المتسلقين رفيقه والحقيقة من أجل التاريخ والدعاية والمكافأة (وبعد قرن من الزمان كذب المستكشف فريدريك كوك وزوّر الصور ليزعم أنه قام بأول صعود لجبل دينالي في ألاسكا، فبالنسبة إليه كان التاريخ يعدل كل شيء، والتجربة تعدل اللاشيء).

ما إن ثبت أن «مون بلان» قابل للتسلق حتى بدأ آخرون في صعوده. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، وصلت ست وأربعون مجموعة، معظمهم من الإنجليز، إلى القمة، ثم تحول التركيز إلى قمم ومسارات جبال الألب الأخرى. رغم وجود عديد من متسلقي الجبال العظماء، فإنني لا أستطيع تجاوز إعجابي بهنرييت دانجيفيل. وربما كان ما سحرني في كتابها «صعودي إلى مون بلان» أنه مفعم وغني بعاطفتها المتحمسة، فهي تثبت أن القدرة على التحمل البدني الكبير لا تقترن بالضرورة بسلوك صارم وبعيد عن العاطفة. في حين كان أدب صعود الجبال الحقيقي مخصص لمتسلقيها الحقيقيين، الذين يحبون المقاطع المليئة بحركات التسلق باليد، وحركات التنقل على الصخور البارزة، وتقنيات الأربطة الجليدية وتثبيت المسامير، وما إلى ذلك. كانت دانجفيل في الرابعة والأربعين من عمرها عندما صعدت الجبل عام ١٨٣٨، رغم أنها نشأت بين جبال الألب وسارت فيها من قبل. وقد أجابت على السؤال الحتمي حول سبب تسلقها في وقت مبكر

من كتابها: «للروح احتياجات، كما هو للجسد، تخص كل فرد وحده... أنا من أولئك الذين يفضلون عظمة المناظر الطبيعية على أجمل المناظر المتخيلة أو أكثرها سحرًا... ولهذا اخترت مون بلان». في وقت لاحق، أثارت استهجانًا عامًا عندما قالت مازحة إنها تسلقت الجبل لتصبح مشهورة مثل الروائية جورج ساند، لكنها استمرت في تسلق الجبال حتى بلغت الستينيات من عمرها من دون أن تحظى بمزيد من الاهتمام وكتبت: «لم تكن الشهرة الضئيلة كأول امرأة تخوض مثل هذه الرحلة هي ما ملأني نشوة تثيرها مثل هذه المشاريع دائمًا، بل يتعلق الأمر بوعيي بما سيأتي تاليًا من رفاهٍ روحي». كان تسلقها دراما حساسة لصعود شاق تحيط به قوائم الاستعدادت الباهظة قبل صعود الجبل، ثم عشاء النصر مع مرشديها العشرة بعد صعوده. أصبح الإرشاد الجبلي مهنة بالفعل، وقد تطورت التقنيات والأدوات كثيرًا منذ زمن باكار.

تنتهي العصور الذهبية عادة بالسقوط، ولم يكن العصر الذهبي لصعود الجبال استثناءً، وعادة ما تعني الفترة بين عامي ١٨٥٤ و١٨٦٥ عندما تم تسلق عديد من جبال الألب لأول مرة، وكان عصرًا ذهبيًا بريطانيًا إلى حد كبير حيث أصبح صعود الجبال رياضة معترفًا بها، وإن لم تكن شعبية بأي حال (سار عدد أكبر من الناس في جبال الألب من دون سعي إلى القمم). نصف الصعودات الأولى الكبرى في ذلك العصر أنجزها هواة بريطانيون أثرياء برفقة مرشدين جبليين محليين. وظلّ نادي الألب -الذي تأسس عام ١٨٥٧ بوصفه تقاطعًا بين نادٍ للرجال وجمعية علمية- جزءًا مقبولًا من عالم تسلق الجبال لفترة طويلة وقلما لوحظت غرابته كنادٍ بريطاني يركز في جبال قارية. غير أن الألب في

تلك السنوات شكّلت موضع تركيز حصري تقريبًا لهذه الرياضة الجديدة، أو الهواية، أو الشغف، ولم تكن الجبال الأبعد والأصغر حجمًا والأكثر تطلبًا للتقنيات في أماكن مثل منطقتي «بيك ديستريكت» أو «أرض البحيرات» قد حظيت بالاهتمام بعد، أما التسلق في أمريكا الشمالية فحدث في سياقٍ مختلفٍ كليًا. كان الجمهور البريطاني لهذه الرياضة أكبر بكثير من ممارسيها، وكثيرًا ما يصبح ممارسو رياضة صعود الجبال والمتسلقون مشاهير في أوروبا إلى اليوم. وعلى أحد مسارح لندن ولسنوات، استمر عرض مسرحية ألبرت سميث الترفيهية الشهيرة «مون بلان»، والتي استندت إلى صعوده الجبل عام ١٨٥١. كذلك حظيت كتب مثل «تجوال بين جبال الألب» لألفريد ويلز وسلسلة «القمم والممرات والأنهار الجليدية» لنادي الألب باستقبال جيد.

أغرت هذه الأدبيات فنان الحفر إدوارد ويمبر البالغ من العمر عشرين عامًا، نجح في الحصول على مهمة رسم صور لجبال الألب. وقضى وقت فراغه في استكشافها وتبيّن أنه يتمتع بموهبة تسلقها. ورغم أنه قام بعدد من التجارب الأولى في صعود الجبال في أماكن أخرى، فإن جبل «ماترهورن» استحوذ على خياله. فقام -ما بين عامي ١٨٦١ و١٨٦٥- بسبع محاولات فاشلة لتسلق القمة المذهلة، متنافسًا مع متسلقين آخرين ليكون أول من ينجح في ذلك. ويقال إن نجاحه تسبب في نهاية العصر الذهبي، سواء أكان ذلك بسبب الروح المختلفة أو الأكثر طموحًا التي جلبها ويمبر إلى المشروع، أو لأن «ماترهورن» كانت آخر قمة ألبية رئيسية يتحقق الوصول إليها، أو بسبب الكارثة التي تبعت الوصول إلى الذروة، الأمر غامض.

فقد قام ويمبر بصعوده الثامن بالتعاون مع أعظم متسلق بين المتسلقين الهواة في ذلك الوقت، القس تشارلز هدسون، وشابين إنجليزيين آخرين، وثلاثة مرشدين جبليين محليين. أثناء نزول هدسون، سقط الشابان والمرشد المتميز ميشيل كروز إلى حتفهم، إذ كان الثلاثة مربوطين بحبل واحد معًا عندما انزلق أحدهم. أعقب ذلك ما يعادل السيرك الإعلامي في العصر الفيكتوري، وأدين تسلق الجبال في حد ذاته بشدة باعتباره خطيرًا ولا مبرر له، وانتشرت الهمهمات حول ويمبر والمرشدين متشككة في احترافية تصرفاتهم وأخلاقيتها. على أي حال، أصبح كتاب «تسلق في الألب» لـ ويمبر من الكلاسيكيات، وربما هذا ما حوّل «ماترهورن» إلى محطة من محطات الألعاب في ديزني لاند(41).

يدور تاريخ صعود الجبال حول التجارب الأولى، والأعظم، والكوارث، ولكن وراء العشرات من الوجوه الشهيرة هناك عدد لا يحصى من متسلقي الجبال الذين كانت مكافآتهم خاصة وشخصية تمامًا. إن ما يُسجَّل كتاريخ نادرًا ما يمثل النموذجي، وما هو نموذجي نادرًا ما يصبح مرئيًا كتاريخ - رغم أنه غالبًا ما يصبح مرئيًا كأدب. يوجد شيئ من هذه الثنائية في النوعين الرئيسيين من كتب تاريخ صعود الجبال، الملاحم التي يقرؤها عامة الناس عمومًا والمذكرات التي يبدو أن جمهورها أقل بكثير. الملاحم هي روايات بطولية لمحاولة تسلق قمة رئيسية، إنها كتب عن التاريخ، وفي أغلب الأحيان عن المأساة (أدب تسلق الجبال الذي يركز في المعاناة الجسدية، والبقاء من خلال الإرادة الصرفة، والتفاصيل المروعة لقضمة الصقيع، وانخفاض حرارة الجسم، والخرف في

المرتفعات، والسقوط المميت، يذكرني غالبًا بالكتب عن معسكرات الاعتقال والمسير الجبري(42)، إلا أن تسلق الجبال طوعي، وبالنسبة إلى البعض، فهو تجربة مرضية إلى حد بعيد). في المقابل، فإن المذكرات المبهجة التي كتبها حتى بعض أعظم المتسلقين -جو براون، ودون ويليينز، وجوين موفات، وليونيل تيراي- كثيرًا ما تُقرأ على أنها قصص رعوية طريفة تستهين بصعوبة التسلق. والواقع أن الرضا في هذه السرديات يأتي من الرحلات الصغيرة والكبيرة، ومن الصداقات، والحريات، وحب الجبال، وصقل المهارات، والطموح المتواضع، والمعنويات العالية، مع وقوع مع حوادث عرضية متفرقة أحيانًا فقط على الصخور. وتنبع قيمة أفضل الكتب من حيوية الأحداث التي ترويها وليس من الأهمية التاريخية لها.

إذا بحثنا عن تجربة خاصة بدلًا من التاريخ العام، فإن الوصول إلى القمة يصبح سردًا اختياريًا بدلًا من أن يكون الموضوع الرئيسي، ويصير أولئك الذين يتجولون فقط في الأماكن المرتفعة جزءًا من القصة. بمعنى أننا نستطيع أن نترك وراءنا الرياضة والأرقام القياسية، وعندما نفعل، فإن انضباط الوجهة يتوازن مرة أخرى مع انضباط الانفصال. كتب الأميركي سموك بلانشارد، المرشد الجبلي الذي كان مراهقًا حين بدأ يتسلق قمم جبال أوريجون خلال فترة الكساد الكبير، في مذكراته: «المشي صعودًا وهبوطًا في العالم»، وهي المفضلة لديّ عن الجبال، «لنصف قرن، حاولت الترويج لفكرة أن أفضل طريقة للتعامل مع تسلق الجبال هي اعتباره مزيجًا من التنزه والحج. تنزه الحج الجبلي هذا

يفتقر إلى العدوانية ويمتلئ بالرضا. آمل أن أبرهن أن تسلق الجبال باعتدال يمكن أن يُمارس بسعادة طوال العمر من دون نشر أرقام قياسية. هل يمكن أن تدرج قصة حب في سجل؟» كان بلانشارد الدمث المرح متسلقًا للجبال، ومن بين المتع التي يرويها رحلات المشي الطويلة على طول ساحل أوريغون وعبر عرض كاليفورنيا، من جبال وايت شرق سييرا نيفادا إلى البحر، فضلًا عن صعودات عديدة في سييرا نيفادا وشمال غرب المحيط الهادئ. ومثل العديد من متسلقي الجبال الآخرين على ساحل المحيط الهادئ من جون موير إلى غاري سنايدر، فقد اقترب من الجبال بطريقة توفّق بين التجوال والوصول وتذكّر بالتقاليد الجبلية القديمة على الجانب الآخر من المحيط، في الصين واليابان.

لم يكن الصعود بقدر ما كان الوجود على هذه الجبال ما احتفى به هؤلاء الشعراء والحكماء والنساك. الجبال التي تصورها القصائد واللوحات الصينية خلوة تأملية من السياسة والمجتمع. في الصين، كان يُحتفى بالتجوال، فهو كلمة السر الطاوية التي تعني النشوة، كما كتب أحد الباحثين، الوصول هو ما كان يُنظر إليه بغموض. أحد مؤلفات الشاعر لي بو في القرن الثامن بعنوان: «عن زيارة معلّم طاوي في جبال تاي تيان وعدم العثور عليه»، وهو موضوع شائع في الشعر: «يسأل الناس عن الطريق إلى الجبل البارد/الجبل البارد؟ لا يوجد طريق إليه./كيف يمكنك أن تأمل الوصول إليه بأن تقلدني؟/قلبك وقلبي ليسا متشابهين». كتب هان شان، الناسك البوذي ذو الشخصية الخرقاء والفكاهية، وهو معاصر لـ لي بو.

في اليابان، كان للجبال وزن ديني منذ عصور ما

قبل التاريخ، مع أن بيرنباوم يكتب: «قبل القرن السادس الميلادي، لم يتسلق اليابانيون جبالهم المقدسة، التي كانت عالمًا منفصلًا عن العالم العادي، أكثر قداسةً من أن يكون فيها وجود بشري. كان الناس يبنون الأضرحة عند أقدامها ويعبدونها عن بُعد من مسافة يحترمونها. ومع دخول البوذية من الصين في القرن السادس، جاءت ممارسة صعود الجبال المقدسة طوال الطريق إلى ذروتها، للتواصل مباشرة مع الآلهة». بعد ذلك، ورغم تجوال الرهبان والزاهدين، طغت على الجغرافيا اللامحددة للتجوال جغرافية محددة للحج إلى الجبال. وأصبح صعود الجبال جزءًا مركزيًا من الشعائر الدينية، وخاصة عند الشوغيندو، وهي طائفة بوذية من متسلقي الجبال إلى حد ما. «يرتبط كل جانب من جوانب شوغيندو مفاهيميًا أو جسديًا بقوة الجبال المقدسة وجدوى السلوك التبجيلي داخل الجبال المقدسة»، كتب المؤرخ الغرب أميركي الرائد إتش. بايرون إيرهارت عن هذه الطائفة: رغم أن المهرجانات، واحتفالات المعابد، وفترات طويلة من الزهد الجبلي كانت جزءًا من الشوغيندو أيضًا، فإن صعود الجبال كان أساسيًا فيه لكل من الكهنة والناس العاديين، كما ظهر نوع من خدمة الإرشاد الجبلي الكهنوتي. كانت الجبال في حد ذاتها تُعد ماندالات بوذية، وكان الصعود موازيًا للمراحل الست للتقدم الروحي نحو التنوير (تضمنت إحدى مراحل قبول المبتدئين تعليقهم فوق الهاوية بينما يعترفون بخطاياهم). صعد شاعر الزن باشو في القرن السابع عشر بعضًا من أقدس جبال شوغيندو في سياق تجواله، كما يروي في تحفته الأدبية «الطريق الضيق إلى أعماق الشمال» التي تمزج بين الهايكو وأدب الترحال: «انطلقت مع مرشدي في

مسيرة طويلة لمسافة ثمانية أميال إلى قمة الجبل. مشيت عبر الضباب والسحب، أتنفس الهواء الهزيل للمرتفعات العالية وأخطو على الجليد والثلج الزلق، حتى وصلت أخيرًا عبر بوابة من السحب، كما بدا، إلى مسارات الشمس والقمر، إلى القمة، مقطوع النفس ومتجمدًا حد الموت». بعد حظر الشوغيندو في أواخر القرن التاسع عشر، لم تعد ديانة رئيسية في اليابان، ولكن ما زال هناك معابد وممارسون لها في البلاد، ويظل جبل فوجي موقعًا رئيسيًا للحج، ويظل اليابانيون من بين أكثر متسلقي الجبال شغفًا في العالم.

يبدو أن غاري سنايدر، متسلق الجبال البارع والشاعر العظيم، يوحد بين التقاليد الروحية والدنيوية. فقد درس البوذية في آسيا ولكنه تعلم كيفية تسلق الجبال في وقت أبكر بكثير، مع نادي مازاماس في ولاية أوريغون (وهو نادٍ لصعود الجبال تأسس على قمة جبل هود Mount Hood في ولاية أوريغون في تسعينيات القرن التاسع عشر). كتب سنايدر قصيدة طويلة تبدو كتابًا في حد ذاتها، وأطلق عليها اسمًا لمخطوطة صينية قديمة «جبال وأنهار بلا نهاية»، وكان قد بدأها في عام ١٩٥٦ وانتهى منها بعد ما يقرب من أربعين عامًا، ويقول في خاتمتها: «عرفت قمم الثلوج العالية في شمال غرب الهادئ وأنا ابن الثالثة عشرة، وتسلقت عددًا من الذرى قبل أن أبلغ العشرين حتى. لوحات المناظر الطبيعية في شرق آسيا في متحف سياتل التي شاهدتها وأنا في العاشرة قدمت إليّ أيضًا مثل هذا الفضاء». خلال سنواته في اليابان، مارس مشي التأمل وتواصل مع الأحياء من ممارسي الشوغيندو: «حظيت برؤية المشي في الطبيعة وهو يصبح طقسًا وتأملًا. أديت حج الأيام الخمسة

على حافة جبل أومين، وأقمت علاقة مترددة مع إله الجبال البوذي القديم فودو. هذه الممارسة القديمة تتطلب من المرء أن يتصور المشي من القمة إلى قاع الوادي رابطًا داخلي بين عوالم الرحم والماندالا الماسية(43) لبوذية فاجرايانا.

في عام ١٩٥٦، وقبل مغادرته إلى اليابان مباشرة، قاد سنايدر صديقه جاك كيرواك في رحلة ليلية إلى البحر والعودة عبر جبل تامالبايس، وهو قمة يبلغ ارتفاعها ٢٥٧١ قدمًا على الجانب الآخر من البوابة الذهبية من سان فرانسيسكو. وفي تلك الرحلة، أخبر سنايدر رفيقه الذي يعاني من وجع القدمين: «كلما اقتربت من المادة الحقيقية، الصخر والهواء والحطب، يكون العالم أكثر روحانية يا ولد». ويعلق الباحث ديفيد روبرتسون: «هذه الجملة تعلن ليس فقط الفكرة المركزية لشعر ونثر غاري سنايدر، بل إنها النقطة الثابتة التي تدور حولها أفكار وممارسات عديد من الذين يسلكون الممشى. وإن كان هناك من عادة واحدة تنبض في قلب طقس في حيواتهم وأدبهم، فهذه هي بالتأكيد: «ممارسة الاكتراث»(44)، والوصول المتكرر إلى الشيء الذي هو، في الوقت نفسه، روح ومادة في... المشي لمسافات طويلة بالنسبة إلى سنايدر هو وسيلة لتعزيز الثورة السياسية والاجتماعية والروحية... إن الطبيعة الأساسية للأشياء ليست حبكة أرسطوية ولا جدلية هيجلية، ولا تؤدي إلى هدف. لذلك، لا يمكن أن تكون هدف سعيٍ ما، كما هو حال الكأس المقدسة. بل إنه يدور ويدور ويدور ويدور، مثل الرحلة التي قام بها كيرواك وسنايدر، بل وأكثر من ذلك مثل القصيدة التي خطط سنايدر لكتابتها وأخبر كيرواك عنها بينما يمشيان».

تلك القصيدة هي «جبال وأنهار بلا نهاية»، وفي أحد مقاطعها المعنون «طواف جبل تامالبايس»، يصف المواقع ويروي ترانيم رحلته التي استغرقت يومًا كاملًا هناك مع فيليب ويلان (الذي أصبح الآن الزن روشي) وآلان غينسبرغ في عام ١٩٦٥ «لإظهار الاحترام وتصفية العقل». تبنى البوذيون المحليون الطواف على الطريقة الهيمالايا ليصبح مسيرة عدة مرات في السنة لمسافة خمسة عشر ميلًا وعشر محطات، من أسفل جبل تام إلى قمته الشرقية ثم النزول مرة أخرى (وعندما ذهبت إلى هناك، حافظت على روح الدعابة لدى سنايدر بقراءة «سوترا الدب الدخاني»(45) في المحطة قبل الأخيرة، وهي ساحة انتظار سيارات على جانب الطريق مزروعة بأعقاب السجائر). القمة ليست ذروة، بل إحدى المحطات العشر على هذه الدائرة التي تلف الجبل في حلقة تفسيرات مستمدة أساسًا من مصادر دينية آسيوية بشكل رئيسي. كانت الجبال موضوعًا متكررًا في شعر سنايدر. مرةً أعاد سنايدر صياغة وصف موير لصعوده إلى جبل ريتر Mount Ritter ليجعل منه قصيدة، وكتب قصائده الخاصة عن الجبل البارد بعد هان شان، ولم يصف فقط تسلق الجبال والمشي عبرها، بل العيش والعمل فيها كمراقب حرائق وباني مسارات. في كتابه «جبال وأنهار بلا نهاية»، يقول سنايدر: «أترجم المساحة من معناها المادي إلى معناها الروحي كفراغ -شفافية روحية- في فلسفة ماهايانا البوذية». يبدأ الكتاب بما يبدو للوهلة الأولى وكأنه وصف طويل للمناظر الطبيعية، ولكنه في الحقيقة وصف للوحة صينية، ويسافر سنايدر عبر كل أنواع المساحات -اللوحات والمدن والبراري- بنفس الروح.

في قصيدة «المشي على صخرة نيويورك/حيًا في بحر المعلومات»، يجوب سنايدر مانهاتن، مفكرًا في لقاءات الهنود المبكرة مع المستوطنين الأوروبيين، ويرى ناطحات السحاب كآلهة للشركات -«إله إكويتبل»(46) و«إله اتحاد كاربيد القديم»(47)- ويرى الأشجار، والصقور تبني أعشاشها «في الطابق الخامس والثلاثين»، ومشردين يتجولون وسط أودية شوارع تتحول مبانيها إلى «أسوار ودعائم ترتفع فوقها». لكن الجبال الحقيقية تسعده كما لا تفعل مانهاتن، يقول في قصيدة قصيرة بعنوان طويل: «عن تسلق ماترهورن سييرا مرة أخرى بعد واحد وثلاثين عامًا»:

«سلسلة بعد سلسلة من الجبال/عامًا بعد عام بعد عام/ما زلت غارقًا في الحب».

الفصل العاشر
عن نوادي المشي وحروب الأراضي

١. سييرا نيفادا

«يوم مثالي من أيام سييرا نيفادا»، علّق مايكل كوهين بينما يرتشف قهوته ونجح في أن يقول ذلك بنبرة لاذعة، وأنا أرتشف الشاي، وننظر إلى ضوء الصباح الذي يتلألأ على البحيرة. لم تستيقظ فاليري كوهين بعد، ولم أكن مستيقظةً تمامًا في ذلك الصباح الباكر في كوخ عائلة كوهين على بحيرة جون، على الجانب الشرقي من سييرا نيفادا، إلى الجنوب الشرقي قليلًا من مرتفعات «حديقة يوساميتي الوطنية». لا أتذكر ما الذي جعله يقول فجأة: «يحب نادي سييرا أن يقول إن جون موير هو مؤسس النادي. لكن ثقافة كاليفورنيا هي التي أسسته». كنا نحن أنفسنا نتاج هذه الثقافة، نشأت عائلة كوهين في منطقة لوس أنجلوس وقضيا كثيرًا من الوقت في سييرا منذ سن مبكرة. لم أكن مستكشفة مخلصة للبرية مثلهم، ولا رياضية، مع أن جدي وجدتي لأبي التقيا في نوادي المهاجرين لمشي المسافات الطويلة في لوس أنجلوس. كانت سييرا المرتفعة أرض عائلة كوهين بالتأكيد، حيث تزلجا وتسلقا وتنزها وعملا وتزوجا قبل ثلاثين عامًا. تركت لهما اختيار وجهة رحلتنا اليومية.

كان يومًا في منتصف أغسطس رائعًا خاليًا من الغيوم، وكان الشتاء طويلًا جدًا وممطرًا جدًا حتى إن المروج لا تزال خضراء والأزهار البرية في كل مكان، وكذلك كان المتنزهون الاخرون. انطلقت فاليري بسرعة جيدة على طول الطريق الذي بدأ جنوب غرب مروج «توالومني»، وفي أول ميل

تقريبًا عبر أشجار الصنوبر، تذكرت، لتطمئني، عندما كانت حارسة أحراج جوالة كان هذا الطريق هو مجال عملها، وكانت مسؤولة عن التعامل مع المجانين والمساطيل في المرتفعات. في المرج حيث انخفض ممر المشاة إلى خندق ضيق بعمق عدة إنشات من كثرة المشي عليه، أخبرتني عن المرة التي اشتكى فيها مخيَمون من رجل مجنون في أرض مخيمهم ظل مستيقظًا طوال الليل يتجول في دوائر وهو يتمتم لنفسه، والذي تبيَن أنه عالم رياضيات بارز لكنه مختل. في مكان ما في سياق هذه القصص -ربما أثناء حكيهم لقصة جليسة الأطفال وفطر الأمانيتا- علق مايكل بأن نتيجة النظرية القائلة بأن الطبيعة من المفترض أن تجعلك سعيدًا هي أن أولئك الذين يبحثون عن السعادة بشكل يائس يميلون عادة إلى الظهور هناك. إنهم يفعلون، إلى جانب بضعة ملايين آخرين كل عام، في «حديقة يوساميتي الوطنية»، أحد أشهر الأماكن الطبيعية وأكثرها زيارةً في العالم. يوساميتي موقع تاريخي مهم أيضًا، ولا سيما فيما يخص تاريخ المشي، وتسلق الجبال، وحركات حماية البيئة. من حسن حظي أن مايكل كتب تاريخ نادي سييرا وسيرة ذاتية فكرية لجون موير، بحيث أننا أثناء سيرنا على طول درب «مونو باس» كنا نعبر من المنطقة التي يعرفها ودرسها جيدًا.

يبدو دوروثي وويليام وردزوورث وهما يسيران معًا عبر جبال البينينز قبل بداية القرن التاسع عشر مباشرة، شخصيتين وحيدتين، يختاران نشاطًا مستغربًا في ريف بلا سكان، ويبدو أن جون موير وهو يتجول عبر يوساميتي وسييرا نيفادا في العقود التي أعقبت وصوله إلى كاليفورنيا في عام ١٨٦٨ يشكل جزءًا من تقليد التجوال المنعزل

الذي يتعقب الجماليات في حين يلاحق الاخرين من حوله المنفعة. موير، كما كان مايكل يقول، كان مؤسسًا -إن لم يكن المؤسس- لنادي سييرا. سيغير النادي المشهد الاجتماعي بينما يبذل جهوده للحفاظ على المشهد الطبيعي من دون تغيير (باستثناء مسارات المشي، كان بناء المسارات نشاطًا مهمًا للنادي في بداياته). بعد أكثر من مئة عام بقليل من انطلاق دوروثي ووليام وردزوورث في نزهتهما الشتوية المنعزلة، وقبل قرن تقريبًا من انطلاقي أنا وعائلة كوهين مبتدئين من صخب الطريق السريع، أمضى ستة وتسعون عضوًا من أعضاء نادي سييرا -بما في ذلك رئيسهم موير- أسبوعين في المشي وتسلق الجبال والتخييم في مروج «توالومني». كانت تلك الرحلة الأولى لنادي سييرا في يوليو ١٩٠١ علامة فارقة في تاريخ ذائقة المشي في المناظر الطبيعية. لم يكن هذا الإنجاز الوحيد، فقد كتب أمين النادي ويليام كولبي: «إن رحلة من هذا النوع، إذا أجريت بشكل صحيح، ستجلب منفعة كبيرة بإيقاظ الشكل الصحيح من الاهتمام بالغابات والمعالم الطبيعية الأخرى في جبالنا، وسوف تعزز أيضًا روح الزمالة الطيبة بين أعضائنا». أظهر ناديا «ميزاماس» Mazamas و«أبالاش» Appalachian لسنوات عديدة مدى نجاح مثل هذه الرحلات ومدى أهميتها. أصبح المشي جزءًا راسخًا من الثقافة حتى ليمكن أن يصبح، من خلال أندية المشي، أساسًا لمزيد من التغيير.

منذ أن أسس متسلقو الجبال الإنجليز نادي الألب في عام ١٨٥٧، انتشرت منظمات الهواء الطلق في مختلف أنحاء أوروبا وأميركا الشمالية. ويجمع كثير منها، مثل نادي الألب والأبالاشيان، بين متع النادي

الاجتماعي ومنشورات واستكشافات المجتمع العلمي. ولكن نادي سييرا كان مختلفًا. كان الاهتمام المناسب بالغابات وغيرها من المعالم الطبيعية، في أيديولوجية النادي، اهتمامًا سياسيًا. وكان تسلق الجبال والمشي لمسافات طويلة غاية في حد ذاتها بالنسبة إلى معظم الأندية، ولكن نادي سييرا تأسس كمنظمة ذات غرضين. في عام ١٨٩٠، بدأ موير وبعض الأصدقاء مثل الرسام ويليام كيث والمحامي وارن أولني الاجتماع بمناقشة الدفاع عن «حديقة يوساميتي الوطنية» من المطورين الذين سعوا إلى نهب مواردها من الأخشاب والمعادن. ثم اندمج هؤلاء مع أساتذة في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، الذين كانوا يفكرون في تأسيس نادي لتسلق الجبال، وجاء اسم المنظمة الجديدة من النطاق الذي سوف يستكشفونه، تمامًا كما جاء اسم نادي الأبالاش من الجبال المحلية. وفي الرابع من يونيو ١٨٩٢، أسس نادي سييرا.

التظاهر بأن العالم حديقة هو فعلٌ غير سياسي من الأساس، وتجاهلٌ للويلات التي تمنعه من أن يكون كذلك. وغالبًا ما تكون محاولة جعل العالم حديقة غالبًا ذات مسعى سياسي، وهذا ما تبنته أندية المشي النشطة في أرجاء العالم. منذ زمن طويل، غذّ المشي في الطبيعة، بشكل غامض، فعلًا من أفعال الفضيلة، لكن موير والنادي عرّفا هذه الفضيلة في النهاية بأنها الدفاع عن الأرض. جعلها ذلك فضيلة ذاتية الاستمرار، وأمّن أسباب وجودها، وجعل النادي منظمة أيديولوجية. أصبح المشي -أو الاستشكاف بالمشي أو تسلق الجبال، كما كان النادي يميل إلى تسميته- هو الطريقة المثالية للوجود في العالم. في الهواء الطلق، والاعتماد على القدمين، بلا إنتاج ولا تدمير. جاء في بيان

رسالة النادي أن هدفه هو «استكشاف المناطق الجبلية على ساحل المحيط الهادئ والاستمتاع بها وجعل الوصول إليها ممكنًا، ونشر معلومات موثوقة عنها، وحشد دعم الشعب والحكومة وتعاونهما في الحفاظ على الغابات وغيرها من الملامح الطبيعية لجبال سييرا نيفادا».

منذ انطلاقته حمل نادي سييرا كثيرًا من التناقضات التي كانت من صميم عمله. تأسس كجمعية لتسلق الجبال والحفاظ عليها، وذلك لأن موير وبعض المؤسسين الآخرين كانوا يعتقدون أن أولئك الذين يقضون وقتًا في الجبال سوف يحبونها بالضرورة، وأن هذا الحب سيكون حبًا فاعلًا، حبًا على استعداد لخوض معركة سياسية لإنقاذها. رغم أن الفرضية أثبتت أنها جيدة إلى حد ما، فإن هناك كثيرين من متسلقي الجبال الذين لا يحمل حبهم أي بعد سياسي، وكثيرين من دعاة حماية البيئة الذين، لأسباب مختلفة، لا يسافرون إلى أماكن نائية. أما التناقض الآخر فيتعلق بحقيقة أن تدمير البيئة يحدث باسم النمو الاقتصادي عادة. وجد نادي الطبقة المتوسطة نفسه يخوض معارك لا حصر لها في حرب لا يعترف بها أحد ولا يجروء على تسميتها أحد، وهي حرب ضد الاستغلال الاقتصادي للبيئة باسم التقدم والمشاريع الحرة. اتخذ جون موير موقفًا ضد مركزية الإنسان، ضد فكرة أن الأشجار والحيوانات والمعادن والتربة والمياه موجودة لاستخدام البشر، ناهيك عن تدميرها، ولكن من خلال وضع البرية كمكان منفصل عن المجتمع والاقتصاد، تجنب مخاطبة السياسة الأوسع للأرض والمال. لطالما طرح النادي، طول تاريخه، الحجة الأكثر اعتدالًا والتي تخاطب مصلحة الإنسان، والقائلة بأن استغلال الأماكن الجميلة دمرها كمواقع

ترفيهية. في النهاية، أصبح من الواضح أن الترفيه كان يدمر وادي «يوساميتي» تقريبًا بقدر ما أدى استخراج الموارد إلى تدمير وادي «هيتش هيتشي» المجاور الذي أقيم عليه سد كخزان للمياه في سان فرانسيسكو أثناء الحرب العالمية الأولى. كان على النادي إلغاء بند «جعله متاحًا» من بيان رسالة النادي وإطلاق دعوة عن بقاء الأنواع، ثم النظم البيئية، ثم الكوكب، حيث بدأ تصور الطبيعة كضرورة وليس متعة.

عندما انطلقت رحلته الأولى في يوليو/تموز ١٩٠١، كان معظم مشاكل وتحولات نادي سييرا ما يزال بعيدًا جدًا. كان العالم أكبر بكثير والطرق المعبدة أقل مما هي عليه الآن. استغرقت الرحلة ثلاثة أيام على الأقدام من وادي يوساميتي الذي كان الوصول إليه سهلًا نسبيًا إلى مروج توالومني، حملت القافلة الضخمة من البغال والخيول مواقد وبطانيات وأكياس نوم وفراش التخييم وكميات من الطعام (تقع المروج حاليًا على بعد بضع ساعات بالسيارة من الوادي). وما إن وصلوا، حتى استقروا في معسكرهم الكبير، حيث قامت مجموعات أصغر برحلات إلى الجبال والوديان المحيطة. كان زمنًا غريبًا من الهدوء بين حقبة الاستيطان العنيف الذي قام به اليانكي الجشعون في كاليفورنيا وحقبة الإفراط في تنمية الولاية في وقت لاحق. كتبت إيلا إم. سيكستون عن تلك الرحلة الأولى: «كانت هناك ساعات ثقيلة أيضًا، عندما نظر إلينا أهل الجبال بازدراء نحن بـ«أقدام صغيرة» ضعيفة بينما انطلقنا بعصي التسلق الموثوقة، ووجبة غداء خفيفة، وكثير من الشجاعة لغزو القمم الوعرة، والصخور المتزعزعة، وحقول الثلج في جبل دانا. طالت رحلة المتسلقين المتأخرين بما يقدر بعشرة أميال إضافية

من أسفل الجبل، بعد الصعود الشاق واجهوا عشرة أميال مرهقة للعودة إلى المخيم. خرجت فرق الإغاثة لإشعال النيران عند معابر الجداول، وكانت الساعة التاسعة قبل أن يتم نقل آخر المتخلفين على الطوافة المخلخلة». مع أنهار لا جسور عليها، وطرق ليست موجودة في الخرائط، كان المكان أكثر وحشية مما هو عليه اليوم. لم يكن هناك سوى عدد قليل من أعضاء النادي والصيادين والهنود الناجين الذين غامروا في هذه المناطق آنذاك، وخلال تلك السنوات المبكرة، ضم النادي عديدًا من متسلقي الجبال الرواد بين أعضائه وقام برعاية بعض تجارب التسلق الأولى.

لكن التجارب العادية هي ما تضفي نكهة على هذه البعثات الاستكشافية الجماعية إلى الجبال. كان نيلسون هاكيت طالبًا في المدرسة الثانوية عندما جندته اثنتان من معلماته، وقد فعلت التجربة بالضبط ما كان مفترضًا أن تفعله: دمجته في مجتمع من محبي الطبيعة الفاعلين. أصبح هاكيت محررًا لنشرة نادي سييرا فيما بعد وعضوًا في مجلس الإدارة. أثناء رحلته إلى مرتفعات منطقة كينجز كانيون في سييرا عام ١٩٠٨ كتب إلى والديه عن قادة النادي: «السيد كولبي يسير بسرعة البرق والسيد بارسونز سمين جدًا وبطيء جدًا، لذا فلا حاجة إلى البحث عن شخص بوتيرة تناسب سرعتك. بالطبع، عندما يكون أمامك نصف دزينة من الأشخاص، لا يمكنك أن تضيع المسار بسبب الآثار التي يتركونها. تخيلت أنني سأرى ١٢٠ شخصًا يمشون في صف واحد، لكنهم منتشرون إلى درجة أنك نادرًا ما ترى أكثر من نصف دزينة منهم أو نحو ذلك». بعد عدة أيام كتب: «في صباح اليوم التالي، تجمعنا تحت ضوء النجوم البارد عند

الثالثة والنصف فجرًا وانطلقنا في الرابعة والنصف إلى جبل ويتني. التسلق سهل ولكنه ممل والصخور قاسية على القدمين. في التاسعة وصلت إلى القمة. تناولنا الغداء وقمنا بصنع بعض شراب الشوكولاتة، واستمتعنا بالمنظر لبضع ساعات ثم عدنا. استطعنا رؤية الصحراء وبحيرة أوين على مسافة أحد عشر ألف قدم تحتنا». وفي رسالة ثانية كتبت في ذلك اليوم، ١٨ يوليو ١٩٠٨: «تحدثت طويلًا مع السيد موير بعد ذلك -كان هو من تحدث بالأحرى- عن السير لمسافة ألف ميل عبر الجنوب، في العام الذي تلا التمرد(48). وأيضًا عن كيف بدأ اهتمامه بعلم النبات. نار المخيم جاهزة. سلام».

متساهلة بشأن التقاليد ومعتدة بالتقاربات الجديدة، كانت كاليفورنيا منذ زمن طويل ينبوعًا لا حصر له من الفرص الثقافية الجديدة. في مطلع القرن العشرين، كانت ثقافة إقليمية تضم رسامين وشعراء سيئين ومعماريين جيدين تستجيب للتأثيرات والبيئة المميزة للولاية، وكان نادي سييرا المبكر جزءًا من هذه الاستجابة. على النقيض من تجمعات أخرى مثل نادي الألب، الذي استبعد النساء، رحب نادي سييرا بهن ويبدو أنه قدم إلى عديدات منهن فرصًا لتسلق الجبال ربما كانت موجودة في قليل من الأماكن. وفي وقت حيث كان من الصعب على المرأة أن تتجول في لندن من دون مرافق، فإن ذلك يعبر عن حرية الساحل الغربي أو النادي فمن الواضح أن النساء كن يذهبن إلى أي مكان يحلو لهن، ومع من يحلو لهن، في الجبال. تمتع نادي سييرا، الذي انتمى إليه محترفون من كلا الجنسين، بشيء من القوة الفكرية في أيامه الأولى، وكانت الأماسي حول نار

المخيم تعج بالمناقشات والموسيقى والعروض. كان موير العضو الأكثر نفوذًا آنذاك، لكن النادي أصبح فيما بعد موطنًا للرجال الذين اخترعوا التصوير الفوتوغرافي للطبيعة الأمريكية -أنسيل آدامز وإليوت بورتر- ولكثيرين ممن أعادوا تعريف البرية الأمريكية في كل من القانون والمخيلة مثل جورج مارشال وديفيد بروار. لكن ثقافة كاليفورنيا لم تأت من العدم. فقد كان المخيمون في تلك الرحلات المبكرة يصنعون ثقافتهم الخاصة، ولكن أغلب المواد أتت من نقاط في الشرق. وليس من الصعب تتبع نسبها. بعد كل شيء، زار عميد الفلسفة المتعالية Transcendentalism في نيو إنغلاند، رالف والدو إيمرسون، كلًا من وردزوورث وجون موير، ويبدو أنه نقل وحوّل الإرث من الشاعر المشاء الذي سار عبر الثورة الفرنسية إلى متسلق الجبال الإنجيلي الذي توفي في بداية الحرب العالمية الأولى. استورد أعضاء نادي سييرا ذوقهم في الطبيعة، ولكن ربما كانت الطبيعة نفسها -برية الغرب الهائلة- هي التي حولت ذلك الذوق إلى شيء جديد.

كشفت تلك الرحلة الأولى في عام ١٩٠١ مدى تطور ثقافة المشي عندما وصلت إلى جبال كاليفورنيا، بعيدًا عن التنزه الأرستقراطي في الحديقة والتجوال المنفرد في الغابات. فلم تصبح ثقافة سائدة فحسب، بل وسياسة أيضًا، وإذا كان في إمكان التضاريس أن تشكل متسلقيها، فإن متسلقي كاليفورنيا كانوا يردون الجميل بتشكيل تلك التضاريس من خلال التشريع والتمثيل الثقافي. في العقود الأخيرة، تعرض نادي سييرا لانتقادات لاذعة من جانب المنظمات البيئية الأحدث بسبب تنازلاته وخطواته الخاطئة ولأنه كان ابن زمانه وليس من

زماننا فيما يخص قضايا السدود والطاقة النووية. ولكن الوعي البيئي ونادي سييرا تطورا معًا. وفي سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، بدأ النادي في توسيع نطاقه ثم عضويته تاليًا. وتحول من نادٍ إقليمي كان معظم أعضائه هم المشاركين في أنشطة خارجية ليصبح منظمة وطنية تضم نصف مليون عضو من بينهم من لم يشارك أبدًا في رحلة للنادي. وكان أول قوة رئيسية لحماية البيئة في الولايات المتحدة وما يزال أحد أكثر القوى تأثيرًا، حيث حقق انتصارات كبرى على صعيد الغابات والهواء والماء والأنواع والمتنزهات والسموم. وما زال يرعى آلاف رحلات المشي المحلية والنزهات البرية كل عام.

انطلقت جولتنا نحن من الغابات واستمرت عبر بعض المروج الجميلة التي تتدفق عبرها الجداول. كان مايكل وفاليري قد قادا بعضًا من آخر الرحلات الجبلية التي نظمها النادي، في عام ١٩٦٨، عندما كان «شيخ الجبال»، المتسلق الأسطوري والمتذمر العنيد نورمان كلايد، لا يزال يأتي، لكن تأثير المعسكرات والبعثات واسعة النطاق بدأ يزعج النادي، وسرعان ما انتهى التقليد بعد ذلك. عندما اقتربنا من ممر مونو، صادفنا نفس الأزهار البرية التي كانت تتفتح هنا والتي رأيتها في «مارين»، في شهر مارس، على بعد أقل من ثلاثمئة ميل. ثم وصلنا إلى شق أعلنته لافتة الطريق باسم «ممر مونو»، على ارتفاع ١٠٦٠٠ قدم، وجلسنا على الحصى ونبات الترمس. قمة سييرا نيفادا واحدة من الحدود الحقيقية القليلة في العالم، بجانب الحدود الطافية التي تفصل الأرض عن الماء. تعصر هذه الجبال السحب العاصفة الآتية من الغرب، وتتحول هبة السحب إلى ثلج ذائب يتدفق غربًا من جديد ليروي بعضًا من

أعظم الغابات المعتدلة في العالم، غابات السيكويا والصنوبر والتنوب في سييرا، ثم يجري في الوديان والأنهر التي تتدفق منها أسماك السلمون إلى المحيط -والمزارع والمدن- في الأسفل. رغم أن قليلًا من مياه الأمطار يتدفق على الجانب الشرقي من سييرا، فإن كل ما يقع شرق القمم صحراء. وفي ممر مونو، جلسنا أمام مرج أخضر مشمس مليء بالأزهار البرية الرقيقة، وعلى بعد بضعة أميال وراءنا ألف ميل من الأراضي الجافة. وكنا نجلس أيضًا على مرأى من غنائم معركتين عظيمتين على الأرض. فقد وضعت حدود «حديقة يوساميتي الوطنية» في تسعينيات القرن التاسع عشر، ورسمها جون موير. أما بحيرة مونو، البيضوية الزرقاء في الشرق المترب، فقد أنقذت في تسعينيات القرن العشرين عندما نجح فاعلون في حماية البيئة، بعد سنوات عديدة من القتال، في منع لوس أنجلوس من تحويل بعض روافد البحيرة إلى النظام الهيدروليكي الضخم الذي يسقي المدينة.

عدنا إلى الحديث عن نادي سييرا مرة أخرى. ورغم إعجابي بالعمل الدؤوب الذي قام به النادي على مدى عقود، فإنني أخشى أن تؤدي مساواة حب الطبيعة بأنواع معينة من الأنشطة الترفيهية والمتع البصرية إلى استبعاد من لديهم أذواق واهتمامات أخرى. المشي في الطبيعة يمكن أن يكون مظهرًا من مظاهر تراث أو ثقافة معينة، وعندما يجري تقديمه بوصفه تجربة إنسانية، ينظر إلى من لا يشاركون فيه على أنهم أقل حساسية للطبيعة، وليس أنهم أقل تأقلمًا مع تقاليد شمال أوروبا الرومانسية. أخبرني مايكل عن رحلة نظمها نادي سييرا، وقامت فاليري بطهي الطعام فيها، حين أحضر بعض الأعضاء بحسن نية شابين أمريكيين من أصل

إفريقي من «المدينة الداخلية» (49)Inner City.
ارتبك الاثنان وأثارت الحياة البرية المخاوف لديهما، ولم يقتنعا بأهمية بذل الجهد فيها. لم يتدارك التجربة إلا الرجل الذي اصطحبهما للصيد والهمبرغر التي أعدتها فاليري لهما كل يوم. كتب مايكل عن ذلك في كتابه «طريق بلا مسار» The Pathless Way، الذي يتحدث فيه عن ميور: «صدمنا عندما اكتشفنا بالتجربة أن التمتع بتذوق الحياة البرية كان محددًا ثقافيًا، وأنه امتياز لا يتمتع به إلا أبناء وبنات طبقة معينة مرتاحة من الأميركيين. يمكن للمرء أن يغرس شعورًا بالمجتمع اليوتوبي في الرحلات فقط عبر البدء بمجموعة تتفق بالفعل على قيم أساسية معينة» (منذ ذلك الحين، نظم نادي سييرا ومنظمات أخرى رحلات مخصصة لأبناء «المدينة الداخلية» مجهزة بشكل أفضل).
تركنا المسار وانطلقنا عبر الريف، وتجولنا بالقرب من بحيرة صغيرة مخبأة تحت وجه جرف مظلم بدا وكأنه يزيد من عمقها، ثم غامرنا عبر مساحات خضراء مستنقعية مليئة بالبصل البري المتناثر مع اللون القرمزي لزهرة الكاستيليا المنتشرة وصولًا إلى منحدر تجتاحه الرياح فوق وادي «بلودي كانيون».

٢. جبال الألب

من معالم جون موير -إلى جانب مسار جون موير الممتد من جبل «ويتني» إلى وادي «يوساميتي» وعشرات المدارس العامة في كاليفورنيا- مساحة واسعة من أشجار السكويا تسمى غابات موير، على سفوح جبل تامالبايس Tamalpais، على بعد اثني عشر ميلًا شمال جسر البوابة الذهبية. جبل تامالبايس هو القمة الصغيرة التي أسس عندها

غاري سنايدر وأصدقاؤه الممارسة البوذية لطقس الطواف، ولكن هناك طرق أخرى لتفسير الجبال والمشي، وقد خضعت هذه إلى تفسيرات عدة. فوق غابات موير، ثمة مسار متوارٍ يمتد لنصف ميل أو نحو ذلك، ثم يلتف حول منعطف ليصل إلى معلم مختلف تمامًا ومربك على منحدر قوي أعلى الغابة. يبدو هذا المكان وكأنه الشاليه المثالي في جبال الألب، بساحة الرقص الخارجية، والسقف المائل، وطبقات الشرفات المصنوعة من ألواح الصنوبر المنحوتة بتصميمات فولكلورية، وهو أحد البؤر القليلة المتبقية في الولايات المتحدة لمنظمة Die Naturfreunde التي تتخذ من النمسا مقرًا لها. تأسست منظمة أصدقاء الطبيعة في فيينا عام ١٨٩٥ على يد المعلم جورج شميدل والحداد ألويس روهراور والطالب كارل رينر، في وقت كانت فيه موناركية هابسبورغ وغيرها من النخب تسيطر على الوصول إلى معظم الجبال النمساوية. وكان شعارهم «بيرج فراي» - الجبال الحرة. كانوا اشتراكيين مناهضين للموناركيين وقد حققوا نجاحًا هائلًا. حضر الاجتماع الأول للمنظمة ستون شخصًا، وفي غضون بضعة عقود بلغ عدد الأعضاء ٢٠٠٠٠٠ عضو، معظمهم في النمسا وألمانيا وسويسرا. اشترى كل فرع محلي أرضًا وبنى مقرًا للنادي عليها، وكان مفتوحًا لجميع أعضاء Naturfreunde. قاموا برعاية رحلات المشي الطويل الاستكشافية، والتوعية البيئية، والمهرجانات الشعبية، ودافعوا عن حق العمال في الوصول إلى الجبال.

كان أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عصرًا ذهبيًا للمنظمات. وفرت بعض هذه الحركات نوعًا من التماسك الاجتماعي للمهجرين في عالم يتغير بسرعة، وشكلت مقاومة ضد الشهية

اللاإنسانية للتحول الصناعي التي تلتهم وقت العمال وصحتهم وطاقتهم وحقوقهم. اجتمع كثير من هذه الحركات حول مثل يوتوبياوية أو تغيير اجتماعي براغماتي، وأنشأت كلها مجتمعات، من صهاينة، ونسويات، وناشطي عمل، ورياضيين، ومؤسسات خيرية، ومثقفين. وكانت نوادي المشي جزءًا من هذه الحركة الأكبر، تأسست كل من النوادي السياسية الكبرى وكل النوادي السياسية الكبرى للمشي كنوع من المعارضة للتيار السائد في مجتمعها. وبالنسبة إلى «نادي سييرا»، كان التيار السائد هو التدمير المتفشي لنظام بيئي نقي على يد دولة تنمو بسرعة. في معظم أوروبا، كانت المساحات المفتوحة المتبقية في حالة أكثر استقرارًا لكن إمكانية الوصول إليها أقل. بالنسبة إلى جمعية أصدقاء الطبيعة النمساوية وكذلك عدد من المجموعات البريطانية، كان الاحتكار الأرستقراطي للمساحات المفتوحة هو المشكلة. كتب لي مانفريد بيلز، الأمين الحالي لجمعية أصدقاء الطبيعة: «تأسست جمعية أصدقاء الطبيعة لأن وقت الفراغ والسياحة كانا امتيازًا لأفراد الطبقة العليا في ذلك الوقت. أرادت فتح مثل هذه الفرص للعامة أيضًا... جمعية أصدقاء الطبيعة هي من شنت حملة ضد الجهود التي سعت إلى إقصاء الناس من المروج والغابات الخاصة في جبال الألب. أطلق على الحملة اسم Der verbotene Weg «الطريق المحظور». وهكذا نجح أصدقاء الطبيعة أخيرًا في التوصل إلى تنظيم قانوني يضمن للجميع الوصول مشيًا إلى الغابات والمروج الجبلية». والنتيجة «فإن جبال الألب ليست إقليمًا وطنيًا، فقد ظلت ملكية خاصة ولكننا (وكل السياح) نستطيع الوصول إلى جميع مسارات المشي والغابات والمروج الجبلية

عمومًا».

عندما وصل الراديكاليون الألمان والنمساويون إلى الولايات المتحدة، جلبوا معهم منظمتهم. في سان فرانسيسكو، خرج المهاجرون الذين التقوا في قاعة العمال الألمان في شارع فالنسيا في مجموعات كبيرة للتنزه على جبل «تام». بعد زلزال عام ١٩٠٦، أخبرني المؤرخ المحلي إيريك فينك من جمعية Naturfreunde أن العديد من الحرفيين وصلوا إلى المنطقة، وزاد عدد المتنزهين في عطلات نهاية الأسبوع، وقرروا شراء عقار لبدء فرع خاص بهم من جمعية Naturfreunde. اشترى خمسة شبان منحدرًا حادًا بأكمله على جبل تام مقابل مئتي دولار، وبنى الأعضاء لأنفسهم مركزًا ريفيًا. أخبرتني زوجة فينك بأنه وحتى ثلاثينيات القرن العشرين كان إظهار بطاقة نقابية شرطًا للانضمام. وفّر هذا النزل البافاري الذي يقع أعلى غابة أشجار السكويا بديلًا للعمال من نادي سييرا، وهو مكان محلي للأشخاص الذين لم يكن لديهم سوى عطلة نهاية الأسبوع للهروب من المدينة. دفعت منظمة Naturfreunde ثمن نجاحها. فقد استفزت اشتراكيتها النظام النازي فقُمعت في النمسا وألمانيا، في حين جعلتها ألمانيتها موضع شك في الولايات المتحدة خلال تلك الحقبة. وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أصبحت الاشتراكية تهمة في الولايات المتحدة أيضًا. لقد أحدثت المكارثية في الولايات المتحدة صدمة شديدة للمنظمة إلى درجة أن أحد القادة المحليين ظل مترددًا في التحدث إليّ عن تاريخ النادي. قال بلهجة ألمانية ثقيلة: «إنهم مسيسيون بقوة في أوروبا اليوم، وهو ما لا يمكننا أن نكون عليه. فنحن ننأى عن أي سياسة لأنها كادت تأخذ ما بنيناه طوال السنوات».

خلال السنوات التي كانت فيها الاشتراكية أو الشيوعية جريمة خطيرة، انهارت جميع فروع Naturfreunde في شرق الولايات المتحدة، وسقطت النوادي التي اشتراها وبناها وامتلكها الأعضاء في أيدٍ خاصة. لم تنجُ إلا ثلاثة مراكز في كاليفورنيا لأنها كانت غير مسيسة تمامًا، كما افتتح مركز رابع أخيرًا في شمال ولاية أوريغون. ومن بين أعضاء Naturfreunde البالغ عددهم ٦٠٠ ألف عضو في واحد وعشرين دولة، بقي أقل من ألف منهم في الولايات المتحدة، وقد شذُوا عن النوادي الأخرى بسبب تمسكهم بالموقف اللاسياسي.

لم تنجُ حركة الشباب الألمانية، فاندرفوغل Wandervogel، من الحرب العالمية الثانية، لكن تاريخها يثبت أنه لم يحدث أن احتكرت أي أيدولوجيا المشي. وكرد فعل ضد سلطوية العائلة والحكومة الألمانية، انطلقت الحركة بشكل متواضع في إحدى ضواحي برلين في عام ١٨٩٦، حيث بدأت مجموعة طلبة، يدرسون الاختزال، الخروج في رحلات استكشافية معًا إلى الغابات القريبة ثم إلى مناطق أبعد. بحلول عام ١٨٩٩، كانوا ينطلقون لأسابيع للتجوال في الجبال. وكان العضو صاحب الكاريزما في تلك الدائرة، كارل فيشر، هو من حول المنظمة، فأضفى طابعًا رسميًا على ممارساتها ونشر أفكارها. عندما تأسست Wandervogel Ausschuss für Schulerfahrten (لجنة فاندرفوغل لرحلات تلاميذ المدارس) في الرابع من نوفمبر عام ١٩٠١، كانت جمعية تجول رومانسية. تعني كلمة Wandervogel: طائرًا سحريًا، وهي كلمة مأخوذة من قصيدة، وتشير إلى الهوية الحرة عديمة الوزن التي يسعى إليها الأعضاء. كان الباحثون المتجولون في العصور الوسطى هم

النماذج الأولى لآلاف الشبان الذين انضموا إلى الجمعية، وكان خروجهم في رحلات مشي طويلة معًا هو نشاطهم الرئيسي. كانت هناك أنشطة ثقافية أخرى وكان الإرث الباقي لحركة فاندرفوغل، والذي يعده مؤرخون إسهامها الثقافي الوحيد من الدرجة الأولى، هو إحياء الأغاني الشعبية. كان أغلب أعضائها في أوج المثالية التي سادت في فترة مراهقتهم، وملأت المناقشات الفلسفية الساخنة فضلًا عن الموسيقى أماسيهم. وبدا وكأن الحركة تنقسم دائمًا بسبب هذه النقطة الثانوية أو تلك. ولكن بيان فاندرفوغل خلص إلى القول: «على النقطة الأساسية -التجوال- متفقون دائمًا».

هاهنا مناهضة غريبة للسلطوية، حيث كانت «فاندرفوغل» حصرية، وهرمية، ومنظمة في مجموعات صغيرة تقدم طاعة غير مشروطة إلى زعيم، مع زي شبه رسمي (سراويل قصيرة وقمصان داكنة ووشاح) وهناك طقوس على المبتدئين القيام بها تتفاوت درجات صعوبتها وخطورتها. ورغم أن «فاندرفوغل» كانت منفصلة عن السياسة ممارسةً، اعتنق أغلب أعضائها القومية العرقية، وبالتالي فإن الثقافة الشعبية التي كانت تعني ثقافة الطبقة العاملة بالنسبة إلى جمعية «أصدقاء الطبيعة» عنت الهوية العرقية بالنسبة إلى «فاندرفوغل». كان أعضاؤها بشكل شبه حصري من الطبقة المتوسطة، وقُبلت الفتيات في بعض الجماعات بعد عام ١٩١١ أو شُجعن على تشكيل مجموعات خاصة بهن. كانت «المعضلة اليهودية» تعني أن اليهود -والكاثوليك غالبًا- ليسوا في موضع ترحيب عمومًا (رغم أن أحد اليهود البارزين، فالتر بنيامين، كان منخرطًا بالتأكيد في جماعة راديكالية متفرعة عن حركة الشباب في مراهقته). بلغ عدد أعضاء جماعة «فاندرفوغل»

في أوجها، نحو ستين ألفا. ويبدو أنها بدأت كتمرد حقيقي ضد السلطوية الألمانية، وإلى هذا الحد كانت ناديًا سياسيًا، لكنها لم تملك لا القوة ولا الرؤية لمعارضة حقيقية ضد انزلاق البلاد نحو الفاشية.

كانت هناك منظمات أخرى يمكن للشباب الانضمام إليها، ومجموعات الكنيسة وحركة الشباب البروتستانتية، وبعد عام ١٩٠٩، ظهرت نسخة ألمانية من الكشافة، بينما كان للشباب من الطبقة العاملة نوادٍ شبابية شيوعية واشتراكية. الكشافة، مثل فاندرفوغل ومثل العديد من الحالات في تاريخ المشي، تثير مسألة متى يصبح المشي مسيرة. كانت معظم نوادي المشي تجمع الأعضاء للاحتفاء بتجاربهم الفردية والخاصة وحمايتها، في حين تبنى بعضها السلطوية. المسيرة تجعل إيقاعات الأجساد الفردية خاضعة للجماعة وللسلطة، وأي مجموعة تسير فهي تسير نحو العسكرية إذا لم تكن موجودة هناك بالفعل. كُيفت حركة الكشافة على يد المحارب المخضرم في حرب الـ«بوير» السير بادن باول من أفكاره الخاصة وأفكار انتحلها من الأنغلو-كندي إرنست تومسون سيتون. سعى سيتون إلى تعريف الأولاد بالحياة في العراء مع التركيز القوي في مهارات وقيم الأمريكيين الأصليين، وينسب إليه أحيانًا إحياء الوثنية بين البالغين. بينما جلب بادن باول إلى فكرة العيش في الغابات إحساسًا عسكريًا ومحافظًا أكثر. وحتى الآن، يبدو أن لكل مجموعة كشفية أسلوبها الخاص، فبعضها يعلم مهارات الحياة في العراء، وبعضها الاخر يدرب الأولاد كجنود صغار. بعد الحرب العالمية الأولى، انهارت مجموعة الكشافة الألمانية، لكن الكشافة الألمان -أو ما كان يُطلق عليهم اسم Pathfinders- تمردوا على قادتهم البالغين وحلوا إلى حد كبير

محل الحركة الأصلية.

تزعم فيرنر هايزنبيرغ، الفيزيائي الأكثر شهرة بمبدأ اللايقين، إحدى التفرعات الجديدة لـ Pathfinders، ولا بد أن المغامرة كانت راحة له بعد الحرب، حيث واجه هو وشقيقه مخاطر حقيقية أثناء تهريب الطعام إلى ميونيخ المحاصرة. ومثل كثير من الألمان الاخرين، كان لديه تقليد المشي لمسافات طويلة وحب الجبال: فقد ذهب جده لأبيه في «عام التجوال» الذي كان بمثابة طقس لقبول الحرفيين الشباب، وكان جده لأمه جوالًا شغوفًا يذهب راجلًا في مشاوير طويلة. لكن حركة الـ Pathfinders بمثاليتها ورفاقيتها، كانت لها جاذبية أخرى. أما حركة «الباحثين»، بمثاليتها وروحها المرحة، فكانت لها جاذبية أخرى. غرست الحركة في نفسه حب بلاده والارتباط الوثيق بأقرانه، الأمر الذي جعله شديد التردد والاضطراب أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كان مسؤولًا عن البرنامج النازي لتطوير القنبلة الذرية. يكتب أحد مؤرخي تلك الحقبة: «بعد عام ١٩١٩، قامت الدكتاتوريات المسلحة في روسيا وإيطاليا وألمانيا ببناء منظمات شبابية خاصة بها. استولى شباب هتلر على عديد من رموز وطقوس حركة الشباب الأصلية، لكنها لم تكن أكثر من مجرد صورة كاريكاتيرية».

٣. پيك ديستريكت وما وراءها

في كل مكان باستثناء بريطانيا، يبدو أن التجول المنظم يتحول إلى رياضة مشي لمسافات طويلة، ثم التخييم، وفي النهاية إلى شيء غامض مثل الترفيه في الهواء الطلق أو مغامرة في البرية. الأندية هي منظمات «مشي و...»: مشي وتسلق

ونشاط بيئي، مشي واشتراكية وأغانٍ شعبية، مشي وأحلام المراهقين والقومية. فقط في بريطانيا ظل المشي هو المحور طوال الوقت، حتى وإن كانت كلمة «التجوال» Rambling تُستخدم غالبًا لوصفه. للمشي هناك صدى وثقل ثقافي لا يوجد في أي مكان آخر، ففي أيام الآحاد الصيفية، يتوجه أكثر من ثمانية عشر مليون بريطاني إلى الريف، ويقول عشرة ملايين إنهم يمشون للترفيه. وفي معظم المكتبات البريطانية تشغل أدلة المشي مساحة كبيرة على الرفوف، وقد ترسخ هذا النوع من الأدب إلى درجة أن هناك كتبًا كلاسيكية ونصوصًا تخريبية، من بين الكلاسيكية أدلة ألفريد واينرايت المكتوبة بخط اليد والمصورة للأجزاء البرية من البلاد، ومن بين التخريبية مسار تيري هوارد، ناشط حقوق الأراضي في شيفيلد، الذي يمشي على مسارات كلها تعدٍّ على أملاك الغير. مجلة Walking الأمريكية ليست أكثر من مجلة صحية ولياقة بدنية موجهة إلى النساء. يبدو المشي فيها مجرد برنامج تمارين آخر، بينما يوجد نصف دزينة من مجلات الهواء الطلق في بريطانيا والتي تتناول المشي باعتباره يتعلق بجمال المناظر الطبيعية المحيطة وليس الجسد. قال لي الكاتب رولي سميث، كاتب الرحلات البرية: «إن المشي أمر روحي تقريبًا، أو دين تقريبًا. يمشي كثير من الناس لجوانب اجتماعية كالتغلب على تحفظنا البريطاني اللعين -لا توجد حواجز في الأراضي، ويمكنك أن تقول مرحبًا للجميع-، لا ينتمي المشي إلى أي طبقة، وهو أحد الرياضات القليلة التي لا تخص طبقة».

الوصول إلى الأرض هو ما كان حربًا طبقية. فعلى مدى ألف عام، صادر ملاك الأراضي مزيدًا ومزيدًا من الجزيرة لأنفسهم، وعلى مدى المئة وخمسين

عامًا الماضية، كان من لا يملكون أرضًا يقاومون. وعندما غزا النورمان إنجلترا في عام ١٠٦٦، خصصوا حدائق ضخمة للغزلان بهدف الصيد، ومنذ ذلك الحين، كانت العقوبات على الصيد الجائر والدخول إلى أراضي الصيد شديدة - وكان الخصاء والترحيل والإعدام بعض العقوبات التي فرضت على مر القرون (بعد عام ١٧٢٣، على سبيل المثال، كان أخذ الأرانب أو الأسماك، ناهيك عن الغزلان، جريمة يعاقب عليها بالإعدام). كانت المشاعات العامة في الأصل أراضي ملكيتها خاصة عادة، وكان للسكان المحليين حقوق جمع الحطب ورعي الحيوانات فيها، في حين كانت حقوق المرور التقليدية -المسارات التي كان للجمهور الحق في السير عليها عبر الحقول والغابات بغض النظر عن ملكية من يجتازها- ضرورية للعمل والسفر. وفي إسكتلندا، ألغيت المشاعات بموجب قانون صادر عن البرلمان في عام ١٦٩٥، وفي إنجلترا تسارعت وتيرة أفعال ضم المشاعات والاستيلاء غير المصرح به عليها، والذي كان سائدًا بقوة حتى ذلك الحين في القرن الثامن عشر.

كانت الحدائق المفتوحة الرائعة في ذلك العصر عبارة عن مساحات شاسعة محاطة بأسوار ومليئة بالأغنام أو يزرعها مالك أرض كبير واحد، وكثيرًا ما أنشئت من خلال إبعاد عمال الأراضي عن الأراضي الزراعية والمشاعية. وفي القرن التاسع عشر، ألهم جنون الطبقة العليا بالصيد عديدًا من ملاك الأراضي لمصادرة الأراضي العامة التي لطالما أعالت كثيرًا من الناس في السابق. كانت عمليات إخلاء المرتفعات في الفترة من ١٧٨٠ إلى ١٨٥٥ في إسكتلندا وحشية بشكل خاص وأدت إلى تهجير أعداد كبيرة من الناس، بعضهم هاجر إلى أمريكا

الشمالية، بينما دفع البعض إلى الساحل، حيث كانوا يكافحون من أجل البقاء على قيد الحياة في المزارع الصغيرة. أصبح صيد طيور الطيهوج والدراج والغزلان لبضعة أسابيع سنويًا عذرًا لحرمان الناس من الوصول إلى آلاف الأميال من أكثر المناطق الريفية البرية في بريطانيا على مدار العام، وبينما يعد الصيد في الولايات المتحدة أحيانًا مصدرًا للغذاء للفقراء والريفيين والسكان الأصليين، فإن الصيد في بريطانيا يعد رياضة نخبوية. كانت جيوش من حراس الطرائد تجوب وتحرس هذه الأراضي، وقد استخدم البعض منهم تدابير متطرفة لإبقاء الناس خارجًا: البنادق الزنبركية والفخاخ البشرية والكلاب واستعراض السلاح والطلقات النارية في الهواء، والاعتداء بالعصي أو القبضات، والتهديدات، وعادةً، دعم سلطات إنفاذ القانون المحلية.

عندما كانت بريطانيا لا تزال اقتصادًا ريفيًا يعتمد على العمال الزراعيين، كان الصراع على الوصول إلى الخدمات يدور حول الجوانب الاقتصادية. ولكن بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان نصف سكان البلاد يعيشون في المدن والبلدات، والآن يعيش أكثر من ٩٠٪ منهم في المدن والبلدات. كانت المدن التي انتقلوا إليها، وخاصة المدن الصناعية الجديدة، قاتمة في كثير من الأحيان. مزدحمة بالأبنية، لا يتوافر فيها ما يكفي من المياه النقية، أو شبكات الصرف الصحي، أو نظام لجمع القمامة، وتعلوها دائمًا سحابة من السخام الأسود في الهواء ينبعث من المطاحن التي تعمل على الفحم والمنازل التي تتدفأ به، فمدن إنجلترا في القرن التاسع عشر أماكن قذرة، وعاش الفقراء في أقذر الأجزاء منها.

هذا سؤال «الدجاجة والبيضة» بالنسبة إلى ما إذا

كان استذواق الحياة الريفية أم سوء حال المدن جاء أولًا، لكن البريطانيين لطالما أقسموا بولائهم لممرات المشاة وليس للشوارع الكبيرة. كان الناس يرغبون في الخروج من المدن كلما سنحت لهم الفرصة، وكانت عديد من هذه المدن لا تزال صغيرة حتى أن المرء يمكنه الخروج منها راجلًا إلى الريف مباشرة. خلال هذه الفترة، لم يعد الصراع على الأراضي المشتركة وحقوق المرور يدور حول البقاء الاقتصادي، بل أصبح يدور حول البقاء النفسي - حول أخذ استراحة من المدينة.

مع تزايد عدد الأشخاص الذين اختاروا قضاء أوقات فراغهم في المشي، شحب مزيد ومزيد من حقوق المرور التقليدية منهم. في عام ١٨١٥، أقر البرلمان قانونًا يسمح للقضاة بإغلاق أي ممشى لا يرون لزومًا له (وخلال حروب الأراضي هذه، كان جزء كبير من إدارة بريطانيا الريفية في أيدي ملاك الأراضي وشركائهم). في عام ١٨٢٤، شُكّلت جمعية حماية مسارات المشاة القديمة بالقرب من يورك، وفي عام ١٨٢٦ أسست جمعية بالاسم نفسه في مانشستر. أما جمعية حقوق الطريق الإسكتلندية، التي أقيمت عام ١٨٤٥، فهي أقدم جمعية باقية إلى اليوم، ولا تزال «جمعية الحفاظ على المشاعيات والمساحات المفتوحة ومسارات المشاة»، التي تأسست عام ١٨٦٥، تعمل باسم «جمعية الفضاء المفتوح». وهذه خاضت حربًا من أجل «غابة إبنغ» Epping بالقرب من لندن وانتصرت فيها. في عام ١٧٩٣ كانت مساحة الغابة الشاسعة ٩٠٠٠ فدان يستخدمها عامة الناس، وبحلول عام ١٨٤٨ تقلصت إلى ٧٠٠٠ فدان، وبعد عقد من الزمان سيجت كلها. وقد صدرت أحكام قاسية على ثلاثة عمال كانوا يقطعون الأخشاب هناك. واحتجاجًا على الأحكام

والأسوار (التي أمرت المحكمة بإزالتها لاحقًا)، خرج من خمسة إلى ستة آلاف شخص لممارسة حقهم في أن يكونوا هناك. في عام ١٨٨٤، تأسس نادي Forest Ramblers من قبل رجال الأعمال في لندن «للسير عبر غابة إيبنغ والإبلاغ عن العراقيل التي لقيناها». في تلك السنين تشكّل ما لا يحصى من نوادي المشي الأخرى.

يدور الصراع حول طريقتين لتخيل التضاريس الطبيعية. لنتخيل الريف جسمًا ضخمًا تصوّره الملكية مقسمًا إلى وحدات اقتصادية مثل الأعضاء الداخلية، أو مثل البقرة المقسمة إلى قطع من اللحم، ومن المؤكد أن مثل هذا التقسيم هو أحد السبل لتنظيم الأراضي المنتجة للغذاء، ولكنه لا يفسر لماذا يجب أن تكون الأراضي المستنقعية والجبال والغابات مسيجة ومقسمة على نحو مماثل. يركز المشي، ليس في خطوط حدود الملكية التي تقسم الأرض إلى أجزاء، بل في المسارات التي تعمل كنوع من نظام الدورة الدموية الذي يربط أعضاء الجسد بعضه ببعض. بهذا فإن المشي نقيض التملك. فهو يفترض تجربة متنقلة بأيدٍ خاوية وتشاركية في الأرض. كثيرًا ما يشكل الرحّل مصدر إزعاج للقومية لأن تجوالهم يطمس الحدود التي تفصل الأمم ويخترقها، والمشي يفعل الشيء نفسه على نطاق أصغر من الملكية الخاصة. من متع المشي الجمة في إنجلترا ذلك الشعور بالتعايش الذي تخلقه مسارات «الحق في الطريق»، من عبور السور إلى حقول الأغنام فتجنب حواف المحاصيل في أراضٍ تجمع المنفعي والجمالي في آن. في غياب مثل هذه الحقوق، تقسم الأراضي الأميركية بصرامة إلى مناطق إنتاج ومناطق ترفيه، وهو ما قد يكون أحد الأسباب التي تجعل التقدير أو

الوعي بالمساحات الزراعية الشاسعة في البلاد ضئيلًا. لكن حقوق المرور البريطانية ليست مثيرة للإعجاب إذ ما قورنت بتلك الموجودة في بلدان أوروبية أخرى -الدنمارك، هولندا، السويد، وإسبانيا- حيث يحتفظ المواطنون بحقوق أوسع كثيرًا في الوصول إلى المساحات المفتوحة. ولكن حقوق المرور تحافظ على رؤية بديلة للأرض حيث لا تعني الملكية بالضرورة حقوقًا مطلقة، وتشكل المسارات مبدأ مهمًا بقدر أهمية الحدود. إن ما يقرب من ٩٠٪ من الأراضي البريطانية مملوكة للقطاع الخاص، وبالتالي فإن الحصول على إمكانية الوصول إلى الريف يعني الحصول على إمكانية الوصول إلى الأراضي الخاصة، بينما تظل كثير من الأراضي في الولايات المتحدة عامة - وإن لم تكن دائمًا في موقع مناسب للتسكع أيام الأحد. وهكذا ناضل نادي سييرا من أجل الحدود، في حين حارب الناشطون البريطانيون ضدها، ولكن الحدود التي وضعت في أميركا كانت تهدف إلى إبقاء الأرض عامة وبرية وغير قابلة للتجزئة بهدف منع المشاريع الخاصة من دخولها، بينما في بريطانيا كانت الحدود لمنع عامة الناس من دخولها.

صادفت، عندما ذهبت لرؤية حديقة «ستو» الرائعة، مرشدة أخبرتني بأن الحدائق بُنيت بتدمير القرية المحيطة بالكنيسة وإعادة توطين «الناس البسطاء الوسخين» مسافة ميل أو نحو ذلك. ولم يُسمح لهؤلاء بالعودة إلا إذا ارتدوا معاطف تجعل منظرهم يبدو رسميًا. بعد ثلاث ساعات التقيت هذه المرشدة المخرَبة الجذابة قرب تلك الكنيسة، المخفية الآن خلف الأشجار والشجيرات، وعدنا للحديث مرة أخرى. عن حق الدخول، قالت إنها عاشت في طفولتها قرب أراضٍ لمزارع وضع لافتات

كتب عليها «كل متعدٍ سيحاكم». اعتقدت وقتها أن هذا يعني أنه سيُعدم وكانت تتساءل كيف يجروء رجل يقطع رؤوس الناس على المجيء إلى الكنيسة. في وقت لاحق من حياتها، عاشت في روسيا مع زوجها الدبلوماسي، وقالت إن التعدي على ممتلكات الغير لم يكن مفهومًا هناك وفي عديد من الأماكن الأخرى. يشعر معظم البريطانيين الذين تحدثت معهم بأن المناطق الطبيعية تراثهم وأن لديهم الحق في الوجود فيها. الملكية الخاصة مطلقة أكثر في الولايات المتحدة، يبرر ذلك وجود مساحات شاسعة من الأراضي العامة، ووجود أيديولوجيا تؤيد حقوق الفرد أكثر من مصلحة المجتمع.

تحمست كثيرًا حين ذهبت إلى إنجلترا واكتشفت ثقافة يشكل فيها التعدي على ممتلكات الغير حركة جماهيرية، ويظل مدى حقوق الملكية موضع مساءلة فيها. إذا كان المشي يخيط الأرض التي تمزقها المِلكية، فإن التعدي يفعل ذلك كبيان سياسي. أعلن عضو البرلمان الليبرالي جيمس برايس، الذي قدم مشروع قانون لم يلقَ النجاح للسماح بالوصول إلى الأراضي الجبلية والمستنقعات المملوكة للقطاع الخاص في عام ١٨٨٤، بعد بضع سنوات: «إن الأرض ليست ملكًا لنا نستخدمها من دون قيد أو شرط. فالأرض ضرورية حتى نتمكن من العيش عليها ومن خلالها، وحتى يتمتع الناس بها بطرق متنوعة، ولذلك فإنني أنكر وجود مثل هذا الشيء الذي يسمى سلطة الاستبعاد المطلقة أو أنه معترف به في أي قانون أو عدالة طبيعية». وهذا الموقف يتبناه المعتدلون والراديكاليون البريطانيون على حد سواء. ويعلق مؤلف دليل ممتع إلى «ديربيشاير» على منطقة «بيك ديستريكت» قائلًا: «هذا التنقل الحذر

للمصطافين هو المنغص الوحيد، حيث يتوجب على الجميع في مساحة واسعة جدًا الالتزام بمسار لا يزيد عرضه على بضع خطوات. خطر لي: يا له من حافز يحرض أي شخص يؤمن بالملكية العامة لجميع الأراضي». من المؤسف أن تكون حقوق المرور «بضع خطوات» محدودة، ورغم أن السير عليها مسموح قانونًا، إلا أن الجلوس والتنزه والتسكع قد يكون مخالفًا للقانون. وقد شُقت معظم مسارات المشاة لأغراض عملية ولا تمر عبر بعض أكثر المناطق الريفية نقاءً بريًا وجمالًا في بريطانيا.

هكذا جاءت التعديات والتمشيات العظيمة التي غيرت وجه الريف الإنجليزي. حدثت في منطقة بيك ديستريكت، حيث كان عمال الشمال الصناعي يتجمعون مشاةً، أو على الدراجات الهوائية، أو بالقطارات خلال أوقات فراغهم. وفي جنوب إنجلترا، تمكن ليزلي ستيفن من «التعدي بحذر وحكمة»، وكان في إمكان السادة «متشردي الأحد»(50) أن يخيفوا حراس الصيد الذين يقابلونهم، وكانوا يفعلون ذلك، بينما كانت جبال الألب دائمًا هي الخيار الأمثل للرحلات الاستكشافية الجادة. يكتب هوارد هيل: «بحلول الربع الأخير من القرن التاسع عشر، بدأت حركة التجوال الشعبية تنتشر في جميع أنحاء بريطانيا الحضرية، وخاصة المدن الصناعية، وبدأت تدريجيًا في تولي قيادة النضال من أجل حق الوصول إلى الأمكنة الطبيعية... كان السبب الرئيسي وراء ذلك الشعبية المتزايدة للجبال السويسرية التي، بالنظر إلى أن المشي والتسلق فيها بالمجان، فقد اجتذبت السادة المتجولين والمتسلقين بعيدًا عن بريطانيا». كانت جمعية الشبان المسيحية من أوائل الرعاة لأندية

المشي، وفي ثمانينيات القرن التاسع عشر كان أعضاء نادي المشي التابع لها في مانشستر يسيرون سبعين ميلًا عصر أيام السبت بعد أن ينتهي العمل، ومساء الأحد. في عام ١٨٨٨ تأسس نادي البوليتكنيك في لندن كنادٍ للمشي، وفي عام ١٨٩٢ نُظِم تحالف غرب إسكتلندا للمتجولين، وفي عام ١٨٩٤ شكلت المعلمات معهد ميدلاندز للمتجولات، وفي عام ١٩٠٠ أسس جي بي إتش وارد منظمة شيفيلد كلاريون الاشتراكية للمتجولين، وفي عام ١٩٠٥ شُكِّل اتحاد لندن لأندية المتجولين، وفي عام ١٩٠٧ تأسس نادي مانشستر للمتجولين، وفي عام ١٩٢٨ تأسس اتحاد الرياضة العمالية البريطانية على مستوى البلاد، وفي عام ١٩٣٠ بدأت جمعية بيوت الشباب في توفير السكن، مثل نزل جمعية أصدقاء الطبيعة للمسافرين الشباب والفقراء (بدأت جمعية بيوت الشباب في ألمانيا في عام ١٩٠٧، ومن بين القواعد في بريطانيا في السنوات الأولى قاعدة مفادها أنه لا يجوز لأحد الوصول بالسيارة). خرج كثير من الناس للمشي في العقود الثلاثة أو الأربعة الأولى من القرن العشرين حتى أن البعض يتحدث عنه باعتباره حركة. وكما قال المؤرخ رافائيل صامويلز: «كان المشي لمسافات طويلة مكوِّنًا رئيسيًا، وإن لم يكن معتمدًا، من مكونات أسلوب الحياة الاشتراكي». لقد طور العمال -أو ورثوا من آبائهم وأجدادهم الفلاحين- شغفًا بالأرض، وظهرت ثقافة كاملة من علماء النبات والطبيعة من الطبقة العاملة، كما ظهرت جحافل من المشاة. ارتبط المشي في مجموعات بالسلامة إلى حدٍ ما، كان هناك حراس الصيد، وذكر أحد المتجولين في شيفيلد «كراهية أهل الريف العميقة للمتنزهين، حتى أنهم كانوا أحيانًا «يضربون» من

يجدونه يمشي بمفرده». قبل الثورة الصناعية، كانت «بيك ديستريكت» وجهة سياحية رئيسية: ذهب إليها وليام ودوروثي وردزوورث، وكذلك فعل كارل موريتز، وأرسلت جين أوستن بطلة روايتها «كبرياء وتحامل» إلى أماكن خلابة هناك. وبعد ذلك، أصبحت «بيك ديستريكت» فارقة بوصفها أربعين ميلًا من مساحة مفتوحة ومحصورة بين مدينتين صناعيتين كبيرتين مانشستر وشيفيلد، التي يحبها أهل المدينتين كثيرًا. ضمت «بيك ديستريكت» كل أنواع التضاريس، من الأراضي الباذخة في تشاتسوورث، التي خططها مصمم الحدائق كيبابليتي براون، إلى دوفديل اللطيفة، إلى الأراضي الوعرة مع مناطق تسلق الصخور الرائعة (حيث نفذ السباكان جو براون ودون ويلينز من مانشستر «ثورة الطبقة العاملة في التسلق» في خمسينيات القرن العشرين، حيث أخذا فن التسلق إلى مستويات جديدة من الصعوبة). بين حدائق تشاتسوورث وتسلقات الصخور الرملية، توجد كيندر سكاوت، مركز المعركة الأكثر شهرة للحق في الوصول إلى الأماكن الطبيعية. كانت كيندر سكاوت أعلى نقطة وأكثرها نقاء في «بيك ديستريكت» التي ظلَت «أرض المَلِك» -أي الأرض العامة- حتى عام ١٨٣٦، عندما قسم قانون الضم الأرض بين مالكي الأراضي المجاورة، ما أعطى حصة الأسد لدوق ديفونشاير، مالك تشاتسوورث. صارت مساحة الخمسة عشر ميلًا مربعًا من جبل كيندر سكاوت محظورة على عامة الناس، حيث لم يكن هناك مسار للمشاة يمر بالقرب من قمته. أطلق عليه المشاة اسم «الجبل الممنوع». كان الطريق الروماني القديم الذي يمر أسفله هو الطريق الرئيسي لعبور المنطقة، وفي عام ١٨٢١ أغلق مالك الأرض اللورد هوارد،

مخالفًا القانون، هذا الطريق الذي كان يسمى «بوابة الأطباء». وبدأت المفاوضات لفتحه في نهاية القرن التاسع عشر، وأخذت نوادي التجوال في مانشستر وشيفيلد إجراءات مباشرة. في عام ١٩٠٩، سارت مجموعة «جوالو شيفيلد كلاريون» على طول بوابة الأطباء، وسار عليها «فريق جوالي مانشستر» بتحدٍّ لخمس سنوات. واصل اللورد نشر لافتات «ممنوع المرور»، وربط البوابة بالأسلاك في أحد طرفيها، وأغلق الطريق، لكنه خسر في النهاية. واليوم، أصبحت بوابة الأطباء، مع بعض التغييرات الطفيفة في المسار، الطريق العام الذي كانت عليه منذ ما يقرب من ألفي عام خلت.

طرحت قمة كندر سكوت مشكلة أكبر. يكتب بيني روثمان، سكرتير فرع مانشستر لاتحاد العمال الرياضي البريطاني، عن المدن الكئيبة أثناء الكساد الصناعي في ثلاثينيات القرن العشرين: «كان سكان المدن يجدون متنفسًا في عطلات نهاية الأسبوع عندما كان بمقدورهم الذهاب للتخييم في الريف، بينما كان الشباب العاطلون عن العمل يعودون إلى ديارهم فقط «للتسجيل» في إعانات البطالة وجمع أموالهم. ازداد عدد أعضاء نوادي التجوال وركوب الدراجات والتخييم... وتراجع الشعور بالتقارب مع الطبيعة مع تدفق الحشود إليها، وتطلع المتجولون بحنين إلى مساحات واسعة من الغيضة، والأراضي المغطاة بالأعشاب، والمرتفعات التي كانت محظورة. ولم تكن محظورة فحسب، بل تحت حماية حراس صيد مسلحين بعصيّ لم يخش بعضهم استخدامها ضد من يتجول بمفرده». في عام ١٩٣٢، قرر اتحاد العمال الرياضي البريطاني تنظيم مسيرة من التجاوز الجماعي للتعريف بالموقف، وأجرى روثمان مقابلات مع الصحف. ورغم معارضة نوادي

المتجولين الأخرى، نجح الشباب في جذب أربعمئة متجول إلى بلدة هايفيلد القريبة، إلى جانب ثلث قوة شرطة ديربيشاير. وفي منتصف الطريق، ألقى روثمان خطابًا مؤثرًا حول تاريخ حركة الوصول إلى الجبال، وسط تصفيق كبير. وفي أعلى الطريق شديد الانحدار إلى هضبة كيندر سكاوت، ظهر من حوالي عشرين إلى ثلاثين حارسًا للصيد، يصرخون ويهددون المتجولين بعصيهم، ويتسببون في أسوأ المشاجرات التي بدءوها. على القمة، انضم إلى المتعدين أعضاء من أندية شيفيلد والمتأخرون القادمون من مانشستر.

وفي سبيل هذا النصر المؤقت والمنظر الخلاب، اعتُقِل روثمان وخمسة آخرون. ورُفِضت إحدى القضايا. وحُكِم على الآخرين بالسجن من شهرين إلى ستة أشهر بتهمة «التحريض على التجمعات المثيرة للشغب». وقد أثار الغضب من الأحكام حماسة المتجولين الآخرين وأفرادًا من العامة، فأرسل الفضوليون والملتزمون إلى «كيندر سكاوت». كانت هناك مظاهرات سنوية احتجاجًا على عدم إمكانية استعمال ممر «وينانت» في بيك من قبل، لكن المظاهرة التي أقيمت في ذلك العام جلبت عشرة آلاف من المتجولين، وعُقدت مزيد من التجاوزات والمظاهرات الجماعية في أعقاب هذا الحكم. وتصاعدت حدة السياسات المتعلقة بالمشي. في عام ١٩٣٥، أصبح اسم الاتحاد الوطني لجمعيات المتجولين «جمعية المتجولين»، وكثفت هذه نشاطها لصالح الوصول إلى الجبال، وفي عام ١٩٣٩، قُدِّم مشروع «قانون حق الدخول إلى الأراضي» إلى البرلمان من دون جدوى. بينما نجح مشروع قانون أقوى في عام ١٩٤٩. لقد غيَّر قانون المتنزهات الوطنية والوصول إلى الريف القواعد،

والحقيقة أن المتنزهات الوطنية نفسها لا تعني كثيرًا، الوصول إليها هو ما كان له أهمية كبيرة. كان مطلوبًا من كل مجلس مقاطعة في إنجلترا وويلز رسم خرائط لجميع حقوق المرور في ولايته القضائية، وبمجرد رسم الخرائط للمسارات، كان وجودها يعتبر قطعيًا. انتقل العبء إلى مالك الأرض لإثبات عدم وجود حق في المرور، بدلًا من أن يقع على عاتق المشاة لإثبات وجوده. ومنذ ذلك الحين ظهرت حقوق المرور هذه على خرائط المسح، ما جعل الطرق في متناول الجميع. كما طُلب من المجالس المحلية إنشاء «خريطة مراجعة» للمناطق المفتوحة المناسبة ثم التفاوض بشأن جعلها في متناول المشاة، وإن كان هذا ليس في قوة إقرار حق الوصول المطلق، ولكنه تحسن كبير. أخيرًا، أنشئت مسارات للمشي على مسافات طويلة، ما مكّن الناس من المشي وحقائبهم على ظهورهم يجوبون بريطانيا لأيام أو أسابيع. لكن المتجولين أصبحوا أكثر استياءً في السنوات الأخيرة. في الذكرى الخمسين لإنشائها، بدأت جمعية المتجولين «رمبلرز» في تنظيم «التجاوزات الجماعية لبريطانيا الممنوعة»، وفي عام ١٩٩٧، قام حزب العمال بحملة انتخابية ووعد بدعم تشريع «الحق في التجوال» الذي سيفتح الريف أخيرًا أمام المواطنين، بعد أكثر من قرن من مشروع برايس في عام ١٨٨٤. واتجهت مجموعات جديدة أكثر راديكالية مثل «هذه الأرض لنا» و«استرداد الشوارع» إلى اتخاذ إجراءات مباشرة لتوسيع المجال العام، ورغم أن المشي ليس في مركز أجندتهم الديمقراطية والبيئية، فإن القضايا الشعبية من الوصول إلى الأماكن العامة والحفاظ عليها تظل محورية.

هذه هي السخرية الكبرى -أو العدالة الشعرية-

في تاريخ المشي الريفي، أن ينتهي الأمر بذوق بدأ في حدائق الأرستقراطيين إلى اعتداء على الملكية الخاصة باعتبارها حقًا وامتيازًا مطلقين. وكانت الحدائق والمتنزهات التي بدأت فيها ثقافة المشي عبارة عن مساحات مغلقة، محاطة غالبًا بأسوار أو مؤمنة بالخنادق، ومتاحة لقلة من أصحاب الامتيازات، وأحيانًا أنشئت على أراضٍ تم الاستيلاء عليها بواسطة السياج. ومع ذلك فقد كان المبدأ الديمقراطي في تطوير الحديقة الإنجليزية ضمنيًا، في الطريقة التي سمح بها للأشجار والمياه والأرض بأن تتخذ محيطها الطبيعي بدلًا من دفعها إلى أشكال هندسية، وفي تفكك الجدران المحيطة بالحديقة، وفي تزايد تجربة حركة المشي عبر هذه المساحات غير الرسمية باطراد. وقد ألزم انتشار ذائقة المشي في المناظر الطبيعية بعض أحفاد هؤلاء الأرستقراطيين بالعيش وفقًا للمبادئ الديمقراطية الضمنية في حدائقهم. وربما أن ذلك سيفتح بريطانيا بأسرها للمشاة. انضم المشي من أجل المتعة إلى مخزون الإمكانات البشرية، بعض من استفادوا من هذا التوسع ردوا الجميل وغيروا العالم، وحولوه إلى نسخة من الحديقة، حديقة عامة بدون جدران هذه المرة. المناطق التي تشكلها نوادي المشاة تنتشر بشكل مختلف عبر البلدان. ففي الولايات المتحدة، تشكل هذه المناطق خليطًا من المناطق البرية وحركة سياسية واسعة النطاق عازمة على إنقاذ العالم العضوي. ومن النمسا انتشرت مئات النزل في إحدى وعشرين دولة وأكثر من نصف مليون يمارسون أنشطة خارجية ولكل منهم توجهاته في حماية البيئة. في بريطانيا، يمتد السير على مسافة ١٤٠ ألف ميل، ويتبعه موقف عدائي تجاه طبقة النبلاء من ملاك الأراضي. أصبح

المشي إحدى القوى التي صنعت العالم الحديث - غالبًا من خلال العمل كمبدأ مضاد للأولوية الاقتصادية.

في البداية، فإن الدافع إلى التنظيم حول المشي غريب. فبعد كل شيء، يتحدث أولئك الذين يُقدّرون المشي غالبًا عن الاستقلال والعزلة والحرية التي تأتي من الافتقار إلى البنية والتنظيم. ولكن هناك ثلاثة شروط أساسية للخروج إلى العالم للمشي من أجل المتعة. لا بد أن يملك المرء وقت فراغ، ومكانًا يذهب إليه، وجسدًا ليس أسيرًا لمرض أو بقيود اجتماعية. كانت هذه الحريات الأساسية موضوعًا لنضالات لا حصر لها، ومن المنطقي تمامًا أن تهتم منظمات العمال التي تناضل أولًا من أجل أيام عمل من ثماني إلى عشر ساعات ثم من أجل أسابيع عمل من خمسة أيام -تناضل من أجل الحصول على وقت فراغ- بتأمين مساحة للاستمتاع بهذا الوقت الذي اكتسبته بشق الأنفس. كما ناضل آخرون من أجل المساحة، ورغم أنني ركزت في البرية والمساحات الريفية، فإن تاريخًا غنيًا آخر يتعلق بتطوير المتنزهات الحضرية مثل سنترال بارك، وهو مشروع ديمقراطي ورومانسي لجلب الفضائل الريفية إلى سكان المدن الذين لا يملكون الموارد اللازمة لمغادرة المدينة. أما الجسد الذي لا يعوقه شيء فهو موضوع أكثر دقة. يشير نادي سييرا المبكر، مع وجود النساء اللواتي لا يخضعن لرقابة ينمن على أسرّة من أغصان الصنوبر ويتسلقن الجبال مرتديات سراويل قصيرة، إلى أن التحرر في كاليفورنيا -أو درجة مهذبة منه- كان نتيجة ثانوية: ذلك أن الملابس الفيكتورية كانت تسجن النساء في آداب التنفس السطحي، والخطوات القصيرة، والتوازن الهش. وتشير نزعة العري في نوادي الهواء

الطلق الألمانية والنمساوية المبكرة إلى أن التوجه إلى التلال كان بالنسبة إلى البعض جزءًا من مشروع أوسع نطاقًا لاحتضان الطبيعة، وهي الطبيعة التي عُرِفت لتشمل الإيروتيكي، وحتى بالنسبة إلى أولئك الذين ظللن يرتدين الملابس، كانت ثيابهن سراويل قصيرة تعرض الجسد. أما بالنسبة إلى العمال البريطانيين - فما عليك إلا أن تقرأ كتاب فريدريك إنجلز «تكوين الطبقة العاملة الإنجليزية»، الذي يتحدث عن ظروف المعيشة والعمل المزرية التي شوهت أجساد عمال المصانع وأصابتهم بالمرض، لنفهم لماذا كان السير عبر المساحات المفتوحة تحت سماء نظيفة بمثابة عمل تحرري كثيرين كانوا مستعدين للقتال من أجله. كان المشي بين المناظر الطبيعية رد فعل ضد التحولات التي جعلت جسد الطبقة المتوسطة شيئًا من الماضي محبوسًا في المنازل والمكاتب وجسد العمال جزءًا من الآلات الصناعية.

ربط الكاتبان روسو ووردزوورث في بداية تاريخ هذا المشي في الطبيعة، بين التحرر الاجتماعي والشغف بالطبيعة (رغم أن أيًا منهما لم يتصور، لحسن الحظ الكشافة، وصناعة معدات الهواء الطلق، وغيرها من التأثيرات البعيدة المدى لثقافة المشي). قرّبت نوادي المشي كثيرًا من الناس العاديين من فكرتها عن السائر المثالي: مشاء يتحرك بلا منغصات ولا عراقيل عبر الطبيعة.

الجزء الثالث
حيوات الشوارع

«ليس ثمة متعة أكبر من التنزه بمفردك صعودًا ونزولًا في المساء وآلاف الأشخاص الآخرين، والتمتع بأضواء تتسلل من خلال الأشجار أو متلألئة على الواجهات، والاستماع إلى أصوات الموسيقى وأصوات تتحدث بلغات أجنبية وازدحام حركة المرور، والتمتع برائحة الزهور والطعام اللذيذ والهواء الندي يهبّ من جهة البحر القريب. على الأرصفة، تصطف متاجر صغيرة وحانات ومنصات بيع وقاعات رقص وسينمات وأكشاك مضاءة بمصابيح الأسيتيلين، وفي كل مكان هناك وجوه غريبة وأزياء غريبة وانطباعات غريبة ومبهجة. المشي في مثل هذا الشارع إلى الجزء الأكثر هدوءًا ورسمية من المدينة، يعني أن تكون جزءًا من موكب، وجزءًا من احتفال لا ينقطع لدخول المدينة وإعادة تكريس للمدينة نفسها».

ج. ب. جاكسون، من مقال «مسار الغريب»

***

«بعد أن زحفنا تحت بطون الخيل، وبين العجلات، وعبر الأعمدة والسور، وصلنا إلى الحدائق، حيث كان هناك بالفعل آلاف الأشخاص. سرنا مرتين حولها وسعدنا بالخروج منها، رغم الصعوبات نفسها التي واجهناها عند دخولنا».

هوراس وولبول، من رسالة إلى جورج مونتاغو عن «ريدوتو» في حدائق فوكسهول، ١٧٦٩.

***

«السير في الشوارع باستمرار كما كان يفعل... منحه فرصة لتفحص حالة كل فقير يلتقيه. وهو

ما فعله، بحنكة تمرس عليها جيدًا، حتى أنه نادرًا ما تعرض للخداع. وسيجد كل رجل يتبع مثاله أن هذه الممارسة تؤدي إلى ممارسة مزيد من الأعمال الخيرية، أكثر مما يمكن ممارسته وهو يركب عربة».

باتريك ديلاني، تعليقات على «ملاحظات اللورد أوريري على حياة وكتابات جوناثان سويفت»، ١٧٥٤.

***

«لا يرغبون في أن يكون لهم أي علاقة بسقف وأربعة جدران. كيف يمكن مقارنة ذلك بالشارع؟ إن رذيلة الأطفال هي الشارع نفسه. الشارع إدمان أقوى حتى من الإدمان على الـ«تنر» الذي يشترونه من متجر المعدات. الشارع وحده ملكهم. يعزّيهم في وحدتهم وافتقارهم إلى الحب. يتمتع بجاذبية مذهلة. يمنحهم المال الذي لم يحصلوا عليه في البيت. يعطيهم الإيقاع، والتيمبو، والتعويض الفوري».

إيلينا بونياتوفسكا، «في الشارع».

***

«في نزهة ساحرة، قالت السيدة دي جيراردان ذات يوم إن المشي بالنسبة إلى الباريسي ليس تمرينًا، بل بحثًا. يبدو أن الباريسي مثل المستكشف حقًا، مستعد دائمًا للانطلاق مرة أخرى، أو بالأحرى إنه أشبه بخيميائي رائع للحياة».

فرديناند بلوخ، «أنواع الجادات».

***

«المشي بلا هدف والتأمل، أي التسكع، بالنسبة إلى الفيلسوف، وسيلة جيدة لقضاء الوقت، وخاصة في ذلك النوع من الريفية الزائفة، القبيحة ولكنها

غريبة، والتي تحمل طبيعتين، وتحيط ببعض المدن الكبرى، وخاصة باريس».

فيكتور هوغو، «البؤساء».

***

«في حالة من الملل، نتجول بلا هدف وننظر إلى الأشياء، نتلهى بشراء إبريقين قديمين للشاي من طراز Saint-Cloud، مطعمين بالفضة المذهبة في صندوق به قفل على شكل زهرة الزنبق».

«مذكرات الأخوين غونكور»، ١٨٥٦.

***

«وكانت أكثر امرأة مرغوبة في عصرها تتحول إلى امرأة شبه مجنونة مدفوعة بهوس المشي. كانت تعيش في ٢٦ بيس، فاندوم بالاس، وفي كل مساء، مرتدية ملابس سوداء، ووجهها مخفي بالحجاب، تجر كلبين بائسين سمينين مصابين بالربو، وتحرص على ألا يتعرف عليها أحد، وتذهب إلى أروقة الشارع الذي كانت تفتخر ذات يوم بحمل اسمه، في اتجاه شارع ريفولي. كانت تمشي لساعات وساعات، ولا تعود إلى منزلها إلا عندما يبدأ الفجر في تبديد الظلام الذي أصبحت تقدَره الآن».

أندريه كاستيلو عن عشيقة لويس فيليب الكونتيسة فيرجينيا دو كاستيليونيه.

***

«بالنسبة إلى مخابز الحلويات! كانت في كل ركن على ما يبدو. كان عرض النوافذ كأنه إيروتيكا من الحلويات. اكتشفت أنني أحب بشكل خاص حلوى الكريمة بنكهة الفانيليا المقطعة إلى شرائح تشبه عجلة جبنة البري. أمشي في الشارع، وبرج إيفل يظهر في الأفق، وأنا آكل الحلوى بيدي، كانت تجربة

قريبة من الجنس».

رسالة بريد إلكتروني إلى الكاتبة من ديفيد هايز، تورونتو، ١٩٩٨.

***

«بدأ في القيام بنزهات طويلة على طول الشانزليزيه حتى الإتوال، وأصبحت التمارين نوعًا من العقوبة. كما كتب إلى الآنسة ويفر في ٣٠ أغسطس ١٩٢١: «لقد كنت أتدرب لسباق ماراثون من خلال المشي ١٢ أو ١٤ كيلومترًا كل يوم وأنظر مطولًا إلى نهر السين لأرى ما إذا كان هناك مكان يمكنني أن ألقي فيه بلوم مع وزن ٥٠ رطل مربوط بقدميه».

ريتشارد إلمان، جيمس جويس.

***

«هربت فانتين، في تلك المتاهات على تلة البانتيون، حيث تتشابك علاقات وتنحل، هربت مطولًا من تولومايس، ولكن بطريقة تجعلها تلتقي به من جديد دائمًا. هناك طريقة لتجنب الشخص تشبه البحث عنه».

فيكتور هوغو، «البؤساء».

***

«في تمشياته على طول الشاطئ، بدأ هذا الموضوع يتخذ شكلًا لديه، وذلك بفضل أحد التناقضات الهائلة التي لا يمكن إلهامه من دونها. في هوغو، يدخل الزحام إلى الأدب كموضوع للتأمل. والمحيط المتلاطم نموذجه، والمفكر الذي يتأمل هذا المشهد الأبدي هو المستكشف الحقيقي للزحام الذي يفقد نفسه فيه كما يفقد نفسه في هدير البحر».

فالتر بنيامين، شارل بودلير.

***

«ثم انطلقنا إلى الشوارع، ذراعًا بذراع، نواصل الحديث عن مواضيع اليوم، أو نتجول في كل مكان حتى ساعة متأخرة، نبحث وسط الأضواء والظلال البرية للمدينة المكتظة، عن تلك اللانهاية من الإثارة العقلية التي يمكن أن توفرها الملاحظة الهادئة».

إدغار ألان بو، «جرائم القتل في شارع مورغ»

***

«لا يمكن منع الرجال في المدن من الاتفاق معًا، وإيقاظ اندفاع متبادل يقودهم إلى لقاءات مفاجئة ومحمسة. يمكن النظر إلى المدن باعتبارها مجالس كبيرة جميع السكان أعضاء فيها، ويمارس سكانها نفوذًا هائلًا على القضاة، وغالبًا ما يحققون أمنياتهم الخاصة من دون تدخل الموظفين العموميين».

أليكسيس دي توكيفيل، «الديمقراطية في أمريكا».

***

«نحن لا شيء إذا مشينا بمفردنا، نحن كل شيء عندما نسير معًا خطوة بخطوة مع أقدام كريمة أخرى».

القائد المساعد ماركوس، ١٩٩٥.

***

«تدهورت حالتها بشكل خطير حاليًا بسبب إضرابها عن الطعام، وقد أخبرت الجنرالات بأنها ستغادر بكل سرور. وطلبت لذلك: «أريد إطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، وأريد أن أمشي إلى المطار». يبعد المطار عشرين ميلًا من منزلها. وقد نجحت في حشد روح شعبها إلى الحد الذي

جعل الجنرالات يخشون فعلًا أن تخرج البلاد كلها لتتضامن معها إن مشت عشرين ميلًا».

بول مونيت، عن أون سان سو تشي في بورما.

***

«يمنع الأرثوذكس النساء من الصلاة معًا في مجموعات، والصلاة بصوت عالٍ، وحمل التوراة. تجمعت هؤلاء النساء للصلاة عند الحائط الغربي في القدس، وتعرضن للاعتداء من قبل الرجال الأرثوذكس، ولا تزال قضيتهن معلقة في المحكمة الإسرائيلية العليا».

مارثا شيلي، هاجاداه، «احتفال بالحرية».

***

«استبعدت طبيبة عيون، وهي نفسها منقبة، هذه المشكلة. وقالت: «لا يوجد دليل على أن هذا يؤثر في الرؤية على الإطلاق. وحتى لو كانت رؤية النساء تضعف في الليل، فليكن، أصلًا لا ينبغي لأي امرأة مسلمة صالحة أن تخرج ليلًا وحدها».

جان غودوين، «ثمن الشرف: المرأة المسلمة ترفع حجاب الصمت عن العالم الإسلامي».

***

«لم أستطِع الخروج بمفردي من دون إثارة شكوك العائلة كلها، فلو راقبوني، ورأوني أقابل رجلًا، سيدينونني بظنونهم!»».

ماري ورتلي مونتاغو، ١٧١٢.

***

«ما أجمل رجليك في النعلين يا بنت الكريم دوائر فخذيك مثل الحلي».

نشيد الإنشاد ١:٧.

***

«ترتدين حذاء مسطحًا. هل أنت لزبيان؟» عابر سبيل في لندن لبائعة هوى.

ريتشارد سيمانسكي، «منظر طبيعي لاأخلاقي: الدعارة في المجتمعات الغربية».

***

«جسدها متوازن تمامًا، وهي تحافظ على استقامتها، ومع ذلك لا يوجد ما يوحي بأنها صارمة. تمشي بخطوات معتدلة، ومثل كل اللواتي يتحركن ويرقصن جيدًا، تمشي بتحريك الورك وليس الركبة. لا تهز ذراعيها أبدًا، ولا تضع يدها على وركها! ولا تلوح بيديها أثناء المشي».

إميلي بوست، «إتيكيت» .

***

«أطلق عليها اسم أحذية الليموزين»، هكذا توصف أحذية الكعب العالي التي ستظهر هذا الخريف. كتبت لي إحدى السيدات قائلة: «يريد حبيبي أن أرتدي أحذية بكعب عالٍ، لكنها تؤلم قدمي». قلت لها: «أخبريه بأنك سترتدين الحذاء إذا أمّن لك من يوصلك من كوربه للثانية».

مجلة هاربر بازار، ١٩٩٧.

***

«بعد إغلاق بوابات المدينة [الكورية]... سلّمت المدينة للنساء، اللاتي كنّ حرات في الخروج للتنزه على الأقدام. كنّ يتجولن ويتجاذبن أطراف الحديث في مجموعات مع صديقاتهن حاملات الفوانيس الورقية».

إليزابيث ويلسون، «أبو الهول في المدينة».

***

الفصل الحادي عشر
المتجول وحده والمدينة

عشت في ريف نيومكسيكو لفترة طويلة حتى أنني عندما عدت إلى سان فرانسيسكو، رأيتها لأول مرة كما قد يراها غريب. ظهرت حيوية الربيع بالنسبة إليّ حضرية في ذلك العام، وفهمت أخيرًا تلك الأغاني الريفية عن إغواء الأضواء الساطعة في المدينة. مشيت في كل مكان في نهارات مايو ولياليه المعتدلة، متعجبة من كم الاحتمالات التي يمكن أن يسعها نصف قطر من دائرة تلك الجولات، ومتشوقة إلى إمكانية الخروج ببساطة من الباب الأمامي لأصادفها. تصورت أن كل مبنى وكل واجهة متجر تنفتح على عالم مختلف، فتضغط كل تنوع الحياة البشرية في خليط من الاحتمالات التي تثريها بفضل هذه التقاطعات. كما يمكن لرفوف الكتب أن تجمع بين الشعر الياباني والتاريخ المكسيكي والروايات الروسية، فإن مباني مدينتي كانت تحتوي على مراكز زِن، وكنائس الخمسينيين(51)، وصالونات وشم، ومتاجر البقالة، وأماكن تقديم البوريتو، ودور السينما، ومتاجر الديمسم(52). حتى أكثر الأشياء عادية كانت تدهشني، وكان الناس في الشارع يقدمون إليّ ألف لمحة من حياة تشبه حياتي أو تختلف عنها كليًا.

دائمًا ما تتيح المدن مجهوليةً وتنوعًا وترابطًا، صفات يمكن التمتع بها على أفضل نحو أثناء المشي: لا يحتاج المرء إلى الدخول إلى مخبز أو عند قارئة حظ فقط ليعرف أن بإمكانه فعل ذلك. تحتوي المدينة دومًا على أكثر مما يستطيع أي

ساكن أن يعرف، ومدينة عظيمة هي تلك التي تجعل من المجهول والممكن محرضات للخيال. لُقبت سان فرانسيسكو منذ أمد بأنها أكثر المدن الأميركية أوروبيةً، وهو تعليق يُقال غالبًا أكثر مما يُشرح. أحسب أن من يقولون ذلك يقصدون أن سان فرانسيسكو، في حجمها وحياة شوارعها، تحافظ على فكرة المدينة كمكان للقاءات غير مباشرة، في حين أصبحت أغلب المدن الأميركية أشبه بضواحٍ متضخمة، خاضعة لسيطرة صارمة ومنفصلة، وقائمة على غياب تفاعل سائقي السيارات الذين يتنقلون بين الأماكن الخاصة عوض تفاعل المشاة في الأماكن العامة. تحيط المياه بسان فرانسيسكو من ثلاث جهات، وسلسلة جبلية من الرابعة تمنعها من التوسع، وأحياء كثيرة ذات شوارع نابضة بالحياة. كثافة حضرية حقيقية، مبانٍ جميلة، وإطلالات الخليج والمحيط من قمم تلالها، مقاهٍ وحانات في كل ناحية، تشير إلى أولويات مختلفة للمكان والزمان مقارنة بأغلب المدن الأميركية، كما هو الحال مع التقليد (المهدد بالتجديد الحضري) لفنانين وشعراء وراديكاليين اجتماعيًا وسياسيًا يجعلون حياتهم تدور حول أشياء أخرى غير الكسب والإنفاق.

في أول يوم سبت لي منذ عودتي، تمشيت في متنزه غولدن غيت القريب، والذي يفتقر إلى روعة البرية ولكنه منحني متعًا تعويضية عديدة: موسيقيين يتدربون في أنفاق المشاة التي يتردد فيها الصدى، صينيات يمارسن الفنون القتالية بشكل منتظم، روسًا مهاجرين يتجولون يغمغمون بعضهم مع بعض كأنهم يرتشفون من لغتهم الأم برقة. أولئك الذين ينزهون الكلاب يُسحبون إلى عالم بدائي من مسرَات كلابهم، والوصول إلى

شواطئ المحيط الهادئ مشيًا. ذلك الصباح، في قاعة الموسيقى بالمتنزه، انضم برنامج المنوعات الإذاعي المحلي إلى «مهرجان ووترشد الشعري»، وجلست لحضور المهرجان بعض الوقت. كان الشاعر الأميركي روبرت هاس الحائز على البوليتزر يعلم الأطفال كيف يقرؤون شعرهم في الميكروفون على المسرح، ووقفت شاعرة وشاعر أعرفهما في جناح المسرح. ذهبت لألقي عليهما التحية، فأظهرا لي خاتمي زفافهما الجديد وقدماني إلى شعراء آخرين، ثم التقيت المؤرخ الكاليفورني العظيم مالكولم مارغولين، الذي روى لي قصصًا أضحكتني. هذه هي الأعجوبة النهارية للمدن بالنسبة إليّ: المصادفات، اختلاط أنواع عديدة من الناس، الشعر الذي يُمنح للغرباء تحت سماء مفتوحة. كانت «هايدي برس»، دار النشر التي أسسها مارغولين، تعرض نتاجها جنبًا إلى جنب مع كتب بعض المطابع الصغيرة والمشاريع الأدبية الأخرى، فناولني مارغولين كتابًا من على طاولته بعنوان ٩٢٠ O'Farrell Street، وهو مذكرات لهارييت لين ليفي، تروي تجاربها الرائعة أثناء نشأتها في سان فرانسيسكو في سبعينيات وثمانينيات القرن التاسع عشر. في عصرها، كان المشي في شوارع المدينة بمثابة ترفيه منظم مثل تنظيم رحلة حديثة إلى السينما. كتبت: «ليلة السبت، انضمت المدينة في نزهة في شارع ماركت، ذلك الشارع العريض الذي يبدأ عند الواجهة البحرية ويمتد بمسارها المستقيم الذي يبلغ طوله أميالًا إلى توين بيكس. كانت الأرصفة واسعة وزحام الناس الذي يسير نحو الخليج يلتقي بزحام آخر يسير نحو المحيط. كان تدفق السكان عفويًا وكأنه استجابة لرغبة في الاحتفال الفوري. أطلق كل حي من أحياء المدينة

سكانه في الموكب الواسع. سيدات وسادة مرموقو المكانة، خادماتهم ألمانيات وأيرلنديات، كل واحدة تشبك ذراعها بقوة بذراع حبيبها، فرنسيون، إسبان، برتغاليون نحيفون وشغيلة، مكسيكيون، هنود يظهرون بجلد محمر وعظمة الخد العالية، الجميع، أيًا كان، تركوا المنازل والمتاجر والفنادق والمطاعم وحدائق البيرة وتوافدوا إلى شارع ماركت في نهر من الألوان. بحارة من كل لون تركوا سفنهم عند الواجهة البحرية، وسارعوا إلى شارع ماركت في مجموعات، انضموا إلى الزحام المتنقل الذي أثارته الأضواء والضجيج ومرح الجموع. «هذه هي سان فرانسيسكو»، هكذا قالت وجوههم. كان كرنفالًا، لا يوجد نثار ورق ملون متطاير، ولكن الهواء عبارة عن تقاطع لآلاف الرسائل، لا أقنعة، ولكن عيون مشحونة بالتحدي الصريح. بطول شارع ماركت من باول إلى كيرني، ثلاثة شوارع طويلة، صعودًا من كيرني إلى بوش، ثلاثة شوارع قصيرة، ثم العودة مرة أخرى، مرارًا وتكرارًا لساعات، حتى تعمقت نظرة الفضول إلى نظرة اهتمام، وتوسع الاهتمام إلى ابتسامة، والابتسامة إلى أي شيء. كنا نذهب والدي وأنا إلى وسط المدينة كل ليلة سبت. مشينا عبر شوارع مشجرة مليئة بالضوء في عالم يتماسك بصعوبة. كان هناك شيء يحدث في كل مكان، في كل دقيقة، شيء يجعلنا سعداء. كنا نسير ونسير وأشياء جديدة تحدث باستمرار». لا يزال شارع ماركت، الذي كان ذات يوم ممشى رائعًا، الشريان المروري المركزي للمدينة، لكن عقودًا من تمزيقه وإعادة تطويره حرمته من مجده الاجتماعي. تمكن جاك كيرواك من رسم رؤيتين حول هذا الحي في أواخر الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات، وعلى الأرجح أنه كان سيحتفي بأناس وسط

المدينة الذين يقفون في الطرق الحرة المظللة، من متسولين وبائعي أرصفة يعرضون بضائعهم في عربات تسوق. اليوم، أصبح امتداد وسط المدينة الذي قطنته ليفي ذات مرة مكتظًا بعمال ومتسوقين وسائحين يتجمعون عند تحويلة الترام في شارع باول، وعلى بعد أكثر من ميل صعودًا، ينفتح شارع ماركت أخيرًا على حياة المشاة النابضة مرة أخرى لبضعة صفوف من المباني قبل أن يقطع شارع كاسترو ويبدأ صعوده الحاد نحو توين بيكس.

تاريخ المشي الريفي والحضري هو تاريخ الحرية وتعريف المتعة في آن. ولكن المشي في المناطق الريفية وجد دافعًا أخلاقيًا في حب الطبيعة سمح له بالدفاع عن الريف وفتح مجالاته. في حين كان المشي في المناطق الحضرية عملًا أكثر غموضًا، حيث يتحول بسهولة إلى استجداء وتصيّد زبائن وتنزه وتسوق وشغب واحتجاج وتسلل وتلكوء وغير ذلك من الأنشطة التي، قد تكون ممتعة، لكنها لا تتمتع بالدرجة الأخلاقية العالية التي يتمتع بها تقدير الطبيعة. لم يتقدم أحد بدفاع مماثل للحفاظ على الفضاء الحضري، باستثناء عدد قليل من دعاة الحريات المدنية ومنظري التخطيط الحضري (الذين نادرًا ما يلاحظون أن المساحة العامة تُستخدم وتُسكن بشكل كبير من خلال المشي فيها). ومع ذلك فإن المشي في المدن يبدو في كثير من النواحي أشبه بالصيد والجمع البدائيين أكثر منه بالمشي في الريف. الريف أو البرية، عند معظمنا، مكان نسير فيه وننظر إليه، ولكن نادرًا ما نصنع فيه أشياء أو نأخذ منه أشياء (تذكر مقولة نادي سييرا الشهيرة Sierra Club: «التقط الصور فقط، واترك آثار الأقدام فقط»). في المدينة، تقلص الطيف البيولوجي تقريبًا للبشر وعدد قليل من

أكلات الجيف، ولكن نطاق الأنشطة لا يزال واسعًا. وكما قد يتوقف جامع الثمار ليلاحظ شجرة سيكون بلوطها وفيرًا بعد ستة أشهر أو يتفقد إمدادات محتملة من قصب السلال، فقد يلاحظ المتجول في المناطق الحضرية متجرًا للبقالة مفتوحًا حتى وقت متأخر أو مكانًا لتصليح نعل الحذاء، أو يلتف حول مكتب البريد. كذلك، ينظر المتجول الريفي العادي إلى المشهد العام -المنظر والجمال- ويتدفق المشهد في استمرارية تتغير بهدوء وبالتدريج: حيث يصل المرء إلى قمة كانت بعيدة عنه في الأفق، وتتناقص مساحة الغابة لتصبح مرجًا. بينما يتنبه المتجول الحضري إلى تفاصيل، وفرص، وأفراد، وأغراض، وتكون التغيرات فجائية وحادة. وبطبيعة الحال، تشبه المدينة الحياة البدائية أكثر من الريف بطريقة أقل سحرًا أيضًا، ففي حين تقلصت أعداد الحيوانات المفترسة غير البشرية بشكل جذري في أمريكا الشمالية وقُضي عليها في أوروبا، فإن إمكانية وجود الحيوانات المفترسة البشرية تُبقي سكان المدينة في حالة من الحذر الشديد، على الأقل في بعض الأوقات والأماكن.

كانت تلك الأشهر الأولى التي قضيتها في البيت ساحرة، حتى أنني احتفظت بمذكرات للمشي، وفي وقت لاحق من تلك الصيفية الساحرة كتبت في يومياتي: أدركت فجأة أنني جلست سبع ساعات على المكتب من دون انقطاع حقيقي وأنني بدأت أشعر بالتوتر وبتصلب في ظهري المنحني. سرت إلى سينما كلاي في منطقة فيليمور العليا عبر ممر في بروديريك لم أره من قبل -منازل فيكتورية قديمة قصيرة وأنيقة بالقرب من مشاريع الإسكان- كنت سعيدة كما كنت دائمًا عندما يستسلم المألوف للمجهول. كان الفيلم بعنوان: «عندما تغيب القطة»،

يدور حول فتاة باريسية وحيدة تضطر إلى لقاء جيرانها في ساحة الباستيل عندما تختفي قطتها، تملؤه الأحداث البليدة وأشخاص يمشون بطريقة غريبة ويقفون على أسطح المنازل ويغمغمون بلغة الشارع، وعندما انتهى الفيلم كنت منتشية وكان الليل حالكًا تلفه غشاوة لؤلئية من الضباب. عدت سريعًا، مشيت أولًا على امتداد شارع كاليفورنيا، حيث مررت برجل وامرأة - لم يكن في المرأة ما يميزها، وكان الرجل يرتدي بدلة بنية مصممة بأناقة وكشف تقوّس ركبتيه تاريخًا من ارتداء دعامات الساقين- تجاهلت الحافلة، وفعلت الشيء نفسه مع حافلة في طريق ديفيساديرو أيضًا. تباطأت أمام نافذة محل أنتيكات أحدق إلى مزهرية كبيرة كريمية اللون مطبوعة برسومات زرقاء لحكماء صينيين، وعلى بعد بضعة أبواب لمحت رجلًا صينيًا أصلع يحمل رضيعًا أمام زجاج متجر، حيث كانت امرأة في الداخل تلاعبه من وراء الزجاج. ابتسمت لسعادة الاثنين. هناك طريقة تقوم بها الأضواء الاصطناعية والظلام الطبيعي للتمشيات الليلية بتحويل استمرارية اليوم إلى مسرح من لوحات ومشاهد قصيرة وتركيبات درامية، وهناك دائمًا المتعة المربكة لظلك وهو يكبر ويصغربينما تنتقل من إنارة شارع إلى إنارة أخرى. لتفادي سيارة عند تغير إشارة المرور، اندفعت في الركض وأسعدني ذلك كثيرًا حتى أنني واصلت الجري بمحاذاة بضعة أبنية أخرى من دون أن أتعب، رغم أن حرارتي ارتفعت.

طوال طريق ديفيساديرو، راقبت الاخرين والأمكنة المفتوحة -متاجر الخمور والتبغ- ثم وجدت نفسي في شارعي. عند التقاطع بدأ شاب أسود بقبعة وملابس داكنة يركض نحوي بسرعة

كبيرة، تلفتَ حولي أدرس خياراتي تجنبًا لأي طارئ - أعني لو كانت الملكة فيكتوريا تتجه نحوك بهذه السرعة فلا بد أن تكون متأهبًا. رأى ترددي وأكد لي بأرق صوت ممكن لشاب لطيف: «أنا لا أستهدفك، أنا فقط متأخر» واندفع بجواري، فقلت: «حظًا سعيدًا»، وعندما وصل إلى الشارع وكان لدي وقت لاستجماع أفكاري، قلت: «آسفة لأنني بدوت متشككة، لكنك كنت مسرعًا»، ضحك، وبعد ذلك ضحكت، وفي دقيقة تذكرت لقاءات أخرى صادفتها مؤخرًا في الحي وبدت كأنها ستجلب المتاعب ثم تكشفت عن لطف خالص. سررت أنني كنت متأهبة من دون أن يساورني قلق. في تلك اللحظة، رفعت رأسي ورأيت في نافذة الطابق العلوي ملصقًا لعمل مان راي نفسه À l'heure de l'observatoire -لوحته لسماء الغروب مع شفاه حمراء طويلة تطفو فوقها- الملصق الذي رأيته في نافذة أخرى في بلدة أخرى قبل ليلة أو ليلتين. كان هذا الملصق أكبر، وكانت هذه الليلة أكثر ألقًا، تصورت أن رؤية اللوحة نفسها مرتين فيه شيء من السحر. عدت إلى المنزل في عشرين دقيقة على الأكثر.

الشوارع هي المساحة المتبقية بين المباني، المنزل وحده جزيرة محاطة ببحر من المساحات المفتوحة، والقرى التي سبقت المدن لم تكن أكثر من أرخبيلات في البحر نفسه. ولكن مع ارتفاع المزيد والمزيد من المباني، أصبحت هذه قارة، ولم تعد المساحة المفتوحة المتبقية تشبه البحر، بل أنهرًا وقنوات وجداول تجري بين الكتل الأرضية. توقف الناس عن التحرك بأي شكل في البحر المفتوح للفضاء الريفي، كانوا يتنقلون صعودًا وهبوطًا في الشوارع، وكما أن تضييق مجرى مائي يزيد من تدفق المياه وسرعتها، فإن تحويل الفضاء

المفتوح إلى مجاري مياه للشوارع يوجه تدفق المشاة ويكثف شدته. في المدن الكبرى، تُصمم الأماكن والمساحات وتبنى: المشي، والمشاهدة، والحضور في الأمكنة العامة، كلها أمور تشكل جزءًا من التصميم والغرض، بقدر ما هي المساحات الداخلية لتناول الطعام، والنوم، وصنع الأحذية أو ممارسة الحب أو تأليف الموسيقى. كلمة مواطن ترتبط بالمدن، والمدينة المثالية منظمة حول المواطنة ـ حول المشاركة في الحياة العامة. معظم المدن والبلدات الأميركية منظمة حول الاستهلاك والإنتاج، كما كانت المدن الصناعية الرهيبة في إنجلترا، ولم يكن الفضاء العام سوى ذلك الفراغ بين أماكن العمل والمتاجر والمساكن. المشي ليس إلا بدايةَ المواطنة، ومن خلاله يعرف المواطن مدينته ومواطنيه ويسكن المدينة حقًّا وليس جزءًا صغيرًا مخصخصًا منها. مشي الشوارع هو ما يربط بين قراءة الخريطة وبين عيش الحياة، وبين العالم الصغير الشخصي (مايكروكوزم) والعالم الكبير العام (ماكروكوزم)، وهو ما يجعلنا نفهم المتاهة المحيطة بنا. في كتابها الشهير «موت وحياة المدن الأميركية العظيمة»، تصف جين جاكوبس كيف أن شارعًا شعبيًا مطروقًا يظل آمنًا من الجريمة لمجرد أن كثيرين يمرون منه. يحافظ المشي على علانية الفضاء العام وقابليته للاستمرار. يكتب فرانكو موريتي: «إن ما يميز المدينة هو أن وظيفية هيكلها المكاني (أو تركيزها) تعمل على تكثيف القدرة على التنقل: التنقل الحيزي، والتنقل الاجتماعي في المقام الأول».

كلمة الشارع في حد ذاتها تحمل سحرًا قاسيًا قذرًا، فهي تستحضر الحقير، والعادي، والإيروتيكي، والخطير، والثوري. إن رجل شارع ليس أكثر من

شعبوي، أما بنت شارع فهي، بائعة الهوى، تبيع جنسًا. أطفال شوارعيون أي مشردون ومتسولون وهاربون، والتعبير الجديد Street Person الذي يصف من ليس لديهم مأوى آخر. وهناك تعبير «فطنة شوارع» تعني حكمة المرء في التعامل مع المدينة وقدرته على البقاء فيها، في حين أن عبارة «النزول إلى الشارع» هي الصرخة الكلاسيكية للثورة الحضرية، لأن الشوارع هي المكان الذي يصبح فيه الناس حشدًا وحيث تكمن قوتهم. الشارع يعني الحياة في التيارات الجارفة للنهر العمراني الحضري حيث يمكن لكل الناس ولكل شيء أن يختلط. هذه القدرة على التنقل الاجتماعي بالتحديد، وهذا الافتقار إلى التقسيمات والتمييزات، هو الذي يعطي الشارع خطورته وسحره، خطر الماء وسحره حيث كل شيء يجري فيه في وقت واحد.

في أوروبا الإقطاعية وحدهم سكان المدن من تحرروا من القيود الهرمية التي شكلت بنية باقي المجتمع - ففي إنجلترا على سبيل المثال كان في وسع العبد أن يصبح حرًا إذا عاش لمدة عام ويوم واحد في بلدة ليس فيها عبودية. غير أن نوعية الحرية داخل المدن كانت محدودة آنذاك، لأن شوارعها قذرة وخطرة ومظلمة عادة. وكانت المدن تفرض حظر التجول وتغلق بواباتها عند غروب الشمس. ليس قبل عصر النهضة حين بدأت المدن الأوروبية في تحسين رصف الشوارع، وصرفها الصحي، وأمنها. شكّل الخروج إلى أي مكان ليلًا، في لندن وباريس خلال القرن الثامن عشر، خطورة لا تقل عن خطورة الأحياء الفقيرة في أيامنا هذه، وإذا كنت تريد أن ترى إلى أين تتجه، فما عليك إلا أن تستأجر حامل مشعل (وكان حاملو المشاعل

الشبان في لندن -أو «صبية الربط» كما كانوا يسمونهم- يعملون قوادين أيضًا). حتى في وضح النهار، كانت العربات ترعب المشاة. قبل القرن الثامن عشر، قلة قليلة من كانوا يتجولون في هذه الشوارع للتسلية، ولم تبدأ الأماكن النظيفة الآمنة والمضاءة مثل المدن الحديثة في الظهور إلا في القرن التاسع عشر. كل ذلك التأثيث والرموز التي تمنح الشوارع العصرية نظامها -أرصفة مرتفعة، إنارة شوارع، وأسماء شوارع، وأرقام مبانٍ، ومجارٍ، وقواعد مرور، وإشارات مرور- كلها ابتكارات حديثة نسبيًا.

أنشئت مساحات مثالية للأثرياء في المدن - ممشى تحفه الأشجار، وحدائق ومتنزهات شبه عامة. ولكن هذه الأماكن التي سبقت الحديقة العامة كانت شوارع مضادة، مفصولة حسب الطبقة ومنفصلة عن الحياة اليومية (بخلاف الشوارع المغلقة للمشاة (كورسوس وباسيوس) في ساحات وميادين بلدان المتوسط وأمريكا اللاتينية، وممشى شارع ماركت ستريت الذي تحدثت عنه ليفي - أو حديقة هايد بارك في لندن وهذه خرجت عن المألوف واستوعبت كلًا من المتنزهات التي تجرها عربات الأغنياء والخطابة المفتوحة للراديكاليين). ورغم أن السياسة والمغازلة والتجارة كانت تُمارس فيها، فإنها لم تكن أكثر من صالونات خارجية وقاعات رقص. ومن مضمار كور لا رين Cours La Reine الذي يبلغ طوله ميلًا والمبني في باريس عام ١٦١٦، إلى الاميذا Alameda في مدينة مكسيكو، وحتى سنترال بارك في نيويورك التي بنيت خلال خمسينيات القرن التاسع عشر، كانت مثل هذه الأماكن تميل إلى جذب أناس تتحقق رغبتهم في إظهار ثرائهم بالتنزه في عربات أكثر من

المشي. في كور لا رين كانت العربات تتجمع بكثافة فتعطل المرور، وربما كان هذا هو السبب في ظهور موضة الخروج والرقص على ضوء المشاعل في المستديرة المركزية عام ١٧٠٠.

ورغم أن سنترال بارك تشكلت بدوافع ديمقراطية إلى حد ما، وجماليات الحدائق الإنجليزية، وعلى مثال حديقة ليفربول العامة، فغالبًا ما كان فقراء نيويورك يدفعون المال للذهاب إلى حدائق خاصة أشبه بحدائق فوكسهول، حيث قد يشربون البيرة، أو يرقصون البولكا، أو يشاركون في أشكال شعبية من المتعة. حتى أولئك الراغبين في نزهة منعشة وحسب، كما أراد لهم فريدريك أولمستيد الذي شارك في تصميم الحديقة، واجهتهم عقبات. أصبحت سنترال بارك مكانًا رائعًا لتنزه الأثرياء، ومرة أخرى فصلت العربات المجتمع. في تاريخهما للحديقة العامة ومدينتها، كتب راي روزنزويغ وإليزابيث بلاكمار: «في وقت سابق من القرن [التاسع عشر]، تطورت النزهات التي كان يخرج فيها أثرياء نيويورك ما بعد الظهر وأوائل المساء وأيام الأحد إلى نزهات للأزياء الراقية، وأصبحت الشوارع الواسعة في برودواي وباتري والشارع الخامس مكانًا عامًا يمكن فيه أن ترى الآخرين وأن يروك. وبحلول منتصف القرن العشرين، تراجعت المتنزهات العصرية في برودواي وباتري مع فقدان المواطنين «المحترمين» السيطرة على هذه المساحات العامة. كان الرجال والنساء على حد سواء يريدون مساحة عامة أكبر لشكل جديد من أشكال التريض العام باستخدام العربات. وفي منتصف القرن التاسع عشر، أصبحت ملكية العربات سمة مميزة لمكانة الطبقة العليا في المناطق الحضرية. وذهب الأثرياء إلى سنترال بارك، وقال

صحفي شعبوي: «سمعت أن المشاة اكتسبوا عادة سيئة تتمثل في تعرضهم للدهس عن طريق الخطأ في ذلك الحي». كما واصل الفقراء تمشياتهم في شوارع نيويورك، كان نظراؤهم الباريسيون يتجولون على طول أطراف المدينة، غالبًا تحت طرق محفوفة بالأشجار لتظليل مثل هذه الخروجات. بعد الثورة، كان في إمكان أي شخص يرى الحراس أن ملابسه لائقة دخول حدائق تويلري في باريس. أما الحدائق الترفيهية الخاصة المصممة على غرار حدائق فوكسهول الشهيرة في لندن، بما في ذلك حدائق رانيل وكريمورن في لندن نفسها، وأوغارتن في فيينا، وحقول إليسيان، وحدائق القلعة، وهارلم في نيويورك، وتيفولي في كوبنهاجن (الناجية الوحيدة من كل هذه الحدائق) كانت تصنف الناس وفقًا لمعيار أبسط وهو القدرة على دفع النقود. في أماكن أخرى من هذه المدن، جلبت الأسواق والمعارض والمواكب الاحتفالات إلى مواقع الحياة اليومية، ولم تكن التمشيات منفصلة إلى حد كبير. في نظري، يكمن سحر الشارع في أنه يمزج أداء مهمة ما بالإلهام».

لا يبدو أن مثل هذه الحدائق ازدهرت في إيطاليا، ربما لم يكن هناك من حاجة إليها. ظلّت المدن الإيطالية لفترة طويلة مثلًا أعلى، ولا سيما عند النيويوركيين واللندنيين الذين فتنوا بالطرق التي تضفي بها عمارتها جمالًا ومعنى على الأفعال اليومية. منذ القرن السابع عشر على الأقل، كان الأجانب ينتقلون إلى هناك للاستمتاع بالضوء والحياة. أمضى برنارد رودوفسكي، وهو من أهل نيويورك، قدرًا كبيرًا من الوقت في إيطاليا وأشاد بها في كتابه الصادر عام ١٩٦٩ بعنوان «شوارع للناس: دليل للأميركيين» وبالنسبة إلى أولئك الذين

يعتبرون نيويورك المدينة الأميركية النموذجية للمشاة، فإن قناعة رودوفسكي بأنها مدينة بائسة كان مفاجئًا. يضرب كتابه في المقام الأول أمثلة إيطالية حول وسائل توظيف الساحات والشوارع في ربط المدينة على المستويين الاجتماعي والمعماري. «ببساطة لم يخطر لنا أبدًا أن نحول الشوارع إلى واحات بدلًا من صحاري» يقول في البداية. «في البلدان التي لم تتدهور فيها وظيفة الشوارع بعد إلى طرق سريعة ومواقف للسيارات، هناك عدد من الترتيبات التي تجعلها لائقة بالبشر... أرقى الشوارع المسقوفة -والتي تعد تعبيرًا ملموسًا عن التضامن المدني أو لنقل عن حب الناس- هي البوائك. وبصرف النظر عن إضفاء الوحدة على المشهد العام للشوارع، فإنها غالبًا ما تحل محل الأروقة القديمة». منحدرة من نسل الرواق اليوناني والرواق المقنطر، تطمس الشوارع المسقوفة الحدود بين الداخل والخارج، وتقدم حفاوة معمارية إلى حياة المشاة التي تجري تحتها. يلقي رودوفسكي الضوء على ممرات بولونيا الشهيرة، المغطاة والممتدة بطول أربعة أميال من الساحة المركزية إلى الريف، وجاليري ميلانو، الذي لا يتسم بطابع تجاري صارم في وظائفه مقارنة بمراكز التسوق الراقية المصممة لمحاكاته والمسماة باسمه، والشوارع المتعرجة في بيروجيا، والشوارع الخالية من السيارات في سيينا، وبوائك بريسينجيلا العامة في الطابق الثاني. يكتب بحماس شديد عن «باساجيتا» Passaggiata، نزهة ما قبل العشاء الإيطالية التي تغلق فيها العديد من المدن شوارعها الرئيسية أمام حركة المرور، وتوقيتها يخالف ساعة الكوكتيل الأميركية. ويقول إن الشارع بالنسبة إلى الإيطاليين هو الفضاء الاجتماعي المحوري للقاء

والمناقشة والمغازلة والشراء والبيع.

كتب ناقد الرقص النيويوركي إدوين دينبي، في نفس الوقت تقريبًا الذي كتب فيه رودوفسكي، عن تقديره للمشاة الإيطاليين: «في المدن الإيطالية القديمة، يتحول الشارع الرئيسي الضيق عند الغسق إلى نوع من المسرح. يتجول المجتمع بود ويتأمل نفسه. تعرض الفتيات والشباب، من سن الخامسة عشرة إلى الثانية والعشرين، سحرهم بعضهم لبعض بروح اجتماعية نابضة بالحيوية. كلما أظهروا مزيدًا من الرشاقة، أحبهم المجتمع. في فلورنسا أو نابولي، في الأحياء الفقيرة في المدينة القديمة، الشباب مهرة في أدائهم، وهم يتنزهون في أي وقت لا يكونون مشغولين فيه». كتب عن شباب روما: «كانت تجوالاتهم تستجيب لبعضها كما لو أنها محادثة جسدية». في موضع آخر، يوجه طلاب الرقص إلى مراقبة المشي من مختلف الأنواع: «يشغل الأميركيون مساحة أكبر بكثير من مساحة أجسادهم الحقيقية. وهذا يزعج الأوروبيين، ويزعج غريزة التواضع لديهم. ولكن لهذا جماله الخاص، الذي يقدره قلة منهم. بالنسبة إلي، أعتقد أن مشي النيويوركيين جميل بشكل مدهش ورحب وواضح». وفي إيطاليا، يعد المشي في المدينة نشاطًا ثقافيًا شاملًا وليس موضوعًا لغزوات وحكايات فردية. من دانتي الذي سار على خطى منفاه في فيرونا ورافينا إلى بريمو ليفي الذي سار عائدًا إلى منزله من أوشفيتز، لم تفتقر إيطاليا إلى المشاة العظماء - ولكن يبدو أن المشي في المدن في حد ذاته يشكل جزءًا من ثقافة شاملة أكثر من كونه محورًا لتجربة معينة (بما في ذلك ما قام به الأجانب ووثق بكثرة، والنزهات السينمائية لشخصيات مثل عاهرة فيديريكو فيليني في «ليالي

كابيريا»، وأبطال «لص الدراجات» لفيتوريو دي سيكا وفي أفلام مايكل أنجلو أنطونيوني). المدن التي لا تتسم بوديتها مثل نابولي ولا بإقصائيتها مثل لوس أنجلوس ولندن ونيويورك، أنتجت ثقافتها الخاصة في المشي. في لندن، منذ القرن الثامن عشر فصاعدًا، لم تعد القصص العظيمة عن المشي تتعلق بالعرض البهيج والمفتوح للحياة العادية والرغبات، بل بالمشاهد الليلية، والجرائم، والمعاناة، والمنبوذين، والجانب الأشد ظلمة من الخيال، وهذا هو التقليد الذي تتبناه نيويورك.

في عام ١٧١١ ذكر كاتب المقالات جوزيف أديسون: «عندما أكون في مزاج متجهم، أسير بمفردي في دير وستمنستر عادة، حيث من المرجح أن تملأ كآبة المكان وما يستخدم لأجله العقل بنوع من الاغتمام، أو بالأحرى الغرق في التفكير، وهذا ليس أمرًا مزعجًا». آنذاك، كان المشي في شوارع المدينة محفوفًا بالمخاطر، كما أشار جون غاي في قصيدته «تفاهات» التي كتبها عام ١٧١٦، أو فن المشي في شوارع لندن. كان التنقل عبر المدينة خطيرًا مثل السفر عبر البلاد: شوارع غارقة بالمجاري والقمامة، وهناك محلات حرف كثيرة وسخة، والهواء سيئ بالفعل، ودمر الجن الرخيص فقراء المدينة كما فعل الكوكايين في المدن الداخلية الأمريكية في ثمانينيات القرن العشرين، وكان طبقة من الفقراء المجرمين والنفوس اليائسة تزدحم في الشوارع. كانت عربات المشاة تتدافع وتصطدم بالمارة من دون خوف من العواقب، والمتسولون يستجدون المارة، والباعة الجائلون ينادون على بضائعهم. الروايات التي تناولت ذلك العصر مملوءة بمخاوف الأثرياء من الخروج، والفتيات اللاتي تم إغراؤهن أو إجبارهن على العمل الجنسي: العاهرات كن في

كل مكان. ولهذا يركز غاي على المشي في المناطق الحضرية باعتباره فنًا - فن حماية النفس من التلطخ والاعتداء والإهانة: «رغم أنك تجوب الأزقة الأنظف في النهار، متحاشيًا زحام الطريق العام/ ولكن حتى في الليل لا تسلك تلك الممرات المظلمة/ لا تلق بالًا إلا للأمان، وانأى بنفسك عن الوحل».

مثل قصيدة الدكتور جونسون «لندن» التي كتبها عام ١٧٣٨، تستخدم «تفاهات» غاي نموذجًا كلاسيكيًا للسخرية من الحاضر. نُشرت القصيدة في ثلاثة كتب -الأول عن أدوات وتقنيات المشي في الشوارع، والثاني عن المشي في النهار، والثالث عن المشي في الليل- قالت القصيدة بوضوح إن تفاصيل الحياة اليومية لا يمكن ملاحظتها إلا بازدراء. فالأسلوب الرفيع لا بد وأن يتناقض مع مثل هذه الأمور الصغيرة، مع شيء من نفس السخرية التي استخدمها عندما كتب أوبرا «متسولون». يحاول غاي: «هنا ألحظ الوجه المختلف لكل واحد من المارة، وفي نظراتهم أثر من طريقة حياتهم». ولكنه ينتهي إلى احتقار الجميع، معتقدًا أنه يستطيع قراءة حياتهم الرخيصة في وجوههم. في نهاية قرن غاي كان وردزوورث «يتقدم مع الزحام»، ويرى لغزًا في وجه كل غريب، بينما يتجول ويليام بليك «في كل شارع مرخَص/ وأميز في كل وجه أقابله/ علامات ضعف، وعلامات بؤس: صرخة رجل ينظف المداخن، ولعنة عاهرة شابة». لم تكن لغة الأدب في أوائل القرن الثامن عشر مرنة بما يكفي أو شخصية بما يكفي لربط حياة الخيال بحياة الشارع. كان جونسون أحد هؤلاء المتسكعين اليائسين في لندن في سنواته الأولى هناك -أواخر ثلاثينيات القرن الثامن عشر- عندما كان هو وصديقه الشاعر والمحتال رينشارد سافاج مُعدمين لا يملكان حتى

أجرة سكن، اعتادا السير في الشوارع والساحات طوال الليل يتحدثان عن التمرد والمجد - لكنه لم يكتب عن ذلك. بوزويل هو من فعل ذلك في كتابه «حياة جونسون»، ولكن بالنسبة إلى بوزويل، كانت ظلمة الليل وغياب هوية الشوارع ليسا فرصة تأملية، كما سجلت مذكراته في لندن: «كان ينبغي لي أن أكون في حفل زفاف السيدة نورثمبرلاند الليلة، ولكن حلاقي مرض [بمعنى أن شعره لم يكن مصففًا بما يليق بالمناسبة]، لذا خرجت إلى الشوارع، وفي نهاية شارعنا التقيت شابة لطيفة تدعى أليس غيبس. ذهبنا إلى مكان مريح في أحد الأزقة». لا نملك أي سجل عن انطباع أليس غيبس عن الشوارع والليل.

حقيقة أن عددًا قليلا من النساء غير العاهرات ملكن حرية التجول في الشوارع وأن التجول في الشارع كان في كثير من الأحيان كافيًا لوسم المرأة بالدعارة، حقيقة معقدة بما يكفي لتأجيل التطرق إليها في موضع آخر. أما هنا فأريد فقط التعليق على وجودهن في الشارع وفي الليل، الموئل الذي أصبحن سكانه الأصليين أكثر من أي نوع آخر من المشاة تقريبًا. حتى القرن العشرين، نادرًا ما تجولت النساء في المدينة لمتعتهن الشخصية، ولم تترك لنا بائعات الهوى أي سجلات تقريبًا عن تجاربهن. كان القرن الثامن عشر خليعًا بما يكفي لوجود عدد قليل من الروايات الشهيرة عن العاهرات، لكن حياة بنات الليل في «حياة فاني هيل» كانت كلها في الداخل، وتظهر حياة «مول فلاندرز»(53) براغماتية تمامًا، وكلاهما من إبداعات مؤلفين ذكور كان عملهم تخمينيًا، على الأقل في جزء منه. لكن في ذلك العصر، مثلما هو الان، لا بد أن ثقافة العمل

في الشوارع كانت موجودة، حيث كانت خرائط كل مدينة تُرسم وفقًا للسلامة واقتصاد الرغبة الذكورية. كانت هناك محاولات عديدة لحصر مثل هذا النشاط، ففي العصر البيزنطي كان في القسطنطينية «شارع المومسات». وضمّت طوكيو من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين منطقة ترفيهية مغلقة. وفي القرن التاسع عشر احتضنت سان فرانسيسكو منطقة الساحل البربري سيئة السمعة. وفي عديد من المدن الأميركية في مطلع القرن العشرين كان هناك مناطق الضوء الأحمر، وأشهرها منطقة ستوريفيل في نيو أورليانز، حيث يذاع أن موسيقى الجاز ولدت فيها. غير أن الدعارة كانت تتجول خارج هذه الحدود، وكان عدد هؤلاء النساء هائلًا: خمسون ألف مومس في لندن عام ١٧٩٣، عندما كان عدد سكانها مليون نسمة، كما قدر خبير بهذا الشأن. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان من الممكن العثور عليهن في أكثر مناطق لندن أناقة: ويشير تقرير المصلح الاجتماعي هنري مايهو إلى «الدعارة المنتشرة في هايماركت وريجنت ستريت»، فضلًا عن العاملات في حدائق المدينة العامة ومتنزهاتها.

قبل أكثر أو أقل من عشرين عامًا، أفاد باحث في الدعارة: «تتكون مشاهد الشوارع المخصصة للمومسات من تجولات، وهي مناطق حدودها فضفاضة تتسكع فيها النساء لجذب الزبائن. خلال ذلك، تتنقل المومس وتتنزه لجذب الزبائن، وللتخفيف من ملل الانتظار، ولتبقي على جسدها دافئًا، ولتقليل إمكانية رؤيتها (من قبل الشرطة)». إن جزءًا من أغلب المناظر الشارعية يشبه المساحات الخضراء المشتركة، وهي مناطق يمكن للجميع الوصول إليها من دون قيود. هنا تتجمع

النساء في مجموعات من اثنتين إلى أربع، يضحكن ويتحدثن ويمزحن فيما بينهن... إن تكرار العمل في المسار نفسه يتيح قدرًا كبيرًا من التنبؤ في بيئة خطيرة تخالف القانون... عملت دولوريس فرينش، المدافعة عن حقوق البغايا، في الشوارع بنفسها، وتقول إن زميلاتها من بائعات الهوى «يعتقدن أن النساء اللاتي يعملن في بيوت الدعارة يخضعن لقيود وقواعد كثيرة جدًا»، في حين أن الشارع «ديمقراطي يرحب بالجميع... شعرن بأنهن مثل رعاة البقر في الميدان، أو الجواسيس في مهمة خطيرة. وتباهين بأنهن حُرَّات إلى أبعد الحدود... لم يكن عليهن استئذان أحد أو الرجوع إلى أحد سوى أنفسهن». تتكرر كلمات: الحرية والديمقراطية والخطر، في هذا كما في السبل الأخرى لشغل الشوارع.

في مدينة القرن الثامن عشر، نشأت صورة جديدة لما يعنيه أن تكون إنسانًا، صورة لشخص يمتلك الحرية والعزلة التي يتمتع بها المسافر، وأصبح المسافرون، بغض النظر عن مدى اتساع نطاقهم أو ضيقه، شخصيات رمزية. اقترح ريتشارد سافيج هذا الأمر مبكرًا في قصيدة كتبها عام ١٧٢٩ بعنوان: «المتجول»، كما افتتح جورج ووكر القرن الجديد بروايته «المتشرد»، والتي أعقبتها رواية «المتجول» لفاني بيرني في عام ١٨١٤. كما كتب وردزوورث «رحلة» (التي حمل جزءاها الأولان عنواني «المتجول» و«المنعزل»)، وحُكم على ملاح كوليريدج القديم بالتطواف مثل اليهودي التائه، وكان اليهودي التائه نفسه موضوعًا محبوبًا لدى الرومانسيين في بريطانيا وأوروبا.

يلاحظ المؤرخ الأدبي ريموند ويليامز أن:

«تصور الصفات الجديدة للمدينة الحديثة ارتبط، منذ بدايته، برجل يمشي كما لو أنه الوحيد في الشوارع». يشير إلى بليك ووردزوورث بوصفهما مؤسيي هذا التقليد، ولكن دون كيونسي هو من كتب حوله بأشد تأثر وانفعال ممكن. في بداية «اعترافات آكل أفيون إنجليزي»، يروي دي كوينسي كيف هرب وهو في عمر السابعة عشرة من مدرسة مملة والأوصياء القساة عليه وانتهى به الأمر في لندن. كان خائفًا فيها من الاتصال بالقلة الذين يعرفهم عاجزًا عن البحث عن عمل من دون معارف. هكذا جاع لستة عشر أسبوعًا في صيف وخريف ١٨٠٢، ولم يجد أي سند في لندن إلا في بيت في منزلٍ مهجور لم يشاركه فيه إلا طفلة بائسة أخرى. سقط في وجود طيفي يشاركه بضعة أطفال آخرين، وجاب الشوارع التي كانت أصلًا مكان من ليس لهم مكان، موقع يُقاس فيه الأسى والوحدة بطول التمشية. «أن أكون نفسي في ذلك الوقت من العوز، مشاءً أو ماشيًا في الطرقات، كان من الطبيعي والمتكرر أن أصادف أولئك المشاءات اللواتي كان يطلق عليهن حرفيًا: «جوّابات الشوارع». لطالنا وقفن في صفي ضد الحراس الذين أرادوا طردي من عتبات البيوت التي كنت أجلس عليها». تصادق كوينسي مع إحداهن وهي فتاة تدعى آن: «خجولة وكئيبة إلى درجة تكشف عمق الحزن الذي استولى على قلبها الغض»، كانت أصغر منه واتجهت إلى الشوارع بعد أن احتيل عليها في ميراث صغير. مرةً، عندما كانا يسيران «ببطء على امتداد شارع أكسفورد، وبعد يوم شعرتُ فيه بالمرض والإغماء بشكل غير عادي، طلبت منها أن تأتي معي إلى ساحة سوهو». وحين أغمي عليه، أنفقت أن القليل الذي تملكه على

النبيذ الساخن المضاف إليه بهارات لإنعاشه. يؤكد كوينسي أنه عجزه عن العثور عليها مرة أخرى بعد أن تغيرت أحواله وأن هذا كان من أكبر المآسي في حياته. بالنسبة إلى كوينسي، كانت إقامته في لندن واحدة من أكثر المراحل التي تأثر بها في حياته الطويلة، رغم أنها بلا تتمة: فقد خصص بقية كتابه لموضوع تأثيرات الأفيون، وقضى بقية حياته في الأماكن الريفية.

كان تشارلز ديكنز مختلفًا، حيث اختار المشي في المدينة، ولسنوات استكشفت كتاباته تلك التجربة بعمق. إنه شاعر حياة لندن العظيم، ويبدو أن بعض رواياته تمثل دراما المكان بقدر ما تمثل دراما الناس. لنتأمل هنا رواية «صديقنا المشترك»، حيث تشكل أكوام الغبار الضخمة، ومتاجر التحنيط الباهتة، والهياكل العظمية، والديكورات الداخلية الجليدية الباهظة الثمن التي يسكنها الأثرياء، صورًا لأولئك الذين ارتبطوا بهذه الأمكنة والتفاصيل. عند ديكنز يصبح الناس والأمكنة واحد؛ فقد لا يتم التعرف على الشخصية إلا باعتبارها جوًا أو عنصرًا مميزًا في مكان، وقد يتخذ المكان شخصية متكاملة. «وهذا النوع من الواقعية لا يمكن اكتسابه إلا بالمشي حالمًا في مكان ما، ولا يمكن اكتسابه بالمشي متيقظًا»، هكذا كتب أحد أفضل مفسري أعمال ديكنز، وهو جي. كيه. تشيسترتون. عزا تشيسترتون حس ديكنز الحاد بالمكان إلى الحادثة الشهيرة في طفولته عندما سُجن والده في سجن المدينين، ووضع ديكنز نفسه للعمل في مصنع طلاء المعادن، وأودع للسكن في بيت مجاور للمصنع، طفلًا بائسًا تُرك للمدينة وغربائها. «قليلون منا يفهمون الشارع» يكتب تشيسترتون. حتى عندما نخطو لندخله نخطو إليه بشك، كما لو كنا ندخل

منزلًا أو غرفة يسكنها غرباء، قليلون منا من يرون خلف اللغز البراق للشارع، والغرباء الذين ينتمون إلى الطريق هم بائعات الهوى أو عرب الشارع(54)، والرُّحل الذين احتفظوا، جيلًا بعد جيل، بأسرارهم القديمة في وهج الشمس. كثيرون منا لا يعرفون عن الشارع في الليل. الشارع في الليل منزل كبير مغلق. وإن كان هناك من إنسان يمتلك مفتاح الشارع، فقد كان ديكنز. «كان في إمكانه أن يفتح الباب الأعمق في منزله - الباب الذي يؤدي إلى الممر السري الذي تصطف على جانبيه البيوت وتسقفه النجوم». كان ديكنز من أوائل الكتّاب الذين أشاروا إلى الأشياء الأخرى التي يمكن للمشي في المدينة أن يكونها: رواياته مليئة بالمحققين ومفتشي الشرطة، والمجرمين يترصدون، والعشاق يبحثون، والأرواح الملعونة تهرب. تصبح المدينة كتلة متشابكة تتجول فيها الشخصيات كلها في لعبة غميضة كبيرة، ولا تستطيع سوى مدينة ضخمة أن تسمح بحبكاته المعقدة المزدحمة بالمسارات المتقاطعة والحيوات المتداخلة ببعضها. ولكن عندما كتب عن تجاربه الشخصية في لندن، كانت في كثير من الأحيان مدينة مهجورة. «إذا لم أستطِع المشي بسرعة وبعيدًا، سأنفجر وأهلك»، هذا ما قاله ذات مرة لصديق، وسار بسرعة وإلى مسافات بعيدة حتى أن قِلة من الناس تمكنوا من مرافقته. كان مشاء وحيدًا، وخدمته جولاته في أغراض لا حصر لها: «أنا الاثنان، رحالة المدينة ورحالة الريف، أنا دائمًا في الطريق»، هكذا يقدم نفسه في «بائع متجول بلا تجارة»(55)The Uncommercial Traveller كتاب ضمنه مجموعة من مقالاته. «بالمعنى المجازي، أسافر لصالح «الشركة الكبرى

لإخوة المنفعة الإنسانية»، أي أن لدي ارتباط قوي بالسلع الفاخرة. بالمعنى الحرفي، أتجول دائمًا هنا وهناك بين غرفي في «كوفنت غاردن» لندن»(56). هذه النسخة الميتافيزيقية من «بائع متجول بلا تجارة» لا تشكل وصفًا كافيًا لدوره، فجرب عدة أدوار أخرى. كان رياضيًا: «قمت بكثير من رحلاتي على قدمي، ولو كان لدي ميل للمنافسات، لربما وجدت اسمي مسجلًا في الصحف الرياضية تحت عنوان من قبيل «المبتدئ المطاط» Elastic Novice، متحديًا جميع من يصل وزنهم إلى أحد عشر كيلوغرامًا في المنافسة على المشي. كان آخر عمل فذ قمت به النهوض من فراشي في الثانية صباحًا بعد يوم شاق من المشي والعمل وخلافه، ثم المشي ثلاثين ميلًا في الريف إلى أن يحين موعد الفطور. كان الطريق خاليًا في الليل حتى أنني نعست على وقع قدميّ الرتيب، وهما تسيران بسرعة أربعة أميال في الساعة». بعد بضعة مقالات من هذا، أصبح ديكنز متشردًا من سلالة متشرد: «مشيتي من نوعين: نوع مستقيم إلى هدف محدد بخطى خفيفة ثابتة، ونوع آخر بلا هدف، ومتسكع، ومتشرد تمامًا. وفي الحالة الأخيرة هذه، لا يوجد غجري على وجه الأرض أكثر تسكعًا مني، إنه أمر طبيعي جدًا بالنسبة إليّ، وقوي في داخلي حتى أنني أعتقد أنني حفيد متشرد لا أمل في إصلاحه». ثم أصبح شرطيًا في دوريته، وكان رقيقًا وحالمًا جدًا فلا يمكنه أن يعتقل أحدًا إلا في ذهنه: «إن أحد خيالاتي هو أن أي جولة أقوم بها لا بد وأن يكون لها دائمًا وجهتها المحددة. وفي مثل هذه المناسبة، من عادتي أن أعتبر جولاتي بمثابة دورية، وأن أعتبر نفسي ضابط شرطة رفيعًا يؤدي واجبه كما هو

معتاد».

ومع ذلك، رغم كل هذه الانشغالات العملية والزحام الذي يملأ كتبه، كثيرًا ما كانت لندن في نظره مدينة مهجورة، وكان المشي فيها متعة سوداوية. في مقال له عن زيارة المقابر المهجورة، كتب: «كلما شعرت بأنني أستحق أن أكافئ نفسي بشكل خاص، وأنني كسبت الحق في التمتع بشيء صغير، أتجول من كوفنت غاردن إلى مدينة لندن، بعد ساعات العمل هناك، يوم السبت، أو الأفضل من ذلك، يوم الأحد، فأتجول في أركانها وأزقتها المهجورة». لكن أكثر مقالات الكتاب تميزًا كان «نزهات ليلية»، الذي يبدأ بـ«قبل بضع سنوات، تسبب أرق مؤقت، يمكن ردَه إلى فكرة مقلقة راودتني، في جعلي أهيم في الشوارع طوال الليل، ولعدة ليالٍ متتالية». وصف ديكنز هذه الجولات التي امتدت من منتصف الليل حتى الفجر بأنها علاج للضيق الذي انتابه، وخلالها «تعلَمت تجربة معقولة في أن أكون بلا بيت Houselessness» - أو ما يسمى الآن تشردًا Homelessness. لم تعد المدينة خطيرة كما كانت في زمن غاي وجونسون، لكنها أصبحت أشد وحدة. كانت لندن في القرن الثامن عشر مزدحمة، صاخبة، تغص بالمنحرفين، والعروض العامة، والمزاح بين الغرباء. بحلول الوقت الذي كتب فيه ديكنز عن المشردين في عام ١٨٦٠، كانت لندن أكبر بعدة مرات، ولكن الغوغاء الذين كانوا يخشونهم في القرن الثامن عشر دُجنوا إلى حد كبير في القرن التاسع عشر وأصبحوا جماعة، أي كتلة هادئة رتيبة تتابع شؤونها الخاصة على الملأ. يسير في الشوراع تحت المطر المتراقص، يمشي «التشرد» يمشي يمشي ويمشي، لا يرى شيئًا سوى تشابك الطرق التي لا نهاية لها،

بخلاف زاوية هنا وهناك، حيث يتحدث شرطيان، أو الرقيب أو المفتش واقفًا يراقب رجاله... من وقت إلى آخر، في الليل -ولكن نادرًا- كان «التشرد» يدرك وجود رأس متسلل يطل من باب على بعد أمتار قليلة أمامه، وعندما يقترب من الرأس، يجد رجلًا واقفًا منتصب القامة ليبقى في مساحة ظل الباب، ومن الواضح أنه لا ينوي تقديم أي خدمة إلى المجتمع. القمر البري والغيوم الشرسة كانا مضطربين كضمير شرير في فراش متقلب، وظل بضخامة لندن يرقد على النهر كأنه يخنقه. ومع هذا، يستمتع ديكنز بالشوارع الليلية المقفرة، كما يستمتع بالمقابر و«الأحياء الخجولة» وما أسماه برومانتيكية وغرابة «لندن الأركاديانية»(57)، لندن في غير موسمها، عندما ذهب الناس بأعداد كبيرة إلى الريف، تاركين المدينة هادئة مثل قبر.

هناك حالة خفية يعرفها أغلب المتجولين المتفانين في المدن، وهي نوع من التنعم بالوحدة -وحدة مظلمة تتخللها لقاءات كما تتخلل النجوم سماء الليل. في الريف تكون وحدة المرء جغرافية- فهو خارج المجتمع تمامًا، وبالتالي فإن الوحدة لها تفسير جغرافي معقول، ثم هناك نوع من التواصل مع غير البشر. أما في المدينة، فيشعر المرء بالوحدة لأن العالم يتألف من غرباء، وأن يكون المرء غريبًا محاطًا بغرباء، وأن يسير في صمت حاملًا أسراره ومتخيلًا أسرار الأشخاص الذين يمر بهم، لهو من أشد مظاهر الترف بساطةً. هذه الهوية غير المستكشفة بإمكانياتها غير المحدودة هي إحدى الصفات المميزة للحياة الحضرية، وهي حالة تحررية لأولئك الذين يأتون للتخفف من توقعات الأسرة والمجتمع، والتجريب مع الثقافات الفرعية

والهوية. إنها حالة مراقب، هادئ، منعزل، ذي حواس حادة، وهي حالة جيدة لمن هو بحاجة إلى التأمل أو الإبداع. فالسوداوية والاغتراب والاستبطان، بجرعات صغيرة، من بين أكثر متع الحياة رقيًا.

لم يمضِ وقت طويل منذ أن سمعت المغنية والشاعرة باتي سميث تجيب على سؤال أحد محاوريها في مقابلة إذاعية حول ما كانت تفعله استعدادًا لعروضها على المسرح قائلة: «كنت أذرع الشوارع لبضع ساعات». بهذا التعليق الموجز، استجمعت رومانسيتها المجرّمة والطريقة التي يقودها بها المشي إلى تكثيف إحساسها وشحذه، ويلفّها في عزلة تخرج منها أغانٍ شرسة بما يكفي وكلمات صارخة بما يكفي لكسر صمتها المتأمل المستغرق. ربما لم يكن هيامها في الشوارع مثمرًا في كثير من المدن الأمريكية، حيث الفندق يتخندق وراء موقف سيارات، وتحيط به طرق من ست حارات تفتقر إلى الأرصفة، لكنها تحدثت كنيويوركية. أما فرجينيا وولف فتكلمت كلندنية، في مقالها «مطاردة الشوارع» عام ١٩٣٠، ووصفت مجهولية هوية السائر في الطرقات بالشيء الجميل والمرغوب. كانت وولف ابنة متسلق الجبال العظيم ليزلي ستيفن، وقد أخبرت صديقة لها: «كيف يمكنني أن أعتبر الجبال وتسلقها رومانسيًا؟ ألم أنشأ وفي غرفتي حراب التسلق وخريطة معلقة لجبال الألب توضح كل قمة تسلقها والدي؟ طبعًا أحب لندن ووحولها أكثر من أي مكان آخر». في زمنها، كان حجم لندن قد اتسع أكثر من الضعف منذ جولات ديكنز الليلية، وتغيرت الشوارع مرة أخرى لتصبح ملاذًا. كتبت وولف عن القمع المقيد لهوية المرء، وعن الطريقة التي تفرض بها الأغراض في بيوتنا علينا «ذكريات تجاربنا الخاصة». وهكذا

انطلقت في أمسية شتوية لشراء قلم رصاص في مدينة لا تشغل السلامة واللياقة فيها امرأة لم تعد شابة، ولدى سردها -أو اختراعها- تفاصيل جولتها كتبت واحدة من المقالات العظيمة عن المشي في المدينة.

«عندما نخرج من المنزل في مساء جميل بين الرابعة والسادسة» كتبت: «نتخلص من الذات التي يعرفنا بها أصدقاؤنا ونصبح جزءًا من ذلك الجيش الجمهوري الضخم من المتشردين المجهولين، ونجد في صحبتهم متعة كبيرة بعد عزلة الغرفة». تقول عن الناس الذين تراقبهم: «يمكن للمرء أن يشق طريقًا صغيرًا في كل واحدة من هذه الحيوات، وأن يذهب بعيدًا بما يكفي ليتوهَم بأنه ليس مقيدًا بعقل واحد، وأن في مقدوره ارتداء أجساد الآخرين وعقولهم للحظة، لبضع دقائق». «يمكن للمرء أن يصبح المرأة التي تغسل الثياب، أو البائع في الحانة، أو مغنية جوالة في الطرقات». في هذه الحالة من مجهولية الهوية، «تحطم الغطاء الشبيه بالصدفة الذي شيدته أرواحنا حول نفسها لتصنع لها شكلًا يميزها عن سواها، لم يتبقَّ من كل هذه التجاعيد والخشونة إلا محارة مركزية من فراسة الحواس، عين هائلة. ما أجمل الشارع في الشتاء! مكشوف وغامض في الوقت نفسه». مشت وولف في شارع أكسفورد الذي سار فيه كوينسي وآن، والذي تصطف على جانبيه الآن نوافذ مليئة برفاهية أثثت بها بيتًا متخيلًا وحياة ثم بددت كليهما لتعود إلى نزهتها. لغة التأمل التي ساعد وردزوورث في تطويرها وصقلها كوينسي وديكنز صارت لغتها الآن، وجعلت أقل الحوادث -حركة طيور بين الشجيرات، امرأة قزمة تجرب الأحذية- خيالها يتجول إلى أبعد مما تصل إليه قدماها، إلى استطرادات تعود منها

كرهًا إلى وقائع مشوارها. لقد أصبح المشي في الشوارع، أمرًا طبيعيًا، والوحدة والاستغراق اللذان لطالما خاف منهما أسلافها، بهجة بالنسبة إليها. أصبح التأمل والوحدة بهجة من حيث أن هويتها صارت عبئًا عليها، وهذه ما يجعلهما من سمات الحداثة.

نيويورك، مثلها مثل لندن، نادرًا ما تتلقى مديحًا خالصًا، فالمدينة ضخمة وشرسة. وكشخص حميم من المدن الصغيرة، فإنني أستهين دائمًا باتساعها فأنتهي إلى أن أرهق نفسي لمسافات طويلة، تمامًا كما أفعل بالسيارة في لوس أنجلوس. لكنني معجبة بمانهاتن: خلية النحل في محطة غراند سنترال برقصها التوقيعي، الوتيرة السريعة للناس على امتداد شبكات الشوارع الطويلة، المشاة الذين يقطعون الشارع من دون التزام، المتسكعون الأبطأ في الساحات، والمربيات ذوات البشرة الداكنة اللواتي يدفعن عربات أطفالًا شاحبين أمامهن عبر ممرات سنترال بارك الأنيقة.

بينما أسير بلا هدف واضح أو إحساس بالاتجاه، كثيرًا ما عطّلت التدفق السريع للمارة الذين يمشون بقصد مهمة واضحة أو في طريقهم إلى العمل، كأنني فراشة ضلت طريقها إلى خلية نحل، أو عقبة في مجرى مائي. لا يزال ثلثا الرحلات حول وسط المدينة ووسط مانهاتن يجري على الأقدام، ونيويورك، مثل لندن، مدينة يمشي فيها الناس لأغراض عملية، فيتدفقون صعودًا ونزولًا على سلالم المترو وعبر التقاطعات - لكن المتأملين والمتنزهين الليليين يتحركون بـ تيمبو مختلف. تجعل المدن من المشي سفرًا حقيقيًا: الخطر، المنفى، الاكتشاف، التحول، كلها تلتف حول بيت

أحدهم وتعود لتصل إلى عتبة الباب.

الكاتب الإيطالي المتعصّب رودوفسكي يستخدم لندن لازدراء نيويورك: «إن الهوس الأنجلوساكسوني الذي ساد أميركا الشمالية كان له تأثير مدمر في سنوات تكوينها. لا شك أن الإنجليز ليسوا نموذجًا مرغوبًا للمجتمع الحضري. لم يتطور لدى أي أمة أخرى مثل هذا التفاني الشديد للحياة الريفية كما تطور لديهم. ولسبب وجيه وارسخ، فقد كانت مدنهم من أقل مدن أوروبا نظافة ومراعاة للشروط الصحية. قد يكون الإنجليز مخلصين بشدة لمدنهم، ولكن الشارع -وهو مقياس التحضر ذاته- لا يشكل أهمية كبيرة في وجدانهم». تشكل شوارع نيويورك أهمية كبيرة في أعمال بعض كتابها. «باريس شقراء»، كما تقول الأغنية الفرنسية، وكثيرًا ما صور الشعراء الباريسيون مدينتهم على هيئة امرأة. نيويورك، بتصميمها الشبكي، ومبانيها المظلمة وأبراجها الشاهقة، وصلابتها المعروفة، مدينة ذكورية، وإذا كانت المدن مصدر إلهام فلا عجب أن أفضل مديح لها غناه شعراؤها المثليون -والت ويتمان، وفرانك أوهيرا، وألن غينسبرغ، والشاعر الناثر ديفيد ويناروفيتش (رغم أن الجميع من إديث وارتون إلى باتي سميث عبروا عن إعجابهم بهذه المدينة وشوارعها).

في قصائد ويتمان، ورغم أنه كثيرًا ما يتحدث عن نفسه سعيدًا بين أحضان حبيب، فإن المقاطع التي يظهر فيها وحيدًا يمشي في الشوارع بحثًا عن ذلك الحبيب -وهي ما تجعله رائدًا في البحث عن لقاء مثليّ عابر- تبدو أكثر صدقًا وأصالة. في قصيدة «مدونو العصور Recorders Ages Hence هنا»(58) يذكر ويتمان بلا تحفظ أنه «من

سار كثيرًا في تمشيات وحيدة يفكر في أصدقائه الأعزاء، عشاقه». وبعد بضعة قصائد في النسخة النهائية من «أوراق العشب»، يبدأ ويتمان قصيدة أخرى بتوجيه الخطاب إلى «مدينة العربدات والتمشيات والمسرات» City of Orgies, Walks and Joys. وبعد أن سرد كل المعايير الممكنة لشهرة المدينة -المنازل والسفن والاستعراضات- اختار «ليس كل ذلك، لكنها، فيما أمر يا مانهاتن، ومضة عيونك الخاطفة المتكررة التي تعرض عليّ الحب»: التمشيات وليس طقوس العربدة، والوعود وليس الوفاء بها هي المسرات. كان ويتمان من أعظم من أبدعوا قوائم وجداول تجرد وتصنف وتصف التنوع وحجم التنوع في المدينة، وكان من أوائل من أحبوا الزحام. فالزحام وعد بعلاقات جديدة، ويعبر عن مُثله الديمقراطية وحماسه الهائل كالمحيط. بعد «مدينة العربدات» تأتي قصيدة «إلى غريب»: «أيها الغريب المار، أنت لا تدري كم أتطلع إليك بشوق»! بالنسبة إلى ويتمان، تتكامل النظرة الخاطفة وحميمية الحب، مثلما هي أناه القوية مكملة لحشوده المجهولة. وهكذا أنشد مديحًا لمدينة مانهاتن المتضخمة والاحتمالات الجديدة لنطاقها الحضري.

مات ويتمان عام ١٨٩٢، في الوقت الذي بدأ فيه الجميع الاحتفاء بالمدينة. وفي النصف الأول من القرن الجديد، حملت المدينة قيمة رمزية - عاصمة القرن العشرين، كما كانت باريس في القرن التاسع عشر. ارتبط القدر والأمل بالحياة الحضرية لدى الراديكاليين والنخبة الثرية في تلك الأيام، وكانت نيويورك بأبراجها وبسفنها البخارية الفاخرة التي ترسو والمهاجرين الذين يتدفقون من جزيرة إليس، وناطحات السحاب التي لم تستطع حتى جورجيا

أوكيف مقاومة رسمها أثناء إقامتها في نيويورك، المدينة الحديثة الأكيدة. في عشرينيات القرن العشرين، كرّست مجلة لهذا الموضوع، «نيويوركر»، التي كان قسم «حديث المدينة» فيها يجمع حوادث الشوارع البسيطة التي يجعل منها كتابها أحداثًا براقة على غرار مقالات مجلة «سبكتاتور» و«رامبلر» اللندنيتين في القرن الثامن عشر، كما كانت المجلة تتناول موسيقى الجاز وعصر النهضة في هارلم، والبوهيمية الراديكالية في قرية غرينتش (وفي سنترال بارك كانت منطقة رامبل، وهي المنطقة المعروفة بنزهات المثليين التي يبحثون خلالها عن لقاءات جنسية حتى أطلق عليها «السهل الخصب»). قبل الحرب العالمية الثانية، كانت بيرينيس أبوت تجوب شوارع نيويورك لتصوير المباني، وبعدها، صورت هيلين ليفيت أطفالًا يلعبون في الطرقات، بينما صور ويغي العالم السفلي لجثث على الأرصفة وعاهرات في سيارات الشرطة. يتخيل المرء أنهم يتجولون بهدف محدد كصيادين وجامعي ثمار، والكاميرا سلة محمّلة بمشاهد اليوم، فالمصورون لا يتركون لنا تفاصيل تمشياتهم كما يفعل الشعراء، بل يتركون لنا ثمارها. لم يكن لويتمان خليفة حتى ما بعد الحرب، عندما حلَ آلان غينسبرغ محلَه، أو على الأقل في سطوره الطويلة وصخبه الاحتفالي.

يُقال أحيانًا إن غينسبرغ ابن سان فرانسيسكو، وقد وجد صوته الشعري أثناء وجوده هناك وفي بيركلي في الخمسينيات، ولكنه شاعر من نيويورك، والمدن التي يروي قصائده فيها مدن كبيرة جارحة. كان هو ورفاقه متحمسين لكل ما يرتبط بالمدينية في وقت كانت الطبقة المتوسطة البيضاء تهجر حياة المدينة وتتجه إلى الضواحي

(ورغم أن عديدين من جيل البيت تجمعوا في سان فرانسيسكو، فإن معظمهم كتبوا الشعر عن أشياء شخصية أو عمومية أكثر من الشوارع التي تجمعوا فيها، أو استخدموا المدينة كبوابة إلى ثقافة آسيا وتضاريس الغرب الأميركي(59)).

كتب غينسبرغ عن الضواحي، خاصة في قصيدته «سوبر ماركت في كاليفورنيا»، حيث سوبر ماركت بمنتجاته الوفيرة والأسر المتسوقة فيه، ويصوِّر بشكل كوميدي شاعرين مثليين راحلين -ويتمان وفيديريكو جارسيا لوركا (سكن نيويورك بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٠)- متخيلًا أنهما يجوبان أجنحته. وبخلاف ذلك، كانت قصائده المبكرة مليئة بالثلوج والأبنية السكنية وجسر بروكلين. مشى غينسبرغ كثيرًا في سان فرانسيسكو ونيويورك، ولكن المشي يتحول في قصائده دائمًا إلى شيء آخر، لأن الرصيف يتحول دائمًا إلى سرير أو جنة بوذية أو أي شبح آخر. كان أفضل عقول جيله «يجرجرون أنفسهم عبر شوارع زنجيةٍ في الفجر باحثين عن إبرةِ مخدر ساخطة»(60)، لكنهم بدءوا على الفور في رؤية الملائكة تترنح على أسطح المباني السكنية، تأكل النار، وتهلوس بمأساة أركنساس وبليك لايت، وما إلى ذلك، حتى لو تعثروا بعد ذلك في طريقهم إلى مكاتب البطالة وساروا «طوال الليل وأحذيتهم بالدم مليئة على أرصفة مرفأ سدَها الثلج في انتظار أن يُفتح في النهر الشرقي باب...».

كان التنقل أو السفر مهمًا إلى أبعد الحدود بالنسبة إلى جيل البيت، ما لم يكن مهمًا لديهم هو طبيعة هذا التنقل بدقة (باستثناء سنايدر المشاء الحقيقي في الشلَة). عايشوا نهاية رومانسيات الثلاثينيات من مسافرين يقفزون إلى عربات

البضائع ومشردين وأرصفة سكك الحديد، وأسهموا في ثقافة السيارات الجديدة حيث يخف القلق مئات الأميال بسرعة ٧٠ ميلًا في الساعة بدلًا من عشرات الأميال بسرعة ٣ أو ٤ أميال على القدمين، ودمجوا هذا السفر في رحلات خاضتها مخيلاتهم تحت تأثير المخدرات ومع نوع جديد كليًا من اللغة المتمردة. كأن سان فرانسيسكو ونيويورك مرساة للمشائين على امتداد جانبي الطريق الطويل المفتوح الذي سلكوه. يمكننا أن نرى التحول في الأغاني الريفية بالطريقة نفسها: ففي وقت ما من خمسينيات القرن العشرين، توقف العشاق الذين خابت آمالاهم عن الابتعاد أو اللحاق بالقطار في منتصف الليل وبدءوا في قيادة السيارات، ومع السبعينيات وصلت تلك الأغاني إلى تأليه الشاحنات ذات الثماني عشرة عجلة. لو امتد العمر بكيرواك لوقع في حبها. فقط في القسم الأول من قصيدة «كاديش» Kaddish(61)، عندما يتوقف غينسبرغ عن غناء جيله وأصدقائه ليرثي والدته، يبقى الفعل والمكان موضوعين محددين. الشوارع مستودعات للتاريخ، والمشي وسيلة لقراءة هذا التاريخ. يبدأ القصيدة: «غريب أن أفكر فيك الآن، وقد رحلت دون كورسيهات وعيون، بينما أسير على الرصيف المشمس في قرية غرينتش». وبينما يمشي في الجادة السابعة، يفكر في نعومي غينسبرغ في الجانب الشرقي السفلي، «حيث مشيت قبل خمسين عامًا، فتاة صغيرة - من روسيا/... ثم تصارعين وسط حشود شارع أورتشارد نحو ماذا؟/ -نحو نيوارك-» يجمع مدينتها ومدينته في تناغم صوتي من كلمة واحدة، في الأقسام اللاحقة من القصيدة ينضم إلى غينسبرغ ووالدته

تجاربهما المشتركة خلال طفولته.

وسيمًا مثل تمثال من الرخام، كان فرانك أوهيرا مختلفًا تمامًا عن غينسبرغ كشاعر مثليّ ولد في العام نفسه، وكتب عن مغامرات يومية أكثر حساسية. كان شعر غينسبرغ شعر خطاب ومراثٍ وترانيم يصرخ بها من فوق أسطح المنازل، أما شعر أوهيرا فهو حميم مثل محادثة يتبعها تسكع في الشارع (من بين عناوين كتبه «قصائد الغداء» -ليست عن الطعام ولكن عن التمشيات التي كان يقوم بها وقت استراحة الغداء أثناء عمله في متحف الفن الحديث- الجادة الثانية، ومجموعة المقالات (الوقوف بلا حراك والمشي في نيويورك Standing Still and Walking in New York). وفي حين كان غينسبرغ يميل إلى التحدث إلى أميركا، كان أوهيرا غالبًا ما يخاطب «أنت»، الذي يبدو أنه حبيب غائب في مناجاة صامتة أو رفيق في نزهة. يتذكر الرسام لاري ريفرز: «من أكثر التجارب إدهاشًا وفرادة، تمشية بسيطة مع أوهيرا». كتب أوهيرا قصيدة بعنوان: «المشي مع لاري ريفرز». يبدو أن المشي كان جزءًا رئيسيًا من ذخيرته اليومية، كأنه نوعٌ من النحو الذي ينظم الفكر والعاطفة واللقاء، وكانت المدينة هي الموقع الوحيد الذي يمكن تصوره لصوته الرقيق والفطن والمسرحي أحيانًا الذي يحتفل بالعرضي وغير المنطقي. في قصيدته النثرية «تأملات في حالة طوارئ» Meditations in an Emergency يقول: «لا أستطيع أن أستمتع حتى بورقة عشب ما لم أعلم أن هناك مترو قريب، أو متجر أسطوانات أو أي علامة أخرى تشير إلى أن الناس لا يندمون تمامًا على الحياة. من الأهم أن نؤكد على أقل الأشياء نقاءً، فالسحب تحظى بما يكفي من الاهتمام

أصلًا..». تنتهي قصيدة «المشي إلى العمل»: «أنا أتحول شارعًا. من حبيبك؟ أنا؟ مباشرة أقطع الطريق مخالفًا إشارة المرور». ثم تبدأ قصيدة مشي أخرى: «تعبت من أنني لا أرتدي ملابس داخلية/ ولكن أحب التجول بينما أشعر بالريح تمر برقة على خصيتيّ». ثم يستمر في التكهن: «من الذي رمى علبة البسكويت الفارغة هذه؟» قبل أن يتجه إلى الغيم، أو الحافلة، أو وجهته الـ«أنت» الذي يتحدث إليه، أو سنترال بارك. نسيج القصيدة يشبه نسيج الحياة اليومية ونسيج عين الخبير التي تستقر على الأشياء الصغيرة والإلهامات الصغيرة، ولكن نوع المخزون الذي يرصع قصائد ويتمان وغينسبرغ يتكرر في قصائد أوهيرا. المدن ولَادة أبدية للقوائم(62).

يبدو أن كتاب ديفيد ويناروفيتش «قريبا من السكاكين: مذكرات الانحلال» ملخصًا لكل التجارب الحضرية التي مرت به. مثل كوينسي، كان ويناروفيتش هاربًا، ولكنه مثل آن صديقة كوينسي، كان يعول نفسه طفلًا بالدعارة، ومثل ديكنز وغينسبرغ، جلب وضوحًا متوهجًا وهلوسيًا إلى أمزجة مدينته ومشاهدها. أغلب الذين انخرطوا في تناول «البيت» للعالم السفلي للمدينة من الإيروتيكي والمسطول والمجرَم، فعلوا ذلك على طريقة ويليام بوروز، باللامبالاة بالموضوع أخلاقيًا، اهتموا به كموضوع «كوول» أكثر من الالتفات إلى عواقبه أو سياساته، بينما كان ويناروفيتش ساخطًا على النظام الذي خلق مثل هذه المعاناة، الذي خلق معاناته طفلًا هاربًا، ورجلًا مثليًا، وإنسانًا مصابًا بالإيدز (الذي توفي بسببه في عام ١٩٩١). يكتب ويناروفيتش تركيبة، كولاجًا، من الذكريات

واللقاءات والأحلام والخيالات والانفجارات المليئة بالمجازات المفزعة والصور المؤلمة، يظهر المشي في كتاباته كلازمة متكررة، كإيقاع: فيعود دائمًا إلى صورة لنفسه يسير وحيدًا في شارع أو ممر في نيويورك. «مرّت ليالٍ سرنا فيها على امتداد سبع مئة أو ثماني مئة مبنى، أي ما يعادل جزيرة مانهاتن كلها تقريبًا»، هكذا كتب عن سنوات عمله في الشارع، حين المشي كان الملاذ الآمن لمن ليس لديهم مكان ينامون فيه، كما كان بالنسبة إلى جونسون وسافيج.

اكتملت الدائرة التي رسمها ويناروفيتش لمدينة نيويورك في ثمانينيات القرن العشرين لتشبه لندن غاي في أوائل القرن الثامن عشر. فقد كانت تعاني آفات الإيدز، والعدد الهائل الجديد من المشردين، ومن خرّبتهم المخدرات يترنحون في كل مكان وكأنهم في رواية «جين لين» لويليام هوغارث، كانت نيويورك مُضيّتة بوحشتيها، حتى أن الأثرياء كانوا يخشون شوارعها كما كانوا يخشون شوارع لندن ذات يوم. كتب ويناروفيتش كيف شاهد «سيقان طويلة وأحذية مدببة وكعب عالٍ أنيق، وثلاث عاهرات يحطن فجأة برجل أعمال من والدورف، ويقلن: تعالَ يا حبيبي، ويفركن قضيبه... وتظهر محفظته خلف ظهره في يد إحداهن ثم ينسحبن كلهن بينما يواصل هو الضحك» ها نحن نعود إلى مول فلاندرز(63) وهي تجرد رجل مغمى عليه من أغراضه، قفازاته الفضية وعلبة السعوط وحتى من شعره المستعار. يكتب عن السنوات التي كابد خلالها سوء التغذية والتعرض للبرد، والعيش في الشوارع حتى الثامنة عشرة من عمره: «كدت أموت ثلاث مرات على أيدي أشخاص بعت لهم جسدي في تلك الأيام وبعد خروجي من الشارع...

بالكاد استطعت التحدث في صحبة اخرين... لم يخرج ثقل الصورة والإحساس حتى التقطت قلم رصاص وبدأت في تدوين ما حدث على الورق». «الخروج من الشارع»: تصف العبارة الشوارع كلها كواحد، وهذا الشارع كعالم كامل، بمواطنيه وقوانينه ولغته. «الشارع» عالم يصبح الأشخاص فيه فارين من التروما التي تحدث داخل البيت ليصبحوا سكانًا أصليين لخارج البيت.

أحد فصول الكتاب بعنوان: «أن تكون كويريًا في أميركا: يوميات انحلال»، هو سجل منظم لاستخدامات المشي بالنسبة إلى رجل مثليّ في شوارع أمريكا الحضرية في الثمانينيات، تمامًا كما كانت رواية «كبرياء وتحامل» سجلًا لاستخدامات المشي بالنسبة إلى سيدة ريفية قبل قرنين تقريبًا. يبدأ ويناروفيتش هذا الفصل: «أسير عبر هذه الممرات حيث النوافذ تشظّي سماءً تموت ببطء ورياح هادئة تتبع كعب طفل يخطو فجأة عبر باب على بعد عشر غرف إلى الأسفل». يتبع الطفل إلى الغرف التي تشبه الأرصفة الطويلة والمستودعات التي اعتاد أن يبحث فيها عن واحد...، وبعد بضع فقرات، يتحول مشيه إلى حداد على صديقه، المصور بيتر هوغار، الذي مات بالإيدز. «مشيت لساعات في الشوارع بعد موته، وسط الظلام المتراكم والزحمة، وصولًا إلى القسم المحتضر من المدينة حيث أجساد تتكدس على الأرصفة وكلاب تمزق أكياس القمامة النتنة عند مداخل البيوت. كان هناك تورم أخضر في الغيوم فوق المباني... استدرت وغادرت، مشيت عائدًا إلى الضباب الرمادي لزحمة المرور والعوادم، مررت بجانب عاهرة نحيفة تمشي مشية مدمنة حانية خصرها وأصابع يديها تجر على الرصيف». يلتقي صديقًا له

-«رجل في الجادة الثانية في ٢:٠٠ صباحًا»- يخبره عن ثالث هاجمته سيارة محملة بالمراهقين من جيرسي في شارع ويست وضربوه بوحشية لأنه مثليّ. ثم تأتي لازمته: «أمشي في هذا الممر سبعًا وعشرين مرة وكل ما أستطيع رؤيته هو الجدران البيضاء الباردة. يد تفرك الوجه ببطء، لكن يدي فارغة. أسير هنا وهناك من غرفة إلى أخرى، أتبع ظلالًا زرقاء، أشعر بالضعف...» مدينته ليست جحيمًا بل ليمبو، المكان الذي تهيم فيه الأرواح المضطربة إلى الأبد، وحدها العاطفة والصداقة والقدرة الرؤيوية فقط هي التي تفتدي المدينة.

بدأت أمشي في شوارع مدينتي عندما كنت مراهقة، وسرت فيها طويلًا حتى تغير كلانا الشوارع وأنا، أفسح المشي اليائس في فترة المراهقة -حين كان الحاضر يبدو محنة أبدية- الطريق للتمشيات التأملية والمهمات التي لا تحصى لمن لم يعد ينتهي بها الأمر منقبضة جدًا، معزولة جدًا، فقيرة جدًا، وأصبحت تمشياتي الآن غالبًا مراجعات لتاريخي الشخصي وتاريخ المدينة معًا. تتحول الأراضي الخالية إلى مبانٍ جديدة، ويحتل الهبائيون(64) الشباب حانات كبار السن القديمة، وتتحول صالات كاسترو للديسكو إلى متاجر فيتامينية، وتتغير شوارع وأحياء بأسرها. حتى الحي الذي أعيش فيه تغير كثيرًا حتى لأشعر أحيانًا كأنني تنقلت مرتين ثلاثًا من الزاوية الصاخبة التي بدأت فيها وأنا أوشك الدخول في العشرين. سائرو المدن الذين قمت بمسحهم يقترحون نوعًا من مقياس المشي، وعلى هذا المقياس، انتقلت من نهاية الطيف القريبة من غينسبرغ- ووناروفيتش إلى نسخة فرجينيا وولف الفقيرة المتسكعة.

قبل يومين من نهاية العام، ذهبت إلى أحد متاجر ألور المحلية لشراء الحليب في وقت مبكر من صباح أحد أيام الأحد. عند المنعطف، كان هناك رجل يجلس عند مدخل أحد الأبواب يشرب ويغني بصوت مرتفع، بتلك الموهبة التي يتمتع بها بعض السكارى المحليين في الغناء بصوت كأنه لملاك يسقط. خرجت كلمة «Aloooone» بلا مقدمات، وتردَد صداها بشكل جميل في بيت الدرج. وفي طريق عودتي رأيته يتمايل بجهد كبير ويترنح حتى أنه لم يلحظ مروري بجانبه على بعد بضعة أقدام. استحوذ المشي وحده على تركيز المغني كله، كما لو كان يجبر نفسه على المرور عبر جو تكاثف من حوله. عندما بدأت أسقي شجرة أمام مبناي، كان يحوم عند نفس الزاوية. مرَت العجوز التي ترتدي الفساتين دائمًا وتتحدث دائمًا بأدب شديد بكلمات ملخبطة وجمل مهلهلة ذاهبةً في الاتجاه الآخر. قلت لها «مرحبا» عندما مرت أمامي، لكنها لم تلحظني بأفضل مما فعل. وعندما صارت بالقرب منه، بدأت تمشي فجأة كأنها ترقص بنقرات خفيفة ناعمة استمرت حتى اختفت عن الأنظار في الزاوية المقابلة. كأن الاثنين يستمعان إلى نوع من الموسيقى الصامتة حملتهما معها وجعلتهما مبتهجين ومسكونين بها في الوقت نفسه.

في وقت لاحق، كان رواد الكنيسة يظهرون. عندما انتقلت إلى هنا، لم تكن هناك مقاهٍ، وجميع رواد الكنيسة يأتون مشيًا - في صباحات الأحد كانت الشوارع مزدحمة واجتماعية بنساء سود يرتدين قبعات براقة، ويمشين في كل الاتجاهات إلى كنائسهن، ليس بخطوات الحجيج الدؤوبة وإنما بخطوات مرحة لمحتفلات. كان ذلك منذ زمن بعيد، فقد أدى التحديث إلى تشتيت جماعات المعمدانيين

إلى أحياء أخرى، ويذهب عديدون منهم الآن إلى الكنيسة بسياراتهم. الشبان الأفروأمريكيون يتمهلون في مشيهم، أرجلهم تتنقل لا مبالية بينما تتراقص أيديهم وأكتافهم كما لو كانوا يحددون مساحة ملموسة حولهم، حلّ محل معظم المصلين السائرين على الأرصفة، في صباحات نهاية الأسبوع، العداؤون ومن ينزهون الكلاب وهم في طريقهم إلى المعبد العلماني الكبير للطبقة الوسطى، وهو الحديقة كما تُمثلها حديقة غولدن غيت بارك، بينما يتجه المتأثرون بسكر الليلة الفائتة نحو المقاهي. في هذا الوقت المبكر كان الشارع ملكًا لنا نحن الثلاثة، أو ملكًا لهما، فقد جعلاني أشعر وكأنني شبح يطوف علنًا في حياتهم الخاصة في ذلك الصباح البارد المشمس من يوم الأحد، في العزلة المشتركة للسائرين في المدينة.

الفصل الثاني عشر
باريس، أو دراسة النبات على الأسفلت

يعيش الباريسيون في حدائقهم العامة وشوارعهم كما لو أنها صالونات وردهات، وتطل مقاهيهم على الطرقات وتتجاوز حدودها لتمتد إليها وكأن مسرح المارة مثير للاهتمام لدرجة لا يمكن تجاهله حتى أثناء احتساء مشروب. نساء عاريات من البرونز والرخام في كل مكان في الهواء الطلق، يقفن على قواعد ويبرزن من الجدران كما لو أن المدينة متحف ومخدع، بينما تعلو أقواس النصر والأعمدة الشوارع كأنهما (تماثيل النساء وأعمدة النصر) يوني ولينغام(65) لجنسانية مقاتل. الشوارع تصير أفنية، وتحيط المباني الأكبر حجمًا بأفنية أخرى هي في الواقع حدائق، والمباني الرسمية بطول الشوارع، والشوارع محفوفة بالأشجار والكراسي على جانبيها كما هي الحدائق بالضبط. كل شيء -المنازل والكنائس والجسور والجدران- باللون الرمادي الرملي لكأن المدينة بناء واحد من التعقيد المعماري الذي لا يمكن الإحاطة به، أو أنها نوع من الشعاب المرجانية للثقافة الرفيعة. كل هذا يجعل باريس تبدو مسامية، وكأن التفكير الخاص والأفعال العامة ليسا منفصلين هنا كما هو الأمر في أماكن أخرى، حيث يتدفق السائرون فيها داخل وخارج أحلام اليقظة والثورات. دخلت باريس، أكثر من أي مدينة أخرى، في لوحات وروايات أولئك الذين وقعوا تحت سطوتها، بحيث يعكس تمثلها وواقعها بعضهما بعضًا مثل زوج من المرايا المتقابلة، وغالبًا ما يوصف المشي في باريس بأنه قراءة، وكأن المدينة نفسها عبارة عن مختارات ضخمة

من الحكايات. تمارس جاذبية مغناطيسية على مواطنيها وزوارها، فلطالما كانت عاصمة اللاجئين والمنفيين وعاصمة فرنسا.

«الآن منظر طبيعي، الآن غرفة»، هكذا كتب فالتر بنيامين عن تجربة من يتمشى في باريس. بنيامين هو أحد أعظم الباحثين في مجال المدن وفن التجوال فيها، جذبته باريس إلى أعماقها كما جذبت عديدين من قبل، حتى أصبحت تطغى على الموضوعات الأخرى التي تناولها في كتاباته خلال العقد الأخير قبل وفاته في عام ١٩٤٠. زار باريس أول مرة عام ١٩١٣ وعاد لزيارات أطول وأطول حتى استقر هناك أخيرًا في نهاية عشرينيات القرن العشرين.

حتى في كتابته عن مسقط رأسه، برلين، كانت كلمات بنيامين تتجول نحو باريس. «أن لا يعثر المرء على طريقه في المدينة أمر عادي ولا يثير الاهتمام. إنه يقتضي الجهل لا أكثر. أما أن يضيّع المرء نفسه في المدينة كما يضيّع نفسه في الغابة فهذا يتطلب تدريبًا مختلفًا كليًا». ثم لا بد أن اللافتات وأسماء الشوارع والمارة والأسقف والأكشاك والحانات تتكلم إلى المتجول مثلما يتكسر غصن تحت قدميه، مثل نداء مفاجئ من طائر الواق في البعيد، مثل الهدوء المفاجئ في فسحة بين الأشجار يقف وسطها الزنبق منتصبًا. «لقد علمتني باريس فن الضياع»، هكذا قال في مقال عن طفولته في برلين. «حققت حلمًا ظهر أثره الأول في المتاهات على الصفحات الشفافة من كراسات التمارين المدرسية». نشأ كألماني ممتثل للتقاليد من أوائل القرن العشرين يقدس الجبال والغابات -يظهر في صورة له وهو طفل يحمل عصا

تسلق أمام رسمة لجبال الألب، وكثيرًا ما أمضت أسرته الثرية إجازات طويلة في الغابة السوداء وسويسرا- ولكن حماسه للمدن كان رفضًا لتلك الرومانسية البالية وانغماسًا في حضرية الحداثة في آن.

أذهلته المدن باعتبارها نوعًا من التنظيم الذي لا يمكن إدراكه إلا بالتجوال أو بالتنقل والتفرج عليها، وهو نظام مكاني يتناقض مع النظام الزمني الخطي المنظم للسرديات والتسلسلات الزمنية. في مقالته عن برلين، تحدث عن التجلي الذي حدث له في مقهى باريس - «كان لا بد أن يحصل في باريس، حيث الجدران والأرصفة، وأماكن للتوقف والاستراحة، والمقتنيات والقمامة، والأسوار والساحات، والبوائك والأكشاك، كل هذا يعلِّم لغة فريدة من نوعها»، حياته بأسرها يمكن رسمها في خريطة أو متاهة، وكأن المكان وليس الزمان هو البنية التنظيمية الأساسية لها. في مذكراته في موسكو مزج حياته الشخصية بقصة المدينة، وكتب كتابًا يحاكي في شكله المدينة، وهو «شارع ذو اتجاه واحد»، وفيه مزيج تخريبي من المقاطع القصيرة التي تحمل عناوين كما لو كانت مواقع ومعالم من المدينة: محطة بنزين، موقع بناء، السفارة المكسيكية، شقة مفروشة فاخرة من عشر غرف، بضائع صينية. إذا كان السرد يشبه مسارًا واحدًا مستمرًا، فإن السرديات القصيرة العديدة في هذا الكتاب تشبه شبكة من الشوارع والأزقة.

كان هو نفسه متسكعًا عظيمًا في الشوارع. أتخيل بنيامين وهو يمشي في شوارع باريس -«لا أعتقد أنني رأيته يمشي برأس مرفوع. كانت مشيته تحمل شيئًا لا لبس فيه، شيئًا تأمليًا ومتلعثمًا، ربما كان

ذلك بسبب ضعف نظره»، كما قال أحد الأصدقاء- يمر دون أن يلاحظ منفيًا آخر أسوأ بصرًا منه، جيمس جويس، الذي عاش هناك من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٤٠. هناك نوع من التناسق بين الكاثوليكي المنفي الذي كتب رواية مليئة بالمعلومات الغامضة عن يهودي يتجول في شوارع دبلن، واليهودي المنفي من برلين الذي يتجول في شوارع باريس بينما يكتب قصصًا تاريخية غنائية عن كاثوليكي -شارل بودلير- يمشي ويكتب في شوارع باريس. المكانة التي نالها جويس في حياته، حظي بها بنيامين بعد زمن طويل من إعادة اكتشاف أعماله في ألمانيا أولًا في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين ثم في اللغة الإنجليزية. أصبح بنيامين قديس الدراسات الثقافية، ومن نسل كتاباته ظهرت مئات المقالات والكتب الأخرى. ربما كانت الطبيعة الهجينة لكتاباته -التي تأخذ منحنى دراسيًا بحثيًا إلى حد ما في موضوعاتها، ولكنها مليئة بالجمل العظيمة وشطحات الخيال الملهمة، وفيها معرفة استفزازية أكثر من كونها معرفة محددة ودقيقة- هي التي جعلته مصدرًا خصبًا لمزيد من التفسيرات. كانت دراساته الباريسية محل اهتمام خاص، فقد ترك مجموعة ضخمة من الاقتباسات والملاحظات لعمل غير مكتوب، «مشروع البوائك»، الذي كان من شأنه أن يتوسع بشكل أكبر في الموضوعات المرتبطة ببودلير وباريس والبائكة الباريسية وشخصية المتسكع Flâneur. كان هو الذي أطلق على باريس اسم «عاصمة القرن التاسع عشر» وهو الذي جعل المتسكع موضوعًا للأكاديميين في نهاية القرن العشرين.

من هو المتسكع بالضبط؟ لم يعرفه أحد تعريفًا وافيًا، ولكن بين كل النسخ التي تصف المتسكع

بأنه متكاسل متجذر في أشد حالات الوجود أصالة وبدائية، إلى شاعر صامت، هناك شيء واحد يظل ثابتًا: صورة لرجل منعزل متجول في باريس يراقب كل شيء حوله بتيقظ. يقول هذا شيئًا عن السحر الذي مارسته الحياة العامة على الباريسيين حتى أنهم طوروا مصطلحًا لوصف أحد أنماطها، كما يقول شيئًا عن الثقافة الفرنسية التي نظَرت حتى للتسكع. لم تصبح الكلمة دارجة إلا مع أوائل القرن التاسع عشر، ولا تزال أصولها غامضة. تقول بريسيلا باركهورست فيرجسون إنها تأتي من «اللغة الإسكندنافية القديمة flana أي [الركض هنا وهناك باضطراب]»، بينما تكتب إليزابيث ويلسون: «تشير موسوعة لاروس Encylopedie Larousse في القرن التاسع عشر إلى أن المصطلح قد يكون مشتقًا من كلمة أيرلندية تعني «مُنحل». خصص مؤلفو هذه الطبعة من لاروس مقالًا طويلًا للـ Flâneur، الذي عرّفوه بأنه مستهتر متجول يهدر الوقت. وربطوه بالتسلية الحضرية الجديدة من تسوق ومراقبة الناس. أشارت لاروس إلى أن الـ Flâneur لا يمكن له أن يوجد إلا في مدينة كبرى، ميتروبول، لأن البلدات والمدن الصغيرة ستقيّد مساحة تجواله».

لم يضع بنيامين نفسه مفهومًا واضحًا للمتسكع، بل ربطه فقط بأشياء معينة: بوقت الفراغ، بالازدحام، بالاغتراب أو الانفصال، بالمراقبة، بالتمشي، وخاصة التنزه في البوائك - ومن هنا يمكن الاستنتاج أن المتسكع كان ذكرًا، يتمتع بشيء من الترف، وحساسية مهذبة، مع بعضٍ من حياة أسرية أو من دونها. يزعم بنيامين أن مفهوم المتسكع نشأ في فترة مبكرة من القرن التاسع عشر عندما أصبحت المدينة كبيرة ومعقدة إلى الحد الذي جعلها للمرة الأولى غريبة على أهلها. كان المتسكعون موضوعًا

متكررًا في السلاسل الروائية Feuilleton -روايات كانت تنشر على شكل سلسلة من صفحة واحدة في الصحف الشعبية الجديدة- وفي فيزيولوجيات Physiologies، وهي تلك المنشورات الرائجة التي زعمت أنها سوف تجعل الغرباء مألوفين، وبدلًا من ذلك أكدت على غرابتهم من خلال تصنيفهم كأنواع يمكن التعرف عليها بمجرد النظر إليها، مثل الطيور أو الزهور. في القرن التاسع عشر، كانت فكرة المدينة تثير فضول سكانها وتدهشهم حتى أنهم كانوا يقرءون الدليل السياحي لمدنهم بشغف كما يطالع المسافرون الحديثون أدلة المدن الأخرى.

زحمة الناس في حد ذاتها كانت شيئًا جديدًا في التجربة الإنسانية -مجموعة من الغرباء الذين سيظلون غرباء- وكان المتسكع يمثل نوعًا جديدًا، نوعًا يشعر كما لو كان في بيته حين يكون في هذا الاغتراب: «الزحام هو مجاله، تمامًا كما أن الهواء هو مجال الطيور، والماء هو مجال الأسماك»، هكذا كتب بودلير في مقطع شهير يُستخدم غالبًا لتعريف المتسكع. يتلخص شغفه ومهنته في الاندماج مع الناس. بالنسبة إلى الخامل المثالي، للمراقب الشغوف، يصبح العيش بين زحام المارة، في الانسياب والتقاطع، في الضجيج، في اللحظات العابرة واللانهائية، مصدرًا هائلًا للمتعة. أن يشعر بالبعد عن البيت ويشعر كأنه في البيت أينما مكان... كتب بنيامين في أشهر فقراته حول هذا الموضوع: «يذهب المتسكع ليدرس النباتات على الأسفلت. ولكن حتى في تلك الأيام لم يكن التجوال في كل مكان من المدينة ممكنًا. فقبل هاوسمان (الذي أعاد تصميم باريس) كانت الأرصفة العريضة نادرة، ولم توفر الأرصفة الضيقة سوى حماية قليلة من العربات. وما كان من الممكن أن يكتسب التجوال

الأهمية التي اكتسبها لولا البوائك». كتب في مكان آخر: «حظيت البوائك، حيث لا لا يتعرض المتسكع للعرباتِ التي ترى في المشاة خصومًا، بشعبية مطردة. كان هناك العابر الذي يحشر نفسه في الزحام، وكان هناك أيضًا المتسكع الذي يطالب بمساحة لنفسه ولا يقبل بالتنازل عن حياة سيد مرفّه». ويضيف بنيامين أن أحد مظاهر هذا التلكوء في وقت الفراغ كان الموضة السائدة في حوالي عام ١٨٤٠، حين كان الناس يصطحبون السلاحف في نزهة في الأروقة. «كان المتسكعون يفضلون أن تحدد السلاحف وتيرة سيرهم. ولو كان الأمر متروكًا لهم، لاضطر التقدم نفسه إلى التكيف مع هذه الوتيرة». كان مشروع البوائك، عمله الأخير غير المكتمل، مخصصًا لاكتشاف معاني أروقة التسوق هذه التي نشأت خلال العقود الأولى من ذلك القرن. زادت تلك الأروقة المقنطرة من طمس الداخل والخارج: شوارع للمشاة مرصوفة بالرخام والفسيفساء ومحاطة بالمحلات التجارية، أسطحها من مواد البناء الجديدة من فولاذ وزجاج، وكانت أول الأماكن في باريس التي أنارتها أضواء الغاز الجديدة. كانت البوائك، وهي بمثابة مقدمة لمتاجر باريس الكبرى (وبعد ذلك مراكز التسوق في أمريكا)، بيئات أنيقة لبيع السلع الفاخرة واستيعاب المتجولين المتلكئين. سمحت الأروقة لبنيامين بربط افتتانه بالمتسكع بموضوعات أخرى أكثر ماركسية. فالمتسكع الذي يستهلك السلع والنساء بصريًا بينما يقاوم سرعة التصنيع وضغوط الإنتاج، هو شخصية غامضة، تقاوم الثقافة التجارية الجديدة وتنجذب إليها في آن. إن من يتجول بمفرده في نيويورك أو لندن يختبر المدن باعتبارها أجواءً وعمارة ولقاءات عابرة، والمتجول في إيطاليا

أو السلفادور يقابل الأصدقاء أو يغازل، بينما يقترح وصف المتسكع بأنه يحوم على الحدود، لا منعزلًا ولا اجتماعيًا، ويختبر باريس باعتبارها وفرة مسكرة من الزحام والبضائع.

معضلة المتسكع الوحيدة أنه لم يكن موجودًا إلا كنوع ومثال وشخصية في الأدب. وكثيرًا ما يوصف بأنه يشبه المحقق في مراقبته المتحفظة للآخرين، وقد ناقشت الباحثات النسويات ما إذا كان هناك متسكعات أم لا، ولكن لم يعثر أي محقق أدبي على فرد حقيقي مؤهل أو معروف بأنه متسكع (كيركيغارد، لو كان أقل إنتاجًا وأقل دنماركية، لكان المرشح الأفضل على الأرجح). لم يسجل أحد اسم شخص أخذ سلحفاة في نزهة، وكل من يشير إلى هذه الممارسة يستخدم بنيامين كمصدر (رغم أن الكاتب جيرار دي نيرفال، خلال ذروة المتسكعين المزعومة، كان يأخذ سلطعونًا للتنزه معه(66)، مع شريط حريري كسلسلة، لكنه فعل ذلك في الحدائق وليس البوائك، ولأسباب ميتافيزيقية وليس لأسباب مبتذلة). لم يحقق أحد فكرة المتسكع بالضبط، لكن الجميع انخرطوا في نسخة من التسكعية Flâneury. على النقيض مما قال بنيامين من أن التجول لم يكن ممكنًا «في كل مكان في المدينة»، بل إنه كان يمارس على نطاق واسع. كثيرًا ما كان السائر المنفرد في المدن الأخرى شخصية هامشية، بعيدة عن الحياة الخاصة التي تجري بين المقربين وفي داخل المباني - ولكن في باريس في القرن التاسع عشر، كانت الحياة الحقيقية تحدث في الأماكن العامة، في الشارع وبين أفراد المجتمع. باريس، قبل أن يقوم البارون جورج أوجين هوسمان بعملية ضخمة لإعادة

تشكيلها بين عامي عام ١٨٥٣ و١٨٧٠، كانت مدينة قروسطية. «الشقوق الضيقة»، كما يصفها فيكتور هوجو، «تلك الأزقة المظلمة والمتعرجة، المحاطة بأنقاض يصل طولها إلى ثمانية طوابق...». كان الشارع ضيقًا والمجاري واسعة، وسار المارة على رصيف مبلل دائمًا، بجانب متاجر تشبه السراديب، وثمة كتل حجرية كبيرة محاطة بالحديد، وتكدسات ضخمة من القمامة... لم تكن المدينة مقسمة بشكل لافت للانتباه: حتى ساحة اللوفر نفسها ضمت نوعًا من الأحياء الفقيرة المبنية داخلها، وفي الساحة الخارجية المكشوفة للقصر الملكي يباع الجنس، والسلع الفاخرة، والكتب، والمشروبات، في حين تقام الفعاليات الاجتماعية والنقاش السياسي مجانًا. في عام ١٨٣٥، خرجت الكاتبة فرانسيس ترولوب(67) للتسوق في متجر أنيق «وصلت إليه من دون أي مغامرة أخرى سوى أن رشقتني السيارات مرتين وكدت أدهس في الثالثة»، وفي طريق عودتها حاملة مشترياتها، توقفت لتنظر إلى «النصب التذكارية التي أقيمت على نصف دزينة... من الأبطال الثوريين، الذين سقطوا ودفنوا في مكان لا يبعد كثيرًا عن النافورة» وتناهى إليها، وإلى مجموعة بجانبها، حرفي يخبر ابنته لماذا قاتل هو وهؤلاء الأبطال عام ١٨٣٠. في أيام أخرى، كتبت عن احتجاج شاهدته وعن المتنزهقين المتأنقين في جادة «ديز إيتاليان». اختلط التسوق والثورة، والسيدات والحرفيون، في هذه الشوارع القذرة الساحرة.

كتب مغربي(68) زار باريس عامي ١٨٤٥ و١٨٤٦ معجبًا بحياة التنزه فيها: «في باريس توجد أماكن يمشي فيها الناس، وهي إحدى أشكال الترفيه

لديهم. يمسك الرجل بذراع صديقه، رجلًا كان أو امرأة، ويذهبان معًا إلى أحد الأماكن المعروفة بذلك. يتجولان، ويتحدثان ويستمتعان بالمناظر. إن فكرتهم عن الخروج ليست الأكل أو الشرب، وليست الجلوس بالتأكيد. إحدى المتنزهات المفضلة لديهم ممشى يسمى «الشانزليزيه». كانت الأماكن الشعبية للتنزه هي الشانزليزيه، وحدائق تويلري، وشارع لارين، والقصر الملكي، جادة «ديز إيتاليان»، وكلها على الضفة اليمنى، وحديقة النباتات وحدائق لوكسمبورج على الضفة اليسرى للسين، حيث نشأ بودلير. في رسالة كتبها إلى والدته عام ١٨٦١، تذكر بودلير «نزهاتهما الطويلة وعاطفتهما الدائمة! أتذكر الأرصفة الحزينة جدًا في المساء»، وتذكر أحد أصدقائه عندما كان شابًا فلطالما تجولا «مساءً في الشوارع وفي حدائق تويلري».

كان الناس يذهبون إلى الجادات من أجل المجتمع. ويذهبون إلى الشوارع والأزقة من أجل المغامرة، فخورين بقدرتهم على التنقل عبر الشبكة الواسعة التي لم تكن قد رُسمت بشكل كامل بعد. حتى قبل الثورة الفرنسية، كان بعض الكتّاب والمتجولين يعتزون بفكرة المدينة بوصفها نوعًا من البرية الغامضة والمظلمة والخطرة والمثيرة بلا آخر. «ليالي باريس، أو المتفرج الليلي» لريتيف دو لا بروتون هو الكتاب الكلاسيكي للنزهات التي سبقت الثورة (وبعد الثورة زيد على الكتاب ليشمل «ليالي الثورة»، الذي نُشر لأول مرة عام ١٧٨٨ وزاد عليه في تسعينيات القرن الثامن عشر). كان ريتيف فلاحًا، ثم طابعًا، ثم باريسيًا، ثم كاتبًا، وهو أحد «غريبي الأطوار» العظام في الأدب الفرنسي، لكنه قلما يُذكر الآن. كتب كتابًا تلو الاخر، محاكيًا اعترافات روسو في سيرته الذاتية المكونة من ستة

عشر مجلدًا، وقلّد جوستين للماركيز دي ساد في كتابه «ضد جوستين» (الذي بيع، مثل أعمال ساد، في مكتبة لبيع المواد الإباحية في بوائك ملحقة بالقصر الملكي)، وأنتج عشرات الروايات، بالإضافة إلى بعض المقالات الصحفية عن باريس التي تنبئ بفيزيولوجيا القرن التاسع عشر. كتاب «الليالي» فريد من نوعه، فهو مجموعة من مئات الحكايات عن مغامراته في مئات الليالي في شوارع باريس. يغطي كل فصل قصير ليلة منها، والحجة وراء الكتاب هي أنه كان يعمل كمبشر لإنقاذ الفتيات المنكوبات وإحضارهن إلى راعيته، الماركيزة «دو. إم...». رغم أن لديه مغامرات من أنواع أخرى أيضًا. لكن نوعية الكتاب المتسلسلة تذكرنا بالمغامرات الكثيرة للمخادع الأمريكي الأصلي كويوتي أو الرجل العنكبوت في القصص المصورة.

في تمشياته في وقت متأخر من الليل، يلتقي بروتون فتيات يعملن في متاجر، وحدادين، وسكارى، وخدمًا، وعاهرات بالطبع، ومخبرين على السياسيين في المناقشات، وأرستقراطيين يزنون (خاصة في التويلري)، ويرى جرائم وحرائق وغوغاء ورجال يرتدون ملابس نساء، وجثة قتلت للتو. يكتب عن باريس بالطريقة التي سيكتب بها عديد من الآخرين لاحقًا: باريس ككتاب، وبرية، وأرض مثيرة للشهوة الجنسية، أو غرفة نوم. كانت جزيرة سانت لويس ملاذه المفضل، ومن عام ١٧٧٩ إلى عام ١٧٨٩ نقش على جدرانها الحجرية تواريخ لها أهمية شخصية كبيرة لديه، وبعض الكلمات المستفزة. وهكذا أصبحت باريس مصدر مغامراته وكتابًا يسجله، وحكاية تُكتب وتُقرأ أثناء المشي. وكما كانت حلوى مادلين الشهيرة تذكر بروست بماضيه، فقد فعلت هذه النقوش لبروتون: «كلما

توقفت على طول الحاجز [في جزيرة سانت لويس] لأتأمل فكرة حزينة، كانت يدي تتبع التاريخ والفكرة التي حركتني على الفور. كنت أسير حينها، تلفني ظلمة الليل الذي كان صمته ووحدته مشوبين برعب استلذيته». يقرأ التاريخ الأول الذي نحته: «لا أستطيع وصف المشاعر التي غمرتني عندما تذكرت العام الماضي... جرفتني الذكريات، وقفت بلا حراك، منشغلًا بربط اللحظة الحالية بالعام السابق، لجعلهما واحدًا». استعاد قصص الحب وليالي اليأس والصداقات الممزقة. باريس بالنسبة إليه غرفة نوم مليئة بالعلاقات الغرامية في الحدائق والفجور في الشوارع (وصادف أن بروتون كان مولعًا بأقدام النساء، فكان يلاحق أحيانًا فتيات بأقدام صغيرة وكعوب عالية). في باريسه، تتدفق خصوصية الحياة الجنسية باستمرار في الأماكن العامة، والمدينة برية، لأن مساحاتها وتجاربها العامة والخاصة متداخلة جدًا ولأنها خارجة عن القانون، ومظلمة، ومليئة بالمخاطر.

في القرن التاسع عشر، كان موضوع المدينة باعتبارها منطقة برية يظهر مرارًا في الروايات والقصائد والأدب الشعبي. كانت المدينة تُدعى «غابة عذراء»، وكان مستكشفوها في بعض الأحيان، على حد تعبير بنيامين الشهير، علماء طبيعة «يعملون على دراسة النباتات على الأسفلت»، لكن سكانها الأصليين «متوحشين» غالبًا. كتب بودلير في مقطع يستشهد به بنيامين: «ما هي مخاطر الغابة والبراري مقارنة بالصدمات والصراعات اليومية للحضارة؟». «سواء أمسك الرجل بضحيته في بولفار أو طعن فريسته في غابة مجهولة - ألا يظل، هنا وهناك، الأكثر كمالًا بين الوحوش المفترسة؟». وفي إعجابه بروايات

جيمس فينيمور كوبر عن البرية الأميركية، أطلق ألكسندر دوما على روايته اسم «موهيكان باريس»، وهي مغامرات محقّق متسكع يسمح لقطعة ورق تطير بأن تقوده إلى مغامرات تنطوي دائمًا على جرائم. كما وضع روائي أقل شهرة، بول فيفال، شخصية صادمة من الأميركيين الأصليين في باريس، تسلخ فروة رأس أربعة أعداء في سيارة أجرة. ويذكر بنيامين أن بلزاك يشير إلى «موهيكان يرتدون سترات سبنسر» و«هيرون يرتدون معاطف رسمية»(69). وفي وقت لاحق من القرن العشرين، لُقب المتسكعون والمجرمون الصغار بـ«أباتشي». وقد أضفت هذه المصطلحات على المدينة سحر الغرابة، وحولت شعوبها إلى قبائل، وأفرادها إلى مستكشفين، وشوارعها إلى برية. كانت جورج ساند إحدى مستكشفات المدينة، التي وجدت نفسها على رصيف في باريس «أشبه بقارب على الجليد. انشق حذائي الخفيف في يومين، وأفقدني حذاء الباتن(70) توازني، وكنت أنسى دائمًا رفع فستاني. كنت متسخة ومتعبة وسال أنفي، وشاهدت حذائي وملابسي... وحالتها تتدهور بسرعة رهيبة». تحولت ساند لاحقًا إلى ارتداء ملابس رجالية، ورغم أن هذا الفعل يوصف غالبًا بأنه فعل اجتماعي تخريبي، إلا أنها وصفته بأنه عملي. منحها زيها الجديد حرية الحركة التي كانت تستمتع بها: «لا أستطيع أن أعبر عن مدى سعادتي بحذائي... ومع ذلك الحذاء ذي الكعب الممسمر، تمكنت أخيرًا من السير على الرصيف. جبت باريس روحة ورجعة أحسست أنني أتجول حول العالم. قاومت ملابسي الطقس أيضًا. ذهبت إلى هنا وهناك في جميع الأحوال الجوية، وعدت إلى البيت في جميع الأوقات، وجلست في

كل حفرة(71) مسرح».

لكنها لم تكن البرية التي خاضها بروتون في العصور الوسطى. ففي أعمال بودلير تتكرر بعض الشخصيات -العاهرة، والمتسول، والمجرم، والغريب الجميل- ولكنه لا يتحدث إليهم، ويظل محتوى حياتهم موضع تكهن بالنسبة إليه. التسوق بالنظر إلى الفترينات ومراقبة الناس أصبحا نشاطين لا يمكن التمييز بينهما، يمكن للمرء أن يحاول أن يشتري ولكن لا يحاول أن يتعرف عليهم. «المتعدد، المنفرد: كلمتان متطابقتان، يمكن للشاعر الحيوي الغزير أن يستخدم الواحدة منهما مكان الأخرى»، هكذا كتب بودلير. «الإنسان العاجز عن أن يحشد عزلته لا يستطيع أن يكون وحيدًا في زحام صاخب. يتمتع الشاعر بامتياز لا مثيل له، قدرته على أن يكون نفسه أو أي شخص آخر... ومثل تلك الأرواح الهائمة التي تبحث عن جسد، فإنه يدخل كما شاء إلى شخص أي إنسان. فبالنسبة إليه وحده كل شيء شاغر». تشبه مدينة بودلير البرية بطريقة أخرى: إنها وحيدة.

اجتثت باريس القديمة مثل غابة على يد البارون هوسمان، وهو الذي نفذ رؤية نابليون الثالث لمدينة حديثة رائعة وسهلة الإدارة. ومنذ ستينيات القرن التاسع عشر، كان من الشائع القول إن تدمير هوسمان لشوارع العصور الوسطى المتعرجة وإنشاءه للجادات الكبرى ليس إلا تكتيكًا مضادًا للثورة، ومحاولة لجعل المدينة قابلة للاختراق من قبل الجيش، وغير قابلة للدفاع عنها من قبل المواطنين. وفي الواقع، قام المواطنون بالثورة في عام ١٧٨٩ و١٨٣٠ و١٨٤٨، جزئيًا من خلال بناء حواجز على طول الشوارع الضيقة. ومع ذلك، هذا لا يفسر

باقي مشروع هوسمان. استوعبت الشوارع الجديدة الواسعة تدفق أعداد متزايدة من السكان والتجارة، وفي بعض الأحيان القوات، وتحتها قنوات مياه ومجاري صرف صحي جديدة، قضت على شيء من رائحة المدينة القديمة وأمراضها - وضممت غابة بولونيا كحديقة عامة كبيرة على الطراز الإنجليزي. باعتبارها مشروعًا سياسيًا، تبدو خطة هوسمان محاولة لا لإخضاع الباريسيين بل لإغوائهم، وباعتبارها مشروعًا إنمائيًا، فقد هُجِر الفقراء من وسط المدينة إلى أطرافها وضواحيها، حيث ما زالوا حتى اليوم (على النقيض من أغلب المدن الأميركية بعد الحرب العالمية الثانية -مانهاتن وسان فرانسيسكو استثناءات- حيث امتلأت بالفقراء عندما تدفقت الطبقة المتوسطة إلى الضواحي). بذلت جهود أخرى لتمدين «برية» المدينة في القرن التاسع عشر: إنارة الشوارع، وترقيم المنازل، ومد الأرصفة، وتسمية الشوارع الموزعة بانتظام، وخرائط، وكتب إرشادية، وزيادة دوريات الشرطة، وتسجيل البغايا ومقاضاتهن أو الاثنين.

الشكوى الأساسية ضد هوسمان من شقين، الأول هو أنه بهدم كثير من المدينة القديمة، أزال التشابك الدقيق بين العقل والعمارة، والخريطة الذهنية التي يحملها السائرون معهم، والارتباطات الجغرافية بذكرياتهم وعلاقاتهم. في قصيدة عن المشي عبر أحد مواقع البناء التي صممها هوسمان بالقرب من متحف اللوفر، كتب بودلير أن: «باريس تتغير! لكن لا شيء في كآبتي تغير! القصور الجديدة، والسقالات، وأكوام الحجارة، والأحياء القديمة. كل شيء أصبح مجازًا بالنسبة إلي، وذكرياتي العزيزة أثقل من الحجارة». وبما إن بودلير هو بودلير، فإن القصيدة تنتهي «في غابة روحي المنفية». كتب

الأخوان إدموند وجول غونكور في مذكراتهما في الثامن عشر من نوفمبر ١٨٦٠: «باريسي، باريس التي ولدت فيها، باريس التي سادت من ١٨٣٠ إلى ١٨٤٨، تتلاشى ماديًا ومعنويًا... أشعر أنني رجل يمر عابرًا من باريس فقط، مسافر. أنا غريب عمّا سيأتي، وعمّا هو موجود، وغريب عن هذه الجادات التي تمتد مستقيمة من دون أن تتعرج، ومن دون مغامرات في الأفق المنظور...».

الشكوى الثانية هي أن هوسمان حوّل البرية إلى حديقة رسمية بفضل شوارعه العريضة المستقيمة. وكانت الشوارع الجديدة استمرارًا لمشروع بدأه قبل قرنين أندريه لونوتر الذي واصل تصميم حدائق فرساي الشاسعة لصالح لويس الرابع عشر. صمم لونوتر حدائق تويلري وشارع الحدائق في الشانزليزيه الممتد غربًا من تويلري إلى إيتوال، حيث وضع نابليون لاحقًا قوس نصره. كانت معظم هذه التصاميم التي صممها لونوتر خارج أسوار المدينة وبالتالي خارج الحياة الاقتصادية لها، لكن المدينة توسعت لاحقًا واستوعبتها. وهكذا فإن الشوارع التي بناها لونوتر للمتعة فقط في ستينيات القرن السابع عشر تطورت للترفيه والصناعة على يد هوسمان في ستينيات القرن التاسع عشر (تمت محاكاة هذه المحاور الطويلة في مدن مختلفة قبل ذلك بوقت طويل، واشنطن العاصمة واحدة من المدن التي استلهمت هذه الهندسة الإمبراطورية). كان هوسمان جماليًا بقدر ما كان لو نوتر، وقد تسبب في إزعاج إمبراطوره عندما قام بتسوية سطح التلال وبذل جهودًا أكبر لجعل شوارعه مستقيمة تمامًا، وفتح خطوط الرؤية الطويلة التي ما زالت تميز باريس إلى اليوم. ومن عجيب المفارقات أنه في الوقت الذي سادت فيه الحديقة الإنجليزية

وتحولت الحدائق إلى أن تكون «طبيعية» -لا منتظمة ولا متماثلة ومليئة بالخطوط المتعرجة بدلًا من المستقيمة- فقد قُطعت حديقة فرنسية رسمية من الأراضي البرية في باريس.

أفسحت الشوارع- الرطبة الحميمة الخانقة السرية الضيقة المتعرجة بحصى الطرق الذي يبرز كقشور جلد الثعبان- مكانها للمساحة العامة الاحتفالية، مساحة مليئة بالضوء والهواء والأعمال والفكر. وإذا قورنت المدينة القديمة في كثير من الأحيان بالغابة، فربما لأنها كانت تراكمًا عضويًا لتصرفات مستقلة لمخلوقات عديدة، وليست تنفيذًا لخطة رئيسية وضعها شخص واحد، إذ لم تُصمَم بل نبتت. ولم تكن هناك خريطة لهذا الشكل العضوي المتعرج. وكان كثيرون يكرهون التغيير: «بالنسبة إلى المتنزهين، ما هي الضرورة التي كانت تدفعهم إلى السير من مادلين إلى إيتوال بأقصر طريق ممكن؟ على العكس من ذلك، يحب المتنزهون إطالة مشوارهم، ولهذا السبب يمشون في نفس الزقاق ثلاث أو أربع مرات متتالية»، كما كتب أدولف تيير. المشي في البرية هو أحد أنواع المتعة التي تتطلب الجرأة والمعرفة والقوة بالنسبة للمتوحشين والمحققين والنساء في ملابس الرجال، أما المشي في الحديقة فهو نوع ألطف بكثير. جعلت شوارع هوسمان من المدينة متنزهًا، والأكثر من ذلك، جعلت من مواطنيها متنزهين. بدأت الأروقة المسقوفة تتدهور مع ازدهار الشوارع بالمحلات التجارية وولادة المتاجر الكبرى- وخلال كومونة عام ١٨٧١ بنى الثوار حواجزهم في وسط الجادات الكبرى.

لم يكن بودلير أول من لفت انتباه بنيامين إلى

البوانك وإلى إمكانية تصور المشي كفعل ثقافي، بل معاصرو بنيامين - زميله البرليني وصديقه فرانز هيسل والكاتب السريالي لويس أراغون. وجد بنيامين كتاب أراغون «فلاحو باريس» الصادر عام ١٩٢٦ مبهجًا إلى درجة: «لم أكن أستطيع في الأماسي على السرير أن أقرأ منه أكثر من بضع كلمات قبل أن ينبض قلبي بقوة حتى اضطررت إلى وضع الكتاب جانبًا... وفي الواقع، جاءت الملاحظات الأولى لمشروع البوانك Passagenwerk [Arcades Project] من هذا الوقت. ثم جاءت سنوات برلين، حيث كان أفضل جزء من صداقتي مع هيسل يتغذى على مشروع Passagen في المحادثات المتكررة». في مقالته عن برلين، وصف بنيامين هيسل كدليل، من بين آخرين قدموه للمدينة. هيسل نفسه كتب عن المشي في برلين (وعمل مع بنيامين على ترجمة رواية مارسيل بروست «بحثًا عن الزمن المفقود»، رواية تتناسب بموضوعاتها عن الذاكرة والمشي واللقاءات العرضية وصالونات باريس مع نموذجي الأدب الفرنسي اللذين اختارهما بنيامين، بودلير وأراغون). هؤلاء الكتاب والفنانون من القرن العشرين هم من تنطبق عليهم سمات متسكع القرن التاسع عشر بشكل أفضل.

يعتبر كتاب «فلاحو باريس» لأراغون واحدًا من ثلاثة كتب سريالية نُشرت في أواخر عشرينيات القرن العشرين، والآخران هما «نادجا» لأندريه بروتون و«ليالي باريس الأخيرة» لفيليب سوبول. الكتب الثلاثة سرديات من منظور المتكلم عن رجل يتجول في باريس، وتعطي أسماء وأوصافًا محددة بدقة للأمكنة، وتجعل من البغايا وجهة من وجهاتهم الرئيسية. ثمنت السريالية الأحلام،

والتداعيات الحرة للعقل اللاواعي أو من دون مراقبة الذات، والمقارنات المذهلة، والفرصة والصدفة، والإمكانيات الشعرية للحياة اليومية. كان التجوال في المدينة وسيلة مثالية للتفاعل مع كل هذه الخصال. كتب بروتون: «ما زلت أتذكر الدور الاستثنائي الذي لعبه أراغون في نزهاتنا اليومية عبر باريس. الأماكن المحلية التي مررنا بها برفقته، حتى الباهتة منها، تحولت إيجابيًا بفضل إبداع رومانسي ساحر لم يتراجع أبدًا، كان يحتاج فقط إلى مفترق شارع أو واجهة محل لتلهمه تدفقًا جديدًا».

باريس، التي جردها هوسمان من غموضها، استعادته مرة أخرى لتلهم شعراءها. تدور كل من «نادجا» و«ليالي باريس الأخيرة» حول مطاردة امرأة شابة غامضة التقاها المتكلم صدفة، وهذه المطاردة هي التي تقود السرد في الكتابين. مثل هذه اللقاءات هي عنصر أساسي في أدب المشي في المدينة: بروتون يلاحق النساء ذوات الأقدام الجميلة، ويراقب ويتمان الرجال في مانهاتن، ويكتب كل من نيرفال وبودلير قصائد عن لمحة عابرة لامرأة كان من الممكن أن تكون حبهما الكبير. بروتون تحدث «إلى هذه المرأة المجهولة، لا بد أن أعترف أنني كنت أتوقع الأسوأ». طارد الراوي المجهول الاسم في رواية سوبول موضوعه مثل المحقق، وتعرف على العالم السفلي الذي تعيش فيه هي ورفيقاتها ورفاقها، رغم أن هذا العالم القذر من الطموحين والمجانين والقتلة لا يفسر سحرها ولا يفكه أيضًا. كتاب أراغون، الأقل تقليدية بين الثلاثة، لا يحتوي على سرد، وهو منظم، مثل «شارع ذو اتجاه واحد» لبنيامين، حول الجغرافيا: فهو يستكشف بضعة أماكن باريسية - أولها ممر الأوبرا،

وهو بائكة للتسوق كان مقررًا تدميرها بالفعل عندما كتب أراغون عنها (هدمت وسويت تمامًا لتوسيع جادة هوسمان). كشف «فلاحو باريس» مدى غنى المدينة نفسها كموضوع للتجوال على الأقدام وفي الخيال.

جعل أراغون المدينة نفسها موضوعه، أما بروتون وسوبول فطاردا النساء اللاتي كن تجسيدات للمدينة: نادجا وجورجيت. يكتب سوبول عن بطله متلصصًا على جورجيت بينما تصحب أحد الزبائن إلى فندق بالقرب من بونت نوف وتعود إلى الشوارع. «ثم استأنفت جورجيت تسكعها في باريس، عبر متاهات الليل. واصلت السير، وهي تطرد الحزن أو الوحدة أو الضيق. ثم أظهرت، أكثر من أي مرة فاتت، قوتها الغريبة: قدرتها على تحويل الليل. بفضلها، تلك التي ليست إلا واحدة من مئات الآلاف، أصبح الليل الباريسي مجالًا غامضًا، وبلدًا عظيمًا ورائعًا، مليئًا بالزهور والطيور والنظرات والنجوم، أملًا مطلقًا في الفضاء. في تلك الليلة، بينما كنت ألاحق، أو بالأحرى أتعقب جورجيت، رأيت باريس لأول مرة. لم تكن المدينة نفسها بالتأكيد. رفعت نفسها فوق الضباب، تدور مثلما الأرض حول محورها، أكثر أنوثة من المعتاد. جورجيت نفسها صارت مدينة». مرة أخرى، وبشكل أكثر جنونًا، تكون باريس برية وغرفة نوم وكتابًا يمكن قراءته مشيًا. البطل -بدون اسم، بدون مهنة، المتسكع المثالي أخيرًا- تولى مهمة سوبول في استكشاف الليل، ولكن من خلال مطاردة امرأة واحدة متورطة في جريمة واحدة، جريمة قتل كان الاثنان شاهدين على عواقبها. بطل الرواية محقق يتعقب الجريمة والتجربة الجمالية، وجورجيت تجسد كليهما.

لاحقًا، أخبرته جورجيت بأنها تعمل في هذه المهنة لأنها وشقيقها في حاجة إلى العيش، و«كل شيء هين عندما تعرف الواحدة منا الشوارع كلها والأشخاص الذين يتحركون فيها مثلما أعرف. جميعهم يبحثون عن شيء ما دون أن يظهر أنهم يفعلون». مثل نادجا، فهي أيضًا متسكعة Flâneuse جعلت من الشارع سكنًا لها. وفي حين أن «ليالي باريس الأخيرة» رواية، فإن نادجا بُنيت على لقاءات بروتون نفسه مع امرأة حقيقية، وللتأكيد على أن كتابه ليس خياليًا، يعيد إنتاج صور الأشخاص (وإن لم يكن لنادجا التي تحمل اسمًا مستعارًا)، والأماكن، والرسومات، والرسائل في صفحات روايته. في أحد مواعيدهما، تقوده نادجا إلى ساحة «بلاس دوفين» في الطرف الغربي من جزيرة المدينة، ويكتب: «كلما كنت هناك، تتلاشى رغبتي في الذهاب إلى مكان آخر تدريجيًا من داخلي، يتعين عليّ أن أكافح ضد نفسي للتحرر من عناق لطيف ومفرط وساحق في النهاية».

بعد ثلاثين عامًا، في كتابه «بون نوف»(72)، يقترح بروتون، بكلمات أحد النقاد، «تفسيرًا مفصلًا لطوبوغرافيا وسط باريس، ينظر فيه إلى التخطيط الجغرافي والمعماري لجزيرة المدينة، وتقاطع نهر السين الذي تقع فيه، على أنهما يشكلان جسد امرأة مستلقية مهبلها في ساحة «بلاس دوفين»، بشكلها المثلث المنحني بعض الشيء يقسمه شق يفصل بين مساحتين مشجرتين». يقضي بروتون الليلة مع نادجا في فندق، ويستأجر راوي سوبول جورجيت لممارسة الجنس، غير أن الإيروتيكية في هذه القصص لا تتركز في الحميمية الجسدية في السرير بل إنها منتشرة في أنحاء المدينة، والمشي

الليلي بدلًا من الجماع هو الوسيلة التي يتنعمون عبرها في هذه الأجواء المفعمة بالحميمية. المرأتان المطاردتان هنا، هما الأكثر تصالحًا مع نفسيهما والأكثر سحرًا وأكثر راحة في الشوارع يتصرفان فيها كأنهما في بيتهما، وكأن مهنة بنات الليل هي في النهاية المشي في الشوارع (ولم تغد أي منهما ضحية أو مشردة في الشوارع، كما كان الحال مع عديد من البطلات السابقات). نادجا وجورجيت، كمعظم تمثيلات السريالية للنساء، مثقلتان بكونهما تجسيدًا للمرأة -مهانات وممجدات، ملهمات وعاهرات، مدينة متجسدة- بحيث لا يمكن أن تكون الاثنتان فردين، وهذا يتضح في نزهاتهما السحرية عبر المدينة، تمشيات تغري الرواة باتباع هاتين الحوريتين في مطاردة تمثل أيضًا احتفاء بباريس وتجوالًا فيها. أصبح حب ابن المدينة لمدينته وشبق الرجل بامرأة عابرة شغفًا واحدًا. ويحدث تحقق هذه العاطفة في الشوارع وعلى الأقدام. وأصبح المشي جنسًا. وافق بنيامين على تحول المدينة إلى جسد مؤنث، والمشي إلى جماع، عندما أنهى فقرته عن باريس كمتاهة: «لا يمكن إنكار أنني اخترقت أعمق مكان فيها، غرفة المينوتور، مع وجود فارق وحيد وهو أن هذا الوحش الأسطوري كان له ثلاثة رؤوس: رؤوس ساكنات الماخور الصغير في شارع لاهارب، حيث استجمعت آخر ما لدي من قوة... ووضعت قدمي». باريس متاهة مركزها ماخور، وفي هذه المتاهة يبدو أن الوصول إليها، وليس الانتهاء منها، هو المهم، ويبدو أن القدم هي التفصيل التشريحي الحاسم.

كتبت جونا بارنز خاتمة لهذه الكتب في روايتها «غابة الليل» الصادرة عام ١٩٣٦، حيث يختلط الحب الإيروتيكي لامرأة مجنونة مسحورة بفتنة

باريس والليل. تتجول بطلة الرواية المثلية الرائعة، روبن فويت، في الشوارع «مذهولة ومضطربة»، وتتخلى عن حبيبتها نورا فلود وتوجه «خطواتها نحو تلك الحياة الليلية التي كانت بمثابة مقياس معروف بين نورا والمقاهي. كانت تأملاتها، أثناء هذه التمشيات، جزءًا من المتعة التي توقعت أن تجدها عندما تنتهي النزهة... كانت أفكارها في حد ذاتها شكلًا من أشكال الحركة». يشرح طبيب أيرلندي يرتدي ملابس نسائية ويرتاد المراحيض في الشوارع الرئيسية الليلة في مونولوج طويل لنورا، ولا شك أن بارنز تعرف ما كانت تفعله عندما جعلت بيت الدكتور أوكونور في شارع سيرفاندوني بجوار ساحة سان سولبيس، وهو الشارع الصغير الذي آوى فيه ألكسندر دوما أحد فرسانه الثلاثة، وأسكن فيه هوجو بطل البؤساء جان فالجان. تراكمت في باريس كثافة هائلة من الأدب في زمن «غابة الليل» حتى يتصور المرء شخصيات قرون من الأدب تتقاطع طرقها باستمرار، ويزاحمون بعضهم بعضًا في عربة مترو مليئة بالبطلات، وفي ممشى يسكنه أبطال الروايات، وحشد صاخب من الشخصيات الثانوية. حدد الكتّاب الباريسيون دائمًا عناوين الشوارع التي تقطنها شخصياتهم، وكأن القراء كلهم يعرفون باريس جيدًا حتى أن الموقع الحقيقي للشوارع هو الذي يبث الحياة في شخصية ما، وكأن التاريخ والقصص نفسها قد اتخذت مستقرًا لها في أرجاء المدينة.

وصف والتر بنيامين نفسه بأنه «رجل تمكن بمشقة من فتح فكي تمساح وإقامة مسكن هناك». عاش معظم حياته متجولًا كشخصية ثانوية في الأدب الذي يحب. ربما كان الأدب الفرنسي هو ما قاده إلى حتفه، فقد ظل يرجئ مغادرة باريس حتى

فات الأوان. كانت كتب مغامرات الأولاد وسلاسل المستكشفين ستعدّه بشكل أفضل لسنواته الأخيرة في ظل الرايخ الثالث. عندما اندلعت الحرب في سبتمبر ١٩٣٩، قُبض عليه مع رجال ألمان آخرين في فرنسا وأخذوا إلى معسكر في نيفير على بعد أكثر من مئة ميل إلى الجنوب. الآن، بعد أن زاد وزنه وأصيب بمشاكل في القلب- حتى أنه كان يتوقف في شوارع باريس كل بضع دقائق- انهار عدة مرات أثناء السير إلى المعسكر لكنه استعاد وعيه إلى حدٍ ما خلال ثلاثة أشهر من الاحتجاز في المعسكر بما يكفي لتدريس الفلسفة مقابل بضع سجائر أجرًا. وبعد أن أمَن له نادي القلم إطلاق سراحه، عاد إلى باريس، حيث واصل العمل في مشروع البوائك، وحاول الحصول على إقامة، وكتب مقالته الشاعرية الثاقبة «أطروحات حول فلسفة التاريخ». وبعد احتلال النازيين لفرنسا، فرّ جنوبًا وسار مع آخرين على طريق وعر عبر جبال البيرنيه إلى بورت بو في إسبانيا. وكان يحمل معه حقيبة ثقيلة فيها، كما قال، مخطوطة أثمن من حياته، وفي إحدى الكروم شديدة الانحدار مشى بعناء شديد حتى اضطر رفاقه إلى مساعدته. «لم يكن أحد يعرف الطريق»، هكذا كتبت السيدة جورلاند التي رافقته: «كان علينا أن نتسلق جزءًا من الطريق على أربع». وفي إسبانيا، طالبت السلطات بتأشيرة خروج من فرنسا ورفضت قبول تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة التي حصل عليها أصدقاء بنيامين له أخيرًا. في حالة من اليأس إزاء ظروفه واحتمال الاضطرار إلى السير عبر الجبال عائدًا، تناول جرعة زائدة من المورفين في إسبانيا وتوفي في ٢٦ سبتمبر ١٩٤٠ - «بعد ذلك سمح مسؤولو الحدود، الذين ترك هذا الانتحار أثرًا فيهم»، كما كتبت حنا

آرنت: «لرفاقه بالتوجه إلى البرتغال». واختفت حقيبته.

في نفس المقالة، كتبت آرنت، التي عاشت في باريس في الستينيات: «في باريس يشعر الغريب بأنه في بيته لأنه يستطيع أن يسكن المدينة بالطريقة التي يعيش بها بين جدرانه الأربعة. وكما أن الإنسان يسكن شقة، ويجعلها مريحة، بالعيش فيها بدلًا من مجرد استخدامها للنوم والأكل والعمل، كذلك يسكن المرء مدينة بالتجول فيها بلا هدف أو غاية، إقامته آمنة بفضل ما لا يحصى من المقاهي التي تحف الشوارع وتمر من أمامها حياة المدينة وتتدفق حركة المشاة. حتى يومنا، تظل باريس المدينة الوحيدة من بين المدن الكبرى التي يمكن تغطيتها بيسر على الأقدام، وهي تعتمد في حيويتها أكثر من أي مدينة أخرى على الناس الذين يمرون في الشوارع، بحيث تعرّض حركة السيارات الحديثة وجودها للخطر. ليس لأسباب تقنية فقط». عندما هربت إلى باريس في نهاية السبعينيات، كانت المدينة لا تزال إلى حد ما جنة للمشاة، إذا تجاهلنا التحرشات التافهة ووقاحة بعض الرجال وكنت فقيرّة جدًا وصغيرّة جدًا إلى درجة أنني كنت أسير في كل مكان لساعات، وأدخل وأخرج من المتاحف (التي كانت مجانية للأشخاص دون الثامنة عشرة). الآن أدرك أنني عشت في باريس التي كانت في طريقها إلى التلاشي. الفراغ الشاسع على الضفة اليمنى كان موقع أسواق ليهال الكبيرة التي استئصلت حديثًا، لكنني لم أكن أعلم أن دورات المياه العمومية ذات الجدران الحلزونية كمتاهات صغيرة لخصوصية الرجال كانت أيضًا تختفي، وأن إشارات المرور ستصل إلى الشوارع القديمة المتعرجة في الحي اللاتيني

وأن هذه ستضاء باللافتات البلاستيكية للوجبات السريعة، وأن الهيكل القديم على ضفة متحف «أورساي» سيتحول إلى متحف جديد براق، وأن كراسي المعدن في حدائق تويليري ولوكسمبورج بأذرعها الحلزونية ومقاعدها الدائرية المثقبة (بالخط الجمالي نفسه في دورات المياه العمومية) ستستبدل بكراسٍ أكثر استطالة وأقل جمالًا مصبوغة باللون الأخضر نفسه. لم يكن الأمر يشبه التحولات التي عاشها الباريسيون أثناء الثورة، أو أثناء فترة الهوسمانية أو في حقب أخرى كثيرة، لكن هذا السجل الصغير من التغييرات جعلني أيضًا مالكة لمدينة ضائعة، ربما أن باريس مدينة ضائعة دائمًا، مدينة مليئة بأشياء تعيش في الخيال فقط. ما كان أكثر إحباطًا بالنسبة إليّ عندما عدت أخيرًا إليها التغيير الذي توقعته آرنت: سيطرة السيارات على الشوارع. أعادت السيارات شوارع باريس إلى الحالة القذرة والخطرة، أيام دهست عربةٌ روسو وكان المشي في الشوارع يحتاج شجاعة. وللتعويض عن تأليه السيارات هذا، تُمنع السيارات أيام الأحد من بعض الشوارع والأرصفة ليتمكن الناس من التنزه هناك مرة أخرى، كما كانوا يفعلون دائمًا في الحدائق وعلى الأرصفة العريضة في الجادات (وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات، ثبذل جهود لاستعادة مزيد من المساحة - وخاصة المساحة الشاسعة لساحة كونكورد، التي تحولت في العقود الأخيرة إلى دوار من الازدحام المروري).

تبقى مجد واحد لباريس، أن منها أبرز مُنظّري المشي، من بينهم: غي ديبور في الخمسينيات، ميشيل دو سيرتو في السبعينيات، وجان كريستوف بيلي في التسعينيات. تناول ديبور المعاني السياسية والثقافية لعمارة المدن والترتيبات

المكانية، وكان فك رموز هذه المعاني وإعادة الاشتغال عليها إحدى مهام «الأممية الموقفية» Situationist International التي شارك في تأسيسها وكتب وثائقها الرئيسية. أعلن في عام ١٩٥٥ أن «الجغرافيا النفسية» حقل «يمكنه أن يحدد لنفسه دراسة القوانين الدقيقة والتأثيرات المحددة للبيئة الجغرافية - المصممة بوعي والتي تشكلت بغير وعي - على عواطف الأفراد وسلوكياتهم». في تلك المقالة وغيرها، ندد بتمجيد السيارة، فالجغرافيا النفسية تُدرك على أحسن وجه على القدمين: «التغيير المفاجئ في أجواء شارع ما ضمن مساحة بضعة أمتار، التقسيم الواضح للمدينة إلى مناطق ذات أجواء نفسية متمايزة، الطريق الذي يتبعه الناس بتلقائية وبلا مقاومة أثناء تجوالات بلا هدف (ولا علاقة لتحركاتهم بالجغرافية المادية للمدينة)» كانت من بين التفاصيل الدقيقة التي رسمها ديبور، واقترح «إدخال خرائط نفسية جغرافية، أو حتى إدخال تعديلات» لـ«توضيح بعض التجوالات التي لا تعبر عن الخضوع للصدفة، بل عن عصيان كامل للتأثيرات المعتادة» (التأثيرات التي تصنف عمومًا على أنها سياحة، ذلك المخدر الشعبي المثير للاشمئزاز مثله مثل الرياضة أو الشراء بالبطاقات الائتمانية). من بين أطروحات ديبور المشاكسة «نظرية الانجراف» Theory of the Dérive (dérive هي كلمة فرنسية تعني الانجراف)، وهي «تقنية للمرور المؤقت عبر أجواء متنوعة... يتخلى شخص أو أكثر، في انجرافٍ ما، خلال فترة معينة عن دوافعهم المعتادة للحركة والفعل، وعلاقاتهم، وعملهم وأنشطتهم الترفيهية، ويستسلمون لعوامل الجذب في التضاريس واللقاءات التي يصادفونها هناك». بدت هذه

التسكعية لـ ديبور بمثابة فكرة جذرية جديدة -كل أفكاره طريفة إلى حد ما، كما هي وصفاته الاستبدادية للتخريب- وفيما يتعلق بجعل المشي في المناطق الحضرية أكثر وعيًا كانت لديه أفكار جدية. «كان الهدف»، كما كتب جريل ماركوس، الذي درس الموقفيين The Situationists، «مواجهة المجهول كوجه من وجوه المألوف، والدهشة على أرض الملل، والبراءة في مواجهة التجربة. وبالتالي يمكنك أن تمشي في الشارع من دون تفكير، وتترك عقلك ينجرف، وتترك ساقيك بذاكرتها الداخلية، تحملك صعودًا وهبوطًا وحول المنعطفات، وتنتبه إلى خريطة لأفكارك الخاصة، والبلدة المادية التي حلت محلها مدينة خيالية». الدمج الذي قام به الموقفون بين الوسائل الثقافية والغايات الثورية كان مؤثرًا، ولا سيما في انتفاضة الطلاب في باريس عام ١٩٦٨، عندما رسمت الشعارات الموقفية على الجدران.

وإن كان دو سيرتو وبيلي بريان مستقبلًا مظلمًا مثل ديبور، لكنهما أكثر اعتدالًا. يخصص الأول فصلًا من كتابه «ممارسة الحياة اليومية» للمشي في المناطق الحضرية. فالمشاة هم «ممارسو المدينة»، لأن المدينة صممت لتمشى، كما كتب. والمدينة لغة، ومستودع للاحتمالات، والمشي هو فعل التحدث بهذه اللغة، والاختيار من بين هذه الاحتمالات. وكما تحدَ اللغة مما يمكن قوله، فإن العمارة تحدَ من المكان الذي يمكن للمرء أن يمشي فيه، ولكن السائر يخترع طرقًا أخرى للذهاب، «بما أن العبور أو الابتعاد أو ارتجال امتياز المشي يحوَل العناصر المكانية أو يهجرها». ويضيف قائلًا: «إن مشي المارة يقدم سلسلة من المنعطفات (الجولات) والطرق الالتفافية التي يمكن مقارنتها بـ«منعطفات

العبارة» أو «الأشكال الأسلوبية». يستدعي مجاز دي سيرتو هذا احتمالًا مخيفًا: فإن كانت المدينة لغة يتحدث بها السائرون فيها، فإن مدينة ما بعد المشاة لم تعد صامتة فحسب، بل إنها تخاطر بالتحول إلى لغة ميتة، لغة ستختفي عباراتها العامية ونكاتها وشتائمها، حتى وإن نجت قواعدها الرسمية. أما بيلي، فإنه يعيش في باريس الخانقة ويوثق هذا الانحدار. وبتعبير أحد من فسروه، فإنه يؤكد أن الوظيفة الاجتماعية والخيالية للمدن: «مهددة بسبب طغيان العمارة السيئة، والتخطيط الذي لا روح فيه، واللامبالاة بالوحدة الأساسية للغة الحضرية، الشارع، و«تيار الكلمات»، القصص التي لا نهاية لها، والتي تحييها. يقف الحفاظ على حياة الشارع والمدينة على فهم قواعدهما وتوليد تعبيرات جديدة ينتعشان من خلالها. بالنسبة إلى بيلي، فإن المشي عامل رئيسي في هذه العملية، وهو ما يسميه: قواعد توليدية للساقين». يتحدث بيلي عن باريس باعتبارها مجموعة قصصية، وذاكرة قائمة بذاتها يصنعها السائرون في شوارعها. ولو حدث وتآكل المشي، فربما تصبح المجموعة غير مقروءة أو غير قابلة للقراءة.

الفصل الثالث عشر
مواطنو الشارع
حفلات ومواكب وثورات

استدرت بالكامل لأرى أن أجنحته هي التي جعلت الملاك الذي كان خلفي مباشرة يبدو غريبًا من زاوية عيني. على الأقل، كان يرتدي زي الملاك، وكانت كائنات فضائية مختلفة وعاهرات وملوك الديسكو ووحوش على قدمين يتدفقون جميعًا على طول الطريق في الاتجاه نفسه، نحو شارع كاسترو، كما يفعلون في كل هالوين. في الليلة السابقة، نزلت بدراجتي إلى أسفل شارع ماركت للمشاركة في تظاهرة «الكتلة الحرجة» Critical Mass، وهي تجمع لراكبي الدراجات الهوائية يمثل احتجاجًا على غياب مساحة آمنة لهم، أشبه بالاستيلاء الاحتفالي على تلك المساحة. امتلأت الشوارع بعدة مئات من راكبي البسكليتات الذين كانوا يقودونها معًا، كما يفعلون في آخر يوم جمعة من كل شهر منذ بدء الحدث هنا عام ١٩٩٢. (ينظم راكبو الدراجات احتفالية «الكتلة الحرجة» في مختلف أنحاء العالم، من جنيف إلى سيدني إلى القدس إلى فيلادلفيا). بعض راكبي الدراجات الناشطين اعتادوا ارتداء قمصان مكتوب عليها «سيارة أقل»، لذلك رافقنا ثلاثة عدائين وهم يرتدون قمصانًا كتب عليها «دراجة أقل»، واحتفاءً بالعطلة الوشيكة، ارتدى بعض راكبي الدراجات أقنعة أو أزياء.

احتفالات الهالوين في شارع كاسترو هي حدث هجين مماثل، فهو احتفال وبيان سياسي في أصوله على الأقل -ذلك أن تأكيد الهوية الكويرية يشكل في حد ذاته بيانًا سياسيًا جريئًا. إن تأكيد مثل

هذه الهوية على هذا النحو الاحتفالي يقوّض ذلك التقليد الطويل الراسخ المتمثل في أن تكون الحياة الجنسية سرية وأن تكون المثلية مخزية- وفي الأوقات الكئيبة يصبح الفرح في حد ذاته تمردًا، كما هو الاجتماع في أوقات العزلة. في الوقت الحاضر، أصبحت حفلة الهالوين في شارع كاسترو مغناطيسًا لكثير من الناس الـ«ستريت» كذلك، ولكن الجميع كان يتصرف تحت مظلة التسامح والتهريج والحملقة الوقحة في هذا الحدث الذي لا يزيد على بضعة آلاف من الأشخاص يتجولون على مسافة عدة بنايات من الشوارع المغلقة. لا يباع أي شيء خلال الاحتفال، ولا أحد مسؤول فيه، والجميع مجرد عارض ومتفرج. في وقت سابق من ليلة الهالوين، سار عدة مئات من الناس من شارع كاسترو إلى محكمة العدل للاحتجاج والحداد على مقتل شاب مثلي في وايومنغ، وهي مظاهرة روتينية إلى حد ما في سان فرانسيسكو وكاسترو، التي تعد معبدًا للاستهلاكية وقاعدة لمجتمع نشط سياسيًا.

في الثاني من نوفمبر، أقيم الاحتفال بـ«يوم الموتى» el Día de los Muertos، في شارع الرابع والعشرين من منطقة ميشن. كما هو الحال دائمًا، قاد راقصو الأزتك(73) الموكب، حفاة الأقدام، يدورون ويضربون الأرض، يرتدون مآزر، وخشخيشات في أرجلهم، وريشًا بطول أربعة أقدام. وتبعهم المشاركون الذين يحملون هياكل على أعمدة طويلة - عذراء غوادالوبي(74) فوق أحدها وإله الأزتك على الاخر. سار الناس خلف الهياكل حاملين صلبانًا ضخمة ملفوفة بمناديل ورقية، وأناس بجماجم مرسومة على وجوههم، وأشخاص يحملون

شموعًا، ربما كان عدد المشاركين في المجموع ألفًا. وعلى عكس الاستعراضات الأضخم، كان هذا يتألف بالكامل تقريبًا من المشاركين، مع عدد قليل من المتفرجين من نوافذ منازلهم. ربما يكون من الأفضل وصفه بالموكب، لأن الموكب هو رحلة المشاركين، في حين أن الاستعراض هو أداء مع الجمهور. كان المشي معًا في الشوارع مختلفًا تمامًا عن التجمع في الهالوين، هناك مزاج أكثر رقة وشجنًا يحيط بـ«يوم الموتى» هذا وإحساس خفيف لكنه كافٍ بالرفقة في الهواء الطلق وربما كان نابعًا من مجرد مشاركة المساحة نفسها والغرض نفسه أثناء التحرك معًا في اتجاه واحد. كان الأمر وكأننا بينما نحاذي أجسادنا قمنا بطريقة ما بمحاذاة قلوبنا. في شارعي الخامس والعشرين وميشين، اقتحم موكب آخر ساحتنا، وكان صوته أعلى هاتفًا ضد الإعدام الوشيك لسجين محكوم عليه بالموت، ورغم أنه كان من المزعج أن تغطي تظاهرتهم على موكبنا وكأننا الجلادون، كان من المفيد أن نتذكر حقيقة الموت. ظلت المخابز مفتوحة حتى وقت متأخر من الليل تبيع خبز الموتى -وهو خبز حلو مخبوز على هيئة أشكال بشرية- وكان العيد مزيجًا رائعًا من التقاليد المسيحية والمكسيكية الأصلية، التي عُدِّلت وتغيرت على يد ثقافات سان فرانسيسكو العديدة. مثل الهالوين، فإن «يوم الموتى» مهرجان بيني يحتفل بالحدود الفاصلة بين الحياة والموت، الوقت الذي يكون فيه كل شيء ممكنًا والهوية نفسها في حالة تغير مستمر، وقد أصبح هذان العيدان بمثابة عتبات تلتقي عبرهما طوائف مختلفة من المدينة وتسقط الحدود بين الغرباء.

كان الفنان الألماني العظيم جوزيف بويس يردد، كمبدأ أساسي ومانيفستو، عبارة «الجميع فنان».

سابقًا اعتقدت أن هذا يعني أنه يرى أن على الجميع أن يصنع الفن، ولكنني الآن أتساءل عمّا إذا كان يتحدث بالأحرى عن إمكانية أساسية: أن يصبح الجميع مشاركين بدلًا من أن يظلوا جمهورًا من المتفرجين، وأن يصبح الجميع منتجين للمعنى بدلًا من أن يكونوا مستهلكين له (تقف الفكرة نفسها وراء عقيدة «افعلها بنفسك» في ثقافة البانك). هذا هو أعلى نموذج للديمقراطية -أن يتمكن كل فرد من المشاركة في صياغة حياته وحياة المجتمع- والشارع أعظم ساحة للديمقراطية، مكان يمكن للناس العاديين فيه التحدث، لا تفصلهم جدران، ومن دون وساطة من يملكون سلطة أكبر. ليس صدفة أن يكون للوسيط الإعلامي media والوساطة mediate جذر واحد، فربما يكون العمل السياسي المباشر في مساحة حقيقية عامة السبيل الوحيد للانخراط في اتصال بلا وسيط مع غرباء، فضلًا عن كونه وسيلة للوصول إلى جماهير وسائل الإعلام من خلال صنع الأخبار حرفيًا. المواكب والحفلات في الشوارع من بين التجليات المبهجة للديمقراطية، بل ومن أكثر التعبيرات الذاتوية والمتعية التي تجعل الناس جريئين وتفتح الطرق الواسعة لاستخدامات سياسية أكثر صراحة. الاستعراضات والمظاهرات والاحتجاجات والانتفاضات والثورات الحضرية كلها تدور حول أفراد الجمهور الذين يتحركون عبر المساحات المشتركة لأسباب تعبيرية وسياسية وليس لأسباب عملية فحسب. وفي هذا السياق فإنهم يشكلون جزءًا من التاريخ الثقافي للمشي.

تمزج المسيرات العامة لغة الحج التي يسير بها المرء ليظهر التزامه، بلغة خط الاعتصام في الإضراب الذي يبرهن فيه المرء على قوة مجموعته

ومثابرته من خلال السير ذهابًا وإيابًا، بلغة الاحتفال حيث تتراجع الحدود بين الغرباء. المشي يصبح إدلاءً بشهادة. تصل عديد من المسيرات إلى نقاط التجمع، ولكن التجمعات عادة ما تحوّل المشاركين إلى جمهور من المتحدثين المختارين، أنا شخصيًا كثيرًا ما تأثرت إلى أبعد الحدود بالسير في الشوارع بأعداد كبيرة، ثم أصابني الملل الشديد من أحداث ما بعد الوصول. أغلب الاستعرضات والمواكب تذكارية بطبيعتها، وهذا التحرك عبر فضاء المدينة لإحياء ذكرى أوقات مضت يربط الزمان بالمكان، والذاكرة بالاحتمالية، والمدينة بالمواطن، في كيان حيوي، وفضاء احتفالي يمكن من خلالها صنع التاريخ. الماضي يصبح الأساس الذي سيُبنى عليه المستقبل، وأولئك الذين لا يقدّرون الماضي قد لا يصنعون مستقبلًا أبدًا. وحتى أكثر المواكب براءة لها أجندة: فموكب عيد القديس باتريك يعود إلى أكثر من مئتي عام في نيويورك، وهو يظهر القناعات الدينية والفخر العرقي وقوة مجتمع كان مهمشًا ذات يوم، كما يفعل الاستعراض الأكثر صخبًا لرأس السنة الصينية في سان فرانسيسكو ومسيرات الفخر للمثليين في مختلف أنحاء القارة. دائمًا ما كانت الاستعراضات العسكرية عروضًا لإظهار القوة وتحريضًا على نوع من الفخر القبلي أو ترهيبًا للمواطنين. في أيرلندا الشمالية مثلًا، استخدم رجال الأورانج(75) استعراضاتهم للاحتفال بانتصارات البروتستانت السابقة من خلال غزو رمزي للأحياء الكاثوليكية، في حين حوّل الكاثوليك جنازات القتلى إلى مواكب سياسية ضخمة.

في الأيام العادية، يمشي كل منا بمفرده أو مع

رفيق أو اثنين على الأرصفة، وتُستخدم الشوارع للتنقل والتجارة. وفي الأيام غير العادية -في الأعياد التي تصادف ذكرى الأحداث التاريخية والدينية الأيام التي نصنع فيها التاريخ بأنفسنا- نسير معًا، ويصبح الشارع بأكمله مخصصًا لدمغ معنى ذلك اليوم. المشي، الذي قد يكون صلاة، أو جنسًا، أو التئامًا بالأرض، أو تأملًا، يصبح خطابًا في هذه المظاهرات والانتفاضات، وقد كُتب كثير من التاريخ بأقدام المواطنين الذين يسيرون عبر مدنهم. يكون المشي على هذا النحو تجليًا جسديًا للقناعة السياسية أو الثقافية وأحد أكثر أشكال التعبير العام المتاحة على نطاق واسع. يمكن أن نطلق عليه «مارش»، لأنه حركة مشتركة نحو هدف مشترك، ولكن المشاركين فيها لم يتخلوا عن فرديتهم كما فعل الجنود الذين تشير خطواتهم المتماسكة إلى أنهم أصبحوا وحدات قابلة للتبادل تحت سلطة مطلقة. وهي لا تعني بالضرورة أن تكون مجرد حركات جسدية، بل تشير إلى إمكانية وجود أرضية مشتركة بين الناس الذين لم يتوقفوا عن الاختلاف بعضهم عن بعض، الناس الذين أصبحوا «العامة» في الأخير. عندما تصبح الحركة الجسدية شكلًا من الكلام، يتشوش التمييز بين الكلمات والأفعال، بين التمثيلات والأفعال، وبالتالي يمكن للمسيرات نفسها أن تكون بينية، وشكل آخر من أشكال الدخول في عالم التمثيل والرمزية، وفي التاريخ أحيانًا.

وحدهم المواطنون الذين يعرفون مدينتهم كأرض رمزية وعملية، والذين يستطيعون التجمع على الأقدام، والذين اعتادوا على المشي فيها، وحدهم قادرون على الثورة. قلة من يتذكرون أن «حق الشعب في التجمع السلمي» مدرج في التعديل

الأول لدستور الولايات المتحدة، إلى جانب حرية الصحافة، وحرية التعبير، وحرية الدين، باعتبارها من الحقوق الأساسية للديمقراطية. وفي حين يسهل التعرف على الحقوق الأخرى، فإن استبعاد إمكانية التجمع -من خلال التصميم الحضري، والاعتماد على السيارات، وعوامل أخرى- مسألة من الصعب تتبعها ونادرًا ما تؤطر بوصفها قضية حقوق مدنية. وعندما يُقضى على المساحات العامة، فإن «العامة» سوف تنقرض في نهاية المطاف، ويتوقف الفرد عن كونه مواطنًا قادرًا على التجربة والعمل مع مواطنيه بشكل مشترك. المواطنة تقوم على الشعور بوجود شيء مشترك مع غرباء، تمامًا كما تقوم الديمقراطية على الثقة بغرباء. والمساحة العامة هي المساحة التي نتقاسمها مع غرباء، منطقة لا يوجد فيها أي فصل. في هذه الأحداث الجماعية، يصبح هذا المفهوم المجرد لـ«العامة» واقعيًا وملموسًا. شهدت لوس أنجلوس أعمال شغب هائلة -أحداث واتس عام ١٩٦٥ وانتفاضة رودني كينج(76) في عام ١٩٩٢- لكن تاريخها ضعيف في الاحتجاجات المثمرة. فهي مشتتة ولا مركزية، إلى حد أنها لا تمتلك حيزًا رمزيًا للفعل، ولا نطاقًا يمكن للمشاة المشاركة فيه كـ«عامة» (باستثناء قليل من الشوارع القديمة التي أعيد تصميمها لتسوّق المارة). من ناحية أخرى، كانت سان فرانسيسكو مثل «باريس الغرب» كما سميت ذات يوم، حيث انطلقت فيها قائمة منتظمة من الاستعراضات والمواكب والاحتجاجات والمظاهرات والمارشات وغيرها من الأنشطة العامة في مساحاتها المركزية. ولكن سان فرانسيسكو ليست عاصمة مثل باريس، وبالتالي فهي ليست في وضع يسمح لها بهز الأمة

والحكومة الوطنية. باريس مدينة عظيمة للمشاة. ومدينة عظيمة للثورة. تُكتب هاتان الحقيقتان عادة كما لو أنهما منفصلتان، ولكنهما مرتبطتان بشكل حيوي. تصور المؤرخ إريك هوبزباوم مرة المدينة المثالية للشغب والانتفاضة، فاستنتج أنها لا بد «أن تكون مكتظة بالسكان وألا تكون مساحتها كبيرة جدًا. ومن الأساسي أن يكون قطعها على الأقدام ممكنًا. في المدينة التمردية المثالية، تتشابك أمكنة السلطة -الأغنياء، والأرستقراطيون، والحكومة أو الإدارة المحلية- ما أمكن مع التجمعات المركزية للفقراء». كل مدن الثورة هي مدن قديمة الطراز: فالحجارة والأسمنت فيها مشبعة بالمعاني والتاريخ والذكريات التي تجعل من المدينة مسرحًا يردد فيه كل فعل صدى الماضي ويصنع مستقبلًا، ولا تزال القوة مرئية في مركز الأشياء. المدن التي تعج بالمشاة هي مدن يثق سكانها بتحركاتهم، وهم على دراية بالأمكنة الحاسمة في جغرافيتها. تجمع باريس كل هذه الصفات، وقد شهدت ثورات وانتفاضات كبرى في أعوام ١٧٨٩ و١٨٣٠ و١٨٤٨ و١٨٧١ و١٩٦٨، وفي الآونة الأخيرة، احتجاجات وإضرابات لا حصر لها.

يتطرق هوبزباوم إلى إعادة تشكيل هوسمان لباريس عندما يكتب: «ومع ذلك، كان لإعادة الإعمار الحضري تأثير آخر أو بالأحرى غير مقصود في التمردات المحتملة، حيث وفرت الشوارع الجديدة الواسعة موقعًا مثاليًا لما أصبح جانبًا متزايد الأهمية من الحركات الشعبية، وهو المظاهرات أو المواكب الجماهيرية. «كلما كانت حلقات الجادات والطرقات أكثر انتظامًا، كانت معزولة بشكل أكثر فعالية عن المناطق المأهولة المحيطة بها، وأصبح من السهل تحويل مثل هذه التجمعات إلى مسيرات

طقوسية بدلًا من كونها تمهيدًا للشغب». في باريس نفسها، يبدو أن التشبع بالمساحات الاحتفالية والرمزية والعامة يجعل الناس هناك أكثر استعدادًا، وبشكل خاص، للثورة. هذا يعني أن الفرنسيين شعب يعتبر المسيرة جيشًا إذا مشت كما تمشي مارشات الجيش، ويرى أن الحكومة تسقط إذا اعتقدوا أنها سقطت، ويبدو أن هذا يرجع إلى أن لديهم عاصمة يتداخل فيها التمثيلي والواقعي إلى حد كبير، ولأن خيالهم يسكن الأماكن العامة أيضًا، وينخرط في القضايا العامة والأحلام العامة. «إنني أعدّ رغباتي واقعًا، لأنني أؤمن بواقع رغباتي»، هكذا قال الغرافيتي على جدران «سوربون» في انتفاضة الطلاب في مايو ١٩٦٨. استولت تلك الانتفاضة على أهم أراضي المدينة، على الخيال القومي، ومن هذه الأرضية والحي اللاتيني معها ومن ومواقع الإضراب في أرجاء فرنسا، كانوا على قيد شعرة من الإطاحة بأقوى حكومة في أوروبا. «الفرق بين التمرد في جامعة كولومبيا والتمرد في سوربون هو أن الحياة في مانهاتن استمرت كما كانت من قبل، بينما في باريس أضرمت النيران في قطاعات المجتمع كلها في غضون أيام»، هكذا كتبت مافيس غالانت، التي كانت هناك في شوارع الحي اللاتيني. «كانت الهلوسة الجمعية هي أن الحياة يمكن أن تتغير، فجأة وإلى الأفضل. لا تزال هذه رغبة نبيلة في نظري».

الجميع يعلم كيف بدأت الثورة الفرنسية. ففي الحادي عشر من يوليو/تموز ١٧٨٩، أقال لويس السادس عشر الوزير ذا الشعبية جاك نيكير، الأمر الذي زاد من غليان عاصمته المضطربة أصلًا. ولا بد أن أهل باريس كانوا يتخيلون ثورة مسلحة، حيث تجمع ستة آلاف منهم بشكل عفوي لاقتحام مجمع

«ليزانفاليد» Les Invalides والاستيلاء على البنادق المخزنة هناك، ثم انطلقوا لغزو الباستيل عبر النهر للحصول على مزيد من الإمدادات العسكرية، وخرجوا بنتائج لا يزال يُحتفى بها في مسيرات ومهرجانات يوم الباستيل في مختلف أنحاء فرنسا في الرابع عشر من يوليو كل عام. تغيرت الحياة فعلًا وفجأة، وعلى المدى الطويل، للأفضل. أنهى تحرير ذلك السجن الحصن القروسطي، بشكل رمزي، قرونًا من الاستبداد، ولكن الثورة لم تبدأ حقًا إلا بعد مسيرة نساء السوق بعد ثلاثة أشهر(77).

الأصول الفكرية للثورة تكمن في المثل العليا للحرية والعدالة التي حث عليها جزئيًا فلاسفة عصر التنوير مثل توماس بين وروسو وفولتير، ولكن كانت لها أيضًا جذور جسدية. في صيف عام ١٧٨٨، قضت عاصفة صقيع مدمرة على جزء كبير من المحاصيل في فرنسا كلها، وفي عام ١٧٨٩ شعر الناس بآثار ذلك. ارتفعت أسعار الخبز وأصبح نادرًا، وكثيرًا ما بدأ الناس العاديون في الوقوف في طوابير أمام المخابز في الرابعة صباحًا على أمل شراء رغيف في ذلك اليوم، وبدأ الفقراء يتحولون إلى جوعى. كانت الأسباب الجسدية لها آثار جسدية، كان من المفترض أن لا تكون ثورة أفكار فقط ولكن أيضًا للأجساد المحررة، الجائعة، التي تسير، وترقص، وتثير الشغب، وتقطع رؤوسها، على مسرح شوارع باريس وميادينها. الثورات سياسات تُصنع جسديًا، وهي سياسات عندما تصبح الأفعال هي الشكل المعتاد للتعبير. شهدت بريطانيا وفرنسا أعمال شغب بسبب الغذاء والضرائب من قبل، ولكن لم يكن هناك أي شيء يشبه هذا المزيج من الجوع إلى الطعام والجوع إلى المثل العليا.

في الأيام العنيفة التي أعقبت سقوط الباستيل، اعتادت نساء الأسواق وبائعات السمك على السير معًا، ولا بد أنهن شعرن أولًا برغباتهن المشتركة وقوتهن الجماعية أثناء المواكب الدينية التي ذهبن إليها في ذلك الموسم. واحد على الأقل من سكان المكان شعر بأنه مستفز «إزاء الانضباط والاستعراض وحجم المواكب شبه اليومية لنساء الأسواق، والغسالات، والبائعات، والعاملات من مختلف المناطق، والتي كانت تتجه خلال شهري أغسطس وسبتمبر إلى كنيسة سانت جينفييف التي بنيت حديثًا [راعية باريس] لحضور قداس الشكر». يشير سيمون شاما إلى أنه في يوم عيد القديس لويس، الخامس والعشرين من أغسطس، كانت نساء الأسواق في باريس ذاهبات بشكل طقسي إلى فرساي لتقديم أطواق الزهور إلى الملكة. وكأنهن وقد تعلمن شكل الموكب، أصبح في وسعهن أن يضفن عليه محتوى جديدًا: فبعد أن سرن لتقديم الولاء إلى الكنيسة والدولة، أصبحن مستعدات للسير من أجل المطالبة بشروط.

في صبيحة ٥ أكتوبر ١٧٨٩، أخذت فتاة طبلة إلى الأسواق المركزية في ليهال، بينما أجبرت امرأةٌ رجل دين في ضاحية سانت أنطوان الثائرة على قرع الأجراس في كنيسته. جمعت الطبول والأجراس حشدًا من الناس. اختارت النساء -اللاتي بلغ عددهن الآن آلافًا- بطلًا من أبطال الباستيل ليقودهن، وهو ستانسولا-ماري مايار، الذي وجد نفسه يبشر أتباعه باستمرار بالاعتدال. ورغم أن الحشد كان يتألف في معظمه من نساء عاملات فقيرات -بائعات سمك، ونساء الأسواق، وغسالات ملابس، وبوابات الشوارع- فإن الحشد كان يضم بعض النساء من ذوات الثراء وقليلًا من الثوريين

المعروفين، مثل تيروان دو ميريكور، المعروفة باسم ثيروين الأمازونية. (بدأت العاهرات والرجال الذين يرتدون ملابس النساء يظهرون بشكل كبير في الروايات المعاصرة لتلك المظاهرة، ولكن هذا لأن عديدين اعتقدوا أن النساء «المحترمات» لسن قادرات على مثل هذا التمرد). أصرت النساء على التحرك مباشرة عبر حدائق تويلري، وكانت لا تزال حدائق الملك، وعندما سحب حارس سيفه على إحدى النساء في المقدمة، هب مايار للدفاع عنها - لكنها «وجهت ضربة قوية بمكنستها إلى سيفي الرجلين المتقاطعين فسقط سلاحهما». واستمروا في ترديد الهتاف «الخبز وإلى فرساي!» وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، قاد الماركيز دو لافاييت، بطل الثورة الأمريكية، جيشًا من عشرين ألفًا تقريبًا من الحرس الوطني خلفهم في دعم مريب.

بحلول المساء كانوا في الجمعية الوطنية في فرساي، يطالبون الهيئة الحاكمة الجديدة بالتعامل مع نقص الغذاء، وتم اصطحاب عدد قليل من النساء أمام الملك لعرض قضيتهن. وقبل منتصف الليل، كان الحشد عند بوابات القصر، وفي الصباح الباكر دخلوا. كان وصولهم مروعًا - بعد أن أطلق أحد الحراس النار على امرأة شابة، قطع الحشد رأسي حارسين واندفع إلى الشقق الملكية بحثًا عن الملكة المكروهة ماري أنطوانيت. في ذلك اليوم، اضطرت العائلة الملكية المرعوبة إلى العودة إلى باريس مع الحشود المنتصرة والمتهللة والمنهكة. في رأس الموكب الطويل، الذي قدره لافاييت بستين ألف شخص، جاءت العائلة الملكية في عربة محاطة بنساء يحملن فروع الغار، تبعهن الحرس الوطني الذي كان يرافق عربات محملة بالقمح والطحين. في الخلف، كتب أحد المؤرخين، سار

مزيد من النساء، «أغصانهن المزينة بين الحديد اللامع للرماح وأسطوانات البنادق جعلتهن يظهرن مثل «غابة متجولة» كما فكر أحد المعلقين. كان المطر ما يزال ينهمر، وامتلأت الطرق بالطين الذي وصل حتى الكاحل، ومع ذلك بدوا جميعًا راضين بل ومبتهجين». صرخوا في المارة: «ها هم الخباز وزوجة الخباز وصبي الخباز الصغير قادمون». كان الملك في باريس كيانًا مختلفًا تمامًا عن الملك في فرساي. هناك، ما كان يومًا سلطة مطلقة للملكية الفرنسية تبدد، وأصبح الملك ملكًا دستوريًا، ثم سجينًا، وفي غضون بضع سنوات ضحية للمقصلة حيث تحولت الثورة إلى فصائل وحمامات دم.

كثيرًا ما يوصف التاريخ وكأنه يتألف بالكامل من مفاوضات في أماكن مغلقة وحروب في أماكن مفتوحة - من محادثات وصراعات، ومن ساسة ومحاربين. الأحداث السابقة لتلك الثورة -ميلاد الجمعية الوطنية واقتحام الباستيل- تتوافق مع هذه الروايات. ومع ذلك تمكنت نساء السوق من صنع التاريخ كمواطنات عاديات منخرطات في حركتهن العادية. أثناء مسيرة آلاف النساء إلى فرساي، تغلبن على ثقل الماضي الذي كان يفرض عليهن تبجيل كل السلطات الاعتيادية، في حين أن صدمات المستقبل لم تكن متوقعة. عشن يومًا واحدًا كان العالم فيه معهن، ولم يخشين شيئًا، تبعهن الجيش، ولم يكن مادة لطحن طاحونة التاريخ بل كن هن الطاحنات. ومثلهن كمثل المتظاهرين في كل مكان، أظهرن قوة جماعية -قوة أضعف ما فيها أن يسحبن دعمهن للثورة وأشدها أن يثرن بشراسة- ولكنهن نجحن في بدء الثورة إلى حد كبير بوصفهن مشاءات. لقد حملن أغصانًا فضلًا عن البنادق، فالبنادق تعمل في مجال الواقع، أما

الأغصان ففي مجال الرمز.

عادت هذه التشابكات بين الاحتفالات الدينية والتجمعات الضخمة في الساحات العامة والمسيرات الحاشدة إلى الظهور مرة أخرى في الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية. فقد بدأ العام الثوري بشكل غير مبشر حين سحقت الدبابات الحكومية حرفيًا حركة الديمقراطية الطلابية في ميدان تيانانمن في بكين، ولكن الحكومات الشيوعية في مختلف أنحاء أوروبا فقدت شهيتها للقمع العنيف أو ثقتها به. ولم يعد العنف في حد ذاته أداة معتادة مثلما كان عليه قبل أن ينشر غاندي عقيدته اللاعنفية، وأصبحت حقوق الإنسان أكثر رسوخًا، وجعلت وسائل الإعلام الأحداث في جميع أنحاء العالم مرئية بشكل أوضح.

أثبتت حركة الحقوق المدنية الأميركية فعاليتها في الغرب، وأصبحت حركات السلام وتكتيكات العمل اللاعنفي المباشر لغة عالمية للمقاومة الشعبية. وكما يشير هوبزباوم، فإن المسيرات على طول الشارع حلت إلى حد كبير محل أعمال الشغب في الحي. وفي مختلف أنحاء أوروبا الشرقية، أوضح المتمردون أن اللاعنف جزء من أيديولوجيتهم. نجحت الثورة في بولندا بالطريقة التي يفترض أن تنجح بها التغييرات اللاعنفية؛ ببطء، وبقدر كبير من الضغوط السياسية الخارجية والمفاوضات السياسية الداخلية، وبلغت ذروتها في الانتخابات الحرة في الرابع من يونيو ١٩٨٩. واستفادت الثورات كلها من دهاء ميخائيل غورباتشوف في تفكيك الاتحاد السوفييتي. ولكن التاريخ في هنغاريا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا، ضنع في الشوارع، واستوعبت

مدنها القديمة التجمعات العامة بشكل جميل.

حسب تقرير تيموثي غارتون آش، إن جنازةً تأخرت إقامتها ثلاثة وثلاثين عامًا لإيمري ناغ Imre Nagy، الذي أعدم بسبب دوره في الانتفاضة الفاشلة عام ١٩٥٦، هي التي بدأت الثورة في هنغاريا. في السادس عشر من يونيو، تجمهر مئتا ألف شخص في مسيرة كان من الممكن أن تُسحق بعنف في السنوات السابقة. وفي نشوة استعادة تاريخهم وصوتهم، كثف المنشقون جهودهم، وفي الثالث والعشرين من أكتوبر ولدت الجمهورية الهنغارية الجديدة. وكانت ألمانيا الشرقية هي التالية. في البداية، تم تصعيد الإجراءات القمعية، اعتُقل الطلاب في طريق عودتهم إلى منازلهم من المدرسة والموظفون العائدون إلى العمل لمجرد وجودهم بالقرب من الاضطرابات في برلين الشرقية: حتى حرية المشي اليومية أصبحت جريمة (كما هو الحال في أوقات الاضطرابات أو في ظل الأنظمة القمعية من حظر لتجول وحظر تجمعات). لكن كنيسة نيكولاي في لايبزيغ كانت تقيم منذ فترة طويلة «صلوات من أجل السلام» مساء الاثنين تليها مظاهرات في ساحة كارل ماركس المجاورة، وهناك بدأت الأعداد تزداد. في الثاني من أكتوبر تجمع ما بين خمسة عشر إلى عشرين ألف شخص في تلك الساحة بجوار الكنيسة في أكبر مظاهرة عفوية في ألمانيا الشرقية منذ عام ١٩٥٣، وبحلول الثلاثين من أكتوبر، كان ما يقرب من نصف مليون شخص قد خرجوا في مسيرة. ويكتب آش: «منذ ذلك الوقت فصاعدًا، كانت الناس تفعل والحزب يرد». وفي الرابع من نوفمبر تجمع مليون شخص في ميدان ألكسندر في برلين الشرقية، حاملين الأعلام واللافتات والملصقات، وفي التاسع

من نوفمبر سقط جدار برلين. أخبرني أحد الأصدقاء الذين كانوا هناك أنه سقط لأن عددًا كبيرًا من الناس حضروا إثر انتشار أنباء كاذبة عن سقوط الجدار، فتحول الحدث إلى واقعة حقيقية- انهار الحراس وسمحوا لهم بالمرور. وأصبح الحدث حقيقة لأن عددًا كافيًا من الناس حضروا لجعله حقيقة. ومرة أخرى كتب الناس التاريخ بأقدامهم.

كانت «الثورة المخملية» في تشيكوسلوفاكيا الأكثر روعة على الإطلاق، والأخيرة (فالعنف الذي وقع في رومانيا في عيد الميلاد كان شيئًا مختلفًا تمامًا). في يناير من ذلك العام السحري، سُجن الكاتب المسرحي فاتسلاف هافل لمشاركته في إحياء الذكرى العشرين لطالب أحرق نفسه حتى الموت في قلب براغ، في ميدان فاتسلافسكي، احتجاجًا على سحق ثورة «ربيع براغ» عام ١٩٦٨. كان السابع عشر من نوفمبر ١٩٨٩ ذكرى استشهاد طالب تشيكي آخر، قتله النازيون أثناء الاحتلال، وكان هذا الموكب التذكاري أكبر وأكثر جرأة من الموكب الذي نُظِّم في يناير. انطلقت التظاهرة من جامعة تشارلز، وعندما انتهى المسار الرسمي عند الغسق، أشعلوا الشموع، وحملوا الزهور، واستمروا في المشي عبر الشوارع، بينما يغنون ويهتفون بشعارات مناهضة للحكومة، وأصبح الماضي مرة أخرى مناسبة لمخاطبة الحاضر. في ميدان فاتسلافسكي، حاصرهم رجال الشرطة وضربوا كل من أمكنهم الوصول إليه بالهراوات. هرع المتظاهرون إلى الشوارع الجانبية، تسلل بعضهم أو أُخذ إلى منازل قريبة، ولكن عديدًا منهم أصيبوا. وأثارت الروايات الكاذبة عن انضمام أحد الطلاب إلى صفوف الضحايا غضب الشعب. إثر ذلك، بدأت تظاهرات، وإضرابات، وتجمعات عفوية في ميدان

فاتسلافسكي -وهو في الواقع شارع عريض مشجر بطول كيلومتر في قلب المدينة- بمشاركة مئات الآلاف من الأشخاص. خلف الكواليس، في مسرح «الفانوس السحري»، نجح هافل الذي أطلق سراحه أخيرًا آنذاك، في توحيد جماعات المعارضة كلها في قوة سياسية لتحويل السلطة التي تنتزعها الآن في الشوارع إلى شيء عملي (أطلق على المعارضة التشيكية اسم «المنتدى المدني»، أما المعارضة السلوفاكية فكانت تُسمى «جماهير ضد العنف»).

بدأ التشيكوسلوفاكيون في العيش في الأماكن العامة، يتجمعون كل يوم في ساحة فاتسلافسكي ويسيرون على طول شارع نارودني المجاور، يتلقون الأخبار من المشاركين الآخرين، ويصنعون الملصقات واللافتات ويقرؤونها، ويبنون هياكل من الزهور والشموع، ويستعيدون الشارع كمساحة عامة يحدد الناس معناها. بدت براغ، كما ذكر أحد الصحافيين، كأنها منومة مغناطيسيًا، كأنها وقعت في غيبوبة سحرية. لم تتوقف براغ قط عن كونها واحدة من أجمل مدن أوروبا، ولكن على مدى عقدين طويلين من الزمان كانت سحابة من الحزن الطاغي تغلف الأبراج القوطية والباروكية. الآن اختفت. كانت الحشود هادئة، واثقة، ومتحضرة. تجمع الناس كل يوم بعد العمل في الرابعة مساءً، ودخلوا ميدان فاتسلافسكي بأدب وصبر وهدف... كانت المدينة تنبض بالألوان: رفعت الملصقات على الجدران، وواجهات المتاجر، وعلى أي شبر من المساحة الحرة. وبعد كل تجمع حاشد ردد الناس النشيد الوطني. مضت أربعة أيام قبل أن يظهر أشهر منشقي البلاد -هافل وبطل عام ١٩٦٨، ألكسندر دوبتشيك- على شرفة تطل على الساحة، وكان الأخير في أول ظهور علني له بعد واحد وعشرين

عامًا من الصمت القسري. عند ذاك قال دوبتشيك: «تخبرنا الحكومة بأن الشارع ليس المكان المناسب لحل الأمور، لكنني أقول إن الشارع كان ولا يزال المكان المناسب. يجب سماع صوت الشارع».

بدأت الثورة بتذكر أحد الطلاب وبلغت ذروتها بالاحتفال بقديسة. فقد طوّبت القديسة أغنيس من بوهيميا، حفيدة القديس فاتسلافسكي، قبل بضعة أسابيع. وأقام رئيس أساقفة براغ، وهو من أنصار المعارضة، قداسًا لمئات الآلاف وسط الثلج بعد أيام قليلة من ظهور دوبتشيك. ومثل الهنغاريين، انتزع التشيكوسلوفاكيون مستقبلهم عبر تذكر أبطال الماضي وقتلاه، فبحلول العاشر من ديسمبر كانت هناك حكومة جديدة. كتب مايكل كوكرال، وهو جغرافي أميركي كان حاضرًا في شبابه طوال الثورة المخملية: «انتهى زمن المظاهرات الحاشدة اليومية في الشوارع بعد السابع والعشرين من نوفمبر، وبالتالي، تغيرت شخصية الثورة برمتها. لم أستيقظ في الصباح التالي لأجد نفسي وقد تحولت إلى حشرة عملاقة، لكنني شعرت بالحزن لأنني كنت أعرف أنني لن أختبر، على الأرجح، الزخم والعفوية والبهجة التي رافقت الأيام العشرة الماضية مرة أخرى».

كان عام ١٩٨٩ عام الميادين -ميدان تيانانمن، وميدان ألكسندر، وميدان كارل ماركس، وميدان فاتسلافسكي- والناس الذين أعادوا اكتشاف قوة الحشد في مثل هذه الأماكن. ويشكل ميدان تيانانمن تذكيرًا بأن المسيرات والاحتجاجات والاستيلاء على المساحات العامة لا يفضي دائمًا إلى النتائج المرجوة. هناك عديد من الصراعات الأخرى التي تكمن في مكان ما بين الثورة المخملية

وحمامات الدم القمعية، وكانت الثمانينيات عقدًا من النشاط السياسي العظيم: في الحركات الهائلة المناهضة للطاقة النووية في كازاخستان وبريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة، وفي المسيرات العديدة ضد التدخل الأميركي في أميركا الوسطى، وفي الطلاب في جميع أنحاء العالم الذين حثوا جامعاتهم على سحب الاستثمارات من جنوب إفريقيا وساعدوا في الإطاحة بنظام الفصل العنصري هناك، وفي مسيرات المثليين المتزايدة خلال العقد، وناشطي الإيدز الراديكاليين في نهاية العقد، وفي الحركات الشعبوية التي نزلت إلى شوارع الفلبين وعديد من البلدان الأخرى.

قبل بضع سنوات، وجدت انتفاضة أخرى ميدانًا لمسرحها. تبدأ أسطورة أمهات ساحة دي مايو عندما انتبهت هؤلاء النساء إلى وجود بعضهن بعضًا في مراكز الشرطة والمكاتب الحكومية بينما يقدمن استفسارات بائسة بشأن أبنائهن الذين «اختطفوا» من قبل عملاء الحكم العسكري الوحشي الذي استولى على السلطة في عام ١٩٧٦. «السرية»، كما تكتب مارغريت غوزمان بوفارد: «كانت عنصرًا رئيسيًا في حرب الطغمة العسكرية القذرة... كانت عمليات الاختطاف في الأرجنتين تجري تحت قشرة الحياة الطبيعية لئلا يكون هناك أي احتجاج، وللإبقاء على الواقع المروع مطموزًا وغامضًا حتى بالنسبة إلى عائلات المختطفين». أغلب هؤلاء النساء ربات بيوت وبتعليم محدود وخبرة سياسية ضئيلة، وقد أدركن أن عليهن الكشف عن السر، فواصلن قضيتهن بلا مبالاة مذهلة بسلامتهن. في الثلاثين من إبريل ١٩٧٧، توجهت أربع عشرة أمًا إلى ساحة مايو في وسط بوينس أيرس. كانت المكان الذي أُعلن فيه استقلال الأرجنتين في عام ١٨١٠،

حيث ألقى خوان بيرون خطبه الشعبوية، وهي ساحة تقع في قلب المدينة. ما إن جلسن هناك، حتى صاح أحد رجال الشرطة بأن هذا تجمهر غير قانوني، فبدأن في المشي حول نصب في وسط الساحة.

هناك، كما كتب أحد الفرنسيين، خسر الجنرالات معركتهم الأولى، ووجدت الأمهات هويتهن. الساحة هي التي منحتهن اسمهن، وجولاتهن كل يوم جمعة هي التي جعلتهن مشهورات. تكتب بوفارد: «بعد ذلك بوقت طويل، وصفن جولاتهن بأنها مسيرات، وليس مشيًا، من حيث أنهن يسرن نحو هدف وليس مجرد طواف هائم بلا هدف. ومع توالي أيام الجمعة وزيادة أعداد الأمهات السائرات حول الساحة، بدأت الشرطة تنتبه. «كانت شاحنات الشرطة تصل، وتسجل الأسماء، وتجبر الأمهات على المغادرة». وبعد مهاجمتهن بالكلاب والهراوات، واعتقالهن واستجوابهن، ظللن يعدن لأداء هذا الفعل البسيط من الذكرى لسنوات عديدة حتى أصبح طقسًا وتاريخًا وجعل اسم الساحة معروفًا في جميع أنحاء العالم. كن يسرن حاملات صور أطفالهن محمولة مثل اللافتات السياسية على العصي أو معلقة حول أعناقهن، ويرتدين مناديل بيضاء مطرزة بأسماء أبنائهن المختفين وتواريخ اختفائهم (لاحقًا تم تطريزها بدلًا من ذلك، «أعيدوهم أحياءً»).

«أخبرنني بأنهن يشعرن أثناء مشيهن بقربهن الشديد من أطفالهن»، هكذا كتبت الشاعرة مارجوري أغوسين التي سارت معهن. والحقيقة هي أن الذاكرة تستعيد معناها في الساحة التي لا يُسمح فيها بالنسيان. لسنوات عديدة، كانت هؤلاء النساء اللواتي يحملن التروما الوطنية مشيًا يشكلن

أكثر معارضة علنية للنظام. بحلول عام ١٩٨٠، كن قد أنشأن شبكة من الأمهات في مختلف أنحاء الأرجنتين، وفي عام ١٩٨١، بدأن أولى مسيراتهن السنوية التي تستمر لمدة أربع وعشرين ساعة للاحتفال بيوم حقوق الإنسان (كما انضممن إلى مواكب دينية في أرجاء البلاد). «لم تعد الأمهات وحدهن أثناء مسيراتهن، فقد كانت الساحة تعج بالصحفيين من الخارج الذين جاؤوا لتغطية الظاهرة الغريبة المتمثلة في مسيرة نساء في منتصف العمر متحديات حالة الحصار». وعندما سقط المجلس العسكري عام ١٩٨٣، كانت الأمهات ضيفات شرف في حفل تنصيب الرئيس المنتخب حديثًا، لكنهن واصلن سيرهن الأسبوعي عكس اتجاه عقارب الساعة حول النصب في ساحة مايو، وانضم إليهن الآلاف ممن كن خائفات قبلًا. وما زلن يمشين عكس اتجاه عقارب الساعة حول النصب الشاهق كل يوم خميس.

ثمة طرق عديدة لقياس فعالية الاحتجاج، فهناك تأثيره في الجمهور الأوسع، بشكل مباشر ومن خلال وسائل الإعلام، وهناك تأثيره في الحكومة، على جماهيرها. ما ينسى غالبًا هو تأثيرها في المحتجين، الذين تحولوا فجأة إلى حشد في مساحة عامة حقيقية، ولم يظل الحشد جمهورًا بل أصبح قوة. لقد ذقت طعم هذه الحياة في الأماكن العامة ذات يوم خلال الأسابيع الأولى من حرب الخليج، حيث عشت حياة هناك أكثر كثافة مما عشته في المسيرات والاستعراضات السنوية الجمة في سان فرانسيسكو قبل تلك الأيام وبعدها. لم يكتب الكثير آنذاك أو منذ ذلك الحين عن الاحتجاجات الضخمة التي عمت أنحاء البلاد في يناير ١٩٩١، والتي أحاطت بقاعة الاستقلال في فيلادلفيا،

وتجمعت في حديقة لافاييت أمام البيت الأبيض، واحتلت الهيئات التشريعية في ولايتي واشنطن وتكساس، وأغلقت جسر بروكلين، وغطت سيائل بالملصقات والمظاهرات، ونظمت «احتجاجات محطات البنزين» في مختلف أنحاء الجنوب. ووسط التخوف كان هناك نسخ من المظاهرات أكثر مراعاة للمشاعر الوطنية، كانت هناك صرخة ضخمة استمرت لأسابيع في سان فرانسيسكو. لا أقصد أننا كنا نتمتع بشجاعة أمهات بلازا دي مايو أو تأثير شعب براغ، أقصد فقط أننا عشنا أيضًا لفترة من الوقت في الأمكنة العامة. كانت إستراتيجية الحرب بأكملها -سرعتها، والرقابة الهائلة، واعتمادها على الأسلحة عالية التقنية، ومعاركها البرية المحدودة- مُنظمة لهزيمة المعارضة في الداخل عن طريق تقييد المعلومات والأخبار عن الخسائر البشرية الأمريكية، مما يشير إلى أن الاحتجاج والرأي الشعبي كانا قوة مؤثرة بحيث كانت الحرب (والحروب الصغيرة المماثلة منذ ذلك الحين) ضربة استباقية ضدهما.

خرجنا إلى الشوارع على أي حال، وتغيرت مساحات المدينة كليًا. قبل سقوط القنابل الأولى، بدأ الناس يتجمعون بشكل عفوي، ويسيرون معًا، ويشعلون النيران في أشجار عيد الميلاد القديمة التي وضعت في الشوارع، وينظمون الطقوس والتجمعات، ويزينون المدينة بملصقات بدت وكأنها تجعل الجدران تكسر صمتها بنفسها بدعوات إلى اتخاذ إجراءات محددة وتعليقات لاذعة حول معنى الحرب. اتجهت عديد من المظاهرات هنا، كما في أماكن أخرى، بشكل غريزي إلى الشرايين المرورية كالجسور والطرق السريعة، أو إلى مواقع السلطة مثل المبنى الفيدرالي وسوق الأوراق المالية،

فأغلقتها. وكانت الاحتجاجات تستمر بشكل شبه يومي حتى فبراير. أعيد تشكيل المدينة كمكان لا ينتمي مركزه إلى قطاع الأعمال أو السيارات، بل إلى السائرين الذين يتحركون في الشارع في هذا الشكل الجسماني من أشكال حرية التعبير. لم تعد الشوارع حجرة انتظار للمنازل والمدارس والمكاتب والمتاجر، بل أصبحت مسرحًا ضخمًا. أتساءل الآن عمًا إذا كان أي شخص قد احتج أو شارك في مسيرة أو موكب لمجرد أن مثل هذه المناسبات توفر الوقت الوحيد الذي تكون فيه شوارع المدن الأمريكية مكانًا مثاليًا للمشاة، في مأمن من اعتداءات السيارات والغرباء، إن لم يكن من الشرطة أحيانًا. ومن منتصف الشارع، تبدو السماء أوسع وواجهات المتاجر معتمة.

مساء السبت قبل بدء الحرب، تركت سيارتي ومشيت في مسيرة صاخبة اندمجت بشكل عفوي وجذبت الناس من الحانات والمقاهي والمنازل. شاركت في الاحتجاج المنظم جيدًا في اليوم السابق لاندلاع الحرب مع بضعة آلاف آخرين. وانضممت إلى آلاف آخرين بعد ظهر يوم اندلاع الحرب للسير مرة أخرى عبر الظلام وعبر رعبنا إلى المبنى الفيدرالي. في الصباح التالي، أغلقتُ الطريق السريع ١٠١ مع مجموعة من الناشطين الذين قضيت معظم فترة الحرب معهم، حتى بدأت دوريات الطرق في ضرب الناس بالهراوات وكسرت ساق واحد منهم، وفي وقت لاحق من ذلك الصباح، مشيت مع عشرين أو ثلاثين شخصًا آخرين مرة أخرى في شوارع المدينة نحو المنطقة المالية والتجارية. في نهاية الأسبوع الذي تلا اندلاع الحرب، مشيت مع ٢٠٠ ألف شخص تجمعوا للاحتجاج على الحرب باللافتات واللوحات والدمى

والهتافات. خلال تلك الأسابيع، بدت حياتي وكأنها مسيرة متواصلة عبر المدينة المتحولة. تلاشت المخاوف والهموم الشخصية في ظل الروح المشتعلة آنذاك. كانت الشوارع شوارعنا، وكان خوفنا كله على الآخرين. كانت هناك همهمات حول استخدام الأسلحة النووية، وتلميحات بأن إسرائيل قد تجر إلى صراع يبدو وكأنه قد ينتشر كالنار في الهشيم إلى سعير عالمي. لم أشعر يومًا بشيء ما بهذه الكثافة والشدة مثلما شعرت في تلك الحرب، باستثناء تجارب الحب الجارف وحداد الموت الأشد وطأة (وقد كانت حربًا مليئة بالموتى، قليل منهم أميركيون، إلى أن بدأت آثار المواد السامة في الحرب تظهر).

في فترة ما بعد الظهيرة من اليوم الأول للحرب، وجدت نفسي محاصرة في عملية تفتيش للشرطة، وقضيت بضع ساعات جالسة، من باب التغيير، مكبلة اليدين في حافلة بالقرب من مركز التظاهرة، أنظر من النافذة، وفي هدنة غريبة، أستمع مع رجال الشرطة إلى إذاعة الموجة القصيرة التي يبثها صحافي معتقل عن الحرب. كانت الصواريخ تُطلَق على إسرائيل، وقالت الإذاعة إن سكان تل أبيب جميعًا في غرف مغلقة يرتدون أقنعة الغاز. ولقد ظلت هذه الصورة عالقة في ذهني، صورة لحرب فقد فيها المدنيون رؤية العالم ووجوه بعضهم بعضًا، وفقدوا حتى القدرة على الكلام من وراء أقنعتهم البشعة. ولم يكن حال أغلب الأميركيين أفضل كثيرًا، فقد كانوا بلا صوت أمام شاشات التلفاز التي تبث اللقطات المبهمة نفسها لحرب خاضعة للرقابة مرارًا وتكرارًا. وفي العيش في الشوارع كنا نرفض استهلاك معنى تلك الحرب، وننتج بدلًا من ذلك معنانا الخاص، في شوارعنا

وفي قلوبنا إن لم يكن في حكومتنا ووسائل إعلامنا.

في تلك اللحظات التي نتحرك فيها عبر الشوارع مع أناس يشاركوننا معتقداتنا، تولد الإمكانية النادرة والسحرية لنوع من الشراكة الشعبية، ربما يجدها البعض في الكنائس والجيوش والفرق الرياضية، ولكن الكنائس ليست ملحة إلى هذا الحد، والجيوش والفرق مدفوعة بأحلام أقل نبلًا. في مثل هذه الأوقات، يبدو الأمر وكأن البركة الصغيرة لهوية المرء الخاصة اجتاحها فيضان عظيم، جالبًا معه رغباته الجماعية الكبرى واستياءه، فمسح هذه البركة بأسرها حتى لم يعد المرء يشعر بالخوف أو يرى انعكاسات نفسه، بل ينجرف مع هذا الطوفان الثوري. هذه اللحظات التي يجد فيها أفراد من يشاركهم أحلامهم، عندما تتغلب المثالية أو الغضب على الخوف، عندما يشعر الناس في أنفسهم بقوة تباغتهم، هي لحظات يتحولون فيها إلى أبطال - فما الأبطال إلا أولئك الذين تدفعهم المثل العليا إلى حد يعجز الخوف عن التأثير فيهم، أولئك الذين يتحدثون نيابة عنا، أولئك الذين يملكون قوة الخير؟ إن من يشعر بهذا طوال الوقت قد يتحول إلى متعصب أو يصبح مصدر إزعاج على الأقل، ومن لا يشعر بذلك أبدًا محكوم عليه بالسخرية والعزلة. في هذه اللحظات يصبح لدى الجميع رؤية، ويصبح الجميع أبطالًا.

تاريخ الثورات والانتفاضات مليء بقصص الكرم والثقة بين الغرباء، وحالات الشجاعة الاستثنائية، وتجاوز الاهتمامات التافهة للحياة اليومية. عام ١٧٩٣، كتب هوجو رواية عن الثورة قال فيها: «كان الناس يعيشون في الأماكن العامة: يأكلون على

طاولات منتشرة خارج الأبواب، والنساء الجالسات على درجات الكنائس يصنعن الضمادات بينما يغنين النشيد الوطني الفرنسي. وكانت حديقتا مونسو ولوكسمبورج بمثابة ساحات مسيرات. كان كل شيء مروعًا ولكن لم يكن هناك من أحد خائف... والجميع منهمك: العالم بأسره كان في عجلة من أمره».

في بداية الحرب الأهلية الإسبانية، كتب جورج أورويل عن تحول برشلونة: «الملصقات الثورية في كل مكان، مشتعلة على الجدران باللونين الأحمر والأزرق النظيفين، ظهرت الإعلانات القليلة المتبقية أمامها كما لو أنها لطخات من الطين. وعلى طول شارع رامبلاس، الشريان المركزي العريض للمدينة حيث تتدفق حشود الناس ذهابًا وإيابًا، كانت مكبرات الصوت تصدح بالأغاني الثورية طوال اليوم وحتى وقت متأخر من الليل... وفوق كل شيء كان هناك إيمان بالثورة والمستقبل، والشعور بالدخول المفاجئ في عصر المساواة والحرية». هناك جغرافيا نفسية للتمرد، باستخدام تعبير الموقفيين، حيث تُعاش الحياة في العلن وتدور حول قضايا عامة، كما يتجلى ذلك في الطقوس المركزية للمسيرة، وثرثرة الغرباء والجدران، والحشود في الشوارع والساحات، والأجواء المسكرة للحرية المحتملة التي تعني أن الخيال تحرر بالفعل. «اللحظات الثورية كرنفالات تحتفل فيها الحياة الفردية بتوحدها مع المجتمع الذي بعث من جديد»، يكتب الموقفي راؤول فانيجيم.

لكن لا أحد يظل بطلًا إلى الأبد. فمن طبيعة الثورات أن تهدأ، وهذا ليس مثل الفشل. الثورة صاعقة تُظهر لنا إمكانيات جديدة وتضيء ظلمة ترتيباتنا القديمة فلا نراها بالطريقة نفسها مرة أخرى. ينهض الناس من أجل الحرية المطلقة،

الحرية التي لن يجدوها إلا في آمالهم وأفعالهم في ذروة تلك الثورة. قد يطيحون بدكتاتور، لكن دكتاتوريين آخرين سوف ينهضون ويجلبون معهم أساليب أخرى لترهيب الدهماء أو استعبادهم. يحدث أحيانًا أن يتمكن الجميع من الإدلاء بأصواتهم أخيرًا، وأن يصبح الطعام والعدالة كافيين إن لم يكونا مثاليين، ولكن حركة المرور العادية ستعود إلى الطرقات، وتزال الملصقات، ويعود الثائرون والثائرات ربات بيوت أو طلابًا أو جامعي قمامة، وسيرجع القلب خاصًا مثلما كان. في الذكرى السنوية الأولى لاقتحام الباستيل، جاء «عيد الاتحاد»، وهو مهرجان وطني من رقص وزيارات ومواكب وفرح عارم، وكانت المشاركة العفوية لجميع طبقات الباريسيين في تجهيز ميدان «شامب دو مار» لاستقبال احتفالاتهم مبهجة أكثر من المهرجان نفسه. بعد عام من ذلك، في ١٢ يوليو ١٧٩١، كان هناك استعراض عسكري للاحتفال بذكرى فولتير، وعاد الشعب، الذي شارك في التاريخ بشراسة ثم بفرح، متفرجًا.

«المقاومة هي سر السعادة» أعلنت النشرة التي ناولني إياها أحد من حركة «استعادة الشوارع» Reclaim the Streets وسط حفلة من حفلاتهم في شارع برمنغهام. قامت حركة «استعادة الشوارع» في لندن في مايو ١٩٩٥ على أنه إذا كانت القوتان التوأم المتمثلتان في الفضاء المخصخص والاقتصادات العالمية تعملان على عزلنا بعضنا عن بعض وعن الثقافة المحلية، فإن استعادة الفضاء العام من أجل الحياة العامة والمهرجانات العامة إحدى الطرق لمقاومة تلك القوتين. فعل الثورة ذاته -في حالة من السعادة والجماعية وفي وسط الشارع- لم يعد وسيلة لتحقيق غاية بل كان

انتصارًا في حد ذاته. وإذا تصورنا الأمر على هذا النحو يصبح الفارق بين الثورات والمهرجانات أقل وضوحًا، ففي عالم من العزلة الكئيبة تكون المهرجانات ثورية بطبيعتها. بعد ثلاث سنوات من تأسيسها، أقامت مجموعة «استعادة الشوارع» حفلها في برمنغهام لتعترض على اجتماع مجموعة الثماني في نهاية الأسبوع، حيث سيصنع زعماء القوى الاقتصادية الكبرى في العالم مستقبل العالم من دون استشارة المواطنين أو الدول الأكثر فقرًا. تجمع مئات الآلاف بمبادرة «المعونة المسيحية» وشكلوا سلسلة بشرية أحاطت وسط المدينة للمطالبة بإعفاء دول العالم الثالث من الديون. لم تكن «استعادة الشوارع» تطلب، بل كانت تأخذ ما تريد.

مرّت لحظة رائعة عندما نفخ عازفو الأبواق نوعًا من صيحة هجوم المشاة، واندفع الآلاف الذين جاءوا لحضور «حفلة الشوارع العالمية» هذه من محطة الحافلات إلى الشارع الرئيسي في برمنغهام. سارع الناس إلى تسلق أعمدة الإنارة وتعليق اللافتات: «تحت الأسفلت عشب»، قالت لافتة يبلغ طولها حوالي ستين قدمًا تحاكي عبارة من باريس مايو ١٩٦٨، وقالت أخرى: «أوقفوا السيارة/حرروا المدينة». ما إن استقر الناس، حتى هدأت الروح العظيمة للتحرك إلى الأمام وتحولت إلى حفل عادي يضم في الأغلب شبابًا وناسًا مهلهلين، يرقصون ويختلطون ويتعرون من شدة الحر والرطوبة، وهو ما لا يختلف كثيرًا عن احتفالات الهالوين في كاسترو، باستثناء أنه يخالف القانون ويعيق الحركة. المشي والمسيرات الجماعية روحية في صميمها بشكل لا ينطبق على الاختلاط بعد الوصول.

لم تكن هذه واحدة من حفلات الشوارع الرائعة التي أقامتها الحركة، كما أخبرني أحد ناشطيها لاحقًا، ولا تقارن بحفلة الشوارع التي استمرت ثلاثة أيام مع عمال الموانئ المضربين في ليفربول، أو الاحتجاج الذي نظمته الحركة ضد بناء طريق سريع جديد بالقرب من لندن، والذي تضمن دمى عملاقة ترتدي تنانير دائرية كبيرة يختبيء تحتها عمال «الكومبرسر» يحفرون ثقوبًا في الجسر حيث زرعت الأشجار في تلك الثقوب لاحقًا، أو تلك المشاغبات التي قامت بها «الجبهة الثورية للمشاة» في حدث ترويجي لشركة ألفا روميو(78)، أو الاستيلاء على ميدان ترافالجار. لعل بعض الأماكن الأخرى التي أقيمت فيها حفلات الشوارع الشقيقة في ذلك اليوم -أنقرة، وبرلين، وبوغوتا، ودبلن، وإسطنبول، ومدريد، وبراغ، وسياتل، وتورينو، وفانكوفر، وزغرب- كانت على مستوى البلاغة الرفيعة التي حملتها منشورات حركة «استعادة الشوارع». ورغم أن الحركة لم تحقق أهدافها، فإنها وضعت هدفًا جديدًا لكل نشاط في الطريق، الآن يمكن اعتبار كل عرض، وكل مسيرة، وكل مهرجان، انتصارًا على الاستلاب، واستعادة لمساحة المدينة، والمساحة العامة والحياة العامة، وفرصة للسير معًا في ما لم يعد رحلة بل وصولًا بالفعل.

الفصل الرابع عشر
المشي بعد منتصف الليل
المرأة والجنس والفضاء العام

في عام ١٨٧٠، ذهبت كارولين وايبرغ(79)، ابنة التسعة عشر عامًا «للتنزه» مع جندي في تشاتام بإنجلترا، وقد ترسخ المشي كجزء من المغازلة منذ وقت طويل آنذاك. كان مجانيًا، ويمنح العشاق مساحة شبه خاصة للتودد، سواء في حديقة أو ساحة أو شارع أو طريق جانبي (في تصميم المناظر الطبيعية الريفية تفاصيل مثل «ممرات العشاق» تمنحهم مساحة خاصة للقيام بالمزيد). لعل هذا الفعل الدقيق -المتمثل في أن يسير اثنان كأنهما يعزفان إيقاع خطواتهما- يوحد بينهما عاطفيًا وجسديًا، تمامًا كما يؤكد المشي في مسيرات على التضامن بين مجموعة ويولده، وربما يشعر الاثنان بأنهما صارا واحدًا لأول مرة عندما يتحركان معًا في المساء والشارع والعالم. بوصفه وسيلة للقيام بذلك الشيء الأقرب إلى عدم القيام بأي شيء، يتيح مشيهما معًا التمتع بحضورهما، من دون أن يكونا ملزمين بالتحدث بشكل مستمر ومن دون أن ينهمك أيهما في فعل شيء يمنعهما من المحادثة. في بريطانيا، كانت عبارة «الخروج للمشي معًا» Walking out together تعني فعلًا جنسيًا صريحًا في بعض الأحيان، لكنها كثيرًا ما عبَرت عن أن اتصالًا مستمرًا أصبح متحققًا بين الاثنين، على غرار العبارة الأمريكية الحديثة «نتقدم بتعقل» Going Steady(80). في نوفيلا جيمس جويس «الموتى»، يسأل الزوج الذي اكتشف للتو أن زوجته كانت مخطوبة في شبابها إن كانت أحبت

ذلك الفتى الميت الآن، فترد عليه بنبرة مدمرة: «كنت أخرج للمشي معه».

إذن شوهدت ابنة التسعة عشر عامًا كارولين وايبرغ وهي تتمشى مع جنديها، وفي وقت متأخر من إحدى الليالي جرها مفتش شرطة من سريرها. أعطت قوانين الأمراض المعدية، التي كانت سارية آنذاك، الشرطة في مدن الثكنات سلطة اعتقال أي امرأة يشتبه أنها عاهرة. مجرد التجول في الوقت أو المكان الخطأ يجعل المرأة موضع شبهة، وكان القانون يسمح باعتقال أي امرأة متهمة أو مشتبه فيها. إذا رفضت المعتقلة الخضوع لفحص طبي، فقد يُحكم عليها بالسجن لعدة أشهر، لكن الفحص الطبي المؤلم والمهين يشكل في حد ذاته عقوبة أيضًا، وإذا ثبتت إصابتها بالعدوى، تُحبس في سجن طبي. إنها مذنبة حتى تثبت براءتها، ولن تستطيع الفرار من دون أن يلحق بها أذى. كانت كارولين تعيل نفسها ووالدتها بغسل عتبات المنازل وتنظيف الأقبية، وحاولت والدتها، خشية خسارة دخلها لفترة طويلة، إقناعها بالخضوع للفحص بدلًا من حكم ثلاثة أشهر في السجن. رفضت، فقام الضباط بربطها في سرير لأربعة أيام. في اليوم الخامس، وافقت على أن تُفحص، لكن استعدادها لذلك خذلها بعد نقلها إلى غرفة الجراحة، حيث زبطت بالقميصول(81)، ووضعوها بالقوة على طاولة الفحص بساقيها مشدودتين متباعدتين، وثبتها مساعد بأن وضع كوعه على صدرها. حاولت المقاومة فسقطت من الطاولة وتدحرجت وكاحلاها لا يزالان مقيدان وأصيبت بجروح خطيرة، وفضت آلة الفحص بكارتها، وسال الدم بين ساقيها، ضحك الجراح قائلًا: «يبدو أنك كنت تقولين الحقيقة، أنت

لست فتاة سيئة». لم يذكر اسم الجندي أبدًا، لم يعتقل ولم يفحص، ولم يدخل في ملفات قانونية، فلطالما كان التمشي في الشوارع أسهل على الرجال من النساء.

تعرضت النساء بشكل روتيني للعقاب والترهيب لمحاولتهن ممارسة أبسط الحريات، الخروج في تمشية، لأن مشيهن، بل ووجودهن، فسّر بشكل حتمي ومستمر على أنه أمر جنسي في تلك المجتمعات المشغولة بالسيطرة على جنسانية النساء. طوال تاريخ المشي الذي تعقبته، كانت الشخصيات الرئيسية -سواء من فلاسفة مشائين، أو متسكعين، أو متسلقي جبال- رجالًا، والآن حان الوقت للنظر في سبب عدم خروج النساء للمشي أيضًا.

«مأساتي الفظيعة أنني ولدت امرأة»، هكذا كتبت سيلفيا بلاث في مذكراتها وهي في التاسعة عشرة. «نعم، رغبتي الشديدة في الاختلاط بعمال الطرق والبحارة والجنود ومرتادي الحانات -أن أكون جزءًا من مشهد ما، مجهولة الهوية، أستمع، أسجل- كل هذا أفسدته حقيقة أنني فتاة، أنثى معرضة لخطر الاعتداء والضرب دائمًا. غالبًا ما يفسر اهتمامي المفرط بالرجال وحياتهم، خطأً، على أنه رغبة في إغوائهم، أو دعوة إلى الحميمية. نعم، يا إلهي، أريد أن أتحدث إلى كل من أستطيع بأعمق ما أستطيع. أريد أن أقدر على النوم في حقل مفتوح، والسفر غربًا، والمشي بحرية في الليل». يبدو أن بلاث كانت مهتمة بالرجال لنفس السبب الذي جعلها عاجزة عن التحقق منهم - حريتهم الأكبر جعلت حياتهم أكثر إثارة بالنسبة إلى شابة بدأت فورًا رحلتها بمفردها. يتطلب المشي -بمعنى الخروج إلى العالم للمشي

من أجل المتعة- ثلاثة شروط أساسية، فلا بد أن يملك المرء وقت فراغ، ومكانًا يذهب إليه، وجسدًا لا يقيده مرض ولا قيود اجتماعية. يتوقف وقت الفراغ على عدة متغيرات، ولكن أغلب الأماكن العامة لم تكن دائمًا مرحبة بالنساء وآمنة بالنسبة إليهن. فالإجراءات القانونية، والأعراف الاجتماعية التي يلتزم بها الرجال والنساء على حد سواء، والتهديد الضمني بالتحرش الجنسي، والاغتصاب نفسه، كلها عوامل حدّت من قدرة النساء على المشي أينما ومتى أردن. تشكّل ملابس النساء وتقييدات أجسادهن -أحذية الكعب العالي، أحذية ضيقة أو هشة، الكورسيهات والأحزمة الضيقة، تنانير واسعة جدًا أو ضيقة جدًا، أقمشة تتلف بسهولة، نقاب يحجب الرؤية- جزءًا من العادات الاجتماعية التي أعاقت النساء بنفس فعالية القوانين والمخاوف.

يصير وجود المرأة في الأماكن العامة غزوًا لأعضائها الخاصة، بتكرار رهيب، بالمعنى الحرفي أحيانًا واللفظي أحيانًا. حتى إن اللغة الإنجليزية مليئة بالكلمات والعبارات التي تُجنسن مشي النساء. من التعبيرات التي تصف العاهرات: جوالات الشوارع، نساء الشوارع، نساء لكل البلدة، بنات عموميات (وبالطبع فإن عبارات مثل رجل عام، أو رجل لكل البلدة، أو رجل الشارع تعني أشياء مختلفة تمامًا عن نظيراتها المرتبطة بالنساء). يمكن القول إن المرأة التي انتهكت التقاليد الجنسية تتسكع، تتجول، تحوم، تضيع طريقها، كل هذه المصطلحات تعني أن تنقل النساء جنسي حتمًا، أو أن حياتهن الجنسية تتجاوز للعرف إن كن في حالة تنقل. لو أن شلّة نساء أطلقن على أنفسهن «متشردات الأحد»، مثلما فعلت مجموعة من

أصدقاء ليزلي ستيفن الذكور، لعنى هذا اللقب، ضمنيًا، ليس أنهن ذاهبات للتنزه، بل إنهن يمارسن شيئًا فاحشًا أيام الأحد. وبالطبع، كثيرًا ما يُفسّر مشي النساء باعتباره أداءً وليس تنقلًا، مع ما يعنيه ذلك من أن النساء لا يمشين لينظرن بل لينظر إليهن، وليس من أجل تجربتهن الخاصة بل من أجل تجربة جمهور من الذكور، وهذا يعني أنهن يطلبن أي قدر من الاهتمام يتلقينه. كُتب كثير عن مشية النساء، كنوع من التقييم الإيروتيكي -من أنسة القرن السابع عشر التي «تتسلل أقدامها من تحت تنورتها الداخلية / مثل الفئران الصغيرة، إلى الداخل والخارج» إلى مختزة مارلين مونرو- وكنوع من الإرشادات لأصول المِشية الصحيحة. وكُتب أقل بكثير عن الأمكنة التي نمشيها.

قُيدت حرية تنقل فئات أخرى من الناس، ولكن القيود القائمة على العرق والطبقة والدين والإثنية والتوجه الجنسي محلية ومتغيرة مقارنة بتلك التي فرضت على النساء، والتي شكلت بعمق هويات الجنسين لآلاف السنين في معظم أنحاء العالم. ثمة تفسيرات بيولوجية ونفسية لذلك، لكن الظروف الاجتماعية والسياسية تبدو الأكثر صلة. إلى أي مدى يمكن للمرء أن يعود بالزمن؟ في آشور الوسطى (حوالي القرنين السابع عشر والحادي عشر قبل الميلاد)، قُسّمت النساء إلى فئتين. لا يجوز للمتزوجات والأرامل (اللاتي يخرجن إلى الشارع) أن يخرجن من دون غطاء الرأس، كما ينص القانون، وعلى العكس من ذلك، فلا يجوز للعاهرات والفتيات من العبيد تغطية رؤوسهن. عقوبة النساء اللاتي يضعن النقاب بشكل يخالف القانون أن يُجلدن خمسين جلدة أو يُسكب القطران على رؤوسهن. وتعلق المؤرخة جيردا

ليرنر قائلة: «إن نساء البيت اللائي يخدمن رجلًا واحدًا جنسيًا ويكن تحت حمايته، يطلق عليهن لقب «محترمات» لكونهن محجبات، أما اللائي لا يخضعن لحماية رجل واحد وسيطرته الجنسية فيطلق عليهن «نساء عموميات»، وبالتالي فهن غير محجبات. يتكرر هذا النمط من التمييز المرئي القسري عبر الزمن التاريخي في عديد من اللوائح التي تضع «نساء سيئات سمعة» في مناطق معينة أو منازل معينة مميزة بعلامات يمكن التعرف عليها بوضوح أو تجبرهن على التسجيل لدى السلطات وحمل بطاقات تعريف». تخضع النساء «المحترمات» للتنظيم على قدم المساواة، ولكنهن يخضعن للقيود الاجتماعية أكثر من القانونية. وهناك عديد من الأشياء اللافتة للنظر في ظهور هذا القانون، الذي يبدو أن تنظيمه للعالم ساد منذ ذلك الحين، إذ يجعل من جنسانية المرأة شأنًا عامًا أكثر من كونه خاصًا. يساوي هذا القانون بين أن تكون مرئية وأن تكون متاحة جنسيًا، ولئلا تكون متاحة للعابرين يتطلب الأمر حاجزًا ماديًا بدلًا من أخلاق المرأة أو إرادتها. القانون يفصل النساء إلى طبقتين معترف بهما علنًا على أساس السلوك الجنسي، ويسمح للرجال، الذين تظل حياتهم الجنسية خاصة، بالوصول إلى الطبقتين. العضوية في الطبقة المحترمة تأتي على حساب الحياة الخاصة، والعضوية في الطبقة التي تتمتع بالحرية المكانية والجنسية تأتي على حساب الاحترام الاجتماعي. وفي الحالتين، يجعل القانون وجود امرأة كشخصية عامة محترمة أمرًا مستحيلًا تقريبًا، ومنذ ذلك، باتت جنسانية المرأة شأنًا عامًا.

يلف أوديسيوس ملحمة هوميروس العالم وينام في أمكنة مختلفة. أما زوجته بينيلوبي فتظل في

البيت، تماطل الخاطبين الذين تفتقر إلى سلطة رفضهم بشكل صريح. ومنذ ذلك الحين ظل السفر، سواء كان محليًا أو عالميًا، حكرًا على الرجال إلى حد كبير، فالنساء كن الوجهة في كثير من الأحيان أو الجائزة أو حارسات المنزل. وبحلول القرن الخامس قبل الميلاد في اليونان، كانت هذه الأدوار المختلفة جذريًا قد عُرِفت بوصفها أدوار ما هو داخلي وخارجي، وما هو مجال خاص وعام. الأثينيات، كما يكتب ريتشارد سينيت، «كن محصورات في المنازل بسبب عيوبهم الفسيولوجية المفترضة». ويقتبس من بريكليس وهو يختتم خطبته الجنائزية بنصيحة لنساء أثينا -«إن أعظم مجد للمرأة هو أن تكون أقل ما يمكن أن يتحدث عنه الرجال، سواء أكانوا يمدحونك أو ينتقدونك»- ومن زينوفون وهو يقول للزوجات: «مهمتكن هي البقاء في المنزل». عاشت نساء اليونان القديمة بعيدًا عن الأمكنة العامة المشهورة والحياة العامة في المدن. في مختلف أنحاء العالم الغربي وحتى الوقت الحاضر، ظلت النساء حبيسات المنزل نسبيًا، ليس فقط بموجب القانون في بعض البلدان حتى الآن، بل وبسبب العادات والخوف في بلدان أخرى. النظرية المعتادة وراء هذا التحكم في النساء هي أن التحكم في الحياة الجنسية للنساء وسيلة لضمان الأبوة في الثقافات التي يشكل النسب الأبوي فيها أهمية كبيرة للوراثة والهوية (من يظن أن هذه أمور عفا عليها الزمن أو أنها ليست ذات صلة اليوم فما عليه إلا أن يتذكر عالم التشريح التطوري أوين لوفجوي، الذي ناقشناه في الفصل الثالث، بينما يحاول تطبيع هذا النظام الاجتماعي من خلال نظريته القائلة إن الزواج الأحادي للمرأة والعجز عن الحركة كانا مهمين لنوعنا قبل أن نصبح

بشرًا بأمد طويل). هناك عديد من العوامل الأخرى المتعلقة بصناعة نوع (جندر) مهيمن، نوع تشمل امتيازاته التحكم في الجنسانية الأنثوية وتحديدها، إذ ينظر إليها غالبًا كفوضوية وتهديدية وتخريبية، نوع من الطبيعة البرية التي ينبغي للثقافة الذكورية أن تروضها.

يكتب المؤرخ المعماري مارك ويجينز: «تفتقر النساء في الفكر اليوناني إلى ضبط النفس الداخلي الذي ينسب إلى الرجال باعتباره برهانًا على رجولتهم. لا يتعدى ضبط النفس هذا الحفاظ على حدود آمنة. ولا يمكن للمرأة أن تحافظ على هذه الحدود الداخلية... لأن جنسانيتها السائلة تفيض بلا نهاية وتشوش عليها. والأكثر من هذا أنها تشوش حدود الآخرين، أي الرجال... بهذا المعنى يكون دور العمارة الصريح هو التحكم في الجنس، أو على وجه التحديد، جنسانية المرأة، وعفة الفتاة، وإخلاص الزوجة... وبينما يحمي المنزل الأطفال من العناصر، فإن دوره الأساسي هو حماية نسب الأب بعزل النساء عن الرجال الآخرين». هكذا، يتم التحكم في جنسانية المرأة من خلال تنظيم الفضاء العام والخاص. ولإبقاء المرأة «خاصة»، أو متاحة جنسيًا لرجل واحد وغير متاحة للآخرين، تُحصر حياتها كلها في الفضاء الخاص للبيت الذي يصبح نوعًا من الحجاب المبني.

خضعت المومس لقدر من التنظيم أكبر بكثير من أي امرأة أخرى، وكأن القيود الاجتماعية التي هربن منها تلاحقهن كقوانين (لم يخضع زبائن البغايا بالطبع لأي تنظيم بأي شكل من الأشكال، لا بالقانون ولا بالإدانة الاجتماعية: فكروا في فالتر بنيامين وأندريه بريتون قبل بضعة فصول، اللذين

نجحا في الكتابة عن علاقاتهما بالبغايا بدون خوف من فقدان مكانتهما كمثقفين معروفين أو رجال صالحين للزواج). طوال القرن التاسع عشر، حاولت عدة حكومات أوروبية تنظيم البغاء بالحد من الظروف التي يمكن ممارسته فيها، وغالبًا ما أصبح هذا قيدًا للظروف التي يمكن لأي امرأة المشي فيها. في ذلك القرن، صُوِّرت النساء في غاية الضعف والنقاء بحيث لا يستطعن تحمل وخل الحياة الحضرية، ولا يمكنهن الخروج إطلاقًا إن لم يكن هناك من غرض محدد. شرَعت النساء وجودهن من خلال التسوق -وأثبتن أنهن لسن للبيع عن طريق قيامهن بالشراء- ووفرت المتاجر منذ فترة طويلة ملاذات شبه عامة آمنة يمكن للنساء أن يتجولن فيها. إحدى الحجج التي سيقت حول استحالة أن تكون النساء متسكعات هي صعوبة، سواء كسلع أو كمستهلكات، انفصالهن الكافي عن حركة الحياة في المدينة، فبمجرد أن تغلق المتاجر أبوابها تنغلق معها فرصهن في التجوال (وهو ما كان أصعب على النساء العاملات، فالمساء هو وقت فراغهن الوحيد المتاح). في ألمانيا، كانت فرق مكافحة الرذيلة تلاحق النساء اللاتي يخرجن بمفردهن في المساء، وعلق أحد أطباء برلين قائلًا: «لا يفكر الشبان الذين يتجولون في الشوارع إلا أن المرأة حسنة السمعة لا تسمح لنفسها بأن تُرى في المساء». كان الظهور العام والاستقلال يعادلان، كما كان الحال قبل ثلاثة آلاف عام، بسوء السمعة الجنسية، ولا يزال تعريف جنسانية المرأة عبر الموقع الجغرافي والزماني أيضًا ممكنًا. لنفكر في دوروثي وردزوورث وأختها في الأدب إليزابيث بينيت اللتين تعرضتا للتوبيخ بسبب خروجهما للتنزه في الريف، أو بطلة نيويورك إديث وارتون في رواية «بيت المرح»

التي تخاطر بمكانتها الاجتماعية في بداية الرواية بالسير إلى منزل رجل من دون مرافق لتناول كوب من الشاي، وتدمر هذه المكانة إلى الأبد برؤيتها تغادر منزل رجل آخر في المساء (بينما يتحكم القانون في «النساء السيئات السمعة»، فإن «النساء المحترمات» غالبًا ما يراقبن بعضهن بعضًا).

شمح للبغايا في سبعينيات القرن التاسع عشر في فرنسا وبلجيكا وألمانيا وإيطاليا بممارسة الدعارة في أوقات معينة. وكانت فرنسا مهزلة بشكل خاص في تنظيمها للدعارة، فقد كانت الممارسة مرخصة، فسواء كان العمل الجنسي مرخصًا أم محظورًا، فقد أتاح للشرطة التحكم في النساء. كان من الممكن إلقاء القبض على أي امرأة بتهمة الدعارة لمجرد ظهورها في الأوقات والأماكن المرتبطة بصناعة الجنس، في حين كان من الممكن إلقاء القبض على البغايا المعروفات لظهورهن في أي وقت أو مكان آخر غير أماكن عملهن - وقُسَمت النساء إلى نوعين: نهاريات وليليات. ومرةً ألقي القبض على مومس بتهمة «التسوق في ليهال في التاسعة صباحًا ووجهت إليها تهمة التحدث إلى رجل (صاحب المحل)، والخروج عن نطاق العمل المنصوص عليه في ترخيص تسجيلها»(82). كان في إمكان شرطة الأخلاق اعتقال النساء الكادحات لأي سبب أو من دون سبب، وكثيرًا ما قبضوا اعتباطيًا على نساء من المارة لإكمال الحصص المطلوبة منهم يوميًا من أعداد الاعتقال. أصبح التفرج على النساء وهن يُعتقلن هواية ذكورية، ومع عام ١٨٧٦ زادت حدة الانتهاكات حتى أن مشاة البوليفارات حاولوا أحيانًا التدخل فاعتقلوا هم أنفسهم. قلما بَرِئت النساء والفتيات الصغيرات والفقيرات غير المتزوجات

اللائي اعتقلن، حُبس العديد منهن خلف الأسوار العالية لسجن سان لازار، حيث عشن ظروفًا مزرية، بردانات، جائعات، وسخات، مستنزفات في العمل ممنوعات من الكلام. ولم يطلق سراحهن إلا بعد أن وافقن على أن يُسجّلن عاهرات، بينما منحت الهاربات من بيوت الدعارة المرخصة خيار العودة إلى بيت الدعارة أو إرسالهن إلى سان لازار - لقد أجبرت النساء فعليًا على ممارسة البغاء بدلًا من الخروج منه. آثر عديد منهن الانتحار بديلًا من الاعتقال. زارت جوزفين بتلر، المدافعة العظيمة عن الحقوق الإنسانية للعاملات في الدعارة، سجن سان لازار في سبعينيات القرن التاسع عشر: «سألت عن الجريمة التي أدت إلى سجن العدد الأكبر منهن، فقيل لي إنها السير في شوارع محظورة، وفي ساعات محظورة!».

كانت بتلر، امرأة متعلمة برجوازية نشأت وسط تقدميين، أكثر المعارضين لقوانين الأمراض المعدية البريطانية -صدرت في ستينيات القرن التاسع عشر- تأثيرًا. عارضت بتلر، المسيحية المتدينة، تلك القوانين لأنها وضعت الدولة في مجال تنظيم البغاء وبالتالي، فهي تتسامح معه ضمنًا، ولأنها فرضت معايير مزدوجة. كان من الممكن معاقبة أي امرأة بالسجن أو بالتفتيش الذي أطلق عليه «الاغتصاب الجراحي» لأدنى شك في أنها عاهرة، ومن يُكتشف أنها تحمل مرضًا تناسليًا تُحتجز وتُعالج، بينما يُترك الرجال أحرارًا لمواصلة نشر المرض نفسه (أُخذت تدابير مماثلة في عين الاعتبار ونُفذت أحيانًا فيما يتعلق بالبغايا والإيدز في السنوات الأخيرة). أقرّ القانون البريطاني لحماية صحة الجيش، فمعدل الإصابة بهذه الأمراض بين جنوده أعلى بكثير من عامة الناس، ويبدو أنه كان قائمًا على اعتراف

ساخر بأن صحة الرجال وحريتهم وحقوقهم المدنية ذات قيمة أكبر للدولة من صحة النساء. وقعت انتهاكات أشد تطرفًا من تلك التي تعرضت لها كارولين وايبرغ، وتعرضت امرأة واحدة على الأقل -وهي أرملة وأم لثلاثة أطفال- للمطاردة إلى أن انتحرت. أصبح الخروج للمشي دليلًا على النشاط الجنسي، ونشاط النساء الجنسي مُجرَم. ورغم أن القوانين في الولايات المتحدة لم تكن سيئة إلى هذا الحد، فإن ظروفًا مماثلة سادت أحيانًا. ففي عام ١٨٩٥، اعتقلت فتاة من الطبقة العاملة في نيويورك تدعى ليزي شاور بتهمة ممارسة البغاء لأنها خرجت بمفردها بعد حلول الظلام وتوقفت لتسأل رجلين عن الاتجاهات. رغم أنها كانت في الواقع في طريقها إلى منزل عمتها في الجانب الشرقي السفلي، فقد فُسّر فعلها ووقته كعلامتين على أنها كانت تستدرجهما. لم يُطلق سراحها إلا بعد أن أثبت الفحص الطبي أنها «فتاة جيدة». ولو لم تكن عذراء، لأدينت، على الأرجح، بجريمة مركبة من الفعلين المزدوجين المتمثلين في أنها كانت تتصرف بشكل جنسي وتمشي بمفردها في المساء.

رغم أن حماية النساء المحترمات من الرذيلة كانت أحد الأسباب التي أدت إلى تنظيم الدولة للدعارة وملاحقتها، فقد تولت بتلر المحترمة والمرموقة المهمة الثقيلة المتمثلة في حماية النساء من الدولة، وهو ما أدى إلى تشويه سمعتها وملاحقتها من قبل الغوغاء (الذين استأجرهم أصحاب بيوت الدعارة في كثير من الأحيان). في إحدى المرات، أمسك بها الغوغاء وضربوها ضربًا مبرحًا ولطخوها بالتراب والبراز، وقطّعوا شعرها ومزقوا ملابسها، وفي مناسبة أخرى، أثناء فرارها من عصابة أخرى صادفتها مومس فقادتها عبر

متاهة من الشوارع الخلفية والمستودعات الفارغة إلى بر الأمان. وطبعًا، فقد تجاوزت هي نفسها الحدود عندما انتقلت إلى المجال العام للخطاب السياسي وتحدّث السلوك الجنسي للرجال، فوصفها أحد أعضاء البرلمان بأنها «أسوأ من عاهرة». في عام ١٩٠٦، وبينما كانت تحتضر، كان عدد أكبر من النساء يدخلن هذا المجال ويلاقين معاملة مماثلة. تحولت حركة حق المرأة في التصويت في الولايات المتحدة وبريطانيا، بعد عقود من الجهود الهادئة والعقيمة لكسب حق المرأة في التصويت، إلى حركة نضالية في العقد الأول من القرن العشرين، مع حملة استثنائية من مسيرات ومظاهرات واجتماعات في الفضاء العام، وهي أشكال أصبحت مألوفة الآن لممارسة السياسة في الفضاء الطلق ومتاحة لمن حُرموا من الدخول إلى النظام. قوبلت هذه المظاهرات بقدر غير عادي من العنف، من الشرطة في بريطانيا ومن حشود من الجنود ورجال آخرين في الولايات المتحدة. تعرضت ناشطات النقابات، وغير الملتزمات دينيًا، وغيرهن للعنف من قبل، ولكن بعض ما حدث للمناضلات من أجل حق المرأة في التصويت لا مثيل له، ففي بريطانيا اسخدمت قوانين قديمة مهجورة لتجريم التجمعات العامة للنساء، وانتهكت القوانين القائمة التي منحت الحق للمواطنين كلهم في تقديم التماسات إلى الحكومة. في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا، دخل هؤلاء النساء -اللواتي اعتقلن لممارسة حقهن في الوجود والتحدث في الأماكن العامة- إضرابًا عن الطعام، مطالبات بالاعتراف بهن كسجينات سياسيات. استجابت الحكومتان لهذا الأمر بإطعامهن قسرًا، وأصبحت هذه الإجراءات المؤلمة -التي تتضمن تقييد المرأة

وإدخال أنبوب عبر أنفها إلى معدتها وضخ الطعام عبره- شكلًا جديدًا من أشكال الاغتصاب المؤسسي. ومرة أخرى، حُبست النساء اللائي حاولن المشاركة في الحياة العامة بأن مشين في الشارع، وانتهكت الدولة خصوصية أجسادهن من الداخل.

لكن النساء حصلن على حق التصويت، وفي العقود الأخيرة، تحول معظم هذه الثنائية الغريبة بين الفضاء العام وأعضائهن الحميمة، فلم تعد بين النساء والحكومة فقط، بل بين النساء والرجال. تناولت النسوية التفاعلات الداخلية، في المنزل، ومكان العمل، والمدارس، والنظام السياسي، وحققن إصلاحات إلى حد كبير. مع ذلك، فإن الوصول إلى الفضاء العام، في المناطق الحضرية والريفية، لأغراض اجتماعية وسياسية وعملية وثقافية، يشكل جزءًا مهمًا من الحياة اليومية، وهو جزء محدود بالنسبة إلى النساء بسبب خوفهن من العنف والتحرش. يكفل التحرش الروتيني الذي تتعرض له النساء، على حد تعبير إحدى الباحثات في هذا الشأن: «أن النساء لن يشعرن بالراحة، وأننا سنتذكر دورنا ككائنات جنسية متوفرة للرجال، من السهل وصولهم إلينا، إنه تذكير بأن علينا ألا نعتبر أنفسنا مساويات لهم، وأن لا نشارك في الحياة العامة بممارسة حقنا في الذهاب إلى حيث نشاء عندما نشاء، وأن لا نلاحق مشاريعنا الخاصة في أمان». يتعرض كل من الرجال والنساء للاعتداءات لأسباب اقتصادية، وقد دفعتهم قصص الجريمة في الأخبار إلى الخوف من المدن والغرباء والشباب والفقراء والأماكن غير المراقبة. لكن النساء أهداف أساسية للعنف الجنسي الذي يواجهنه في الضواحي والأماكن الريفية إلى جانب الحضرية، يمارسه ضدهن رجال من جميع الأعمار والمستويات

الاقتصادية، ويكمن احتمال وقوع مثل هذا العنف ضمن الاقتراحات والتعليقات الفهينة والعدائية، والنظرات الشهوانية، والترهيب التي تشكل جزءًا من الحياة اليومية للنساء في الأماكن العامة. خوف النساء من الاغتصاب يجبر كثيرًا منهن على الابتعاد عن الأماكن العامة - داخل المنازل، خائفات، معتمدات من جديد على الحواجز المادية وعلى من يحميهن بدلًا من الاعتماد على إرادتهن الخاصة في حماية جنسانيتهن. يخشى ثلثا الأميركيات السير بمفردهن في أحيائهن ليلًا، وفقًا لأحد الاستطلاعات، ونصف النساء البريطانيات يخشين الخروج وحدهن بعد حلول الظلام في استطلاع آخر، و٤٠٪ منهن يشعرن بـ«قلق كبير» من أن يغتصبن.

مثل كارولين وايبرغ وسيلفيا بلاث، كنت في التاسعة عشرة من عمري عندما أحسست لأول مرة بقوة هذا الحد من حريتي. نشأت في ضواحي الريف في الأيام التي سبقت مراقبة الأطفال عن كثب، كنت أذهب إلى المدينة أو إلى التلال متى شئت، وفي السابعة عشرة هربت إلى باريس. هناك كان الرجال الذين يعرضون عليّ مرافقتهم أو يمسكونني أحيانًا في الشوارع مزعجين أكثر من مخيفين. في التاسعة عشرة، انتقلت إلى حي فقير في سان فرانسيسكو حيث حياة الشوارع أقل من الحي المثليّ الذي انتقلت منه، واكتشفت أن التهديدات المستمرة في النهار أكثر قابلية للتنفيذ في الليل. لم يكن الأمر مقتصرًا على الأحياء الفقيرة والليل حيث كنت أتعرض للتهديد. مثلًا، طاردني رجل أنيق قرب رصيف الصيادين في إحدى العصاري، كان يتمتم لي بسيل طويل من المقترحات الجنسية البذيئة، وعندما استدرت ووبخته، تراجع في صدمة حقيقية من شتائمي، قال إن ليس من

حقي التحدث إليه هكذا، وهددني بالقتل. كانت جدية تهديده هي ما ميزت هذه الحادثة عن مئات الحوادث المشابهة الأخرى لها بشكل أو بآخر. كان هذا أكثر اكتشاف مدمر في حياتي، أنني لا أملك حقًا فعليًا في الحياة والحرية والسعي إلى السعادة خارج المنزل، وأن العالم مليء بغرباء يظهر أنهم يكرهونني ويتمنون إيذائي من دون سبب آخر غير نوعي، وأن الجنس أصبح عنفًا بسهولة، وأن أي شخص آخر لم يعتبر ذلك قضية عامة بدلًا من مشكلة خاصة. نصحني البعض بالبقاء في المنزل ليلًا، وارتداء ملابس فضفاضة، وتغطية شعري أو قصه، وأن أظهر بمظهر رجل، والانتقال للعيش في مكان أغلى، وركوب سيارات الأجرة، وشراء سيارة، والتنقل في مجموعات، ومرافقة رجل عند الخروج. كلها نسخ حديثة من الجدران اليونانية والحجابات الآشورية، كلها تؤكد أنني، وليس المجتمع، مسؤولة عن التحكم في سلوكي وسلوك الرجال لضمان حريتي. أدركت كيف نجحت تنشئة كثير من النساء على أن يلزمن مكانهن، حتى أنهن اخترن حياة قطيعية أكثر محافظة من دون أن يدركن السبب. خمدت داخلهن الرغبة في أن يمشين وحدهن، لكنها لم تخمد داخلي.

غيرتني التهديدات المستمرة والحوادث القليلة التي شهدتها وكانت رعبًا حقيقيًا. ومع ذلك، بقيت حيث كنت، وأصبحت أكثر مهارة في التعامل مع مخاطر الشارع، وأقل عرضة للاستهداف مع تقدمي في السن. اليوم، تتسم كل تفاعلاتي تقريبًا مع المارة باللباقة، وبعضها مبهج. الشابات هن من يتعرضن للضغط الأكبر لهذا النوع من التحرش، وأعتقد أن هذا ليس لأنهن أكثر جمالًا، بل لأنهن أقل ثقة بحقوقهن وحدودهن (هذا الشك الذي يتجلى في

السذاجة والخجل يشكل في كثير من الأحيان جزءًا مما يعدّ جمالًا). سنوات التحرش التي يتعرض لها المرء في شبابه تشكل تعليمًا عميقًا حول حدود حياة المرء وقيودها، حتى بعد أن تتوقف تلك الدروس اليومية بكثير. طلبت عالمة الاجتماع جون لاركين من مجموعة من المراهقات الكنديات رصد التحرش الجنسي الذي تعرضن له في الأماكن العامة، ووجدت أنهن يتجاهلن الحوادث الأقل دراماتيكية، والسبب كما قالت إحداهن: «لو كتبت كل شيء صغير حدث في الشارع، لاستغرق الأمر وقتًا طويلًا». بعد أن قابلت عديدًا من الحيوانات المفترسة، تعلمت أن أفكر كفريسة، كما فعلت معظم النساء، مع أن الخوف أصبح عنصرًا أقل حضورًا بكثير في وعيي اليومي مقارنة بما كان عليه عندما كنت في العشرينيات من عمري.

نشأت كثير من حركات حقوق المرأة من حركات العدالة العرقية. نظمت إليزابيث كادي ستانتون ولوكريشيا موت، المناضلتان في مجال إلغاء العبودية، أول مؤتمر نسائي كبير في سينيكا فولز بنيويورك، يدفعهما غضب مما واجهن من تمييز حتى أثناء محاولتهما مكافحة العبودية، فقد حضرتا المؤتمر العالمي لمكافحة العبودية في لندن لتجدا أن المنظمة التي يهيمن عليها الذكور لن تسمح لأي امرأة بالحضور. رأت ستانتون وموت، كما كتب أحد المؤرخين: «التشابهات بين وضعهما المقيّد كنساء ووضع العبيد». جاءت جوزفين بتلر وزعيمة حق المرأة في التصويت في إنجلترا إيميلين بانكهورست من أسر مناهضة للعبودية، وفي السنوات الأخيرة ظهرت مجموعة من أكثر النسويات السود أصالة وأهمية -بيل هوكس، وميشيل والاس، وجون جوردان- اللاتي تناولن كلا

من العرق والجندر.

عندما كتبت عن الشعراء المثليين في نيويورك، تركت جيمس بولدوين المولود في هارلم، لأن مانهاتن بالنسبة إليه لم تكن مكانًا تحرريًا لذيذًا حيث يمكنه أن يضيع نفسه فيه، كما كانت الحال بالنسبة إلى ويتمان وغينسبرغ. بل كانت تهدده بدلًا من ذلك بعدم السماح له بنسيان نفسه، سواء كان ذلك بسبب رجال الشرطة بالقرب من المكتبة العامة الذين يأمرونه بالبقاء في الجزء العلوي من المدينة، أو القوادين في الجزء العلوي من الجادة الخامسة الذين يحاولون تشغيله عندما كان صبيًا، ليصبح ذلك الجزء أحد المخاطر، أو الناس في الحي الذي يعيش فيه والذين يراقبون تحركاته كما يفعل الناس في البلدات الصغيرة. كتب عن سيره في المدينة كرجل أسود وليس مثلي الجنس، رغم أنه كان الاثنين، فقد حد عرقه من تجواله إلى أن انتقل إلى باريس. يُنظر إلى الرجال السود اليوم كما كان يُنظر إلى نساء الطبقة العاملة قبل قرن من الزمان: فهم صنف إجرامي عندما يكونون في الأماكن العامة، وكثيرًا ما يتدخل القانون بشكل تنفيذي في حريتهم في الحركة. في عام ١٩٨٣، كسب إدوارد لوسون، أميركي إفريقي، قضية أمام المحكمة العليا تطعن في قانون في كاليفورنيا: «يُلزم الأشخاص الذين يتسكعون أو يتجولون في الشوارع بتقديم هوية معتمدة وموثوقة وشرح سبب وجودهم عندما يطلب ضابط حفظ الأمن ذلك منهم». لوسون، الذي ذكرت صحيفة نيويورك تايمز أنه «كان يحب المشي وكثيرًا ما أوقف في وقت متأخر من الليل في المناطق السكنية»، اعتُقل خمس عشرة مرة لرفضه التعريف بنفسه بموجب هذا القانون الذي يجرِم المشي. وكان رجلًا رياضيًا له ضفائر أنيقة، ويرقص

في نفس الملهى الليلي الذي كنت أرقص فيه آنذاك.

لطالما كان التعرف على العنصرية في الأماكن العامة أسهل من التعرف على التمييز على أساس جنسي، وأكثر قابلية لأن يصبح قضية. في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين، مات شابان أسودان لوجودهما «في المكان الخطأ في الوقت الخطأ». طاردت عصابة من الرجال البيض المعادين مايكل غريفث في هوارد بيتش، فركض إلى الشارع هربًا من اضطهادهم، لتقتله سيارة. وضُرب يوسف هوكينز حتى الموت لأنه أسود في حي آخر من أحياء كوينز البيضاء، وهو بنسونهورست. وإذ أثارت هاتان القضيتان احتجاجات هائلة، أدرك الناس فعلًا أن هذين الشابين قد جُردا من حقوقهما المدنية عندما تعرضا للهجوم بسبب سيرهما في الشارع. وبعد فترة وجيزة من مقتل غريفيث وهوكينز في كوينز، ذهبت مجموعة كبيرة من الفتيان المراهقين من حي مانهاتن إلى سنترال بارك في الليل ووجدوا فتاة بيضاء تمارس رياضة الجري. فقاموا باغتصابها جماعيًا، وجرحها بالسكاكين، وضربها بالحجارة والأنابيب، وسحق جمجمتها. نزفت معظم دمها، ورغم توقع موتها نجت من التلف الدماغي والإعاقات الجسدية.

أثارت قضية غريفيث وهوكينز غضبًا شعبيًا كبيرًا، حيث حُرم الرجلان المقتولان من الحرية الأساسية في التجول في المدينة، كما تم الاعتراف بالجرائم على أنها ذات دوافع عنصرية. لكن قضية «عداءة سنترال بارك» نوقشت بمصطلحات مختلفة بشكل صادم. ففي دراسة متأنية لقضية سنترال بارك، كتبت هيلين بنديكت: «طوال فترة القضية، وحتى بداية المحاكمة، ظلت الصحافة البيضاء والسوداء

تنشر مقالات تحاول تحليل الأسباب التي دفعت الشباب إلى ارتكاب هذه الجريمة الشنيعة... بحثوا عن إجابات في العرق، والمخدرات، والطبقة، و«ثقافة العنف في الحي الفقير». وخلصت إلى أن الأسباب التي ساقتها الصحف كانت «غير كافية للأسف كتفسير... لأن الصحافة لم تنظر قط إلى السبب الأكثر وضوحًا للاغتصاب: موقف المجتمع من النساء». لكن تصوير القضية على أنها قضية تتعلق بالعرق -كان المهاجمون من أصل لاتيني وأسود- بدلًا من الجنس، ساهم في إفشال إثارة قضية العنف ضد المرأة برمتها. ولم يناقش أحد تقريبًا قضية سنترال بارك باعتبارها قضية حقوق مدنية، كجزء من نمط انتهاكات حق المرأة في التجول في المدينة (نادرًا ما تظهر النساء من الأعراق الأخرى في تقارير الجرائم على الإطلاق، يبدو أنهن يفتقرن إلى وضع الرجال كمواطنين وجاذبية النساء البيض كضحايا مغرية). بعد عقد على بينسونهورست وسنترال بارك، استقبلت جريمة شنق رجل أسود في شجرة بتكساس بغضب عارم باعتبارها جريمة كراهية وانتهاكًا للحقوق المدنية للأشخاص من ذوي البشرة الملونة، وبغضب مماثل استقبل القتل الوحشي لشاب مثلي الجنس في وايومنغ - فالمثليون جنسيًا والمثليات أيضًا أهداف متكررة للعنف الذي «يذكرهم بمكانهم من المجتمع» أو يعاقبهم على عدم امتثالهم. ورغم أن جرائم قتل مماثلة بدافع الجنس تملأ الصحف وتودي بحياة آلاف النساء كل عام، لكنها لا توضع في سياق أي شيء سوى أنها حوادث معزولة لا تتطلب إصلاحًا اجتماعيًا أو بحثًا في روح هذه الأمة.

تختلف جغرافية العرق عن الجندر، قد تحتكر

مجموعة عرقية منطقة بأكملها، في حين يقسم الجندر بطرق محلية. يشعر كثير من الأشخاص ذوي البشرة الملونة بأن المناطق الريفية ذات الأغلبية البيضاء في أمريكا لا ترحب بوجودهم على الأقل، حتى في الأماكن التي قد تشعر فيها المرأة البيضاء بالأمان (يبدو أن العنصريين البيض ينشؤون في أكثر المناطق الخلابة في البلاد أو ينتقلون إليها). تكتب إيفلين سي وايت أنها عندما حاولت لأول مرة استكشاف المناطق الريفية في ولاية أوريجون، كانت ذكريات عمليات شنق السود في الجنوب «تجعلني عاجزة عن الكلام ومشلولة بالخوف الشديد الذي اجتاحني عندما عبرت مسارات مع الحطابين بالقرب من نهر ماكنزي أو كلما زرت الأماكن المفتوحة»(83). في بريطانيا، التقطت المصورة الفوتوغرافية إنغريد بولارد سلسلة من الصور الساخرة لنفسها في منطقة أرض البحيرات (ليك ديستريكت)، حيث ذهبت على ما يبدو لمحاولة الشعور مثلما شعر وردزوورث ولكنها توترت بدلًا من ذلك، كما لو أنها تقول إن رومانسية الطبيعة ليست لأشخاص من لونها. تشعر عديدات من النساء البيض أيضًا بالتوتر في أي موقف منعزل، بعضهن عشن تجارب شخصية يمكن اعتبارها مرجعًا. عندما كانت شابة، ذهبت متسلقة الجبال العظيمة جوين موفات إلى جزيرة سكاي الجميلة قبالة الساحل الغربي لإسكتلندا لتسلق الجبال بمفردها. بعد أن اقتحم جار مخمور غرفة نومها في منتصف الليل، أرسلت برقية طلبت فيها رجلًا لمرافقتها، وتروي: «لو كنت أكبر سنًا وأكثر نضجًا، لكنت تمكنت من التعامل مع الحياة بمفردي، لكن العيش بهذه الطريقة جعلني أعرض نفسي لجميع

أنواع التحرشات والتكهنات. كان الرجال التقليديون العاديون يعتقدون أن أسلوب حياتي هذا دعوة مفتوحة لهم، ولم أستطع مواجهة الاستياء الذي أعرف أنهم يشعرون به بعد صدهم».

كانت النساء مشاركات متحمسات في الحج، ونوادي المشي، والمسيرات، والمواكب، والثورات، ويرجع هذا في جانب منه إلى أن من المستبعد أن يُفهم وجودهن في نشاط محدد مسبقًا باعتباره دعوة جنسية، ولأن الرفاقية، منا جانب آخر، كانت أفضل ضمانات الأمان للنساء. يظهر أن أهمية القضايا العامة أثناء الثورات تنحّي الأمور الخاصة جانبًا بشكل مؤقت، وقد وجدت النساء قدرًا عظيمًا من الحرية خلال تلك الثورات (وجعلت بعض الثائرات، مثل إيما غولدمان، من الجنسانية جبهة سعين من خلالها إلى الحرية). لكن مشي المرء بمفرده له أيضًا صدى روحي وثقافي وسياسي هائل. فلطالما كان جزءًا أساسيًا من التأمل والصلاة والاستكشاف الديني، وأسلوبًا للتأمل والتأليف منذ رحلات أرسطو إلى الشعراء المتجولين في نيويورك وباريس. زود المشي الكتّاب والفنانين والمنظّرين السياسيين وغيرهم باللقاءات والتجارب التي ألهمت أعمالهم، فضلًا عن المساحة التي أمكنهم تخيلها فيها، ومن المستحيل أن نعرف ما كان ليحدث للعديد من العقول العظيمة لهؤلاء الرجال لو لم يتمكنوا من التحرك كما شاؤوا عبر العالم. تصوروا أرسطو محصورًا في البيت، وموير مقيدًا بارتداء تنورة طويلة واسعة. وحتى في الأوقات التي كان في وسع النساء فيها أن يتجولن في النهار، كان الليل -ذلك الكرنفال الحزين الشاعري المسكر الذي يقام في ليالي المدينة- محظورًا عليهن، ما لم يكن قد أصبحن «بنات ليل». إذا كان

المشي عملًا ثقافيًا أساسيًا وطريقة جوهرية للوجود في العالم، فإن أولئك اللواتي لم يتمكن من المشي بعيدًا أينما تأخذهن أقدامهن حُرمن، ليس فقط من ممارسة الرياضة أو الترفيه، بل من جزء كبير من إنسانيتهن.

من جين أوستن إلى سيلفيا بلاث، وجدت النساء مواضيع أخرى أضيق لفنهن. انطلق بعضهن إلى العالم الأرحب -حاجة السلام (في منتصف عمرها)، وجورج ساند (في ملابس الرجال)، وإيما غولدمان، وجوزفين بتلر، وجوين موفات- ولا بد أن كثيرات أُسكِتن تمامًا. تُذكر «غرفة تخصها وحدها» لفرجينيا وولف كمناشدة حقيقية للنساء ليخصصن لأنفسهن مكاتب في البيوت، ولكنها في الواقع ترى الاقتصاد والتعليم كما ترى الوصول إلى الفضاء العام بالمثل، باعتبارها ضرورات لتصنع المرأة فنًا. ولتبرهن وجهة نظرها، اخترعت وولف حياة لشقيقة شكسبير البائسة التي لا تقل موهبة عنه، وتساءلت عن جوديث شكسبير: «هل في مقدورها حتى أن تتناول عشاءها في حانة أو تتجول في الشوارع في منتصف الليل؟».

كتبت سارة شولمان رواية كانت، مثل مقالة وولف، تعليقًا على حدود حرية المرأة. وعنوان الرواية «البنات والرؤى وكل شيء» مقتبس من جملة وردت في رواية «على الطريق» لجاك كيرواك. الرواية، من بين أمور أخرى، هي تحقيق في مدى فائدة عقيدة كيرواك بالنسبة إلى الكاتبة الشابة المثلية ليلا فوتيرانسكي التي تعتقد أن «الحيلة كانت تتمثل في التماهي مع كيرواك بدلًا من التماهي مع النساء اللاتي يمارس الجنس معهن على طول الطريق»، فمثل أوديسيوس، كان كيرواك رجلًا

مسافرًا في عالم من النساء اللواتي لا يتحركن. إنها تستكشف سحر الجانب الشرقي السفلي من مانهاتن في منتصف الثمانينيات كما فعل هو في أمريكا في الخمسينيات، ومن بين «أكثر الأشياء التي أحبتها،...، المشي في الشوارع لساعات من دون أن يكون لديها هناك مكان تقصده سوى المكان الذي انتهت إليه». ومع تقدم الرواية، يصبح عالمها أكثر حميمية بدلًا من أن يكون أكثر انفتاحًا: تقع في الحب ويتقهقر احتمال الحياة الحرة في فضاء عام.

في نهاية الرواية، تخرج هي وحبيبتها في تمشية مسائية في حديقة واشنطن سكوير وتعودان لتناول الآيس كريم معًا أمام مبنى شقتهما، عندما تسمعان واحدًا من بين مجموعة رجال: «هذا هو تحرير المثليين. يعتقدون أن بإمكانهم فعل ما أرادوا متى ما أرادوا». لقد كانتا، مثل عشاق زمن سحيق تسيران معًا. ومثل ليزي شاور، التي اعتقلت في الجانب الشرقي السفلي قبل تسعين عامًا لسيرها وحدها، تخاطر مغامرتهما في الفضاء العام بأن تصير تعديًا على حياتهما الخاصة وجسديهما: «لم تكن ليلا ترغب في الصعود إلى الطابق العلوي، لأنها لم تكن تريد أن يعرفوا مكان إقامتها. بدأتا في الابتعاد ببطء، لكن الرجال تبعوهما: تعالي إلى هنا يا فزج. أراهن أن مهبلك حلو، تمصان بعضكما بعضًا، أليس كذلك؟ سأريكما قضيبًا لن تنسياه أبدًا... بالنسبة إلى ليلا، كان هذا جزءًا عاديًا تمامًا وإن لم يكن لازمًا، من الحياة اليومية. لذلك، تعلمت الوداعة، والصمت، والمشي ببطء، لتجنب أن يركلها أحد في مؤخرتها... مشت ليلا في الشوارع كمن اعتاد المشي في الطرقات دائمًا وكان ذلك طبيعيًا ومثريًا له. مشت بوهم أنها آمنة وأن الوهم سيبقيها على هذا النحو بطريقة أو بأخرى. ومع ذلك، في

تلك الليلة بالذات عندما خرجت لتدخن السجائر، مشت ليلا قلقة، وتجول عقلها حتى توقف من تلقاء نفسه على الحقيقة البسيطة: أنها ليست في أمان. يمكن أن تؤذى جسديًا في أي وقت، وشعرت لوهلة بأنها ستؤذى بالفعل. جلست على صندوق سيارة شيفروليه ١٩٧٤ وتقبلت أن هذا العالم ليس لها. حتى في الحي الذي تعيش فيه».

الجزء الرابع
ما بعد نهاية الطريق

«المشي كوسيلة نقل في حياة الطبقة المتوسطة الأوروبية الأميركية الحديثة عفا عليه الزمن. من النادر أن نجد شخصًا يذهب إلى عمله راجلًا. وعادة ما يرتبط المشي بالترفيه... وقد أبدت سيدة أيرلندية ملاحظة شبيهة بذلك: «فكروا فقط في أن أهم وسيلتين للنقل في بداية هذا القرن أصبحتا الآن هواية متخصصة جدًا!».

نانسي لويز فراي، «قصص الحجاج: على الطريق وخارجه إلى سانتياغو».

***

«الناس لا يمشون في المكسيك... المكسيكيون فقط».

إحدى شخصيات رواية «عملاق» لـ إدنا فيربر.

***

«أخبرني فنان الأداء الأسود كيث أنتار ماسون أخيرًا أنه يعمل الآن أكثر من قبل في الأماكن العامة الوحيدة المخصصة للأميركيين من أصل إفريقي والتي تدعمها الحكومة بقوة، السجون».

نورمان كلاين، «تاريخ النسيان».

***

«الدراجة الثابتة وجهاز المشي مزودان بآلات قمار، ما يسمح لزبائن الكازينو بالتعرق والمراهنة في الوقت نفسه. «انهوس الناس بذلك»، قالت كاثي هاريس، رئيسة شركة اللياقة البدنية والمقامرة في فيرفاكس، فيرجينيا... أشارت هاريس إلى أن الالات موصولة بالأسلاك بحيث «لا يمكنك المقامرة إلا

إذا كنت تدفع الدراجة ولا يمكنك الدفع إلا إذا كنت تقامر». شعار الشركة: «ضع قلبك في القمار»».

صحيفة «نيويورك تايمز».

***

«سمعنا كلنا عن هذا المستقبل، وبدا لنا مليئًا بالوحدة. ففي القرن القادم، سوف يعمل الجميع من المنزل، ويتسوقون من المنزل، ويشاهدون الأفلام في المنزل، ويتواصلون مع أصدقائهم عبر الفيديوفون والبريد الإلكتروني. وكأن العلم والثقافة تقدما لغرض واحد فقط: حمايتنا من الاضطرار إلى خلع بيجاماتانا».

مجلة «سان فرانسيسكو كرونيكل».

***

«يمشي البعض وأعينهم مثبتة على أهدافهم: قمة أعلى جبل في المنطقة، أو العلامة الخمسين على الطريق، أو خط النهاية. يحافظون على الحماس عن طريق توقع نهاية الرحلة. بينما أنا، التي تميل إلى التشتت بسهولة، أسافر بشكل مختلف - خطوة بخطوة، مع عدة توقفات في الوسط. أحيانًا تتحول هذه التوقفات إلى توقفات كاملة يمكن أن تستمر من دقيقتين إلى عشر ساعات. وغالبًا ما تكون غير محددة. محاصرون بمفاهيمنا ولغاتنا وتوقعات حواسنا الخمسة، غالبًا ما ننسى أن نتساءل عمّا نفتقده ونحن نسارع نحو أهداف قد لا نكون من اختارها حتى. أصبحت قصاصة أثر بالصدفة، ليس بقرار، عندما تحول انجذابي إلى أدق علامات الحياة إلى شغف لا حدود له. أرغب في تتبع تلك الأنماط الغامضة والمحيرة في أي مكان، إلى مصدرها أو نهايتها أو ببساطة إلى نقطة منتصف بينهما. وعندما بدأت في تتبع الأشخاص المفقودين، سرعان ما

تحول ما بدأ كعادة غريبة -قص أثر الأقدام على الأرض- إلى شغف. الآن، أمشي عادة نحو هدف واحد: لمقابلة الشخص في النهاية الأخرى لهذه الآثار».

هانا نيالا، «آخر نقطة شوهدوا فيها».

***

«في بداية الأربعينيات من القرن الماضي، كانت باريس بعيدة ستة أيام على الأقدام من الحدود، وثلاث ساعات بالسيارة، وساعة بالطائرة. اليوم، أصبحت العاصمة على بُعد عدة دقائق فقط من أي مكان آخر».

بول فيريليو، «السرعة والسياسة».

***

«تلغي السيارة القيمة الاستعمالية لقدميك. قيل لي أخيرًا: «أنت كاذب!» عندما أخبرت أحدهم أنني سافرت سيرًا على خيد جبال الأنديز. فكرة أن شخصًا ما يمكنه أن يمشي فقط! في مقدوره أن يركض صباحًا ربما، لكنه لا يستطيع المشي إلى أي مكان! أصبح العالم غير متاح لأننا نقود للوصول إليه».

إيفان إليتش، مجلة «هول إيرث رفيو».

***

«بعد عدة ساعات، يبدأ الشعور بشيء جديد باجتياحي، شيء لم أختبره من قبل. أشعر بقوة، بكل كياني، أنني أتنقل من مكان إلى آخر. لست أمر عبر المساحة كما يفعل الإنسان في السيارة أو الطائرة. أشعر بأنني في مكان ما، بل في عدد لا متناهٍ من الأمكنة. أنا لست في مكان غير متمايز -مثل ما يشعر الإنسان في كثير من الأمكنة الحديثة

التي هي في الحقيقة لا-أمكنة، إنها مجرد تكرار للمفاهيم- مفهوم فضاء المستشفى، فضاء التسوق، فضاء المول، فضاء المطار».

لي، «حاج أمريكي كاثوليكي».

***

«كل تمشية لا يمكن تكرارها، كما لا يمكن تكرار قصيدة. حتى لو مشيت الطريق نفسه بالضبط كل يوم- مثل السوناتة- فلا يمكن تصور أن الأحداث على طول الطريق ستكون هي نفسها من يوم إلى آخر. وإذا كانت القصيدة جديدة كل مرة، فإنها بالضرورة فعل اكتشاف، أو فرصة تؤخذ، أو فرصة قد تؤدي إلى إنجاز أو كارثة».

آر. آر. أمونز، «القصيدة تمشية».

***

«ارسم خريطة خيالية./ ضع علامة حيث تريد الذهاب./ اذهب للمشي في شارع حقيقي وفقًا لخريطتك./ إن لم يكن هناك شارع حيث ينبغي أن يكون وفقًا للخريطة، اصنع واحدًا بأن تضع العوائق جانبًا./ عندما تصل إلى الهدف، اسأل عن اسم المدينة وأعط الزهور لأول شخص تقابله».

يوكو أونو، «جزء من خريطة/ ١٩٦٢».

***

الفصل الخامس عشر
سيزيف الإيروبيك وسايكي الضواحي(84)

حرية المشي لا تنفع كثيرًا من دون مكانٍ تذهب إليه. ثمة نوع من العصر الذهبي للمشي بدأ مع أواخر القرن الثامن عشر، وأخشى أنه انتهى منذ عدة عقود. عصر له عيوبه كان ذهبيًا للبعض أكثر مما هو للبعض الآخر، لكنه ما يزال يستحق الإعجاب فقد ابتكر فيه أمكنة مخصصة للمشي ومنح قيمة للمشي بهدف الترفيه فقط. بلغ هذا العصر ذروته مع مطلع القرن العشرين، عندما كان الأمريكيون الشماليون والأوروبيون يتواعدون للتمشية كما يتواعدون لتناول مشروب أو وجبة تقريبًا، وكثيرًا ما كان المشي بمثابة طقس مقدس واستجمام روتيني، وأخذت نوادي المشي في الازدهار. في ذلك العصر، عملت الابتكارات الحضرية في القرن التاسع عشر، مثل الأرصفة والمجاري، على تحسين مدنٍ لم تكن مهددة بعد بالتسارعات التي شهدها القرن العشرين، وكانت التطورات المرتبطة بالريف مثل المتنزهات الوطنية وتسلق الجبال في بداية نموها. مسح هذا الكتاب، حتى الآن، حياة المشاة في المناطق الريفية والحضرية، وتاريخ المشي هو تاريخ مدنٍ وريف، مع إضافة بعض البلدات والجبال لتكتمل الصورة. ربما يكون عام ١٩٧٠، عندما أظهر التعداد السكاني في الولايات المتحدة أن أغلب الأمريكيين -لأول مرة في تاريخ أي أمة- يعيشون في الضواحي، تاريخًا مناسبًا لوضع شاهد قبر هذا العصر الذهبي. الضواحي محرومة من الأمجاد الطبيعية والمتع المدنية لتلك الأمكنة الأقدم، وقد

غير التحول السكاني إلى الضواحي نطاق الحياة اليومية ونسيجها جذريًا، وحصل ذلك عادةً على نحوٍ يعادي التنقل على الأقدام. حدث هذا التحول في طريقة التفكير كما حدث على أرض الواقع، فالأميركيون العاديون الآن يدركون ويقيمون ويستخدمون الزمان والمكان وأجسادهم نفسها بطرق مختلفة كليًا عمّا كانوا يفعلون من قبل. لا يزال المشي يغطي الأرضية بين السيارات والمباني والمسافات القصيرة داخل الأخيرة، لكن المشي بوصفه نشاطًا ثقافيًا، متعةً، سفرًا، وسيلةً للتجول بدأ يتلاشى، وتختفي معه علاقة قديمة وعميقة بين الجسد والعالم والخيال. ربما يكون من الأفضل تصور المشي كـ «نوع دال» indicator species، إذا استخدمنا مصطلح علماء البيئة. يشير مفهوم «النوع الدال» إلى صحة النظام البيئي، وتعريضه للخطر أو إضعافه هو إنذار مبكر لوجود مشكلة ممنهجة. المشي هو «نوع دال» لأنواع مختلفة من الحريات والمتع: وقت الفراغ، مساحات مفتوحة وجذابة، وأجسام ليست مقيدة.

١. أمكنة الضواحي

يحدد كينيث جاكسون، في كتابه «حدود نجيلية: التحول إلى الضواحي في الولايات المتحدة»(85)، ما يسميه «مدينة المشي» التي سبقت تطوير ضواحي الطبقة المتوسطة: كانت مكتظة بالسكان، وكان فيها «تمييز واضح بين المدينة والريف»، عن طريق الأسوار، غالبًا، أو المناطق المنحدرة المحيطة خارجها، وكانت أدوارها الاقتصادية والاجتماعية متداخلة (و«المصانع شبه معدومة» لأن «الإنتاج يتم في محلات الحرفيين الصغيرة»)، نادرًا ما سكن الناس فيها بعيدًا عن

موقع عملهم، وكان الأثرياء يميلون إلى العيش في وسط المدينة. تلقى مدينة جاكسون للمشي وعصري الذهبي نهايتيهما في الضواحي، فتاريخ التشظي هو تاريخ أمكنة الضواحي.

بنيت منازل الطبقة المتوسطة في الضواحي لأول مرة خارج لندن أواخر القرن الثامن عشر، كما كتب روبرت فيشمان في كتاب آخر عن تاريخ الضواحي بعنوان «يوتوبيا برجوازية»، ليتمكن التجار المتدينين من فصل الحياة العائلية عن العمل. كان يُنظر إلى المدن نفسها بارتياب من قبل هؤلاء المسيحيين الإنجيليين: أُدينت ألعاب الورق، وحفلات الرقص، والمسارح، ومعارض الشوارع، وحدائق المتعة، والحانات باعتبارها لا أخلاقية. في الوقت نفسه، بدأت العبادة الحديثة للمنزل باعتباره مكانًا مقدسًا بعيدًا عن العالم، حيث يحدث أن الزوجة-الأم كاهنة مقيدة بمعبدها. يبدو هذا المجتمع الأول في الضواحي الذي يضم عائلات تجار أثرياء تتشارك بعضها قيم بعض، بحسب فيشمان، فردوسيًا، ومثل أي فردوس، مملًا: مكان من منازل فسيحة مستقلة، مع قليل مما يمكن لسكانه القيام به خارج المنزل والحديقة. كانت هذه الفيلات عزبًا ريفية إنجليزية مصغرة، وتطلعت مثل هذه العزب إلى نوع من الاكتفاء بذاتها اجتماعيًا. سكن مجتمع كامل من عمال المزارع، وحراس الصيد، والخدم، والضيوف، والعائلات الممتدة، هذه العزبة التي شملت عادةً المزارع العاملة، وبالتالي فقد كانت مكانًا للإنتاج، في حين أن منزل الضواحي كان يأوي ما يزيد قليلًا عن الأسرة النووية وشيئًا فشيئًا أصبح موقعًا للاستهلاك فقط. كذلك امتدَت هذه الملكيات على نطاق يسمح بالمشي من دون مغادرة أرضها، أما منزل الضواحي

فلم يكن كبيرًا، لكن مناطق الضواحي ستستنزف الريف وتنشر التمدد الحضري على أي حال.

حدث ذلك في مانشستر، خلال الثورة الصناعية، حين أصبح الطابع الخاص للضاحية يظهر بقوة. الضاحية هي نتاج تلك الثورة، التي تشع إلى الخارج من مانشستر وشمال ميدلاندز والتي أدت إلى تشظي الحياة الحديثة إلى أبعد الحدود. لم يكن العمل والمنزل منفصلين تمامًا قبل أن ينضج نظام المصنع ويصير الفقراء موظفين يتقاضون أجرًا. أدت هذه الوظائف، بالنتيجة، إلى تجزئة العمل نفسه، فتفككت الحرف اليدوية لتصبح حركات متكررة على الآلات لا تتطلب مهارة في العمل. استنكر النقاد الأوائل تدمير العمل في المصانع للحياة الأسرية، فقد أخرج الأفراد من المنزل وجعل أبناء الأسرة الواحدة غرباء عن بعضهم بسبب أيام عملهم الطويلة أكثر من المعتاد. لم يكن البيت بالنسبة إلى عمال المصانع سوى مكان يرتاحون فيه ليكونوا قادرين على العمل في اليوم التالي، جعلهم النظام الصناعي أكثر فقرًا وأقل صحة مما كانوا عليه كحرفيين مستقلين. في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، بدأ أصحاب المصانع في مانشستر في بناء أولى الضواحي واسعة النطاق، للهروب من المدينة التي أنشؤوها أصلًا، ولتعزيز الحياة العائلية للطبقة التي ينتمون إليها. بخلاف الإنجيليين في لندن، هربوا ليس من الإغواء بل من القبح والخطر، من التلوث الصناعي، والهواء الرديء وسوء إدارة النفايات في مدينة سيئة التصميم، هربوا من مناظر عمالهم البؤساء وتهديدهم.

«كان لقرار الانتقال إلى الضواحي نتيجتان عظيمتان»، يقول فيشمان. «في البداية، أفرغ

المركز من السكان مع رحيل الطبقة الوسطى وطرد العمال من خلال تحويل غرفهم في الشوارع الخلفية إلى مكاتب. تفاجأ الزوار عندما وجدوا قلبًا حضريًا هادئًا وخاليًا تمامًا بعد ساعات العمل. ولدت المنطقة التجارية المركزية. وفي الوقت نفسه، أُحيطت المصانع التي كانت هامشية في السابق بحزام الضواحي الذي يفصلها عن الحقول الريفية البعيدة الآن. كانت أراضي فيلات الضواحي مسيجة بالجدران، وحتى الشوارع التي تصطف على جانبيها الأشجار التي كانت تقف عليها تلك الفيلات، كانت محظورة غالبًا إلا على سكان المنطقة وضيوفهم. حاولت إحدى تجمعات العمال مرة الإبقاء على ما كان يومًا ممشى ريفيًا مفتوحًا، وأصبح الآن يقطع الأراضي المحيطة بفيلا مالك المصنع. كان رد فعل السيد جونز إقامة بوابة حديدية وخنادق». تظهر صورة فيشمان هذه عالمًا جُزِئ فيه المزيج الخصب للحياة الحضرية في «مدينة المشي» إلى عناصر عقيمة.

استجاب العمال لذلك بالهروب إلى الحقول أيام الآحاد، وفي نهاية الأمر، الشجار من أجل دخول ما تبقى من مساحات طبيعية يمكنهم المشي فيها والتسلق وركوب الدراجة الهوائية والتنفس (كما هو مذكور في الفصل العاشر). وكان رد فعل الطبقة الوسطى أن واصلت تطوير الضواحي والسكن فيها. كان الرجال يقومون برحلتهم اليومية إلى العمل والنساء يذهبن للتسوق في عربات خاصة، ثم في الحافلات العامة التي تجرها الخيول (التي جعلتها أسعارها الباهظة في مانشستر ليست متاحة الفقراء)، وفي نهاية المطاف في القطارات. في الفرار من الفقراء والمدينة، كانوا قد تركوا وراءهم حسابات المشاة. يمكن للمرء أن يمشي في

الضواحي، ولكن من النادر أن يوجد مكان يمكن الوصول إليه على القدمين في هذه الامتدادات المتجانسة من الشوارع السكنية الهادئة، حيث بيوت تقطن خلف جدرانها عائلات متشابهة إلى درجة تقل أو تكثر. وصلت الضواحي الأميركية في القرن العشرين إلى نوع من تأليه التشظي عندما أتاح تكاثر السيارات نقل الناس إلى أماكن أبعد من أي وقت مضى، أبعد عن العمل والمتاجر ووسائل النقل العام والمدارس والحياة الاجتماعية. تتناقض الضواحي الحديثة كما وصفها فيليب لانغدون مع مدينة المشي: «أبقي على المكاتب منفصلة عن متاجر التجزئة. وكثيرًا ما قُسمت المناطق بحيث تجمع الواحدة منها المساكن المتشابهة حصرًا. مع تقسيم إضافي مرتبط بالوضع الاقتصادي. أبعد التصنيع، بصرف النظر عن مدى نظافته وهدوئه -فالصناعات اليوم نادرًا ما تكون مطاحن صاخبة تنفث الدخان كما كانت في ذاكرة المدن- عن المناطق السكنية أو أستبعد من المجتمع بالكامل. تخطيطات الشوارع في المشاريع الجديدة تفرض مبدأ الفصل. ولكسر هذا الفصل الجغرافي الصارم، يحتاج الفرد إلى الحصول على مفتاح، وهذا المفتاح هو أي مركبة. ولأسباب واضحة، لا تعطى هذه المفاتيح لمن هم دون سن السادسة عشرة، وهم الفئة السكانية التي من المفترض أن الضواحي مخصصة لهم على وجه التحديد. كما تسحب هذه المفاتيح من بعض كبار السن الذين لم يعد في وسعهم القيادة.

الحصول على رخصة سيارة يُعتبر طقس تحول عميق للمراهقين في الضواحي الحديثة، فقبل امتلاك السيارة، فإما أن يكون المراهق عالقًا في المنزل أو معتمدًا على والديه في توصيله هنا

وهناك. تذكر جين هولتز كاي، في كتابها حول تأثير السيارات «أمة الأسفلت»، دراسة قارنت حياة الأطفال في العاشرة من العمر في بلدة صغيرة في فيرمونت يمكن التجول فيها على الأقدام بحياة الأطفال في ضاحية جنوب كاليفورنيا لا يمكن التجول فيها هكذا. شاهد أطفال كاليفورنيا التلفاز أربعة أضعاف أطفال فيرمونت، فالوجهات التي يمكنهم الذهاب إليها خارج المنزل قليلة والمغامرات محدودة. هناك أيضًا دراسة حديثة حول تأثير التلفزيون في البالغين في بالتيمور وخلصت إلى أنه كلما زاد عدد مشاهدتهم للأخبار المحلية على التلفزيون، والتي تركز بشكل كبير في القصص الإجرامية المثيرة، زاد خوفهم، كما يثبط البقاء في المنزل لمشاهدة التلفزيون رغبتهم في الخروج. ذلك الإعلان في صحيفة لوس أنجلوس تايمز عن الموسوعة الإلكترونية الذي أشرت إليه في بداية هذا الكتاب -«كنت تمشي عبر المدينة تحت المطر الغزير لاستخدام موسوعاتنا. نحن واثقون تمامًا بأننا نستطيع إقناع طفلك بالنقر والسحب»- قد يصف الخيارات المتاحة لطفل لم يعد لديه مكتبة على مسافة قريبة سيرًا على الأقدام وقد لا يُسمح له بالمشي لمسافات بعيدة بمفرده على أي حال (المشي إلى المدرسة، وهو فعل مثل لأجيال أولى الغزوات التكوينية الكبيرة التي يخوضها المرء بمفرده في العالم، أصبح كذلك تجربة أقل شيوعًا). تكمل أجهزة التلفزيون والهواتف والكمبيوتر المنزلي والإنترنت عملية خصخصة الحياة اليومية التي بدأتها الضواحي وعززتها السيارات. تقلل هذه الأجهزة من ضرورة الخروج إلى العالم، وبالتالي يتكيف المرء مع الانسحاب منه بدلًا من مقاومة تدهور الفضاء العام والظروف الاجتماعية.

بنيت هذه الضواحي الأمريكية على مقاس السيارات، نشرت على نطاق مترامٍ وموزع لا يمكن للجسم البشري وحده التعامل معه. وكما أن الحدائق والأرصفة والممرات البرية تشكل نوعًا من البنية التحتية للمشي، فإن الضواحي الحديثة والطرق السريعة ومواقف السيارات بنية تحتية للقيادة. أتاحت السيارات تطوير الامتدادات الواسعة في لوس أنجلوس غرب أمريكا، تلك المناطق ليست ضواحي بالمعنى التقليدي من حيث أنها لا تتبع أي منطقة حضرية مركزية. قد تملك مدنٌ مثل ألباكركي وفينيكس وهيوستن ودنفر أو لا تملك نواة حضرية كثيفة عائمة في بطنها مثل وجبة خفيفة نصف مهضومة، ولكن معظم مساحاتها واسعة إلى حد لا يمكن معه خدمتها بشكل جيد بواسطة وسائل النقل العام (إذا كانت موجودة) ولا يمكن قطعها على الأقدام. لم يعد متوقعًا، في هذه المناطق مترامية الأطراف، من الناس أن يمشوا، ونادرًا ما يفعلون. وهناك أسباب عديدة وراء ذلك. تجعل التوسعات المترامية من الضواحي أماكن مملة للمشي، إذ يمكنها أن تصبح مجموعة سكنية كبيرة ومكررة بشكل محبط على امتداد ثلاثة أميال في الساعة للماشي بدلًا من ثلاثين أو ستين للسائق. ضَمت كثير من الضواحي بشوارع منعطفة وطرق غير نافذة تزيد من امتداد المسافات بشكل شاسع. يقدم لانغدون مثالًا لتقسيم فرعي في إيرفين، كاليفورنيا، حيث يتعين على المسافر أن يمشي أو يقود أكثر من ميل للوصول إلى وجهة تبعد ربع ميل في خط مستقيم. كذلك عندما لا يكون المشي نشاطًا مألوفًا، فقد يشعر السائر بمفرده بالتردد حيال فعل شيء مستبعد ومعزول.

يمكن للمشي أن يصبح علامة على عجز أو مكانة

متدنية، فالتصميم الحضري والضواحي الجديدة يحتقران المشاة. استبدلت بأماكن عديدة وسط المدينة مراكز تسوق لا يمكن الوصول إليها بأي وسيلة إلا بالسيارات، بنيت مدن لم يكن لها وسط المدينة على الإطلاق، وأقيمت مبانٍ يتم الدخول إليها عبر مواقف السيارات بدلًا من الأبواب الأمامية. في يوكا فالي، البلدة القريبة من حديقة «جوشوا تري» الوطنية، تنتشر الأعمال التجارية جميعها على امتداد عدة أميال من الطريق السريع، حيث نقاط عبور المشاة وإشارات المرور نادرة: على سبيل المثال، لا يفصل بين البنك الذي أتعامل معه ومتجر المواد الغذائية سوى بضعة مبانٍ، إلا أنهما على جانبين متقابلين من الطريق السريع، والسيارة هي الوسيلة الوحيدة الآمنة والمباشرة للانتقال من أحدهما إلى الآخر. في مختلف أرجاء كاليفورنيا، أزيل أكثر من ١٠٠٠ ممر للمشاة في السنوات الأخيرة، وأكثر من ١٥٠ منها في وادي السليكون المزدحم بحركة المرور، ويبدو أن ذلك حدث باستلهام روح مخططي لوس أنجلوس الذين أعلنوا أوائل الستينيات: «يظل المشاة أكبر عقبة أمام حركة المرور الحرة». بُني أجزاء عديدة من المدن غرب أمريكا الممتدة عمرانيًا بلا أرصفة على الإطلاق، في الأحياء الغنية والفقيرة على حد سواء، ما يشير إلى أن المشي قد انتهى عن قصد. كتب لارس إيغنر، الذي كان يتنقل بين تكساس وجنوب كاليفورنيا في ثمانينيات القرن العشرين، في فترة من حياته قضاها مشردًا ومعدمًا، عن تجاربه ببلاغة، وكانت أسوأ هذه التجارب عندما أوصله سائق إلى الجزء الخطأ من المدينة: «ليس في جنوب توسان أرصفة. اعتقدت في البداية أن هذا مجرد مجاراة لبؤس المكان بالعموم، ولكن تبين لي، في النهاية،

أن السياسة العامة في توسان هي إعاقة المشاة قدر الإمكان. لم أستطع العثور على طريق للمشي، خصوصًا، إلى الجزء الرئيسي من المدينة في الشمال إلا في حارات المرور الضيقة على الطرق السريعة. لم أصدق ذلك في البداية، وقضيت أنا وليزبيث عدة ساعات نتجول على الضفة الجنوبية للشق الجاف الذي يقسم توسان بينما كنت أبحث عن ممر للمشاة».

حتى في أفضل الأماكن، تتآكل مساحة المشاة بدأب: ففي شتاء عامي ١٩٩٧ و١٩٩٨، قرر عمدة نيويورك رودولف جولياني أن المشاة يتدخلون في حركة المرور (وكان بالإمكان القول- في هذه المدينة حيث لا يزال كثيرون يتنقلون ويقضون أعمالهم مشيًا- إن السيارات تتدخل في حركة المرور). أمر العمدة الشرطة بتحرير مخالفات ضد المشاة الذين لا يستخدمون الممرات الخاصة بهم، كما أقام سياجًا حول الأرصفة في بعض من أكثر زوايا المدينة ازدحامًا. تمرد سكان نيويورك، بكبرياء يستحق الأعجاب، بأن أقاموا مظاهرات تصعيدية عند الحواجز وبدءوا يزيدون من عبور الشوارع في أماكن ليست مخصصة لهم. في سان فرانسيسكو ترهب حركة مرورٍ أسرع وأكثف، وإشارات مشاةٍ بمدة أقصر، وسائقون أكثر عدوانية المشاة وتؤذيهم أحيانًا. هنا، ٤١٪ من جميع الوفيات المرورية من المشاة الذين تقتلهم السيارات، وأكثر من ألف منهم يصابون كل عام. في أتلانتا، يبلغ عدد المشاة الذين يقتلون كل عام ٨٠ وأكثر من ١٣٠٠ مصاب. في نيويورك جولياني، يبلغ عدد الأشخاص الذين يُقتلون بالسيارات ضعف عدد الأشخاص الذين يقتلهم الغرباء تقريبًا - ٢٨٥ مقابل ١٥٠ في عام ١٩٩٧.

المشي في المدينة لم يعد أمرًا جذابًا الان لأولئك

غير المجهزين للمراوغة والاندفاع.

يعرِّف الجغرافي ريتشارد ووكر المدنيَة بأنها «ذلك المزيج المراوغ من الكثافة، والحياة العامة، والاختلاط الكوزموبوليتاني، وحرية التعبير». تتناقض المدنيَة مع السيارات في كثير من النواحي، ذلك أن مدينة السائقين ليست سوى ضاحية مختلة وظيفيًا من الناس الذين يتنقلون باستمرار من مكان مغلق خاص إلى مكان مغلق خاص آخر. شجعت السيارات تشتيت المساحات وخصخصتها، فحلت مراكز التسوق محل شوارع التسوق، وأصبحت المباني العامة جزرًا في بحر من الأسفلت، وانحدر التصميم المديني إلى هندسة مرورية، واختلط الناس بحرية وبوتيرة أقل بكثير. الشارع مساحة عامة تنطبق عليها حقوق التعبير والتجمع المنصوص عليها في التعديل الأول للدستور، في حين لا ينطبق هذا على المول. الإمكانيات الديمقراطية والتحررية التي يتمتع بها الناس الذين يجتمعون في الأماكن العامة لا توجد في الأماكن التي لا تتوفر فيها مساحة للتجمع، ولعل هذا هو المقصود. وكما يزعم فيشمان، كانت الضواحي ملاذًا، أولًا من الخطيئة ثم من قبح المدينة وغضبها وفقرائها. في أميركا ما بعد الحرب العالمية الثانية، أدت «هجرة البيض» إلى نزوح بيض الطبقة المتوسطة إلى الضواحي من المدن متعددة الأعراق، وفي المدن الجديدة المتمددة عمرانيًا في الغرب والضواحي في مختلف أرجاء البلاد، أدى الخوف من الجريمة، الذي كثيرًا ما يبدو في حقيقته خوفًا أوسع من الاختلاف، إلى القضاء على المساحات العامة واحتمالات وجود المارة. ربما يكون الانخراط السياسي واحدًا من الأمور التي أقصتها الضواحي.

في وقت مبكر من تطور الضواحي الأميركية، حلَ فم المرآب الأعمى في مقدمة المنزل محل الشرفة، التي كانت سمة مهمة للحياة الاجتماعية في البلدات الصغيرة (يخبرني عالم الاجتماع دين ماكانيل بأن بعض المنازل الجديدة بها شرفات وهمية تجعلها تبدو قديمة الطراز ولكنها في الواقع أضيق من أن يجلس فيها أحد). أصبحت التطورات الأخيرة أكثر تطرفًا في انسحابها من الفضاء الجماعي: نحن في عصر جديد من الجدران، والحراس، وأنظمة الأمان، والعمارة، والتصميم، والتكنولوجيا التي تهدف إلى القضاء على الفضاء العام أو إلغائه. هذا الانسحاب من الفضاء المشترك يبدو، مثل انسحاب تجار مانشستر قبل قرن ونصف، وكأنه يهدف إلى حماية الأثرياء من عواقب اللامساواة الاقتصادية والاستياء خارج البوابات، إنه البديل للعدالة الاجتماعية. يمكن أن نطلق على العمارة والتصميم الحضري الجديد للفصل الـ «كالفينية»: فهي تعكس رغبة في العيش في عالم من القدرية بدلًا من الصدفة، رغبة في تجريد العالم من خياراته المفتوحة على وسعها واستبدالها بحرية الاختيار في السوق. «من حاول أن يتمشى عند الغسق عبر حي تتجول فيه دوريات الأمن المسلحة وتعلوه لافتات تهدد بالموت، سرعان ما يدرك حجم الوهم في الفكرة القديمة حول «حرية المدينة» ورثاثتها المطلقة»، كتب مايك ديفيس عن ضواحي لوس أنجلوس الأجمل. وقد صرح كيركيغارد منذ أمد: «كم هو مؤسف ومحبط أن اللصوص والنخبة يتفقون على شيء واحد فقط: العيش مختبئين».

إن كان هناك من عصر ذهبي للمشي، فقد نشأ من

رغبة في التجول عبر المساحات الشاسعة للعالم من دون درع من السيارات، ومن دون خوف من الاختلاط بأنواع مختلفة من الناس. ظهر هذا في وقت أصبحت فيه المدن والريف أكثر أمانًا، وكانت الرغبة في تجربة ذلك العالم عالية. هجر سكان الضواحي فضاء المدينة دون أن يعودوا إلى الريف، وفي السنوات الأخيرة، عززت موجة ثانية من هذا الدافع الفصل عبر بناء الأحياء التي تضم أوكارًا باهظة الثمن. الأهم من ذلك، غيّر اختفاء المساحات المخصصة للمشاة تصور العلاقة بين الأجساد والمساحات. حدث شيء شديد الغرابة في حالة الكيان الجسدي نفسه، في كون المرء جسدًا، خلال العقود الأخيرة.

٢. التحييد اليومي للجسد

تغيرت المساحات التي يعيش فيها الناس بشكل كبير، وكذلك الطرق التي يتخيلون ويختبرون بها تلك المساحات التي تغيرت. وجدت فقرة غريبة في مجلة Life لعام ١٩٩٨ تحتفل بالأحداث الكبرى على مدى الألف عام الماضية. كانت هناك صورة قطار يرافقها نص: «في معظم تاريخ البشرية، اعتمدت وسائل النقل البري كلها على وسيلة دفع واحدة: الأقدام. وسواء اعتمد المسافر على أطرافه أو أطراف مخلوق آخر، كان هناك العيوب نفسها، سرعة الانطلاق المنخفضة، والتعرض للطقس، والحاجة إلى التوقف لتناول الطعام والراحة. ولكن في الخامس عشر من سبتمبر ١٨٣٠، أخذت قوة الأقدام في الانحدار نحو التقادم». وبينما كانت فرق الموسيقى النحاسية تعزف، تجمع مليون بريطاني بين ليفربول ومانشستر ليشهدوا افتتاح أول خط سكة حديد في العالم تعمل بالبخار

بشكل كامل. رغم واقعة وفاة أحد أعضاء البرلمان الذي دهسه القطار في حفل الافتتاح، ألهم قطارا ليفربول ومانشستر موجة من مد السكك الحديدية في جميع أنحاء العالم. وكان القطار، مثل المصنع والضاحية، جزءًا من جهاز الثورة الصناعية، فكما عملت المصانع على تسريع الإنتاج ميكانيكيًا، عملت القطارات على تسريع توزيع السلع، ثم المسافرين.

افتراضات مجلة «لايف» مثيرة للاهتمام، فالطبيعة كعوامل بيولوجية ومناخية تشكل عبئًا وليس إزعاجًا عرضيًا، ويتألف التقدم من تجاوزٍ للزمان والمكان والطبيعة من خلال القطار ثم السيارة لاحقًا فالطائرة فالاتصالات الإلكترونية. الأكل والراحة والحركة وتجربة الطقس هي تجارب أساسية لكينونتنا في جسد، والنظر إليها باعتبارها سلبية يعني إدانة البيولوجيا وحياة الحواس، وهذا ما يفعله المقطع بالضبط في بيانه الفظيع، حيث يقول: «بدأت قوة الأقدام انحدارها الطويل نحو التقادم». ولعل هذا ما منع مجلة «لايف» والحشد في افتتاح السكة من إظهار حزن على البرلماني المدهوس(86). وعلى نحو ما، لم يدمر القطار جسد ذلك الرجل فحسب، بل دمر كل الأجساد في الأمكنة التي غيّرها، وذلك بفصل الإدراك البشري والتوقعات والفعل عن العالم العضوي الذي توجد فيه أجسادنا. الاغتراب عن الطبيعة يصور عادة على أنه انفصال عن المساحات الطبيعية. ولكن الجسد الذي يحس ويتنفس ويعيش ويتحرك يمكن أن يكون تجربة أولية للطبيعة أيضًا: ويمكن للتقنيات والمساحات الجديدة أن تؤدي إلى الاغتراب عن الجسد والمساحة.

في كتابه الذكي «رحلة السكك الحديدية: تصنيع

الزمان والمكان في القرن التاسع عشر»، يستكشف ولفغانغ شيفيلبوش الطرق التي غيرت بها القطارات تصورات ركابها. يكتب عن المسافرين الأوائل على متن القطارات الذين وصفوا تأثيرات هذه التكنولوجيا الجديدة بأنها تجاوز للزمان والمكان، وأن تجاوز الزمان والمكان يعني بداية تجاوز العالم المادي بالكامل - أن نُجرد من كوننا أجسادًا. هذا التحييد اليومي للجسد مهما كان مريحًا، له آثار جانبية. السرعة والمباشرة المحسوبة بالأرقام التي يسلكها خط السكة الحديدية عبر التضاريس تدمر العلاقة الوثيقة بين المسافر والمساحة التي يسافر عبرها، كما يكتب شيفيلبوش: «لقد كان القطار بمثابة قذيفة، وكان السفر بواسطته بمثابة إطلاق النار على المناظر الطبيعية - وبالتالي فقدان تحكم المرء في حواسه... لم يعد المسافر الذي يجلس داخل القذيفة مسافرًا، وأصبح، كما ورد في استعارة شهيرة في القرن العشرين، طردًا». تسارع إدراكنا منذ ذلك الحين، غير أن القطارات كانت آنذاك سريعة إلى درجة تدوّخ. ربطت الأشكال السابقة للسفر البري المسافرين مع محيطهم عاطفيًا، لكن السكك الحديدية كانت تتحرك بسرعة كبيرة بالنسبة إلى عقول القرن التاسع عشر إلى حدّ لم يستطيعوا معه الارتباط بصريًا بالأشجار والتلال والمباني التي تمر بعجلة. بدأ الانخراط المكاني والحسي في التضاريس بين هنا وهناك يتبخر. في واقع الأمر، لم يكن هناك ما يفصل بين المكانين سوى فترة زمنية تتناقص باستمرار. السرعة لم تجعل السفر أكثر إثارة، يكتب شيفيلبوش، بل جعلته أكثر إملالًا، مثل الضاحية، وضعت ساكنيها في نوع من الفراغ المكاني. بدأ الناس القراءة في القطار، والنوم، والحياكة، والتشكي من الضجر.

وساهمت السيارات والطائرات بفداحة في تعزيز هذا التحول، ويمكن اعتبار مشاهدة فيلم على متن طائرة نفاثة على ارتفاع ٣٥ ألف قدم فوق سطح الأرض بمثابة الانفصال النهائي عن المكان والزمان والتجربة. «من القضاء على الجهد البدني الذي يبذله الإنسان أثناء المشي إلى فقدان الحس الحركي الناجم عن أول وسيلة نقل سريعة، وصلنا أخيرًا إلى حالات تقترب من الحرمان الحسي»، هكذا كتب بول فيريليو. «إن فقدان التشويق الذي كان يصاحب الرحلة القديمة يُعوَّض الآن بعرض فيلم على شاشة مركزية».

ربما يكون كاتبو «لايف» على حق. فالأجساد ليست متقادمة بأي معيار موضوعي، لكن اعتبارها وسيلة بطيئة، وهشة، وغير جديرة بالثقة بما يتناسب مع توقعاتنا ورغباتنا يتزايد - مثل الطرود التي يتعين نقلها بوسائل ميكانيكية (رغم أن عديدًا من المساحات شديدة الانحدار، أو الوعرة، أو الضيقة لا يمكن عبورها إلا على الأقدام، وعديد من الأجزاء النائية في العالم لا يمكن الوصول إليها بأي وسيلة أخرى، فالأمر يتطلب بيئة مبنية، مع مسارات، وطرق متدرجة، ومدرجات هبوط، ومصادر طاقة، لاستيعاب وسائل النقل). يعدَ الجسد الذي يُنظر إليه بوصفه قادرًا على عبور القارات -مثل جسد جون موير أو ويليام وردزوورث أو الحاجة من أجل السلام- مختلفًا كليًا عن الجسد العاجز عن الخروج في المساء باستخدام قوته الذاتية. بمعنى ما، أصبحت السيارة طرفًا اصطناعيًا، ومع أن الأطراف الاصطناعية تُستخدم عادة للأطراف المصابة أو المفقودة، فإن المحرك كطرف اصطناعي يُستخدم لجسد معوق من الناحية المفاهيمية أو جسد معوق بسبب خلق عالم لم يعد

بشريًا في نطاقه. في أحد أفلام Alien، تتمايل الممثلة سيغورني ويفر مرتدية نوعًا من الدروع الميكانيكية التي تلتف حول أطرافها وتضخم حركاتها. تجعلها أكبر حجمًا وأكثر شراسة وقوة وقدرة على خوض المعارك مع الوحوش، فيبدو الأمر غريبًا ومستقبليًا. ولكن هذا فقط لأن العلاقة بين الجسم والجهاز الاصطناعي واضحة جدًا هنا، حيث يكون الأخير بوضوح امتدادًا للأول. في الواقع، منذ صناعة أول عصا مسَاكة والحاملات المؤقتة، مدَدت الأدوات قوة الجسم ومهارته ونطاقه إلى درجة ملحوظة. نعيش في عالم يمكن فيه لأيدينا وأقدامنا توجيه طن من المعدن للتحرك أسرع من أسرع حيوان بري، حيث يمكننا التحدث عبر آلاف الأميال، وثقب الأشياء من دون أي مجهود عضلي سوى ضغطة من السبابة.

الجسم غير المدعوم أو المعزز بالآلة نادر الآن، وقد بدأ هذا الجسم في الضمور ككائن عضلي وحسي. في القرن والنصف منذ أن بدت السكك الحديدية أسرع من أن تكون مثيرة للاهتمام، تسارعت التصورات والتوقعات حتى أن عديدًا من الناس يتماهى اليوم مع سرعة الآلة وينظر بإحباط أو اغتراب إلى سرعة الجسم وقدرته. لم يعد العالم على مقياس أجسادنا، بل على مقياس آلاتنا، ويحتاج كثيرون -أو يعتقدون أنهم يحتاجون- إلى الالات للتنقل في تلك المساحة بسرعة كافية. بطبيعة الحال، ومثل معظم التقنيات «الموفرة للوقت»، تنتج وسائل النقل الالية غالبًا توقعات تتجاوز مزيدًا من وقت الفراغ، والأميركيون المعاصرون لديهم وقت أقل بكثير مما كان لديهم قبل ثلاثة عقود. بعبارة أخرى، فكما لم تؤد زيادة سرعة الإنتاج في المصانع إلى خفض ساعات

العمل، فإن زيادة سرعة النقل تربط الناس بمواقع متفرقة بدلًا من أن تحررهم من وقت السفر (مثلًا، يقضي كثير من سكان كاليفورنيا الآن ثلاث أو أربع ساعات في القيادة من وإلى العمل يوميًا). يرتبط تراجع المشي بنقص المساحة التي يمكن المشي فيها، ولكنه أيضًا يتعلق بنقص الوقت - اختفاء ذلك الفضاء التأملي غير المنظم الذي حدث فيه كثير من التفكير والمغازلة وأحلام اليقظة والمشاهدة. لقد أسرعت الآلات وكان على الحياة مجاراتها.

جعلت الضواحي من المشي وسيلة نقل غير فعالة ضمن تمدداتها الشاسعة، غير أن تحول العقل الأميركي إلى الضواحياتية جعل المشي نادرًا أكثر فأكثر حتى عندما يكون فعالًا. لم يعد المشي، إذا جاز التعبير، طريقة تفكير لكثير من الناس. حتى في سان فرانسيسكو، التي تعتبر «مدينة مشي» وفقًا لمعايير جاكسون، فقد جلب الناس فيها الوعي الضواحياتي إلى تنقلاتهم المحلية، أو هذا ما تشير إليه ملاحظاتي. فأنا أرى الناس بشكل روتيني يقودون سياراتهم ويركبون الحافلات لمسافات قصيرة، وكثيرًا ما يمكن قطع هذه المسافات بسرعة أكبر على الأقدام. خلال أزمة من أزمات النقل العام في مدينتي، أعلن أحد الركاب أنه يستطيع المشي إلى وسط المدينة في الوقت الذي يستغرقه الترام، وكأن المقارنة بالمشي فيها نوع من الإدانة - يبدو أنه كان يركب من وجهة قريبة جدًا من وسط المدينة حتى أن في إمكانه المشي يوميًا إلى وجهته في أقل من نصف ساعة. كان المشي أحد خيارات النقل التي لم تقترحها التغطية الصحافية للأزمة أبدًا (لو لم يكن هذا كتابًا عن المشي، لقلنا أشياء واضحة عن ركوب الدراجات الهوائية هنا). ذات مرة، طلبت من صديقتي ماريا -وهي راكبة

أمواج ومحترفة بسكليتات ورحالة جابت العالم- أن تمشي مسافة نصف ميل من منزلها إلى الحانات في شارع ستة عشر، تفاجأت وسرَت عندما أدركت مدى قربها، إذ لم يخطر ببالها من قبل أن الوصول إليها سيرًا ممكن. في موسم الكريسماس الماضي، كانت ساحة انتظار السيارات التابعة للمتجر العصري للتجهيزات الخارجية في بيركلي تغصّ بالسائقين، كان هؤلاء يوقفون سياراتهم تاركين محركاتها دائرة بخمول في انتظار مكان لركنها، بينما كانت الشوارع المحيطة مليئة بمثل هذه المساحات. لم يكن المتسوقون على ما يبدو راغبين في السير من زاوية الشارع إلى زاويته الأخرى لشراء معداتهم الخارجية (منذ ذلك الحين لاحظت أن السائقين غالبًا ما ينتظرون مكانًا قريبًا من البوابة لركن السيارات بدلًا من السير من أقصى أطراف الموقف). كما لو أن الناس لديهم نصف قطر ذهني يمثل مدى استعدادهم للمشي إلى أي مكان، والذي يبدو أنه يتقلص، وعند تحديد الأحياء ومناطق التسوق، يقول المخططون إنها حوالي ربع ميل، وهي المسافة التي يمكن قطعها سيرًا على الأقدام في خمس دقائق، ولكن في بعض الأحيان يبدو الأمر وكأنه بالكاد خمسون ياردة من السيارة إلى المبنى.

ربما أن الناس الذين أوقفوا محركات سياراتهم أمام متجر المعدات الخارجية كانوا هناك لشراء أحذية المشي لمسافات طويلة، وملابس التمرين، وحبال التسلق - المعدات اللازمة للظروف الخاصة التي قد يمشي فيها الناس. لقد توقف الجسد عن أن يكون كيانًا نافعًا بالنسبة إلى كثير من الأمريكيين، لكنه لا يزال كيانًا ترفيهيًا، وهذا يعني أن الناس تخلوا عن الأماكن اليومية -المسافة من المنزل

إلى العمل والمتاجر والأصدقاء- ولكنهم صنعوا مواقع ترفيهية جديدة يصلون إليها بالسيارة أغلب الأحيان: المولات والمتنزهات العامة والصالات الرياضية.

استوعبت المتنزهات العامة، من حدائق المتعة إلى المحميات البرية، منذ فترة طويلة الترفيه الجسدي، ولكن الصالات الرياضية التي انتشرت بشكل كبير في العقدين الماضيين تمثل شيئًا جديدًا جذريًا. إذا كان المشي نوعًا دالًا، فإن الصالة الرياضية هي نوع من المحميات البرية للجهد البدني. تؤوي المحمية الأنواع التي تختفي موائلها في أماكن أخرى، والصالة الرياضية (والـ«جيم» المنزلي) توفر البيئة اللازمة لبقاء الأجسام بعد هجر المواقع الأصلية للجهد البدني.

٣. جهاز المشي

عملت الضواحي على ترشيد الحياة الأسرية وعزلها كما كان المصنع يقوم بترشيد أعمال التصنيع، كما تعمل الصالة الرياضية على ترشيد وعزل ليس فقط التمرينات الرياضية بل وأيضًا كل مجموعة عضلية ومعدل ضربات القلب و«منطقة الحرق» المخصصة لاستخدام السعرات الحرارية الأقل نشاطًا. وعلى نحو ما، فإن كل هذا التاريخ يعود إلى عصر الثورة الصناعية في إنجلترا. يقول جيمس هاردي في كتابه الصغير الصادر عام ١٨٢٣ عن هذا الموضوع: «اخترع السيد ويليام كوبيت من إبسويتش في عام ١٨١٨ جهاز المشي، وأقامه في دار الإصلاح في بريكستون، بالقرب من لندن». كان جهاز المشي الأصلي عجلةً كبيرةً لها مسننات تعمل كدرجات يمشي عليها السجناء لفترات محددة. كان الغرض من هذا الجهاز ترشيد نفسيات السجناء،

لكنه كان بالفعل جهازًا للتمرين.

استخدم المجهود البدني الذي يبذله السجناء أحيانًا لتشغيل مطاحن الحبوب أو غيرها من الآلات، ولكن المجهود، وليس الإنتاج، كان الهدف من استخدام آلة المشي. «إن ثباتها الرتيب وليس شدتها، هو ما يشكل رعبها، وكثيرًا ما يحطم الروح العنيدة»، هكذا كتب هاردي. تناول هاردي تأثير جهاز المشي في السجن الأميركي الذي أشرف عليه، ولكنه أضاف أن «آراء الأطباء العاملين في السجون المختلفة تتفق على أن الصحة العامة للسجناء لم تتضرر بأي درجة، على العكس من ذلك، كان العمل منتجًا ومفيدًا إلى حد كبير». كان سجنه الخاص في بيلفيو على نهر إيست في نيويورك يضم ٨١ من الذكور و١٠١ من المتسكعات (بنات الليل)، فضلًا عن ١٠٩ من الذكور و٣٧ من الإناث المحكوم عليهم وعليهن بالسجن، و١٤ من الإناث «المختلات». كان التسكع -التجوال من دون موارد أو هدف واضح- جريمة، وما زال يشكل جريمة في بعض الحالات، وكان قضاء الوقت على جهاز المشي عقوبة مثالية لذلك.

كان العمل المتكرر عقابيًا منذ أن حكم آلهة الأساطير اليونانية على سيزيف- الذي، كما يخبرنا روبرت غريفز، كان يعيش على السرقة وقتل المسافرين المطمئنين في كثير من الأحيان- بمصيره الشهير بدفع صخرة إلى أعلى التل. «فبمجرد أن يقترب من القمة، يضطر إلى التراجع تحت وطأة الحجر الوقح، الذي يرتد إلى القاع مرة أخرى، فيحمله ثانية في إعياء وعليه أن يبدأ الصعود من جديد، رغم أن العرق يغسل أطرافه». من الصعب أن نقول ما إذا كان سيزيف هو أول رافع أثقال أو أول

من استخدم جهاز المشي، ولكن من السهل أن ندرك الموقف القديم من المجهود البدني المتكرر من دون نتائج عملية. خلال معظم تاريخ البشرية وخارج العالم الأول اليوم، كان الطعام نادرًا نسبيًا والمجهود البدني كبيرًا، يصبح «التمرين» منطقيًا، فقط عندما تنعكس حالة هذين الأمرين. شكّل التدريب البدني جزءًا من تعليم المواطنين الإغريق القدماء، لكنه اشتمل على أبعاد اجتماعية وثقافية غائبة عن التمارين الحديثة والعقوبات السيزيفية، وفي حين غدَ المشي كنوع من الرياضة نشاطًا أرستقراطيًا منذ فترة طويلة، فإن حماسة عمال الثورة الصناعية للمشي لمسافات طويلة، وخاصة في بريطانيا والنمسا وألمانيا، تشير إلى أنه كان أكثر من مجرد وسيلة لتنشيط الدورة الدموية أو حرق السعرات الحرارية. وتحت عنوان: «الاغتراب»، كتب إدواردو غاليانو مقالًا موجزًا عن الصيادين في قرية نائية في جمهورية الدومينيكان وهم في حيرة من أمرهم بشأن إعلان عن آلة التجديف الرياضية الداخلية Indoor Rower قبل فترة ليست بالبعيدة. صاحوا مستغربين: «في الداخل؟ يستخدمونها في الداخل؟ بدون ماء؟ يجدفون بدون ماء؟ وبدون سمك؟ وبدون شمس؟ وبدون سماء؟». أخبروا الأجنبي الذي أراهم الصورة أنهم يحبون كل شيء في عملهم باستثناء التجديف. وعندما أوضح لهم أن الآلة مخصصة للتمرين، قالوا: «آه. والتمرين، ما هذا؟». أصبح الاسمرار إثر التعرض للشمس رمزًا للمكانة الاجتماعية عندما انتقل أغلب الفقراء من المزارع إلى المصانع، بحيث أصبحت البشرة المسمرة تشير إلى وقت الفراغ وليس وقت العمل. تحولت العضلات إلى رموز للمكانة الاجتماعية، بمعنى أن أغلب الوظائف لم تعد تتطلب قوة بدنية: فمثل

السمرة، أصبحت العضلات جمالية من جماليات الماضي.

الصالة الرياضية هي المساحة الداخلية التي تعوض عن اختفاء الخارج، وهي بمثابة تدبير مؤقت لسد الفجوة في تآكل الأجسام. الواقع أنها مصنع لإنتاج العضلات أو اللياقة البدنية، ومعظمها فعليًا يشبه المصانع: المساحة الصناعية الصارخة، وبريق الآلات المعدنية، والشخصيات المعزولة التي ينغمس كل منها في مهمته المتكررة (ومثل العضلات، قد تثير جماليات المصنع الحنين إلى الماضي). أدت الثورة الصناعية إلى مؤسساتية العمل وتجزئته، والآن تقوم صالات الألعاب الرياضية بالأمر نفسه، وفي كثير من الأحيان في المكان نفسه، من أجل الترفيه. بعض صالات الألعاب الرياضية هي في الواقع مواقع صناعية ولدت من جديد. بنيت أرصفة تشيلسي في مانهاتن في العقد الأول من هذا القرن للسفن العابرة للمحيطات، من أجل عمال الموانئ، ومشغلي الرافعات، والموظفين، ولسفر المهاجرين والنخبة. أصبح هذا المكان الآن مركزًا رياضيًا ومضمارًا داخليًا وآلات رفع الأثقال وحمام سباحة وصالة للتسلق، والأكثر غرابة، أنه يضم ملعب جولف من أربعة طوابق، وهي وجهات في حد ذاتها أكثر من كونها نقاط وصول ومغادرة. يأخذ المصعد لاعبي الجولف إلى أماكنهم، حيث تختفي كل حركات الجولف -المشي، حمل الأغراض، التحديق في الملعب، تحديد الموقع، إزالة الكرة، التواصل، استرجاع الكرة أو متابعتها- مع تضاريس ملعب الجولف. لا يبقى شيء سوى قوس ضربة الكرة: أربع صفوف من الشخصيات الثابتة المنعزلة التي تقوم بنفس الحركة، نفس الصوت الحاد للكرات التي يتم ضربها، والخافت لهبوطها، وعربات

الجولف المصغرة التي تعبر منطقة المنافسة بعشبها الاصطناعي الأخضر لالتقاط الكرات وإدخالها في الآلة التي تطلق تلقائيًا كرة أخرى بعد كل رمية. تخصصت بريطانيا في تحويل المواقع الصناعية إلى صالات تسلق. ومن بين هذه المواقع محطة كهرباء فرعية سابقة في لندن، ومستودع على الواجهة البحرية لنهر سيفرن في غلوستر، ومصنع فورج في شيفيلد على أحد جانبي منطقة بيك ديستريكت، ومصنع قديم وسط مدينة برمنغهام، ووفقًا لصديق مسَاح هناك أيضًا «مصنع قطن سابق مكون من ستة طوابق بالقرب من ليدز» لم أتمكن من تحديد موقعه، ناهيك عن كنيسة غير مكرّسة في بريستول. ولدت الثورة الصناعية في بعض هذه المباني، مع مصانع النسيج في مانشستر وليدز، ومصانع الحديد والصلب في شيفيلد، والمصانع التي لا تحصى أو «ورشة العالم» التي كانتها برمنغهام. وفي الولايات المتحدة أيضًا، أقيمت صالات التسلق في المباني الصناعية التي تحوَل استخدامها إلى الأنشطة الترفيهية، أو على الأقل في تلك المدن القديمة بما يكفي لتحتوي على عمارة من عصر الثورة الصناعية، وفي تلك المباني التي هُجرت لأن السلع تنتج الآن في أماكن أخرى. وبالنظر إلى أن العمل في العالم الأول أصبح ذهنيًا أكثر، يتوجه الناس الآن إلى هناك للترفيه، يتوجهون عكس وجهة أسلافهم من عمال المصانع -الذين كانوا يخرجون إلى ضواحي المدينة أو على الأقل إلى الهواء الطلق- في أوقات فراغهم. (في الدفاع عن صالات التسلق، لا بد من القول إنها تتيح للناس صقل مهاراتهم والحفاظ على لياقتهم في الطقس العاصف. بالنسبة إلى البعض زادت الصالة الرياضية من فرص ممارسة هذه الرياضة ولم تحل محل

الجبل، رغم أن الآخرين أصبحوا يعتبرون تقلبات الصخور وروعتها التي يمكن اختبارها في تجربة تسلق حقيقية ليست بالعناصر الضرورية فعلًا، أو أنها مزعجة، أو مجهولة).

وبينما كان لزامًا على أجساد الثورة الصناعية أن تتكيف مع الآلات، مع العواقب الوخيمة المتمثلة في الألم والإصابة والتشوه، فإن آلات التمرين تتكيف مع الجسد. قال ماركس إن التاريخ يحدث في المرة الأولى كمأساة، وفي المرة الثانية كمهزلة، فالعمل الجسدي هنا يحدث في المرة الأولى كعمل منتج وفي المرة الثانية كاستهلاك لوقت الفراغ. أعمق علامة على التحول ليست في مجرد أن هذا النشاط لم يعد إنتاجيًا، وأن جهد الذراعين لم يعد يحرك الخشب أو يضخ الماء. بل في أن إجهاد العضلات يتطلب عضوية في صالة الألعاب الرياضية، ومعدات التمرين، وأجهزة خاصة، ومدربين وموجهين، ومجموعة كاملة من النفقات المصاحبة، في صناعة الاستهلاك هذه، وقد لا تكون العضلات الناتجة مفيدة أو مستخدمة لأي غرض عملي. «الكفاءة» في ممارسة التمارين الرياضية تعني أن استهلاك السعرات الحرارية يتم بأقصى معدل، وهذا عكس ما يسعى إليه العمال تمامًا، وفي حين يتعلق الإجهاد في العمل بكيفية تشكيل الجسم للعالم، فإن الجهد في التمارين متعلق بكيفية تشكيل الجسم للجسم. لا أقصد التقليل من شأن مستخدمي صالات الألعاب الرياضية -فقد كنت واحدة منهم أحيانًا- إنني أعلّق فقط على غرابتها. ففي عالم اختفى فيه العمل اليدوي، أصبحت صالة الألعاب الرياضية من بين أكثر أشكال التعويض المتاحة والفعالة. ومع ذلك، هناك شيء محير في هذا الأداء شبه-العام. لطالما تخيلت بينما أتمرن على الة رفع الأثقال، أن

هذه الحركة هي التجديف، وهذه ضخ المياه، وتلك رفع البضائع أو الأكياس. لقد أعيد تمثيل أفعال الفلاحة اليومية باعتبارها حركات فارغة، حيث لم يكن هناك ماء لضخه، ولا دلاء لرفعها. لا أشعر بالحنين إلى حياة الفلاحين أو العمال الزراعيين، ولكن لا يسعني إلا أن أتعجب من مدى غرابة تكرارنا لهذه الحركات لأغراض أخرى. ما هي بالضبط طبيعة التحول الذي تضخ فيه الآلات مياهنا الآن، بينما نلجأ إلى آلات أخرى للقيام بعملية الضخ، ليس من أجل المياه، بل من أجل أجسادنا، أجساد تحررت نظريًا بواسطة تكنولوجيا الآلات؟ هل ضاع شيء ما عندما اختفت العلاقة بين عضلاتنا وعالمنا، عندما صار الماء يُدار بآلة والعضلات بآلة أخرى في عمليتين منفصلتين؟

الجسد الذي كان يتمتع في الماضي بمكانة الحيوان العامل أصبح الآن يتمتع بمكانة الحيوان الأليف: فهو لا يوفر وسيلة نقل حقيقية، كما قد يفعل الحصان، بل إن الجسد يمارس الرياضة مثلما يمشّي المرء كلبًا. وعلى هذا فإن الجسد، وهو كيان ترفيهي وليس نفعيًا، لا يعمل، ولكنه يتمرن. قضيب رفع الحديد ليس أكثر من مادة مجردة ومحددة يمكن تحريكها من مكان إلى آخر -فما كان في الماضي كيسًا من البصل أو برميلًا من البيرة أصبح الآن قطعة معدنية مصبوبة- وآلة الأوزان تجعل من الأسهل مقاومة الجاذبية في اتجاهات مختلفة من أجل الصحة والجمال والاسترخاء. أكثر الأجهزة غرابةً في الصالة الرياضية جهاز المشي (ونسخته الأكثر حدَة، جهاز صعود الدرج). غرابةً، لأنني أستطيع أن أفهم محاكاة عمل المزرعة، حيث أن أنشطة الحياة الريفية غير متاحة كثيرًا، ولكن محاكاة المشي توحي بأن الفضاء نفسه قد

اختفى. الأوزان تحاكي الأشياء التي يتم بذل العمل عليها، ولكن جهاز المشي وجهاز صعود الدرج يحاكيان الأسطح التي يُمشى عليها. أن يكون العمل الجسدي، سواء كان حقيقيًا أو محاكاة، مملًا ومتكررًا هو شيء، أما أن تُجعل التجربة المتعددة الأوجه للحركة عبر العالم مملة ومكررة فهذا شيء آخر. أتذكر الأمسيات التي كنت أتجول فيها بجوار صالات الألعاب الرياضية ذات الجدران الزجاجية في الطابق الثاني في مانهاتن، والتي كانت مليئة بصفوف من مستخدمي أجهزة المشي، وبدا كأنهم يحاولون القفز عبر الزجاج نحو هلاكهم، ولم يُنجهم سوى الجهاز السيزيفي الذي يمنعهم من الذهاب إلى أي مكان كان - ربما لم يروا سقوطهم أمامهم، بل رأوا انعكاسهم فقط في الزجاج.

خرجت في ذلك اليوم، كان بعد ظهيرة مشمسة في فصل الشتاء، لزيارة متجر لبيع معدات التمارين الرياضية المنزلية، وفي الطريق مررت بصالة الألعاب الرياضية التابعة لجامعة سان فرانسيسكو، حيث لاعبون على أجهزة المشي يتمرنون وراء نوافذ زجاجية، وكان معظمهم يقرءون الصحيفة (على بعد ثلاث شوارع من حديقة غولدن غيت، حيث آخرون يركضون ويركبون الدراجات الهوائية، بينما كان السياح والمهاجرون من أوروبا الشرقية يمشون). أخبرني الشاب ذو العضلات في المتجر بأن الناس يشترون أجهزة المشي المنزلية لأنها تسمح لهم بالرياضة بعد العمل عندما يكون الظلام شديدًا ولا يمكنهم الخروج في أمان، ولممارسة تمارينهم في خصوصية حيث لن يراهم الجيران وهم يتعرقون، ولمراقبة الأطفال، واستغلال وقتهم المحدود بأقصى قدر من الكفاءة، ولأنها نشاط قليل الجهد مفيد لمن يعانون من إصابات أثناء الجري.

لدي صديقة تستخدم جهاز المشي عندما يكون الجو شديد البرودة في شيكاغو، وأخرى تستخدم واحدة لا تتأثر بالصدمات، حيث ترتفع وسادات القدمين وتنخفض مع خطواتها لأنها تعاني من إصابة في عضلة الفخذ الخلفية (وهذه تتسبب بها قيادة السيارات المصممة للأشخاص ذوي الوزن الزائد وليس من الجري). لكن والد صديقة ثالثة يعيش على بعد ميلين من شاطئ جذاب في فلوريدا، كما أخبرتني، مليء بالرمال التي لا تتأثر بالصدمات أيضًا، لكنه لا يمشي هناك ويستخدم جهاز مشي منزلي عوض ذلك.

جهاز المشي لازمة طبيعية للضواحي ولمدن السيارات: جهاز لا يذهب به الإنسان إلى أي مكان حيث لا يوجد مكان يذهب إليه الآن، أو أن الرغبة في الذهاب إلى أي مكان معدومة. جهاز يلائم أيضًا العقل الذي يتنقل بالسيارات ويعيش في الضواحي ويشعر براحة أكبر في الفضاء الداخلي الذي يتم التحكم في مناخه مقارنة بالخارج، ويشعر براحة أكبر مع النشاط القابل للقياس والمحدد بوضوح مقارنة بالتفاعل السلس بين العقل والجسم والتضاريس الذي يمكن تحقيقه أثناء المشي في الهواء الطلق. يبدو جهاز المشي واحدًا من أجهزة عديدة تلائم الانسحاب من العالم، وأخشى أن مثل هذه الملاءمة تثني الناس عن المشاركة في جعل هذا العالم صالحًا للسكنى أو في المشاركة فيه بأي شكل. يمكن أن نطلق على هذه الأجهزة صفة «التكنولوجيا الكالفينية»، إذ توفر تقييمات رقمية دقيقة للسرعة، و«المسافة» المقطوعة، وحتى معدل ضربات القلب، كما أنها تستبعد ما لا يمكن التنبؤ به وغير المتوقع من الروتين، فلا لقاءات مع المعارف أو الغرباء، ولا مشاهد مفاجئة تكشف عن أشياء

جديدة عند المنعطف. على جهاز المشي، لم يعد المشي يعني التأمل أو التودد أو الاستكشاف، بل أصبح حركة تبادلية للأطراف السفلية.

وعلى النقيض من أجهزة المشي المستخدمة في السجون في عشرينيات القرن التاسع عشر، فإن أجهزة المشي الحديثة لا تنتج الطاقة الميكانيكية بل تستهلكها، وهي مزودة بمحركين بقوة حصانين. في الماضي كان في وسع المرء أن يربط حصانين بعربة ليخرج إلى العالم من دون أن يمشي، أما الآن فقد يضطر إلى توصيل محرك بقوة حصانين ليتمكن من المشي من دون أن يخرج إلى العالم. في مكان لامرئي ولكنه متصل بالمنزل توجد بنية تحتية كهربية كاملة لتوليد وتوزيع الطاقة تعمل على تغيير المناظر الطبيعية والبيئة في العالم، شبكة من الكابلات الكهربائية، والعدادات، والعمال، ومناجم الفحم أو آبار النفط التي تغذي محطات الطاقة، أو سدود الطاقة الكهرومائية على الأنهار. في مكان آخر يوجد مصنع لإنتاج أجهزة المشي، رغم أن العمل في المصانع يمثل تجربة أقلية في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر. لذا فإن جهاز المشي يتطلب ترابطًا اقتصاديًا وبيئيًا أكبر بكثير من المشي، ولكنه يخلق روابط تجريبية أقل بكثير. يقرأ أغلب مستخدمي جهاز المشي أو يصرفون انتباههم بأي شكل آخر. وتوصي مجلة Prevention بمشاهدة التلفاز أثناء استخدام الجهاز وتقدم إرشادات حول إنكانية أن يكيّف مستخدمو الجهاز روتينهم مع المشي في الخارج عندما يأتي الربيع (مع التأكيد ضمنيًا على أن جهاز المشي، هو التجربة الأساسية وليس المشي). تشير تقارير صحيفة نيويورك تايمز إلى أن الناس بدءوا في تلقي دروس المشي على الجهاز، مثل دروس ركوب الدراجات

الثابتة التي أصبحت شائعة، للتخفيف من الشعور بالوحدة الناجم عن المشي لمسافات طويلة على الجهاز. فكما هو الحال مع العمل في المصانع، فإن وقت المشي على الجهاز ممل - وكان من المفترض أن تؤدي الرتابة إلى إصلاح السجناء. من بين ميزات جهاز المشي الكارديولوجي، كما يذكر البروشور بورقه اللامع، أنه فيه «خمس دورات مبرمجة، تختلف في المسافة والوقت ودرجة الميلان. تحافظ الدورة التفاعلية لخسارة الوزن على معدل ضربات قلبك ضمن منطقة إنقاص الوزن المثالية من خلال ضبط عبء العمل»، بينما «تتيح لك الدورات المخصصة وضع برامج تناسبك شخصيًا وتخزينها بسهولة تصل إلى ٨ أميال، مع اختلافات صغيرة تصل إلى زيادات قدرها ١/١٠ ميل زيادة». الدورات التدريبية المخصصة هي التي تدهشني أكثر من غيرها، حيث يستطيع المستخدمون إنشاء مسار يشبه التجول عبر تضاريس متنوعة، ولكن التضاريس عبارة عن حزام مطاطي دوار على منصة يبلغ طولها ستة أقدام تقريبًا. منذ فترة طويلة، عندما بدأت السكك الحديدية تعمل على تآكل تجربة المساحة، بدأ يُشار إلى الرحلات بالزمن بدلًا من المسافة (سيقول سكان لوس أنجلوس الحديثون أن بيفرلي هيلز تبعد عشرين دقيقة عن هوليوود بدلًا من كم ميلًا تبعد). يكمل جهاز المشي هذا التحول بالسماح بقياس التنقل بالزمن، والجهد الجسدي، والحركة الميكانيكية. المسافة كمناظر طبيعية، وتضاريس، ومناظر، وتجربة اختفت.

الفصل السادس عشر

شكل المشي

إن تجربة التحييد اليومي للجسد التي كنت أتتبعها هي تجربة الأغلبية، وجزء من التنقل بالمركبات والتحول إلى الضواحي. ولكن المشي كان في بعض الأحيان، على الأقل منذ أواخر القرن الثامن عشر، فعل مقاومة للتيار السائد. وكان يبرز عندما لا تتوافق وتيرته مع الزمن، وهذا هو السبب في أن كثيرًا من تاريخ المشي هذا هو تاريخ بأول عالم بعد تاريخ الثورة الصناعية، عندما توقف المشي عن أن يكون جزءًا من استمرارية التجربة وأصبح بدلًا من ذلك شيئًا يتم اختياره بوعي. بكثير من الوسائل، كانت ثقافة المشي رد فعل ضد السرعة والاستلاب اللذين سببتهما الثورة الصناعية. ربما تكون الثقافات المضادة والثقافات الفرعية هي من ستواصل المشي كوسيلة للمقاومة ضد فقدان المكان والزمان والتجسيد في المرحلة ما بعد الصناعية وما بعد الحداثية. أغلب هذه الثقافات مستمدة من الممارسات القديمة - من فلاسفة المشائية، والشعراء الذين يؤلفون الشعر أثناء تمشياتهم، والحجاج والبوذيين ممارسي التأمل بالمشي، أو من الممارسات القديمة مثل المشي لمسافات طويلة بهدف الاستكشاف أو أن يهيم المرء بلا هدف. لكن عالمًا جديدًا من المشي انفتح في ستينيات القرن العشرين، وهو المشي باعتباره فنًا.

كان الفنانون يمشون طبعًا. ففي القرن التاسع عشر، أدى تطور التصوير الفوتوغرافي وانتشار الرسم في الهواء الطلق إلى جعل المشي وسيلة مهمة لصانعي الصور - ولكن ما إن كان هؤلاء

يجدون المنظر الذي يريدون رسمه أو تصويره حتى يتوقفون عن التجوال، والأهم من ذلك أن صورهم جمدت المنظر إلى الأبد. هناك ما لا يحصى من اللوحات الرائعة لأشخاص سائرين، من المطبوعات الصينية التي يتجول فيها النساك الصغار وسط المرتفعات إلى لوحة «المشي صباحًا» لتوماس غينسبورو مثلًا، أو لوحة «شارع باريس، يوم ممطر» لغوستاف كاييبوت التي تُظهر أهل المدينة يحملون مظلات ويذهبون أينما أرادوا على الطرق الباريسية المرصوفة. ولكن الزوجين الشابين الأرستقراطيين في لوحة «المشي صباحًا» يتجمدان إلى الأبد بينما يقدمان إلى الأمام أفضل خطواتهما. من بين جميع الأعمال التي تتبادر إلى الذهن، يبدو أن عمل الفنان الياباني هيروشيغي: ثلاث وخمسون منظرًا على طريق توكويدا، الذي يعود إلى القرن التاسع عشر هو الوحيد الذي يقترح السير بدلًا من التوقف. اللوحات مرتبة مثل محطات درب الآلام، إذ يتكرر في هذا العمل مسار رحلة بعينها، والرحلة هذه المرة طولها ٣١٢ ميلًا بين ميدنتي إيدو (طوكيو الآن) وكيوتو، التي كان يقطعها معظم الناس آنذاك على الأقدام، كما هو واضح في الرسومات المطبوعة. العمل بمثابة فيلم من أفلام الطريق من زمن كانت الطرق فيه مخصصة للمشاة وكانت الأفلام مطبوعة على ألواح خشبية.

اللغة تشبه الطريق، لا يمكن إدراكها دفعة واحدة لأنها تتكشف في الوقت المناسب، سواء سمعناها أو قرأناها. هذا العنصر السردي أو الزمني جعل الكتابة والمشي يشبهان بعضهما بعضًا بطرق لا يتشابه بها الفن والمشي، حتى ستينيات القرن العشرين، عندما تغير كل شيء وأصبح أي شيء ممكنًا تحت المظلة الواسعة للفنون البصرية. كل ثورة لها اباء

كثر. أحد العرابين لهذا النوع من الأعمال هو الرسام التعبيري التجريدي جاكسون بولوك، على الأقل كما صوره أحد مريديه. في عام ١٩٥٨، كتب ألان كابرو، وهو فنان أداء مهم ومتعدد التخصصات، أن بولوك حوّل التركيز عن اللوحة باعتبارها غرضًا جماليًا إلى «حركة يومياتية». الحركة أساسية، واللوحة ثانوية، إنها مجرد تذكار لتلك الحركة التي أصبحت الآن موضوعها. يصبح تحليل كابرو مانيفستو نبوئيًا بينما يزن نتائج ما فعله الفنان الأكبر: «ربما يكون تدمير بولوك شبه الكامل لهذا التقليد عودة إلى النقطة التي كان فيها الفن منغمسًا في الطقوس والسحر والماضي الحياة أكثر مما عرفناه في ماضينا القريب... بولوك، كما أراه، تركنا عند النقطة التي يجب أن ننشغل فيها بل وننبهر بالمكان من حولنا والغرض من حياتنا اليومية، سواء كانت أجسادنا أو ملابسنا أو غرفنا، أو إذا لزم الأمر، اتساع شارع اثنين وأربعين. لأننا لسنا قانعين بما يقترحه الرسم بمعناه التقليدي، لا بد أن نستخدم المواد المحددة للرؤية والصوت والحركات والناس والروائح والملمس».

بالنسبة إلى الفنانين الذين استجابوا للدعوة التي وضع كابروا خطوطها العريضة، لم يعد الفن مجرد تخصص قائم على الحرفة في صنع الأشياء، بل أصبح نوعًا من تحقيق لا يقيده شيء في العلاقة بين الأفكار والأفعال والعالم المادي. في زمن كانت فيه مؤسسات الجاليرهات والمتاحف والأشياء التي صُنعت من أجلها في حالة احتضار، سعى هذا الفن المفاهيمي الجديد واللامادي إلى فضاء جديد وإلحاح جديد لصنع الفن. قد تكون الأشياء الفنية مجرد دليل على تحقيق كهذا أو دعائم ومحفزات لتحقيقات المتفرجين أنفسهم، بينما يمكن للفنانين

أن يجعلوا من أنفسهم نموذجًا على غرار العلماء أو الشامان أو المحققين أو الفلاسفة بينما يوسعون ذخيرة الحركات المحتملة إلى ما هو أبعد بكثير من حركات الرسام على الكانفاس. أصبحت أجساد الفنانين في حد ذاتها وسيلة للأداء، وكما كتبت مؤرخة الفن كريستين ستايلز: «من خلال التأكيد على الجسد باعتباره فنًا، ضخم هؤلاء الفنانون دور العملية على حساب المنتج، وانزاحوا من الغرض التمثيلي التقليدي للفن إلى أن يكونوا نماذج تقديمية له». وبالنظر إلى الماضي، يبدو الأمر كما لو أن هؤلاء الفنانين كانوا يعيدون تشكيل العالم، فعلًا فعلًا، وشيئًا فشيئًا، بدءًا بأبسط المواد والأشكال والحركات. ومن بين هذه الحركات -وهي حركة عادية يمكن أن يستمد منها ما هو غير عادي- المشي.

ترجع لوسي ليبارد، التي تكتب تواريخ تخريبية(87) عن الفن منذ أكثر من ثلاثين عامًا، أصل المشي كفن من الفنون الجميلة إلى النحت، وليس الأداء. وتركز على منحوتة كارل أندريه «ليفر» التي أنجزها عام ١٩٦٦، ومنحوتة «جوينت» التي أنجزها عام ١٩٦٨، حيث تتكون الأولى من وحدات طوب مصفوفة تمتد من غرفة إلى أخرى بحيث يتعين على المشاهد التنقل لرؤيتها، أما المنحوتة الثانية فتتكون من خط مماثل، لكنه من رزم القش هذه المرة، يقطع مرجًا ويمتد على مسافة أكبر بكثير. «فكرتي عن قطعة النحت أنها طريق»، هكذا كتب أندريه آنذاك. «أي إن الطريق لا يكشف عن نفسه عند أي نقطة معينة أو من أي نقطة معينة. الطرق تظهر وتختفي... ليس لدينا وجهة نظر واحدة للطريق على الإطلاق، باستثناء

وجهة نظر متحركة تتحرك على امتداده».. تكشف منحوتات أندريه البسيطة، مثل لفائف المخطوطات الصينية، عن نفسها بمرور الوقت استجابة لحركة الناظر، فهي تدمج التنقل في شكلها. تستنتج ليبارد: «من خلال دمج مفهوم شرقي لوجهات نظر متعددة والحركة الضمنية والتدخل المباشر في المناظر الطبيعية، أعد أندريه الموقع لنوع فرعي من النحت اللامادي الذي هو ببساطة، وليس بهذه البساطة، المشي».

بنى فنانون آخرون طرقًا من هذا النوع بالفعل: أنشأت كارولي شنيمان متاهة من شجرة سقطت ومن حطام إعصار آخر في حديقتها الخلفية في إلينوي في صيف عام ١٩٦٠ ليمشي الأصدقاء عبرها، قبل أن تنتقل إلى نيويورك وتصبح واحدة من أكثر الفنانين حدة واختلافًا على نحو جذري في مجال فن الأداء الناشئ آنذاك. كان كابرو نفسه يبني بيئات للجمهور وفناني الأداء يتنقلون عبرها ويشاركون فيها بحلول أوائل الستينيات. في العام نفسه الذي بنى فيه أندريه عمل «جوينت»، بنت باتريشيا جوهانسون «ستيفن لونغ» Stephen Long. وكما تصفه ليبارد «أقيم مسار خشبي طوله ١٦٠٠ قدم، مدهون بألوان الباستيل المتدرجة على طول مسار سكة حديد مهجورة في بوسكيرك بنيويورك، كان القصد من ذلك نقل اللون والضوء إلى ما هو أبعد من الانطباعية التقليدية بإضافة عنصري المسافة والزمن المستغرق لإدراكه». في الغرب الأمريكي، بدأ رسم خطوط أطول رغم أنها لم تعد مرتبطة بالضرورة بالمشي: نفّذ مايكل هيزر «رسومات الدراجة النارية» باستخدام دراجته للرسم في الصحراء، وأوكل والتر دي ماريا جرافة بصنع فن مماثل على تراب أرض نيفادا القاحلة، بخطوط

يمكن رؤيتها كاملة من الطائرة، أو إدراكها بالتدريج مع مرور الوقت وبشكل جزئي من الأرض. لكن ربما كان رصيف روبرت سميثسون الحلزوني الذي يبلغ طوله ١٥٠٠ قدم بشريًا في مقياسه، وهو مسار وعر ولكنه صالح للمشي عليه من الصخور والأرض المتعرجة يلتف وصولًا إلى بحيرة الملح الكبرى. رغم أن سكانه الأوائل اعتمدوا على المشي لآلاف السنين، غالبًا ما يُنظر إلى الغرب الأمريكي على أنه أرض مُعادية بمقياس المشاة، بدا «فن الأرض» الذي أقيم هناك، كما أصبح يُطلق عليه، صدى لمشاريع التنمية الضخمة التي تسعى إلى غزو الغرب الأميركي، من سكك حديد وسدود وقنوات ومناجم.

إنجلترا، من ناحية أخرى، لطالما كانت ذات حجم يمكن اكتشافه بمقاييس المشاة، ومناظرها الطبيعية ليست متاحة لمزيد من الاستكشاف، لذا يجب على الفنانين هناك استخدام لمسة أقل مغامرة. الفنان المعاصر الأكثر تفانيًا في استكشاف المشي كوسيلة فنية هو الإنجليزي ريتشارد لونغ. وكان كثير مما فعله منذ ذلك الحين حاضرًا بالفعل في عمله المبكر «خط صنعه المشي» عام ١٩٦٧. تُظهِر الصورة بالأبيض والأسود ممرًا في العشب يمتد مباشرة إلى المركز حتى الأشجار في الطرف البعيد من المرج. كما يوضح العنوان، رسم لونغ الخط بقدميه. كان أكثر طموحًا وأكثر تواضعًا من الفن التقليدي: طموح في الحجم، في ترك بصمته على العالم نفسه، متواضعًا في أن الحركة كانت عادية جدًا، وكان العمل الناتج على الأرض حرفيًا، تحت الأقدام. مثل العديد من الفنانين الاخرين الذين ظهروا في ذلك الوقت، كان عمل لونغ غامضًا: هل «خط صنعه المشي» عملًا أدائيًا الخط فيه أثر متبقٍ، أم أن الخط منحوتة والصورة توثيق له، أم أن الصورة هي

العمل الفني، أم أنه كل هذه الأمور مجتمعة؟

أصبح المشي وسيط لونغ. ومنذ ذلك الحين، شمل فنه المعروض أعمالًا على ورق توثق نزهاته، وصور فوتوغرافية لعلامات أخرى في المناظر الطبيعية التي صنعها أثناء تلك الجولات، ومنحوتات أخرى صنعها في مساحات داخلية مرجعياتها أنشطته الخارجية. في بعض الأحيان، يتم تمثيل المشي بصورة فوتوغرافية مع نص، أو بخريطة، أو نص فقط. على الخرائط، رُسم مسار المشي موحيًا بأن المشي نفسه رسمٌ على نطاق واسع، وأن مشيته بالنسبة إلى الأرض نفسها تعادل قلمه بالنسبة إلى الخريطة، وغالبًا ما يسلك خطوطًا مستقيمة ولولبية ويمشي في دوائر ومربعات. وبالمثل، عادة ما يصنع منحوتاته في المناظر الطبيعية بإعادة ترتيب الصخور والعصي في خطوط ودوائر (من دون نقلها من مكانها)، وهي هندسة اختزالية تستحضر كل شيء -الزمن الدوري والخطي، والمحدود واللانهائي، والطرق والأنماط- ولا تقول شيئًا. ومع ذلك، قدّم لونغ تلك الخطوط والدوائر والمتاهات التي تتكون من الأعواد والحجارة أو الطين في أعمال أخرى عرضت على أرضية الصالة الفنية. غير أن المشي في المناظر الطبيعية يظل الأساس في العمل لديه دائمًا.

كان عنوان إحدى المنحوتات المبكرة الرائعة التي جمعت بين هذين النهجين هو «خط بطول نزهة مستقيمة من أسفل تلة سيلبري إلى قمته». بحذاء غَطَس في الوحل، سار لونغ على أرض الجاليري المسافة ليس في خط مستقيم بل بشكل لولبي، بحيث يمثل المسار الموحل الطريق الذي سلكه في مكان آخر خارج الجاليري فيصبح طريقًا جديدًا في

الداخل، ودليلًا على المشي ودعوة إليه. يلعب العمل الفني بالواقع الملموس للتجربة -المشي وموقعه (تلة سيلبري هو نصب ترابي قديم ذو أهمية دينية مجهولة في جنوب إنجلترا)- وبتجريدات اللغة والقياسات التي توصف بها تلك النزهة. لا يمكن اختزال التجربة في اسم مكان أو طول، ولكن حتى هذه المعلومات الضئيلة كافية لجعل المخيلة تشتغل. «يعبر المشي عن الفضاء والحرية، ويمكن للمعرفة به أن تعيش في خيال أي شخص، وهذا فضاء آخر أيضًا»، كتب لونغ بعد سنوات عديدة من عرض العمل.

تشبه أعمال لونغ كتابات الرحلات في بعض نواحيها، ولكنه بدلًا من إخبارنا بما شعر به، وما كان يأكله، وغير ذلك من التفاصيل، فإن نصوصه القصيرة وصوره الخالية من الناس تترك معظم التمشية لخيال المشاهد، وهذا أحد الأشياء التي تميز هذا الفن المعاصر، حيث يطلب من المشاهد القيام بكثير من العمل، لتفسير الغامض، وتخيل اللامرئي. لا يقدم إلينا تمشية ولا حتى تمثيلًا للتمشية، بل فكرة تمشية فقط واستحضارًا لموقعها (الخريطة) أو أحد مناظرها (الصورة الفوتوغرافية). تؤكد أعمال لونغ على الجوانب الشكلية والكمية: الهندسة، والقياس، والعدد، والمدة. مثلًا في عمله «ألف ميل وألف ساعة في نزهة باتجاه عقارب الساعة في إنجلترا صيف ١٩٧٤»، الذي يجسد رسمة لدوامة مربعة الشكل، يلعب الفنان بالارتباطات بين الزمان والمكان من دون أن يظهر لنا أو يخبرنا بأي شيء آخر عن التمشية سوى المكان والسنة. يلعب العمل بما يمكن قياسه وما لا يمكن. يكفي أن نعرف أنه في عام ١٩٧٤، عندما بدت الحياة أكثر تعقيدًا وازدحامًا

وسخرية، وجد شخص ما الوقت والمكان للانخراط في مثل هذا اللقاء الشاق والمشبع مع الأرض على ما يبدو، ساعيًا إلى توافق الجغرافيا مع الجسد مع الوقت. ثم كانت هناك الخريطة مع النص الصغير المرفق: «رحلة سير لستة أيام على جميع الطرق والحارات والمسارات المزدوجة داخل دائرة بعرض ستة أميال تتمركز حول عملاق سيرن أباس»، حيث كانت الطرق التي سار عليها لونغ تشع مثل الشرايين من الشكل الذي وضعه في قلب تمشيته. نص آخر وضع لذلك الشكل للعملاق المرسوم بالطباشير عمره ٢٠٠٠ عام على جانب التل في منطقة «دورست» يجسد شخصًا طوله ١٨٠ قدمًا بقضيب منتصب ويحمل مطرقة.

يحب لونغ الأماكن التي لا يبدو أن شيئًا قطع اتصالها بالماضي البعيد فيها، لذا نادرًا ما تظهر المباني والأشخاص والآثار الأخرى للحاضر أو الماضي القريب. تعيد أعماله النظر في التقاليد البريطانية للمشي في الريف بينما تمثل أكثر وجوهها سحرًا وإشكالية. ذهب إلى أستراليا، وجبال الهيمالايا، وجبال الأنديز البوليفية لإنتاج أعماله، والفكرة القائلة بأن كل هذه الأماكن يمكن استيعابها في تجربة إنجليزية خالصة تنمّ عن موقف كولونيالي أو لنقل على الأقل سياحة متعجرفة. وهذا يثير مرة أخرى عواقب نسيان أن المشي في المناطق الريفية ممارسة تخص ثقافة معينة، وفي حين يُنظر إليه باعتباره نشاطًا متحضرًا وأنيقًا في سياقه الخاص، إلا أن فرض قيمه على أمكنة أخرى ليس كذلك. وبينما يغرق الفن الأدبي للمشي الريفي في تقاليدِ أو عاطفةِ أو ثرثرةِ سيرذاتية، فإن فن لونغ متقشف وصامت تقريبًا، وجديد تمامًا في تأكيده على المشي نفسه كما لو أن له شكل،

وهذا أقل من أن يكون إرثًا ثقافيًا وأقرب إلى إعادة تقديرٍ إبداعي لقيمته. أعماله خاطفة في جمالها في بعض الأحيان، وتصر على أن الحركة البسيطة للمشي يمكن أن تربط السائر بسطح الأرض، ويمكنها قياس الطريق مثلما يقيس الطريق السائر، ويمكنها أن ترسم على نطاق واسع من دون أن تترك أثرًا، ويمكنها أن تكون فنًا، أعماله عميقة وأنيقة. صديق لونغ الفنان المعاصر هاميش فولتون جعل من المشي فنه أيضًا، ولا يمكن تمييز أعماله الفوتوغرافية التي تحتوي على نصوص تقريبًا عن أعمال المشَاء الإنجليزي الآخر. لكن فولتون يؤكد على جانب أكثر روحانية وعاطفية في مشيه، حيث يختار في كثير من الأحيان المواقع المقدسة وطرق الحج، ولا يصنع أي منحوتات داخل صالات عرض ولا يترك علامات في الأرض.

ظهر أنواع أخرى من الفنانين المشائين. ولعل ستانلي براون الفنان المهاجر من سورينام الهولندية والأقل شهرة، أول من حوَل المشي إلى عمل أدائي. في عام ١٩٦٠، طلب من غرباء في الشارع أن يرسموا له اتجاهات إلى أماكن حول المدينة وعرض النتائج باعتبارها من الفن الدارج (المتداول) Vernacular art للقاءاتٍ أو مجموعة رسومات، وفي وقت لاحق، أقام معرضًا مفاهيميًا بعنوان «جميع محلات الأحذية في أمستردام» والذي دعا الحضور خلاله إلى القيام بجولة على الأقدام، ونصب لافتات في إحدى صالات العرض تشير إلى مدن حول العالم وتدعو المتفرجين إلى اتخاذ الخطوات القليلة الأولى نحو الخرطوم أو أوتاوا، وقضى يومًا كاملًا في عام ١٩٧٢ في عدّ خطواته، بطريقة أخرى استكشف براون عالم المشي الحضري اليومي. الفنان الألماني الكبير والنحات جوزيف بويس، الذي

يمنح الأفعال البسيطة في معظم أعماله معاني عميقة، قدم عرضًا أدائيًا يكنس فيه الشارع بعد مظاهرة سياسية. وفي عمل أدائي آخر سار عبر أحد المستنقعات التي أحبها، ووثقت هذه التجربة عام ١٩٧١ في صور فوتوغرافية تُظهره ماشيًا في المستنقع، ولا يظهر منه فوق سطح الماء أحيانًا سوى رأسه وقبعته المميزة.

في عام ١٩٦٩، قام الفنان النيويوركي فيتو أكونشي بعمله «مقطوعة الملاحقة» الذي استمر ثلاثة وعشرين يومًا، وكما هو الحال مع عديد من الفنون المفاهيمية في ذلك الوقت، لعب هذا العمل على التقاطع بين القواعد التعسفية والظواهر العشوائية من خلال اختيار شخص غريب ومتابعته إلى أن يدخل المبنى. عادت صوفي كالي لاحقًا، وهي مصورة فرنسية تنبثق أعمالها من التفاعلات واللقاءات، إلى عمل أكونشي الأدائي من خلال اثنين من أعمالها موثقةً كل منهما بالصور والنصوص. يروي لنا عملها «ملاحقة رجل من البندقية» كيف التقت رجلًا في إحدى الحفلات في باريس وتبعته خلسة إلى البندقية، حيث تعقبته مثل المحقق إلى أن واجهها، وبعد سنوات طلبت من والدتها تعيين محقق حقيقي ليفعل الشيء نفسه معها في باريس، وأدرجت الصور التي التقطها المحقق لها في أعمالها الفنية الخاصة كنوع من البورتريه مدفوع الثمن. استكشفت هذه الأعمال قدرة المدينة على إثارة الشك والفضول والمراقبة نتيجة للتقاطعات والانقطاعات بين غرباء في الشارع.

في عامي ١٩٨٥ و١٩٨٦، استخدمت الفنانة الفلسطينية البريطانية منى حاطوم الشارع

كمساحة للأداء، فطبعت آثار أقدام تحتوي على كلمة عاطل عن العمل في شوارع شيفيلد، وكأنها تريد أن تبرز الأسرار الحزينة للمارة في تلك المدينة المدمرة اقتصاديًا، كما قدمت عرضين مختلفين للمشي في بريكستون، وهي أشبه بمستوطنة للطبقة العاملة في لندن.

من بين جميع العروض الأدائية التي تتضمن المشي، كان عرض «المشي على سور الصين العظيم» الذي قدماه مارينا أبراموفيتش وأولاي عام ١٩٨٨ أكثرها دراماتيكية وطموحًا وتطرفًا. بدأ فنانا الأداء الراديكاليان من الشرق الشيوعي -هي من يوغوسلافيا، وهو من ألمانيا الشرقية- التعاون في عام ١٩٧٦ في سلسلة أطلقا عليها «أعمال العلاقات». اهتم الاثنان باختبار حدودهما الجسدية والنفسية وحدود الجمهور من خلال العروض التي تهدد بالخطر والألم والانتهاك والضجر، كما اهتما بتوحيد الجنسين رمزيًا في كيان مثالي، متأثرين أكثر فأكثر بالتقاليد الشامانية والخيميائية والبوذية التبتية وغيرها من التقاليد الباطنية. يذكرنا عملهما بما وصفه غاري سنايدر بالتقاليد الصينية لـ«الكرامات الأربع»: الوقوف والاستلقاء والجلوس والمشي. إنها «كرامات» لأنها طرق لكي نكون أنفسنا بالكامل، في بيتنا داخل أجسادنا، في أوضاعها الأساسية، أو التأكيد المماثل في الفيباسانا البوذية على التأمل في هذه الأوضاع الأربعة. في أول عمل لهما بعنوان: «علاقة في فضاء»، سارا نحو بعضهما بسرعة بين الجدران المتقابلة لغرفة وتصادما مرارًا وتكرارًا. وفي العمل الأدائي «شيء يصعب فهمه» Impunderabilia، عام ١٩٧٧، وقفا عاريين بلا حراك متقابلين في مدخل ضيق لإحدى غرف متحف، كان على الزوار أن يقرروا من يواجهون

بينما ينزلقون جانبيًا بينهما. في «طاقة السكون» في الثمانينيات، وقفا معًا بينما كانت تمسك بمقبض قوس وهو يحمل السهم المشدود على وتر القوس والموجه إلى قلبها، أطال التوتر المتوازن بينهما وسكونهما من اللحظة وجمّد خطورتها. في العام نفسه، ذهبا إلى المناطق النائية في أستراليا على أمل التواصل مع السكان الأصليين الذين تجاهلوهما. مكث الاثنان هناك وقضيا أشهرًا من صيف الصحراء الحارق وهما يتدربان على الجلوس من دون حركة، تعلم أبراموفيتش وأولاي «الثبات والصمت واليقظة» من الصحراء. بعد ذلك، أصبح السكان المحليين أكثر قبولًا للتواصل معهما. ومن هذه التجربة جاء عرضهما «عبور بحر الليل» في سيدني، وتورنتو، وبرلين، ومدن أخرى: فبينما ظل الاثنان صامتين وصائمين لأربع وعشرين ساعة في اليوم، قضوا عدة ساعات لعدة أيام متتالية في متحف أو مكان عام جالسين بلا حراك، متواجهين عبر طاولة، كأنهما منحوتتان حيتان يعرضان نوعًا من الالتزام العنيف.

«عندما ذهبت إلى التبت والتقيت السكان الأصليين، تعرفت أيضًا على بعض الطقوس الصوفية. رأيت أن كل هذه الثقافات دفعت الجسد إلى أقصى الحدود المادية من أجل القفز عقليًا، والقضاء على الخوف من الموت، والخوف من الألم، وكل القيود الجسدية التي نعيش بها»، قالت أبراموفيتش لاحقًا، «كان الأداء هو الشكل الذي مكنني من القفز إلى تلك المساحة الأخرى والبعد الاخر». شكّل التخطيط لعمل «المشي على سور الصين العظيم» ذروة تعاونها مع أولاي. عزم الاثنان على السير الواحد منهما في اتجاه الاخر من طرفي السور الذي يبلغ طوله ٤٠٠٠ كيلومتر والالتقاء

والزواج. بعد سنوات، عندما تمكنا أخيرًا من تجاوز العقبات البيروقراطية التي وضعتها الحكومة الصينية، تغيرت علاقتهما إلى الحد الذي جعل المشي نهاية تعاونهما وعلاقتهما. في عام ١٩٨٨، أمضى كل منهما ثلاثة أشهر يسيران بعضهما في اتجاه بعض من بعد ٢٤٠٠ ميل، حيث تحاضن الاثنان في المركز، ثم ذهب كل منهما في طريقه.

سور الصين العظيم، الذي بُني لمنع الرُّحَل من دخول الصين، هو أحد الرموز الكبرى في العالم للرغبة في تحديد وتأمين الذات أو الأمة من خلال إغلاق حدودها. بالنسبة إلى أبراموفيتش وأولاي اللذين عاشا وكبرا خلف الستار الحديدي، فإن هذا التحول لجدار يفصل الشمال عن الجنوب إلى طريق يربط الشرق بالغرب مليء بالمفارقات السياسية والمعاني الرمزية. بعد كل شيء، الجدران تفصل والطرق تربط. ويمكن قراءة عملهما الأدائي باعتباره لقاءً رمزيًا بين الشرق والغرب، والمذكر والمؤنث، وعمارة العزل والوصل. كما اعتقد الفنانان أن الجدار، على حد تعبير توماس ماكيفيلي، الناقد الذي تابع أعمالهما عن كثب، رسمت خريطته منذ آلاف السنين على يد خبراء فينغ شوي، لذا إذا اتبعت الجدار بدقة فسوف تلمس خطوط القوى الثعبانية التي تربط سطح الأرض ببعضه. يسجل الكتاب الخاص بالمشروع أنه: «في الثلاثين من مارس ١٩٨٨، بدأت مارينا أبراموفيتش وأولاي المشي على سور الصين العظيم من طرفين متقابلين. انطلقت مارينا من الشرق، من جهة البحر. وانطلق أولاي من الغرب، جهة صحراء جوبي. وفي السابع والعشرين من يونيو، وسط صيحات الأبواق، التقيا في ممر جبلي بالقرب من شنمو في مقاطعة شنشي، وسط معابد بوذية وكونفوشيوسية

وطاوية». يشير ماكيفيلي إلى أن هذا الأداء الأخير كان أيضًا توسعًا في أدائهما الأول، حين سار الاثنان كل نحو الآخر إلى أن تصادما.

يحتوي هذا الكتاب على قسم خاص بأولاي وآخر بأبراموفيتش، حيث تقدم الكلمات البسيطة والصور المثيرة إحساسًا بتجربتهما، وتعمل مثل قطع ريتشارد لونغ الفوتوغرافية والنصية على استحضار أجزاء مختارة بعناية من تجربة معقدة. بين النصين، كشفت مقالة ماكيفيلي عن وجه آخر للمشي: تشابكه مع طبقات لا نهاية لها من البيروقراطية طوال الرحلة. وكما كانت الأميرة ماريا في رواية تولستوي تتمنى أن تكون حاجّة على الطريق، يبدو أن أبراموفيتش وأولاي انطلقا في رحلتهما وهما يتخيلان نفسيهما يسيران وحدهما في مساحة واضحة غير مزدحمة وفي حالة ذهنية جيدة، ولكن ماكيفيلي يصف الشاحنات الصغيرة التي أقلتهما إلى المساكن كل ليلة، والمسؤولين والمترجمين الذين تنقلوا حولهما، وحرصوا على تلبية متطلبات الحكومة ومحاولة إبطائهما لإمضاء مزيد من الوقت وبالتالي المال في كل مقاطعة، والمشاجرة التي وقع فيها أولاي في قاعة رقص، والطريقة التي قامت بها جداول العمل والقواعد والجغرافيا بتشظية رحلة أولاي (بينما حرصت أبراموفيتش على أن تبدأ كل صباح من حيث توقفت في الليلة السابقة، معلنة: «أمشي كل سنتيمتر من الجدار»). كان الجدار ينهار في عديد من أجزائه، ويستدعي التسلق بقدر ما يتطلب المشي، وكانت الرياح في قمته شديدة في كثير من الأحيان. ما بدأ مشيًا، في رأي ماكيفيلي، تطور إلى نوع آخر من الأداء، أصبح أشبه ببحث عن تسجيل رقم قياسي، حيث لا يتحقق الهدف الرسمي إلا على حساب ما لا يحصى

من المشتتات والمضايقات غير الرسمية. لكن ربما استطاع الفنانان -اللذان عملا طويلًا على تعزيز قدراتهما على التركيز- عزل وقتهما على الجدار عن الفوضى المحيطة بهما. تتحدث نصوصهما وصورهما عن جوهر المشي، وعن البساطة الأولية لهذا الفعل الذي يضخمه الفراغ القديم للصحراء المحيطة بهما. وكما هو الأمر مع أعمال لونغ، تبدو أعمالهما بمثابة هدية للمتلقين تؤكد لهم أن النقاء البدائي للقاء الجسدي بالأرض لا يزال ممكنًا وأن الوجود البشري المزدحم والمهيمن في أماكن أخرى لا يزال ضئيلًا إذا ما قيس بضخامة الأماكن المنعزلة. كتب أولاي: «استغرق الأمر أيامًا كثيرة قبل أن أشعر للمرة الأولى بالوتيرة الصحيحة، التي يتناغم فيها العقل والجسد في الإيقاع الرتمي للمشي».

بدأت أبراموفيتش بعد هذا العمل تصنع المنحوتات، وبدأت تدعو المتفرجين إلى المشاركة في الأفعال الأساسية التي استكشفتها عروضها. لقد وضعت أحجار الجيود المجوفة وقطع الكريستال والحجارة المصقولة على كراسي خشبية أو على قواعد ومنصات يمكن الجلوس عليها أو الوقوف تحتها - أثاث للتأمل والالتقاء مع القوى الأولية التي تعتقد الفنانة أن الحجارة تحملها. كان أكثر منحوتاتها روعة هو عدة أزواج من أحذية مصنوعة من حجر الجمشت، والتي عرضت ضمن معرض قدم فيه عدد كبير من أعمالها في المتحف الأيرلندي للفن الحديث عام ١٩٩٥. وصلت إلى هناك بعد جولة طويلة من وسط مدينة دبلن لأجد أن المتحف يقع في مستشفى عسكري قديم وأنيق، وبدا أن الجولة وتاريخ المبنى بمثابة إعدادٍ لمشاهدة تجربة الأحذية، وهذه كانت قطعًا خشنة كبيرة من اللون

الأرجواني الشفاف المرقط جُوِّفت ولُمِّعت من الداخل، كأنها نسخة خرافية من الأحذية الخشبية التي ارتداها فلاحو أوروبا ذات يوم. دُعي الحضور إلى ارتدائها وإغلاق أعينهم، ومع تجربتها أدركت أن قدميّ كانتا، بمعنى ما، داخل الأرض نفسها، ورغم أن المشي فيها كان ممكنًا، لكنه صعب جدًا. أغمضت عيني ورأيت ألوانًا غريبة، وبدا الحذاء وكأنه نقطة ثابتة تدور حولها المستشفى، ودبلن، وأيرلندا، وأوروبا، أحذية ليست للتنقل والسفر بل لإدراك أنك قد تكون هناك بالفعل. قرأت في وقت لاحق أن هذه الأحذية صُنعت للتأمل أثناء المشي، لزيادة الوعي بكل خطوة. وقد أطلق عليها اسم «أحذية الرحيل».

تحققت نبوءة كابرو عام ١٩٥٨ من خلال كل هؤلاء الفنانين السائرين: «سوف يكتشفون من الأشياء العادية معنى العادي. لن يحاولوا أن يجعلوها غير عادية، بل سيكتفون ببيان معناها الحقيقي. ومن هذا المعنى سوف يبتكرون ما هو غير عادي». المشي كفن يلفت الانتباه إلى أبسط جوانب الفعل: من الطريقة التي يقيس بها المشي في الأمكنة الريفية الجسد والأرض مقابل بعضهما، والطريقة التي يصنع بها المشي في المناطق الحضرية لقاءات اجتماعية غير متوقعة، وصولًا إلى أعقد جوانب الفعل: العلاقات المحتملة الغنية بين التفكير والجسد، والطريقة التي يمكن بها لفعل شخص ما أن يكون دعوة إلى خيال شخص آخر، والطريقة التي يمكن بها تخيل كل حركة كمنحوتة خاطفة ولامرئية، والطريقة التي يعيد بها المشي تشكيل العالم من خلال رسم خرائطه، وشق المسارات إليه، ومقابلته، والطريقة التي يعكس بها كل فعلٍ الثقافة التي يحدث فيها ويعيد ابتكارها.

الفصل السابع عشر
لاس فيغاس
أو أطول مسافة بين نقطتين

كنت أفضل لو أنني خرجت إلى منطقة «بيك ديستركت». بحثت عن جولة أخيرة في مواقع تاريخ المشي، ويبدو أن هذا المكان يمتلك كل شيء. تصوَرت أنني أبدأ الجولة من متاهة الأسيجة النباتية في عزبة تشاتسورث البديعة، ثم التجول في حدائقها الرسمية المحيطة وصولًا إلى آخر الحدائق التي صممها كيبابليتي براون. من هناك، كان في وسعي أن أذهب إلى أكثر المناطق برية في بيك، نحو كيندر سكاوت، حيث دارت معارك حق المرور الكبرى(88)، ثم أتجاوز تسلق الصخور الرملية الشهيرة حيث وقعت «ثورة الطبقة العاملة في التسلق»، ثم أتجه إلى مانشستر المجاورة بضواحيها التكوينية المبكرة أو شيفيلد بأطلالها الصناعية وصالة التسلق في مصنع سابق. أو كان يمكنني أن أبدأ بالمدن الصناعية فأشق طريقي إلى الريف ثم إلى الحديقة فالمتاهة. لكن كل هذه المخططات التي تمر من مناطق خلابة انتهت بشكوك خفية فحواها أن إثبات إمكانية المشي في بريطانيا لا يعني الكثير. حتى المناطق الصناعية الخربة في بريطانيا تشير إلى الماضي الشمالي الأوروبي الباهت، ولم يكن ماضي المشي وإنما مستقبله واحتمالاته ما أردت أن أتفحص. وهكذا، في صباح أحد أيام ديسمبر، نزلت من سيارة بات الفان إلى شارع فريمونت في وسط لاس فيغاس، وانطلق هو لقضاء اليوم في تسلق الصخور والمنحدرات في «ريد روكس».

في اخر معظم شوارع لاس فيغاس المستقيمة كخطوط العرض شرقًا وغربًا، يمكن رؤية الجرف الضخم الممتد بطول ثلاثة عشر ميلًا لمنحدرات «ريد روكس»، ووراء قباب وأعمدة الحجر الرملي المائلة إلى الأحمر، ترتفع عشرة آلاف قدمٍ هي الذروة الرمادية لسلسلة جبال «سبرينغ». الجانب الذي قلما جرى الاحتفاء به في هذه البقعة الجرداء، حيث قامت المدينة الصاخبة والنسَاءة، هو موقعها المذهل؛ سلاسل جبلية تحفها من ثلاث جهات وضوء غامر يتدفق إلى المدينة من الصحراء، ولكن لاس فيغاس ليست مكانًا معنيًا بتقدير الطبيعة ولم تكن يومًا. تعني كلمة لاس فيغاس «المروج» وهذا يوضح أن الإسبان وصلوا إلى واحة «بايوت» الجنوبية هذه كما فعل الأنجلوساكسون، لكن الواحة لم تتحول إلى بلدة حتى بدايات القرن العشرين، في عام ١٩٠٥، عندما قررت السكك الحديدية من لوس أنجلوس إلى مدينة «سولت ليك» Salt Lake إنشاء محطة هنا. ظلت لاس فيغاس مدينة للعابرين والسياح مدةً طويلة بعد أن جفت الواحة. افتقرت إلى الثروات المعدنية التي تتمتع بها أغلب مناطق الولاية ولم تبدأ في الازدهار إلا عام ١٩٣١، عندما أصبحت المقامرة قانونية في نيفادا، بينما كان سد هوفر على نهر كولورادو قيد البناء، على بعد ثلاثين ميلًا إلى الجنوب الشرقي. في عام ١٩٥١، تأسس موقع اختبارات نيفادا على بُعد ستين ميلًا إلى الشمال الغربي، ومنذ ذلك الحين وخلال عقود، فُجّر أكثر من ألف سلاح نووي في منشآته (حتى عام ١٩٦٣، كان معظم الاختبارات فوق الأرض، وهناك صور مفزعة لـ شخب الفطر النووية تتصاعد فوق لافتات الكازينوهات الشاهقة). تحيط لاس فيغاس بهذه الاثار الضخمة التي تجسد طموح الهيمنة على

الأنهار والذرات والحروب، وإلى حد ما، على العالم. ومع كل هذا، فربما يكون اختراعُ أصغر بكثير لكنه أكثر انتشارًا هو ما شكّل هذه المدينة في صحراء موهافي: مكيّف الهواء، الذي له كثير من العلاقة بالهجرة الجماعية الأمريكية الأخيرة إلى الجنوب والغرب، حيث سيقضي كثيرون منهم صيفهم كله في أمكنة يتم التحكم في مناخها الداخلي. غالبًا ما تُصوَر لاس فيغاس باعتبارها استثنائية، غير أنها رمزية، نسخة متطرفة من أنواع جديدة من الأمكنة التي تُبنى حول الولايات المتحدة والعالم.

بني وسط مدينة لاس فيغاس حول محطة السكك الحديدية: كان من المتوقع أن ينزل الزوار من القطار ويمشون إلى الكازينوهات والفنادق المتراصة في منطقة غليتر غالتش Glitter Gulch وسط المدينة حول شارع فريمونت. ما إن حلت السيارات محل القطارات عند المسافرين الأمريكيين، حتى تغير التركيز: في عام ١٩٤١، بني أول مجمع كازينو وفندق ليطل على ما كان يُعرف بالطريق السريع إلى لوس أنجلوس، طريق ٩١، والذي أصبح الآن منطقة «الستريب» الشهيرة في لاس فيغاس. منذ زمن بعيد، وبعد أن غفوت في سيارة متجهة إلى التجمع السنوي المناهض للأسلحة النووية في موقع اختبارات نيفادا، استيقظت عندما توقفنا عند إشارة مرور على الطريق السريع لأرى غابة من خطوط النيون والأزهار وكلمات ترقص وتفور كالفقاعات ثم تتفرقع. لا أزال أتذكر ذهولي بذلك المشهد المتوهج بعد ظلمة الصحراء، كان شيئًا من الجنة والجحيم على حد سواء. في الخمسينيات، وصف الجغرافي الثقافي ج. ب. جاكسون ظاهرة شرائط

المناطق التجارية على جانبي الطرق(89)، التي كانت جديدة آنذاك، كعالم آخر، عالم بُني للغرباء والسائقين. «تأثير هذه العمارة أمر يتوقف في النهاية على ماهية ذلك العالم الآخر: سواء أكان عالمًا حلمت به أم لا. وهنا تبدأ في اكتشاف الحيوية الحقيقية لهذه العمارة الجديدة الموجهة نحو الآخرين على طول طرقنا السريعة: إنها تخلق بيئة حالمة لترفيهنا تختلف تمامًا عن البيئة الحالمة التي كانت سائدة قبل جيل. إنها تخلق وتعكس في آن ذوقًا عامًا جديدًا». اتجه هذا الذوق، وفقًا لجاكسون، نحو شيء جديد تمامًا، يستبعد التقليد الأوروبي المركزي المرتبط بمفاهيم الاستجمام والذوق، شيء متكيف مع السيارات ومع الخيالات الجديدة المستقبلية والاستوائية لساكني تلك السيارات. «الواجهات الإنسيابية، والمداخل المزخرفة، وتأثيرات الألوان الغريبة المتعمدة، وتلك الكتل المبهجة من الألوان والأضواء والحركة التي تتعارض بشكل صارخ مع القديم والتقليدي». تم الاحتفاء بهذه العمارة الشعبية التي اخترعت لأمريكا السيارات في البيان المعماري الشهير لعام ١٩٧٢ «التعلم من لاس فيغاس».

في السنوات الأخيرة، حدث أمر غير متوقع على الشريط بجانبي طريق لاس فيغاس. حدث مثلما يمثل في تلك الجزر حيث يتكاثر نوع بيولوجي تم إدخاله إليها بنجاح كبير حتى أن أسرابه المكتظة تدمر محيطها وتتضور جوعًا بشكل جماعي، اجتذب الشريط على جانبي «لاس فيغاس ستريب» عددًا كبيرًا من السيارات حتى أن حارات المرور الثماني فيه أصبحت في حالة اختناق مستمر. ضممت لافتاته النيونية الرائعة بحيث تمكن رؤيتها حتى

أثناء القيادة بسرعة، كما هو الحال مع اللافتات الكبيرة التي توضع أمام المباني المتواضعة على كل شارع تجاري، ولكن هذا الجانب من الشارع أصبح في السنوات الأخيرة موقعًا جديدًا تمامًا لحياة المشاة. الكازينوهات التي كانت مبعثرة يومًا ما على جانبي «لاس فيغاس ستريب» اندمجت ونمت لتشكّل جادة عريضة من الفنتازيا والإغراءات. يمكن للسياح الآن ترك سياراتهم في مواقف الكازينو العملاقة ويتجولون في الـ «ستريب» لأيامٍ على الأقدام، وهم يفعلون ذلك بأعداد تصل إلى الملايين - أكثر من ٣٠ مليون سائح في السنة، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ في عطلات نهاية الأسبوع الأكثر ازدحامًا. حتى في أغسطس، عندما كانت درجة الحرارة حوالي ١٠٠ فهرنهايت ليلًا، كنت أرى الحشود تتدفق ببطء ذهابًا وإيابًا من وإلى شارع لاس فيغاس، وإن لم تكن أبطأ كثيرًا من السيارات. خضعت عمارة الكازينو نفسها لتغييرات جذرية منذ أن لعب «سيزارز بالاس» عام ١٩٦٦ دور العمارة الفانتازية بدلًا من التركيز في لافتات النيون، وقدم «ميراج» عام ١٩٨٩ أول واجهة مصممة خصوصًا لتكون عرضًا مخصصًا للمشاة. بدا لي أنه إذا انتعش المشي في هذا المكان المعادي له واللامتوقع، فهذا يعني أن له مستقبلًا ما، وأنني قد أكتشف ما هو هذا المستقبل من خلال المشي بنفسي على طول لاس فيغاس ستريب.

عانى بريق شارع فريمونت القديم من المقارنة بالبيئات الخيالية الجديدة في لاس فيغاس، أعيد تصميم المنطقة لتكون بيئة خيالية جديدة، فأصبحت تشبه صالة للألعاب الإلكترونية. أغلقت الشوارع الوسطى أمام السيارات ليتسنى للمشاة التجول بحرية، وفوق الشارع الذي أعيد تأهيله

وضع سقف عالٍ مقوس تقدم عليه عروض الليزر ليلًا، حتى أصبحت ما كانت سماءً نوعًا من شاشة تلفاز عملاقة الآن. لا يزال المكان حزينًا وشبه مهجور في النهار، ولم يستغرق مني كثيرًا من الوقت لأقوم بجولة فيه وأتمشى جنوبًا على شارع لاس فيغاس الذي سيصبح في نهاية المطاف «لاس فيغاس ستريب». وقبل أن يتحول إلى ذلك كان الشارع عبارة عن صف من الفنادق الصغيرة والشقق المتهالكة ومحال الهدايا التذكارية الحزينة والأغراض الإباحية ومحلات الرهن، وهو الجانب القبيح لصناعات المقامرة والسياحة والترفيه. رجل أسود بلا مأوى متجمد في بطانية بنية عند موقف الحافلات نظر إليّ عندما مشيت بمحاذاته، شاهدت زوجين آسيويين عبر الشارع يخرجان من إحدى الكنائس الصغيرة المخصصة للزفاف، هو ببدلة داكنة وهي بفستان أبيض طبشوري كأنهما منحوتتان مثاليتان سقطتا من كعكة زفاف ضخمة. هنا، يبدو أن كل مشروع قائم بمفرده، فالكنيسة المتخصصة في الزفاف لا تبالي بالمحلات الإباحية، وأفخم الكازينوهات لا تأبه بالأنقاض والأراضي الفارغة من حولها. لم يكن هناك كثير من الناس على الرصيف معي في هذا القسم الباهت بين النسختين الرسميتين من لاس فيغاس(90).

أكملت المشي حتى وصلت إلى فندق «إل رانشو» القديم، الذي احترق وأُغلق بالألواح. لقد طبعت الصحراء والغرب كثيرًا من الرومانسية في عقول أصحاب الكازينو السابقين: ديونز، وساندز، وصحارى، وديزرت إن، على شارع لاس فيغاس ستريب من جهة، ونادي بيونير، والغولدن ناغت، ونادي الفرونتير، وفندق أباتشي على

شارع فريمونت من جهة أخرى. ومع ذلك، ألقت الكازينوهات الحديثة الفخر بالمنطقة إلى الرياح واستحضرت أي مكان آخر، وكلما كان أقل شبهًا بصحراء موهافي كان أفضل. استبدل فندق ساندز بـفندق فينيسيان، الذي يحتوي على قنوات مائية. أدركت لاحقًا أن نزهتي كانت محاولة للعثور على استمرارية ما للتجربة هنا، استمرارية مكانية يوفرها المشي عادةً، لكن هذا المكان هزمني بتشتته بين الضوء والأخيلة. وهزمني بطريقة أخرى أيضًا. لاس فيغاس، التي بلغ عدد سكانها خمس ملايين نسمة في بداية القرن العشرين، و٨٥٠٠ نسمة في عام ١٩٤٠، ونحو نصف مليون نسمة في ثمانينيات القرن العشرين، عندما بدت الكازينوهات وكأنها تقف وحدها على امتداد القطران وشجيرات اليوكة، يبلغ عدد سكانها الآن نحو ١.٢٥ مليون نسمة، وهي أسرع المدن نموًا في البلاد. منطقة «ستريب» الفخمة محاطة بتوسع هائل من مواقف المقطورات وملاعب الغولف والمجتمعات المغلقة والأحياء السكنية العادية. إحدى السخريات الوافرة في لاس فيغاس هي أنها تمتلك واحة للمشاة في قلب ضاحية السيارات المثالية. كنت أرغب في المشي من الـ «ستريب» إلى الصحراء لربط الاثنين، واتصلت بشركة الخرائط المحلية للحصول على توصيات بشأن الطرق، حيث أن كل خرائطي أصبحت عتيقة منذ أمد. أخبروني بأن المدينة تنمو بسرعة مطردة حتى أنهم اضطروا إلى نشر خريطة جديدة كل شهر وأوصوا ببعض أقصر الطرق بين الشريط الجنوبي وحافة المدينة، ولكننا سرنا، بات وأنا، على امتدادها ورأينا أنها أماكن مخيفة لمن يمشي بمفرده - مزيج من مستودعات ومواقع صناعية صغيرة وأراضٍ متربة ومنازل مسورة

تعلوها هالة الهجران، أماكن لا يقطعها إلا سيارة أو متشرد وسخ. لذلك التزمت بالواحة المخصصة للمشاة ووجدت أنني أستطيع أن أحرك عقليًا الكازينوهات العظيمة مثل قطع الشطرنج من رقعة الصحراء المسطحة: قبل عشر سنوات اختفت الكازينوهات الخيالية، قبل عشرين عامًا كانت الكازينوهات متناثرة ولم يكن هناك أي مشاة تقريبًا، قبل خمسين عامًا لم يكن هناك سوى عدد قليل من البؤر الاستيطانية المعزولة، وقبل قرن من الزمان كانت قرية صغيرة بها حانة ويسكي فقط تعكر صفو الأرض الشاحبة الممتدة في كل ناحية.

تحت الركيزة الرثة أمام فندق وكازينو «ستار داست»، سألني زوجان فرنسيان مسنان عن الاتجاهات للوصول إلى فندق ميراج. رأيتهما يسيران ببطء بعيدًا عن أراضي الأحلام الأمريكية القديمة التي ارتبطت بالسيارات وبالمستقبل البراق، ويتجهون نحو أرض الأحلام الجديدة النوستالجية في قلب الـ «ستريب»، وتبعتهم جنوبًا أنا أيضًا. بدأ المارة المتفرقون يتحولون إلى حشود بينما كنت أسافر جنوبًا. ظهر العريس والعروس اللذان رأيتهما يخرجان من كنيسة الزفاف مرة أخرى، يسيران على طول الجادة القريبة مني، وكانت ترتدي سترة رقيقة مبطنة فوق فستان زفافها وحذاء مدببًا بكعب عالٍ. يأتي السياح إلى هنا من مختلف أنحاء العالم الثري (ومن يأتون للعمل من بعض الدول الأقل ثراءً، وخاصة أميركا الوسطى). ومن مفارقات لاس فيغاس أنها واحدة من أكثر مدن العالم زيارة، ولكن قلة من يلاحظون المدينة الحقيقية. في برشلونة أو كاتماندو على سبيل المثال، يأتي السياح لرؤية السكان المحليين في بيئتهم الطبيعية، ولكن في لاس فيغاس يظهر أهل المدينة، إلى

حد كبير، كموظفين وفنانين ترفيهيين في بيئة مصممة للسياح منفصلة عن الحياة الحقيقية. السياحة نفسها واحدة من آخر المعاقل الأساسية للمشي. لطالما كانت نشاطًا للهواة لا يتطلب مهارات أو معدات خاصة، يستهلك وقت الفراغ ويشبع الفضول البصري. لإشباع الفضول يجب أن تكون على استعداد للظهور بمظهر الساذج للانخراط، للاستكشاف، لأن تنظر وأن يُنظر إليك، ويبدو أن الناس في الوقت الحاضر أكثر استعدادًا أو قدرةً على دخول هذه الحالة في أماكن أخرى غير أوطانهم. ما غدّت في كثير من الأحيان متعة المكان الآخر ربما أنها ببساطة متعة الإحساس المختلف بالزمان والمكان وتحفيز الحواس الذي يصبح متاحًا في أي مكان يتمتع المرء بالتجول المتمهل فيه.

كان «فرونتير» أول كازينو دخلته. لمدة ست سنوات ونصف، كان بمقدور زواره مشاهدة عرض فني هناك في الهواء الطلق، ولم يكن هذا العرض إلا اعتصامًا متواصلًا على مدار الساعة للعمال، خادمات ونادلات الكوكتيل وعمال نظافة يقاتلون الملّاك الجدد الذين يحطمون النقابات، ويحتجون بأقدامهم ولافتاتهم ليلًا نهارًا، في حرارة الصيف القائظة وعواصف الشتاء. خلال تلك السنوات، وُلد ١٠١ طفل ومات ١٧ شخصًا بين المضربين عن العمل أمام كازينو «فرونتير»، ولم يتجاوز أيٌ منهم حدود الاعتصام. وأصبحت هذه المعركة النقابية هي الكبرى في العقد الماضي، ومصدر إلهام وطني لناشطي العمل. في عام ١٩٩٢ نظمت منظمة العمل الأمريكية حدثًا مماثلًا، وهو «مسيرة ديزرت للتضامن»، حيث سار ناشطو النقابات والمضربون مسافة ثلاث مئة ميل من «فرونتير» عبر الصحراء إلى المحكمة في لوس أنجلوس في

إظهار لاستعدادهم للمعاناة وتأكيد على التزامهم. علقت المخرجة السينمائية إيمي ويليامز من لاس فيغاس، أثناء عرضها لقطات من فيلمها الوثائقي عن إضراب «فرونتير»، بأن النقابة تشبه ديانة أمريكية تجمع الأسرة بالتضامن: لديها عقيدة تقول: «إصابة أحدنا هي إصابة للجميع» - وكانت «مسيرة ديزرت للتضامن» رحلة الحج إلى هذه الديانة. في لقطات إيمي، كان الناس الذين بدا أنهم ليسوا معتادين على المشي كثيرًا يتخلفون في صف على جانب طريق الـ ٦٦ القديم، ويكشفون عن أقدامهم لتضميدها في المساء، ثم يستيقظون ويفعلون الأمر نفسه مرة أخرى في اليوم التالي. شهد نجار وممثل نقابي يدعى هومر، وهو رجل ملتحٍ يشبه راكبي الدراجات النارية، على معجزة الحج: ففي وسط عاصفة مطيرة، تبعتهم بقعة شمسية، وظلوا جافين، وبدا متحمسًا مثل أحد أبناء إسرائيل الذين انشق لهم البحر الأحمر. في النهاية رضخت العائلة التي سعت إلى تفكيك النقابات والتي اشترت كازينو «فرونتير» واضطرت إلى بيعه، وفي ٣١ يناير ١٩٩٧، دعا المُلّاك الجدد النقابة إلى العودة. أولئك الذين قضوا ست سنوات حيوية في المشي على الخطوط عادوا إلى العمل يخلطون المشروبات ويرتبون الأسرّة. داخل «فرونتير»، لم يكن هناك أي أثر لتلك النضالات، كان هناك السجاد فقط بنقوشه المدوخة، وآلات القمار المجلجلة، والأضواء المتلألئة، والمرايا، والموظفون يتحركون بخفة والزوار يتجولون ببطء في الضوء الغسقي الذي يغمر كل كازينو. ثمة متاهات حديثة ضممت لتضيع فيها، بمساحاتها الشاسعة الخالية من النوافذ والمليئة بالزوايا الغريبة، ومجموعات من ماكينات القمار التي تحجب الرؤية، وغيرها من العوامل المصممة للتشتيت، مثل تلك الموجودة

في مراكز التسوق والمتاجر الكبرى، لإطالة لقاءات الزوار مع الإغراءات التي تجعلهم يفتحون محافظهم قبل أن يجدوا المخارج المخفية بعناية. يحتوي العديد من الكازينوهات على «ممرات متحركة» -مثل تلك الموجودة في المطارات- وعديد ملكن جميعها متجهة إلى الداخل فقط، أما إيجاد الطريق للخروج فمتروك لك.

يشترك التجوال والمقامرة في بعض الأمور، فكلاهما نشاط قد يكون الترقب فيه أكثر لذة من الوصول، والرغبة فيهما أكثر موثوقية من الرضا. وضع قدم أمام الأخرى أو وضع بطاقاتك على الطاولة هو بمثابة استكشاف للفرص، ولكن المقامرة أصبحت علمًا يمكن التنبؤ به بدرجة كبيرة للكازينوهات، وهم سلطات إنفاذ القانون في لاس فيغاس يحاولون أيضًا التحكم في احتمالات السير على طول «ستريب». و«ستريب» جادة حقيقية، معرضة للطقس، ومنفتحة على محيطها، ومساحة عامة يمكن فيها ممارسة تلك الحريات المجيدة التي منحها التعديل الأول، والتي تُبذل جهود جبارة لسحبها، بحيث يصبح «ستريب» أشبه بمنتزه ترفيهي أو مركز تسوق، مساحة يمكننا أن نكون فيها مستهلكين وليس مواطنين. بجوار كازينو «فرونتير» يقع مركز التسوق «فاشن شو»، حيث يجتمع موزعو النشرات الإعلانية الورقية معًا مشكلين واحدة من الثقافات الفرعية العديدة في «ستريب». قالت آمي ويليامز إن عديدًا من هؤلاء مهاجرون غير مسجلين من أمريكا الوسطى، وأن النشرات التي يوزعونها تتعلق بالجنس في معظم الأحيان (رغم أن هناك صناعة جنسية ضخمة في لاس فيغاس، يتم جذب العملاء بشكل رئيسي من خلال الإعلانات، وليس بوقوف بنات الليل

في الشوارع. فالعشرات من مجموعات أكشاك الصحف في «ستريب» تحتوي على عدد قليل جدًا من الصحف ومكتبة ضخمة من الكتيبات والبطاقات والنشرات التي تحمل صورًا ملونة تعلن عن جيش من «راقصات للحفلات الخاصة» و«خدمات المرافقات»). وبما إن النساء أنفسهن غير مرئيات إلى حد كبير، تعرضت رؤية الإعلانات للهجوم. فقد أقرت البلدية مرسومًا يجعل «ترويج إعلانات الدعارة خارج المباني» في «منطقة المنتجعات» جنحة. تحدث مدير فرع نيفادا للاتحاد الأمريكي للحريات المدنية، غاري بيك، معي عن «التناقض شبه المكشوف الذي يسوق لاس فيغاس نفسها على أنها مكان يعيش على مبدأ «كل شيء ممكن» -الجنس والكحول والمقامرة- ويحاول من جهة أخرى، حد الهوس تقريبًا، السيطرة الشاملة على المساحات العامة والإعلانات على لافتات الطرق وفي المطار والتسول وحرية التعبير». وصلت معركة الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية بشأن مرسوم المنشورات إلى محكمة الاستئناف الفيدرالية، واستمرت قضايا أخرى في الظهور. في وقت سابق من ذلك العام، تعرَض جامعو التوقيعات للمضايقة واعتقل قس وأربعة من رفاقه بتهمة التبشير في منطقة «فريمونت إكسبيريانس» بتهمة «تعطيل الرصيف»، رغم أن الممر المخصص للمشاة الآن هو رصيف ضخم يتطلب تعطيله عشرات الأشخاص.

أخبرني بيك عن محاولة الكازينوهات وسلطة المقاطعة خصخصة الأرصفة نفسها، لمنح أنفسهم مزيدًا من القوة لملاحقة أو إزالة أي شخص يشارك في أنشطة مشمولة بالتعديل الأول -من قبيل الحديث عن الدين أو الجنس أو السياسة أو

الاقتصاد- أو أي شيء يعكر متعة الزوار وتجربتهم السلسة كما هو مفترض (بالطريقة نفسها، نظرت مدينة توسون أخيرًا في خصخصة الأرصفة عبر تأجيرها بدولار واحد للشركات، للسماح للأخيرة بطرد المشردين). يخشى بيك أن ينجحوا في سلب «حرية المدينة» القديمة على مستوى الأرصفة، وسيشكل ذلك سابقة لبقية أنحاء البلاد، حيث يحولون ما كان في السابق مساحات عامة حقيقية إلى مولات، ويجعلون من المدن حدائق ترفيهية بثيمات مختلفة. يكتب مايكل سوركين: «إن المتنزه الترفيهي ذا الثيمة المحددة، يقدم نسخته السعيدة المنظمة من المتعة -كل تلك الأشكال المخادعة ببراعة- كبديل للمجال الحضري الديمقراطي، وهو يفعل ذلك بطريقة جذابة من خلال تجريد المناطق الحضرية المضطربة من أي شيء يثير المتاعب، من وجود الفقراء، والجريمة، والأوساخ، والعمل». قام «ميراج» فعلًا بوضع لافتة صغيرة على إحدى حدائقه: «هذا الرصيف ملكية خاصة لفندق وكازينو ميراج، وقد منح حق المرور عليه لتسهيل حركة المشاة. أي شخص يُضبط وهو يتسكع أو يعرقل حركة المشاة بأي شكل من الأشكال يُعتقل بتهمة التعدي على ممتلكات الغير»، وتقول اللافتات الموجودة على طول الجادة: «منطقة المنتجع: لا يُسمح بالاستخدامات التي تعطل الحركة على الأرصفة العامة». هذه اللافتات ليست موجودة لحماية حرية حركة المشاة، بل لتقييد ما يمكن لهؤلاء المشاة فعله أو رؤيته.

كنت حرانة ومرهقة بعد قرابة أربعة أميال قطعتها من شارع فريمونت، فاليوم كان حارًا والهواء كريهًا بفعل بالعوادم. المسافة مضللة في الشارع الرئيسي: تبعد التقاطعات الرئيسية حوالي ميل واحد، ولكن

الكازينوهات الجديدة مع أبراج فنادقها التي تتكون من عشرين أو ثلاثين طابقًا تبدو أقرب بسبب حجمها الهائل. «جزيرة الكنز» هو أول كازينوهات المتنزهات الترفيهية الجديدة التي تصل إليها من الشمال، وواحدة من أكثرها روعة -لم تُسمَّ على اسم مكان أو حقبة مثل البقية، بل على اسم كتاب للأولاد عن حياة القراصنة في البحار الجنوبية. بواجهة من الصخور الاصطناعية وجدران المباني الخلابة خلف بحيراتها المليئة بأشجار النخيل وسفن القراصنة، تشبه نسخة فندقية-منتجعية لرحلة قراصنة الكاريبي في ديزني لاند. لكن «ميراج» الفندق المجاور هو الذي ابتكر العرض الموجه للمشاة في الشارع عام ١٩٨٩، ببركانه الذي ينفجر كل خمس عشرة دقيقة بعد حلول الظلام، لإسعاد الحشود المتجمعة. عندما افتتح منتجع «جزيرة الكنز» عام ١٩٩٣، تفوق على بركان «ميراج» بمعركة قراصنة كاملة تبلغ ذروتها بغرق السفينة - ولكن المعركة لا تحدث إلا بضع مرات في اليوم.

اشتكى مؤلفو «التعلم من لاس فيغاس» منذ فترة طويلة من أن «لجنة التجميل ستستمر في التوصية بتحويل «لاس فيغاس ستريب» إلى شانزليزيه غربي، وإخفاء اللافتات بالأشجار وزيادة الرطوبة بالنوافير العملاقة». وصلت النوافير، وأصبحت المساحات المائية الشاسعة أمام «ميراج» و«جزيرة الكنز» تبدو ضئيلة مقارنة بالبحيرة التي تبلغ مساحتها ثمانية أفدنة في كازينو وفندق «بيلاجيو»، حيث كان موقع «ديونز» في الماضي، عبر طريق «فلامنجو» من جهة أوتيل «سيزارز بالاس». تشكّل هذه الكازينوهات الأربعة معًا شيئًا جديدًا تمامًا وقديم الطراز في آن وبشكل مفاجئ، وهو هجين بري من الحديقة الرسمية وحديقة

المتعة الممتدة على طول شارع عام. دفن بركان فندق ميراج فيغاس القديمة بشكل حاسم كما فعل جبل فيزوف بمدينة بومبي، مغيرًا العمارة والجمهور معًا. النوافير موجودة في كل مكان، وهي نوع من الشانزليزيه الغربي، حيث أصبح المشي لمشاهدة العمارة والمارة الآخرين هواية الآن. تستبدل جادة «لاس فيغاس ستريب» الرؤية الأمريكانية المستقبلية النيونية المحفزة بأوروبا، وهي نسخة مرحة من ثقافة البوب في أوروبا، أوروبا ذات النجاحات المعمارية العظيمة والمتسكعين في الشوارع الكبيرة المشجرة بالسراويل القصيرة والقمصان القطنية. هل هناك شيء أكثر غرابة من وضع معابد وجسور إيطالية ورومانية مصغرة في الحدائق الإنجليزية إلا نظيراتها التي تبنى في الصحراء، أو في بناء البراكين الداخلية في حدائق القرن الثامن عشر كتلك التي في حديقة «فورليتز» في ألمانيا أكثر من تلك التي تُشيّد في شوارع نيفادا؟ «سيزار بالاس»، بأشجار السرو الخضراء الداكنة والنوافير والتماثيل الكلاسيكية أمامه، يستحضر عديدًا من عناصر الحديقة الرسمية، التي كانت في حد ذاتها امتدادًا إيطاليًا للممارسات الرومانية التي تبناها الفرنسيون والهولنديون والإنجليز. أما «بيلاجيو»، بواجهته المليئة بالنوافير فتذكّرنا بقصر فرساي، الذي كان حجمه بمثابة عرض للثروة والقوة والانتصار على الطبيعة. هذه الأماكن عبارة عن نسخ طبق الأصل من المناظر الطبيعية التي تطور فيها المشي كمتعة مرتبطة بجاذبية المناظر الطبيعية. أصبحت لاس فيجاس خليفة فوكسهول ورانلاج وتيفولي وكل حدائق المتعة الأخرى في الماضي، مكان حيث تمتزج متع المشي والنظر الاعتباطية مع العروض المنظمة (مسارح

للموسيقى ومسرح وعروض البانتومايم جزء مهم من حدائق المتعة، وكذلك المناطق المخصصة للرقص والأكل والشرب والجلوس). كما قد يقول أحد منظمي مهرجان فيغاس، فإن الحديقة تعود إلى الواجهة من جديد، مختلطة بجادة «ستريب»، ومعهما تعود حياة المارة.

كل الجهود المبذولة للسيطرة على من يتمشى وكيف يتجول تشير إلى أن المشي فعل قد يكون تخريبيًا بشكلٍ ما. يقوض، على الأقل، المثل المتعلقة بالفضاء المخصخص بالكامل والتحكم في الحشد، ويوفر ترفيهًا ليس فيه إنفاق ولا استهلاك. رغم أن المشي قد يكون من الآثار الجانبية غير المقصودة للمقامرة -ففي نهاية المطاف لم تُبنَ واجهات الكازينوهات من أجل الخير العام- أصبحت جادة «ستريب» الآن ممشى. بعد كل شيء، فإن شارع الشانزليزيه في باريس الآن ملك للسائحين والأجانب، حيث يتجولون ويتسوقون ويأكلون ويشربون ويستمتعون بالمناظر. الجسور الجديدة المخصصة للمشاة تزيل التقاطع بين الناس والسيارات، حيث يقطع طريق فلامنجو الرئيسي جادة «ستريب»، وهي جسور جميلة توفر بعضًا من أفضل المناظر حولها. هذه الجسور يتم الدخول فيها والخروج منها من داخل الكازينوهات، لذا فقد يأتي وقت لا يستطيع فيه سوى المتأنقين عبور الشارع بأمان هنا، وسيتعين على عامة الناس المخاطرة بمواجهة السيارات أو اتخاذ طريق منعطف طويل. جادة «ستريب» ليست بشانزيليزيه الذي ولد من جديد لأسباب أخرى أيضًا، فهو يفتقر إلى الاستقامة المثالية التي منحها شارع «لو نوتر» للطريق القديم، تلك الاستقامة التي تتيح لك الرؤية إلى مسافة بعيدة. إنها جادة تنحني وتتضخم، ورغم

وجود الشوارع المتقاطعة دومًا-والجسر فوق طريق فلامنجو بين «بيلاجيو» و«سيزارز» يوفر أفضل إطلالة حتى الآن على الصحراء إلى الغرب والصخور الحمراء. من الجسر الآخر، الذي يمتد فوق «ستريب» من «بيلاجيو» إلى «باليز»-، أستطيع أن أرى باريس! نسيت أن كازينو باريس كان قيد الإنشاء، ولكنه يرتفع هناك من صحراء موهافي مثل سراب حضري، مثل ظهور لشبح متسكع، ببرج إيفل نصف مكتمل وبنصف حجمه الأصلي، لكنه يمتد بقوة على ما يبدو وكأنه متحف لوفر صغير مع قوس النصر الذي يزاحمه، هنا خليط مضاد للجغرافيا من أعظم الإنجازات المعمارية.

لا شك أن لاس فيغاس لا تعيد اختراع الحديقة فحسب، بل والمدينة أيضًا: فنموذج مدينة نيويورك يقع على بعد مسافة قصيرة من بيلاجيو، وقصر إمبريال المستوحى من طوكيو في الشارع المقابل، كما توجد نسخة أقدم من سان فرانسيسكو - الساحل البربري، مقابل «سيزارز». يشكّل «نيويورك، نيويورك» الذي بُني في عام ١٩٩٦، مثل كازينو باريس، مجموعة من المعالم الشهيرة، في داخله متاهة غريبة صغيرة من الشوارع ضممت لتبدو مثل أحياء مختلفة من أحياء مانهاتن، مع لافتات الشوارع والمتاجر المطابقة للأصل (تبين لي حين حاولت بغباء أن أدخل مكتبة أن لا شيء حقيقي في هذه المعالم، ما عدا متاجر التذكارات ومحلات الطعام فقط)، ومكيفات هواء تبرز من نوافذ الطابق الثالث، وركن مخصص للجرافيتي - لكن كل هذا من دون التنوع طبعًا، من دون حياة منتجة ولا مخاطر الحياة الحضرية الحقيقية واحتمالاتها. بتمثال الحرية يقف على مدخله مرحبًا بالمقامرين بدلًا من الحشود المتزاحمة التي تتوق إلى أن تكون حرة،

كازينو «نيويورك، نيويورك» هو جولة للمشي في المدينة كتذكار. بدلًا من تذكار صغير يمكن حمله في الجيب، أصبح التذكار وجهة في حد ذاتها، وجهة تؤدي دورها: تستدعي جوانب ممتعة ومألوفة ومطمئنة لمكان شديد التعقيد. تناولت غداءً متأخرًا في «نيويورك، نيويورك»، وشربت ثلاثة أكواب من الماء لتعويض ما تبخر مني في جفاف الصحراء أثناء نزهتي طوال اليوم.

بالعودة إلى الشارع، طلبت مني شابة من هونج كونج أن ألتقط لها صورة مع تمثال الحرية خلفها ثم مع الأسد الذهبي الضخم من إنتاج شركة إم جي إم عبر الشارع، وبدت منتشية في اللقطتين. كان البدناء والنحيفون، ومن يرتدون السراويل القصيرة الفضفاضة والفساتين الأنيقة، وعدد من الأطفال وكثير من كبار السن يتدفقون حولنا. أعدت الكاميرا إليها، وواصلت الاتجاه جنوبًا مع زحمة الناس، إلى المحطة الأخيرة في هذه الغرائب، محطة الأقصر التي يشير شكلها الهرمي وأبو الهول إلى مصر القديمة، بينما زجاجها اللامع الذي تُعرض عليه أشعة الليزر في الليل يدل على التكنولوجيا. وقف العروسان اللذان رأيتهما من قبل في مدخل المكان: وضعت معطفها وحقيبتها جانبًا لتقف أمام كاميرته ويلتقط لها صورة أمام أحد التماثيل المصرية المزيفة. كنت أفكر بحيرة فيهما، في سبب اختيارهما قضاء الساعات الأولى لشهر العسل بالتجول في «ستريب»، وعن الماضي الذي جلباه معهما إلى هذا اللقاء مع الخيال العالمي المفلتر عبر مناخ صحراء نيفادا واقتصاد القمار. من أنا لأقول أن هؤلاء المارين من يميني ويساري، لأنهم سائحي لاس فيغاس، ليس لديهم حياة أخرى: من أنا لأفترض أن هذان الزوجان الإنجليزيان لن يقضيا

إجازتهما التالية في منطقة «ليك ديستريكت»، وأن الزوجين الفرنسيين العجوزين لا يعيشان في باريس أو بالقرب من قرية بلوم حيث الراهب البوذي الفيتنامي ثيت نهات هانه يعلّم التأمل بالمشي، وأن هؤلاء الأفروأمريكيين لم يمشوا ربما في «مسيرة سيلما» أطفالًا، وأن المتسول على كرسي متحرك لم يتعرض لحادث سيارة في نيو أورليانز، وأن العروسين ليسا متسلقين يابانيين لجبل فوجي، أو أحفادًا صينيين للنساء الرهبان الجبليات، أو مديرين من جنوب كاليفورنيا لديهم جهاز للمشي في المنزل، وأن هذه الجواتيمالية التي توزع قسائم لرحلات الهليكوبتر قد لا تمشي درب الصليب في كنيستها أو ربما تجولت في ساحة بلدتها الأم، وربما لم يشارك النادل الذي يذهب إلى العمل في مسيرة «الاتحاد الأمريكي للعمل». تاريخ المشي واسع وسع تاريخ البشرية، والشيء الأكثر جاذبية في هذه الواحة المخصصة للمشاة، وسط ضوضاء الضواحي في قلب مساحة صحراوية شاسعة، أنها تلمح إلى اتساع هذا التاريخ، ليس عبر تلك النسخ المقلدة من روما وطوكيو، وإنما في سياحها الإيطاليين واليابانيين.

تقترح لاس فيغاس أن عطش الناس إلى الأمكنة، إلى المدن والحدائق والبرية، لم يرتو، وأن الناس سوف يواصلون البحث عن تجربة التجول في الهواء الطلق لتفحص العمارة ومشاهدة العروض والتفرج على الأشياء المعروضة للبيع، وسوف يظلون يتوقون إلى المفاجآت والغرباء. وكون المدينة ككل واحدة من أكثر الأماكن معاداة للمشاة في العالم فإن هذا يشير إلى تحديات يتعين علينا مواجهتها، ولكن جاذبيتها باعتبارها واحة للمشاة تشي بأن استعادة مساحات للمشي فيها أمر ممكن. إن احتمالية خصخصة الفضاء لجعل حريات

المشي والكلام والتظاهر غير قانونية تشير إلى أن الولايات المتحدة تواجه معركة خطيرة حول الحق في الطريق كما حدث مع الجوالين الإنجليز قبل نصف قرن من الزمان، وإن كان الصراع هذه المرة حول الفضاء الحضري وليس الريفي. من المخيف بالقدر نفسه ذلك الاستعداد الكبير لقبول محاكاة الأماكن الحقيقية، فكما تحظر هذه المحاكاة ممارسة الحريات المدنية بشكل كامل، فإنها تحجب طيفًا كاملًا من المشاهد واللقاءات والخبرات التي قد تستفز الشاعر أو الناقد الثقافي أو المصلح الاجتماعي أو مصور الشوارع.

غير أن العالم يتحسن في الوقت نفسه الذي يسوء فيه. فيغاس ليست استثناءً بل تكثيفًا للثقافة السائدة، وسوف ينجو المشي خارج تلك الثقافة، ويعود إليها أحيانًا. عندما كانت المناطق المرتبطة بانتشار السيارات والضواحي قيد التطوير في العقود التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، كان مارتن لوثر كينج يدرس غاندي ويعيد اختراع الحج المسيحي باعتباره شيئًا له قوة سياسية على أحد أطراف هذه القارة، بينما كان غاري سنايدر على الطرف الآخر يدرس حكماء الطاويين وطرق التأمل بالمشي ويعيد التفكير في العلاقة بين الروحانية وحماية البيئة environmentalism. في الوقت الحاضر، يتم الدفاع عن المساحات المخصصة للمشاة وأحيانًا توسيعها من قبل مجموعات ناشطة للمشاة تنشأ في مدن مختلفة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، مثل «Feet First» في سياتل و«PEDS» في أتلانتا و«Philly Walks» و«Walk Austin»، ومنظمة «Reclaim the Streets» البريطانية الثورية، وبواسطة المنظمات القديمة مثل جمعية «Ramblers» والثورات البريطانية

الأخرى من أجل المشي والوصول، وعبر إعادة تصميم المدن لصالح المشاة من أمستردام إلى كامبريدج في ماساتشوستس. يتم الحفاظ على تقاليد المشي من خلال إحياء الحج مشيًا إلى سانتياغو دي كومبوستيلا في إسبانيا والحج المزدهر في تشيمايو بولاية نيومكسيكو، والشعبية المتزايدة لتسلق الجبال، والفنانين الذين يعملون بالمشي كوسيلة والكتاب الذين يلجؤون إليه، وانتشار البوذية بممارساتها المتمثلة في المشي والتأمل والطواف حول الجبال، والحماس العلماني والديني الجديد للمتاهات.

«هذا المكان متاهة»، هكذا تذمر بات عندما وجدني في ميدان «سيزرز»، وهو رواق ملحق بالكازينو. الميدان هو حجر الزاوية للقنطرة، الجوهرة المتوجة لإعادة ابتكار الماضي في لاس فيغاس. إنها بائكة بالمعنى الذي وصف به فالتر بنيامين البائكات الباريسية تمامًا - فقد استشهد بدليل إرشادي يعود إلى عام ١٨٥٢ جاء فيه: «يصطف على جانبي هذه الممرات، والتي تُضاء من أعلى، أكثر المحلات التجارية أناقة، بحيث تكون هذه البائكة مدينة، بل عالمًا، في صورة مصغرة»، وأضاف: «كانت الأروقة عبارة عن تقاطع بين شارع ما وداخلٍ ما». هذا المكان، رواق سيزر، بسقفه المقوس المطلي ليبدو مثل السماء والإضاءة الغائرة التي تتغير من النهار إلى الشفق ثم تعود كل عشرين دقيقة أو نحو ذلك، أكثر مما كان بنيامين ليتخيل. شوارعه المنعطفة مربكة ومكتظة بالمشتتات: المتاجر المليئة بالملابس، والعطور، والألعاب، والتحف، ونافورة ظهرها عبارة عن حوض أسماك استوائي ضخم، ونافورة الالهة والإلهات الفاتنات التي «تعود إلى الحياة» من فترة إلى أخرى أثناء

عاصفة رعدية مصطنعة من ضوء الليزر ينساب عبر القبة التي تشبه السماء. زرت بانكات باريس قبل ستة أشهر فقط، وكانت أماكن جميلة ميتة، مثل قنوات الأنهار التي لم تغد المياه تجري عبرها، حيث أغلقت نصف متاجرها وقلما يتجول المتنزهون على طول ممراتها المزينة بالفسيفساء، ولكن ميدان «سيزارز» مزدحم باستمرار (كما هو الحال مع بانكات «بيلاجيو» المصممة على غرار «جاليريا» ميلانو الشهيرة). إنه أحد أكثر مراكز التسوق نجاحًا ماليًا في العالم، كما تقول صحيفة وول ستريت، مضيفة أن من المخطط زيادة ملحق جديد يعيد ابتكار بلدة رومانية على تلة مع ظهور عربات تجرها الخيول من حين إلى آخر. لم تكن البانكة أكثر من مجرد مركز تسوق، ورغم أن من المفترض أن يكون المتسكع أكثر تأملًا من متوسط مرتادي المركز التجاري، لكن الرجال الذين لا علاقة لهم بالتسوق منتشرون مثلما هم المتسوقين المخلصين بعمق للتجربة. قلت لبات: «دعنا نخرج من هنا»، أنهينا مشروباتنا واتجهنا إلى «ريد روكس».

«ريد روكس» مفتوحة للجمهور مثل منطقة «لاس فيغاس ستريب»، ولكن لا أحد يروج لها، تمامًا كما لا يروج أحد (ما لم يكن يبيع معدات) للنشاط الحر المتمثل في المشي على حساب صناعة السيارات المربحة. بينما يتجول عشرات الالاف من الناس في شارع لاس فيغاس، نحو مئات فقط يتجولون في المنطقة الأوسع لـ ريد روكس، التي تتميز قممها المستدقة وأبراجها الجبلية بارتفاعات أكبر وأكثر روعة من أي كازينو. يمر كثيرون بالسيارة أو يخرجون لفترة تكفي فقط لالتقاط صورة فوتوغرافية، معرضين عن الاستسلام للوتيرة البطيئة هنا، وشفق يأتي مرة واحدة فقط في اليوم،

وحياة برية تفعل ما يحلو لها، ومكان بلا أثر بشري يمكن التأمل فيه، فقط بضعة مسارات، ومسامير تسلق مثبتة على الصخور، قمامة، ولافتات (وتقاليد راسخة من تأليه الطبيعة). لا شيء يحدث هنا معظم الوقت، ما عدا الفصول، والطقس، والضوء، وتشغيل المرء لجسده وذهنه.

يحدث التأمل في نوع من المروج الخيالية، أرض لم تحرث، لم تُطور، ولم تستخدم في أي غرض عملي بشكل مباشر. يزعم دعاة حماية البيئة دومًا أن تلك الفراشات، وتلك المراعي، وتلك الغابات حول مستجمعات المياه، تؤدي وظيفة في غاية الأهمية في المخطط العام للأشياء، حتى ولو لم تنتج محاصيل للسوق. والشيء نفسه ينطبق على مروج الخيال، فالوقت الذي نقضيه هناك ليس وقت عمل، ولكن بدون هذا الوقت يصبح العقل عقيمًا ومملًا ومدجنًا. النضال من أجل المساحة الحرة -الحياة البرية والمساحة العامة- لا بد وأن يصاحبه نضال من أجل امتلاك وقت حر يمكن أن نقضيه في التجول في تلك المساحة. وإلا فإن الخيال الفردي سوف يُسحق لصالح منافذ البيع بالتجزئة التي تروج لشهية المستهلك، وإثارة الجرائم الحقيقية، وأزمات المشاهير. لم تقرر لاس فيغاس بعد إن كانت سوف تسفلت هذه المساحة أم تشجعها.

تلك الليلة، نمنا في العراء بالقرب من «ريد روكس»، في مخيم غير رسمي حيث كانت ظلال أجساد تظهر في خيالات النيران الصغيرة المشتعلة هنا وهناك تحت السماء المرصعة بالنجوم وتوهج لاس فيغاس المرئي من فوق التل. في الصباح، نلتقي بول، وهو مرشد شاب كان يقود سيارته دائمًا قادمًا من ولاية يوتا لتسلق الجبال، ودعا بات إلى

مرافقته في تسلق الجبال. قادنا بول على طول درب متعرج صعودًا وهبوطًا عبر أودية صغيرة ومجرى نهر جاف، مرورًا بأوراق الشجر الرائعة التي تذكرتها من رحلات سابقة، أشجار العرعر مع الهدال الصحراوي، والبلوط ذي الأوراق الصغيرة، واليوكة، وعنب الدب، والصبار البرميلي العرضي، وكلها متقزمة ومنتشرة ومتفرقة بفعل التربة الصخرية والجفاف والصخور المتناثرة بطريقة تذكّر بالحدائق اليابانية. كان بات لا يزال يعرج إثر سقوطه قبل ستة أشهر، ما جعله يمشي خلفنا، بينما كنا بول وأنا نتحدث عن الموسيقى أثناء سيرنا، والتسلق، والتركيز، والدراجات الهوائية، وعلم التشريح، والقردة. وعندما كنت أعود لألقي نظرة على لاس فيغاس كما كنت أنظر كثيرًا نحو «ريد روكس» أمس، كان يقول لي: «لا تنظري خلفك»، لكنني كنت أحدق إليها مدهوشة لكثافة الضباب الدخاني في المدينة. ظهرت فيغاس كأنها قبة بنيّة لا يظهر سوى القليل من الأبراج الغامضة داخلها، وبدت هذه الحالة من رؤية الصحراء بوضوح من المدينة بينما العكس ليس ممكنًا كما لو أنها مجاز دقيق لم أدركه من قبل. كما لو أن المرء يستطيع أن ينظر من المستقبل إلى الماضي ولكن ليس من هذا المكان السحيق في القدم إلى الأمام، إلى المستقبل الذي يكتنفه القلق والغموض والأدخنة.

سيقودنا بول بعيدًا عن الطريق متجهًا نحو الأجمة التي تؤدي إلى وادي جونيبر (وادي العرعر) الضيق شديد الانحدار، وكنت أتمكن من رفع نفسي على الحواف المختلفة حيث ازدادت روعة الصخور أكثر فأكثر، أحيانًا كانت مخططة باللونين الأحمر والبيج في طبقات رقيقة، وأحيانًا مرقطة ببقع وردية بحجم العملات المعدنية، إلى أن وصلنا أسفل مسار

التسلق. «مسار زيت الزيتون: هذا المسار يصعد عبر منظومة من الشقوق الواضحة بين الصخور لمسافة ٧٠٠ قدم على الجانب الجنوبي لبرج روز»، أقرأ في دليل بات المتهالك «دليل نادي الألب الأميركي للمتسلق». استرخيت وراقبتهم يتسلقون بسهولة أول عدة مئات من الأقدام، وتفحصت الفئران التي لم تكن مبهرة مثل النمور البيضاء والدلافين في «كازينو ميراج»، لكنها أكثر حيوية. سأعود أدراجي لاحقًا وأقضي عصر ذلك اليوم في التجول في منطقة مسطحة أكثر، أتمشى على مهل بطول بضعة مسارات بجانب مياه متدفقة صافية من نبع «باين كريك»، وأستكشف واديًا آخر، ثم أتوجه لأراقب الظلال تنمو فوق التلال، وأشاهد الضوء يتكثف ويتذهَب لونه أكثر، كما لو أن الهواء يمكن أن يتحول إلى عسل، عسل يذوب في الليل العائد.

لطالما كان المشي كوكبة في سماء ثقافة الإنسان، كوكبة من ثلاث نجوم: الجسد، والخيال، والعالم المفتوح، ورغم أن كل نجمة منها مستقلة، فإن الخطوط المرسومة بينها لها تاريخ، تاريخ مشاه أولئك الشعراء والفلاسفة والثوار وعابرو الطريق وبنات الليل والحجاج والسياح والمتنزهون ومتسلقو الجبال، أما إن كان له مستقبل، فهو أمر يعتمد على ما إن كانت تلك الممرات المتقاطعة ما تزال أهلًا للسفر.

نشرت الكاتبة الأمريكية ربيكا سولنيت (١٩٦١) أكثر من عشرين كتابًا، كان أولها «معرض سرّي» (١٩٩١)، الذي تناولت فيه الفن في حقبة الحرب الباردة، أما أحدث منشوراتها «ورود أورويل» (٢٠٢١) فيبدأ من تأمل في اهتمام جورج أورويل بأعمال البستنة ويفكر في كتاباته السياسية التي كانت مبنية على شغفه بالعالم الطبيعي.

من أعمالها أيضًا: «دليل ميداني للضياع»، و«جنة مبنية في الجحيم»، و«نهر الظلال»، و«كما قالت حواء للأفعى»، و«رجال يفسرون لي الأشياء». تنشر سولنيت بانتظام في صحيفة «ذا غارديان» و«ليت هاب»، وتطرح مقالاتها سجالات مختلفة حول التاريخ الثقافي والأدب والنسوية وأزمة المناخ والأمل والكارثة والتغيرات الحضرية والعمرانية في المدن الأمريكية، صدر كتابها هذا Wanderlust: a History of Walking أول مرة عام ٢٠٠١ عن دار بنغوين.

(1)تصور جدران الرواق معركة ماراثون التي تروي انتصار اليونانيين على الفرس، وحرب طروادة وحصارها. في حين أن هذه اللوحات ذات أهمية ثقافية وفنية، إلا أن تركيز الفلاسفة الرواقيون كان على الفضيلة الداخلية والسلام والانفصال عن الخارج. وربما أن هذا ما تعنيه الكاتبة من أن الممر «لا رواقي»، من حيث تناقض مواضيع لوحاته مع مضمون الفلسفة الرواقية نفسها. (المترجمة)

(2)هذه ترجمة لويس غانم الذي نقل الكتاب إلى العربية وصدر أول مرة عام ١٩٨٢ ثم عن المنظمة العربية للترجمة عام ٢٠١٥.

(3)ارتباط اثنين وعيشهما معا بعد أن يتفقا على اعتبار نفسيهما زوجين من دون تسجيل الزواج قانونيا.

(4)يقصد كيركيغارد نفسه الذي ألف كتابه الأول «لا بد من

الشك في كل شيء» تحت الاسم المستعار يوهانس كليماكوس، ولم ينشر إلا بعد وفاته.

(5)حين كان ميشيل بيدرسون كيركيغارد والد سورين كيركيغارد صغيرًا كان فقيرًا وجائعًا وفي لحظة سخط قام بلعن الرب، وظل يعتقد إلى أن مات أن لعنة حلت به وبعائلته بسبب تلك اللحظة من السخط. تركت طريقة التفكير هذه أثرًا واضحًا على سورين الابن، وسنرى مثالًا على ذلك اعتقاده أنه سيقابل بعقوبة إلهية بالحرمان من تدفق الكتابة لأنه لم يقف ويتحدث في إحدى تمشياته إلى أحد الفقراء. أو فسخ خطوبته الذي فسره بوجود «شيء شبحي في شخصيتي». (المترجمة)

(6)تقول المدرسة الفلسفية الأيلية بأن الكون ممتلئ؛ ولا يوجد شيء مثل الفضاء الفارغ، سواء داخل العالم أو خارجه. ومن هنا لا يمكن أن يكون هناك شيء مثل الحركة. ما هو موجود هو عبارة عن ملء جسدي كروي محدود لا يتحرك، ولا يوجد شيء أبعد منه. أما مظاهر التعدد والحركة والفضاء الفارغ والزمان فهي أوهام. (المترجمة)

(7)تستكشف نظرية ما بعد الحداثة مفاهيم الحركة والوجود الجسدي، لأنها تتحدى المفاهيم الثابتة للهوية والواقع من خلال التأكيد على الطبيعة الديناميكية والمتغيرة للتجربة الإنسانية. بالنسبة لما بعد الحداثيين فالمشي استعارة لسيولة التجربة والطريقة التي تتنقل بها أجسادنا وتفسر العالم. (المترجمة)

(8)يعود تعبير «روبيكون» إلى الحدث التاريخي عندما عبر يوليوس قيصر نهر روبيكون عام ٤٩ قبل الميلاد، وهو الفعل الذي أدى إلى حرب أهلية في روما ومثل نقطة اللاعودة في حياته السياسية. في هذا السياق، يُستخدم للإشارة إلى أن مشي الإنسان منتصبًا كان نقطة اللاعودة الحاسمة والانفصال نهائيًا عن الرئيسيات الأخرى. (المترجمة)

(9)شخصيتا النجار النحيف وحيوان الفظ السمين «Walrus and the Carpenter» من قصيدة لويس كارول في الجزء الثاني من أليس في بلاد العجائب أو Through the Looking-Glass.

(10) peek-a-boo hypothesis اسم مشتق من لعبة يمارسها الناس في كل مكان، يخفي فيها أحدهم وجهه بيديه أمام طفل رضيع ثم يرفع يديه فجأة. تقول هذه الفرضية بأن المشي على قدمين قد تطور لأن حشائش السافانا الطويلة والضخمة كانت تحجب الرؤية، لذلك فقد أتاح المشي على قدمين للبشر مسح محيطهم للتحقق من وجود الحيوانات

المفترسة أو للبحث عن فرائس. (المترجمة)

(11)نوع من حشرات الزيز أو السيكادا منتشر في القارة الأمريكية. بعد فترة وجيزة من خروج الحشرة من بيضتها، تقضي أول ١٧ عامًا من حياتها واعية ونشطة تحفر الأنفاق وتتغذى على النسغ من جذور الأشجار. عندما تخرج إلى السطح، تعيش من أربعة إلى ستة أسابيع فقط، بما يكفي للتزاوج، وبدء الدورة من جديد. (المترجمة)

(12)عقود من الفلفل الأحمر والبصل والثوم منتشرة في نيومكسيكو.

(13)يُعرف الفن البيزنطي بأيقوناته واستخدامه للون الذهبي وتركيزه على الشخصيات الدينية. بينما يتميز الرسم البنسلفاني الهولندي بعناصره الفنية الشعبية، بما في ذلك الألوان الحيوية وزخارف من قلوب وزنابق. في كنيسة سانتواريو يصلب المسيح على خشب أخضر وتحفه صور العذراء والقديسين، ويحاط بأطر وقلوب ذهبية، وتلفه الألوان المبهرجة من البرتقالي والأحمر والأخضر والزخارف فتكوّن جداريّة تحيط به من كل جانب، وأسفل منه جدارية أصفر من الزهور والزنابق. (المترجمة)

(14)حالة يتساوى فيها جميع أعضاء مجموعة ما ويتشاركون في تجربة واحدة عادةً ما تكون طقسية مثل الحج، تطورت الحالة إلى مفهوم في علم الاجتماع لا سيما في دراسات البنية الاجتماعية والبنية المضادة.

(15)كوخ العرق ويسمى أيضًا حفل التطهير، وهو أحد طقوس هنود أميركا الجنوبية ويبنى باتجاهات محددة بحسب حركة الشمس وتمارس فيه طقوس التطهير والصلاة. فيه حفرة تشعل فيها النار وتوضع فيها الحجارة ليصبح ساخنًا، شبيه بحجرة الساونا.

(16)نوع من الصخور الرملية.

(17)هو أطول طريق مخصص للمشي في العالم طوله ٣٥٠٠ كيلومتر بشكل أساسي ولكنها مسافة تتغير مع الوقت كلما أجريت تعديلات في اتجاهات الطريق، يمتد من جبل سبرينغر في جورجيا وجبل كاتاهدين في ولاية مين. يمشي في هذا الدرب أو شطرًا منها قرابة مليوني إنسان سنويًا.

(18)كائنات صغيرة غريبة تسكن أرض المونشكينز في الرواية الشهيرة التي كتبها إل. فرانك بوم. يمثل رقصهم بداية

مغامرة دوروثي ويقترح منطقة ممكنة يجتمع فيها المألوف والسحري. (المترجمة)

(19)سيارات low rider سيارات أمريكية كلاسيكية يمكن رفعها وخفضها عن الأرض عبر ماصات صدمات هيدروليكية معدلة خصوصًا لهذا الغرض. (المترجمة)

(20)تشير الكاتبة إلى الجزء الثاني من مغامرات أليس في بلاد العجائب.

(21)خطوط الأغاني، والمعروفة أيضًا باسم «مسارات الأحلام»، هي دروب على الأرض مرتبطة بقصص وتقاليد السكان الأصليين في أستراليا. تعمل كخرائط ثقافية توجه الناس عبر الطبيعة جسديًا وروحانيًا. يمكن للسكان الأصليين، من خلال اتباع خطوط الأغاني، عبور مسافات كبيرة والعثور على أماكن محددة. كل أغنية تحمل رموزًا تدل على طريق مشاه السلف. كما أن المناظر الطبيعية ليست مجرد خلفية، فالصخور والأنهار والتلال في سرد الأغنية، تُستخدم مثل علامات تساعد الذاكرة على استدعاء التفاصيل. (المترجمة)

(22)صمويل بيبس (١٦٣٣-١٧٠٣) كاتب مذكرات، اشتهر بمذكراته التفصيلية والحيوية، والتي تقدم رواية شخصية دقيقة عن الحياة في لندن في القرن السابع عشر. تعد مذكراته من أكثر المصادر التاريخية قيمة لفهم الحياة اليومية في لندن خلال تلك الحقبة. (المترجمة)

(23)معبد الشخصيات البريطانية البارزة، ومعبد الفضيلة القديمة، ومعبد الفضيلة الحديثة.

(24)تعرف منطقة Lake District بأرض البحيرات lakeland وسيشار إليها خلال الكتاب بهذا الاسم، وهي منطقة جبلية تقع في شمال غربي إنكلترا ضمن مقاطعة كمبريا. أما ليك ديستركت فنقل اسمها للعربية كما هو، وهي منطقة مرتفعة في وسط وشمال إنجلترا.

(25)يقصد غيبلين بـ الأشياء هنا، الافتقار إلى بعض المناطق الطبيعية أو تلك الإضافات التي تلاحظ في الحدائق الإيطالية، مثل المعابد والتماثيل والاثار والنوافير، وكذلك النقص في الحدائق الرسمية التي كانت شائعة في إنجلترا. (المترجمة)

(26)كان لعمل نايت تأثير كبير على مناقشات المناظر الطبيعية والجماليات، ومع ذلك لا يزال يعد مفتقرًا إلى الجدارة الأدبية أو الفنية، ويوصف بأنه مفرط في تعليميته. (المترجمة)

(27)قرية وجبل وبحيرة رايدال، حيث عاش وردزوورث من عام ١٨١٣ حتى وفاته عام ١٨٥٠. حضرت في قصائده الشهيرة بما في ذلك «المقدمة».

(28)في كتابه «ذكريات أدبية» Literary Reminiscences يخصص توماس دي كوينسي الفصل العاشر عن وليام وردزوورث، ويذكر هذه الواقعة حول ساقيه، إذ يبدو أن منظرهما لم يكن مقبولاً لسبب ما، ويقول «من المؤسف حقًا، كما اتفقت مع سيدة في التفكير، أنه لم يكن يملك زوجًا آخر لحفلات المساء»، والحقيقة أن وصف كوينسي لقامة وشكل ورزدوورث ينسحب على ما هو أكثر من الساقين، ويصل إلى درجة من السخرية المؤلمة أحيانًا. (المترجمة).

(29)العمل للواعظ الإنجليزي جون بانيان في القرن السابع عشر، وتأتي فصوله على شكل سلسلة من الأحلام يراها شاب يدعى كريستيان يخرج في رحلة من مسقط رأسه، «مدينة الدمار» مدينة هذا العالم، إلى «المدينة السماوية» مدينة ما سيأتي. (المترجمة)

(30)هذه المسرحية سيرة ذاتية متخفية للشاعر، كتبها بعد أن تلطخت الثورة الفرنسية بالدماء، لذلك نجد فيها وردزوورث اليائس بعد أن وصف الثورة بـ«النعيم» أما أن يكون المرء شابًا خلال الثورة «فهذه هي الجنة» كما قال في «المقدمة». كتب الشاعر مسرحيته السياسية الوحيدة عام ١٧٩٧ في خمسة فصول تدور أحداثها حول عائلة تقيم على الحدود بين إسكتلندا وإنجلترا، وقد رفضت المسارح تأديتها آنذاك ولم تنشر إلا بعد خمسين عامًا من كتابتها عام ١٨٤٢. (المترجمة)

(31)دعم المفكر الأيرلندي إدموند بيرك الثورة الأميركية وعارض الفرنسية منتقدًا نهجها المتطرف، وجادل لصالح التغيير التدريجي والحفاظ على المؤسسات. انتقده الثوري الأمريكي توماس بايت مدافعًا عن الثورة الفرنسية، كما انخرطت المفكرة الإنجليزية ماري وولستونكرافت ومن أوائل الداعيات لحقوق المرأة في التعليم في مناقشات مع بيرك حول آرائه المحافظة. أما الأناركي ويليام جودوين فكتب «العدالة السياسية» الذي دافع عن الحرية الفردية والعدالة الاجتماعية. كان هؤلاء شخصيات محورية في المناقشات الفكرية والسياسية المحيطة بالثورة الفرنسية وما بعدها. وتمثلت في وجهات نظر متناقضة حول مُثل الحرية، والمساواة، ودور العقل في تشكيل المجتمع. في الجوهر، تمثل «الطبيعة» في هذه الحجة مجموعة من مبادئ عقلانية مرتبطة بأفكار الحقوق الأصيلة والعدالة. (المترجمة)

(32)صمويل جونسون، معجمي وناقد ومؤرخ ثقافي إنجليزي، اشتهر بعمله الضخم «قاموس اللغة الإنجليزية»، الذي نُشر عام ١٧٥٥ وأصبح مقياسًا للمعاجم الإنجليزية بعده.

(33)عنوان القصيدة كاملًا:

Lines Composed a Few Miles above Tintern Abbey, On Revisiting the Banks of the Wye during a Tour. July 13, 1798.

(34)التوري حزب سياسي بريطاني محافظ، والويغ حزب ليبرالي وهو نفسه حزب الأحرار البريطاني.

(35)جون موير John Muir ويعرف بجون الجبال، وهو مفكر أيكولوجي، ويعتبر أبًا لفكرة المتنزهات العامة في أميركا.

(36)عرض Easy Rider عام ١٩٦٩، وهو من إخراج دينيس هوبر الذي شارك في الفيلم مع بيتر فوندا وجاك نيكلسون. الفيلم يتناول الثقافة المضادة في الستينيات، وثيمات الحرية والفردية التي تمثلها رحلة على دراجة نارية من لوس أنجلوس إلى نيو أورليز. ويتضمن مجموعة لقاءات تستكشف من خلالها الهوية الأميركية وجمال الطبيعة وتجارب الهلوسة والمخدرات التي تستخدمها الشخصيات في سعيها إلى التنوير وحالات الوعي المتغيرة. ترك الفيلم أثرًا في ما تلاه من أفلام الطرق اللاحقة وصناعة الأفلام المستقلة. (المترجمة)

(37)تعني دارما في الهندوسية والبوذية حرفيًا التعاليم أو المبادئ الأخلاقية التي تحكم سلوك الفرد وواجباته. كما يشمل القانون والنظام الكوني. وبومز هم المتشردون أو المتجولون بالقليل من الممتلكات ويعيشون منفصلين عن المعايير المجتمعية السائدة. (المترجمة)

(38) Matterhorn من جبال الألب الممتد بين سويسرا وإيطاليا.

(39)استخدم المساحون الغربيون علم المثلثات لتحديد ارتفاع وإحداثيات جبل إفرست. وكانت الحسابات المثلثية، التي تنطوي على الزوايا والمسافات، حاسمة في البعثات والمسوحات المبكرة التي تهدف إلى رسم خرائط الجبل وقياسه. دخل إفرست الوعي الغربي أثناء المسوحات البريطانية للهيمالايا في القرن التاسع عشر، ولا سيما من قبل شخصيات مثل السير جورج إفرست الذي سُمي الجبل باسمه في النهاية. غالبًا ما يؤطر المنظور الغربي لجبل إفرست من

خلال قابليته للقياس والاستكشاف العلمي، على النقيض من المنظورات الأكثر روحانية أو ثقافية التي يتبناها السكان المحليون في منطقة الهيمالايا. (المترجمة)

(40)أنابورنا هو جبل في مقاطعة غانداكي، شمال وسط نيبال.

(41)لعبة ماترهورن هي زوج من الأفعوانيات الفولاذية المتشابكة في ديزني لاند بكاليفورنيا. تم تصميمها على غرار جبل ماترهورن.

(42)تشير الكاتبة إلى إجبار السجناء والعبيد وأسرى الحرب على المشي مسافات كبيرة في مناطق خطرة، ومنهم من يلقى حتفه على الطريق. مورست هذه المسيرات قسرًا في الحربين العالميتين ومذبحة الأرمن ومذابح رواندا وغيرها من حروب وسجون العصر الحديث.

(43)في البوذية التبتية التي تمارس في مناطق الهيمالايا في الهند ونيبال وبوتان، غالبًا ما يُطلق على التانترا البوذية فاجرايانا، ويعتقدون بوجود سلاح أسطوري غير قابل للتدمير ولا ينكسر كالماس وقوي مثل الرعد. والمنادلا الماسية ترمز إلى التحقق النهائي لبوذا. (المترجمة)

(44)تعكس ممارسة الاكتراث عند سنايدر عدة جوانب، منها أن الفهم والخبرة الحقيقيين يأتيان من التعرف على الجوانب الأساسية للوجود، مادية وميتافيزيقية، والتفاعل معها. إلى جانب نهج الممارسة الطقوسية لديه، بمعنى دمج الاحترام بالانتباه في التجارب اليومية، وخاصة المشي، حيث تعكس الرحلة الجسدية بحثًا روحيًا داخليًا. يرتبط «الاكتراث» أيضًا بأهداف تحويلية أوسع، فالمشي لمسافات طويلة يمكن أن يكون وسيلة للتغيير الفردي أو المجتمعي. إلى جانب أنها تعكس نهجه غير الغائي، فـ«الاكتراث» هي عملية من الاتصال والإدراك والمشاركة مع العالم والتي لا تفضي بالضرورة إلى نهاية محددة ولكنها تثري تجربة المرء باستمرار. (المترجمة)

(45)سوترا في البوذية أي نص مقدس، وهذه القصيدة إحدى قصائد سنايدر المرحة والساخرة التي نُشرت عام ١٩٦٩ واستلهمت من التعاليم البوذية وثقافتها الشعبية، لا سيما شخصية الدب الدخاني التي أصبحت تستخدم في حملة دائرة الغابات الأمريكية لمنع حرائق الغابات. في قصيدة سنايدر، يتحول «الدب الدخاني» إلى إله بوذي. (المترجمة)

(46)مبنى الإكويتبل Equitable Building إحدى ناطحات

السحاب المخصصة للمكاتب والشركات في مانهاتن.

(47)ارتبطت شركة يونيون كاربايد Union Carbide الأمريكية، المتخصصة في صناعات المواد الكيميائية والبلاستيك والغازات الصناعية، بالجدال والتأثيرات السلبية بسبب حوادث مثل كارثة بوبال في عام ١٩٨٤ التي راح ضحيتها آلاف العمال.

(48)يشير كاتب الرسالة إلى الحرب الأهلية الأميركية بـ Rebellion، قام عالم الطبيعة جون موير بمسيرة بطول ألف ميل عبر جنوب الولايات المتحدة عام ١٨٦٧. وكان ذلك بعد وقت قصير من نهاية الحرب الأهلية، التي انتهت عام ١٨٦٥. (المترجمة)

(49)يستخدم مصطلح المدينة الداخلية في الولايات المتحدة كتعبير ملطف للمناطق السكنية ذات الدخل المنخفض ويقطنها السود والأقليات والمهاجرون وتشير إلى الأحياء المتدهورة وسط المدينة.

(50)«متشردو الأحد» Sunday Tramps مجموعة أطلقها مثقفون عام ١٨٧٩، بهدف التسكع والتمرد على السلوك المقبول من طبقة بعينها؛ من ذلك المشي أمام الكنائس والكاتدرائيات يوم الأحد، والذي كان يعد تحديًا للمجتمع الإنجليزي في تلك الفترة، إلى جانب ممارسة «التعدي على الأراضي الخاصة»، الذي أصبح طقسًا أساسيًا في رحلاتهم يوم الأحد. استمرت المجموعة في جولاتها قرابة العقدين قبل أن تتفرق. وضمت من بينها ستيفن ليزلي والد فرجينيا وولف إلى جانب شخصيات من عالم الأدب والأوساط الأكاديمية والفلسفة والاقتصاد. (المترجمة)

(51)طائفة بروتستانتية تأخذ اسمها من إيمانها بحلول الروح القدس في اليوم الخمسين بعد الصلب على التلاميذ.

(52)مطاعم الديمسم Dim Sum جاءت من التقليد الصيني، الكلمة تعني «بالكاد تملأ معدتك»، وهي مطاعم تقدم وجبات بحصص صغيرة جدًا لا تسد الجوع لكنها تلمس القلب فقط بحسب دلالات التعبير الصيني. (المترجمة)

(53)عنوان رواية الكاتب الإنجليزي دانييل ديفو، وهو اسم الشخصية الأساسية فيها، نشرت أول مرة عام ١٧٢٢ وتعرضت أكثر من مرة للمنع. استند ديفو على شخصية حقيقية هي مول كينج، التي سجنت في الفترة التي بدأ فيها كتابة الرواية. تذكر بعض المصادر أن ديفو التقاها أكثر من مرة قبل أن يشرع في

الكتابة. (المترجمة)

(54)استخدم تعبير «عربي (وعرب) الشارع» في بريطانيا في القرن التاسع عشر للإشارة إلى الأطفال المشردين المتسولين في الأزقة والطرقات. (المترجمة)

(55)الـ commercial treveler هو الوكيل المتجول الذي يعقد الصفقات لصالح طرف ما. كان يعرف سابقًا في العربية بـ «الكومسيونجي». اشتق ديكنز التعبير النقيض لهذا عنوانا لكتابه، وفيه تتحرك شخصيته كمسافر يصفها بـ Houselessness، حتى يصبح مفهوم التشرد نفسه اسمًا لها. مسافر ديكنز لا يحركه الربح المالي أو المصالح التجارية، بل ينصب تركيزه على استكشاف الظلم الاجتماعي والجوانب المختلفة للحياة من منظور شخصي ومتعاطف. وظف ديكنز هذا المسافر لتقديم نقد اجتماعي والتأمل في ظروف وقصص الأشخاص الذين يلتقيهم أثناء رحلاته.

(56)يقول ديكنز غرفي وليس غرفتي، إذ أن منطقة كوفنت غاردن كانت تعج بأمكنة ديكنز المفضلة وما زال حاضرًا فيها إلى اليوم. كان الروائي الإنجليزي يعيش فيها ويدير جريدته الأسبوعية All the Year Round من الطوابق العليا للمبنى رقم ٢٦ في شارع ويلينغتون (الذي أصبح الآن مقهى تشارلز ديكنز)، بل إن عددًا من شخصيات وأحداث رواياته مرتبطة بتلك المنطقة. (المترجمة)

(57)يحمل مصطلح لندن الأركاديانية تناقضًا ضمنيا، فهو ينسبها إلى أركاديا، وهي منطقة من اليونان القديمة، صُوّرت في الأدب والفن الكلاسيكيين على أنها مكان مثالي وهادئ مرتبط بالجمال الطبيعي والسحر الريفي، على النقيض من صورة لندن الصناعية المزدحمة. فكأن ديكنز يستدعي ذلك الجانب المفقود أو الذي في طريقه إلى التلاشي تمامًا من لندن. كذلك يجد ديكنز هذه البقعة المسالمة البعيدة في البوائك اللندنية الأنيقة ويصفها بأنها مساحات مثالية شبه أركادية وسط فوضى المدينة. تمثل الأروقة سحرا وأناقة معينين، على النقيض من خشونة ووسخ الأجزاء الصناعية من لندن. (المترجمة)

(58)العنوان من ترجمة رفعت سلام للقصيدة: والت ويتمان، أوراق العشب (الأعمال الشعرية الكاملة)، ترجمة رفعت سلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧، ص٢٦٥.

(59)تأثر جيل البيت بالفلسفات الشرقية وممارساتها، فاستكشفوا البوذية والهندوسية وغيرها من الديانات الشرقية

كبدائل للمادية الغربية. أما تضاريس الغرب الأميركي فكانت بالنسبة إليهم التناقض المنشود مع البيئات الحضرية المزدحمة والفوضوية في نيويورك وسان فرانسيسكو. بالنسبة للبيت كان المشهد الغربي يقابل الحرية والاستكشاف، ويقدم نوعًا مختلفًا من الفضاء الوجودي والفني. (المترجمة)

(60)مقاطع قصيدة «عواء» من ترجمة سركون بولص.

(61)صلاة في الديانة اليهودية مكرسة لتمجيد الإله.

(62)في كثير من قصائد ويتمان، كما ذكرت الكاتبة من قبل، ثمة قوائم من التعداد والفهرسة للأشخاص والأشياء والعناصر الطبيعية والأشياء اليومية. على سبيل المثال، في قصيدته «أغنية لنفسي»، يقدم قائمة بالعديد من الشخصيات من مزارعين وميكانيكيين وبحارة وفنانين...إلخ، وكأنه يقترح توسيع مفهوم الذات، فالذات ليست كيانًا مفردًا معزولًا بل هي عبارة عن مركب من تجارب واتصالات مختلفة. وهذا يتماشى مع موضوعه الأوسع ورؤيته البانورامية للحياة اليومية، وقد ورث عنه بعض شعراء جيل البيت هذا الأسلوب. (المترجمة)

(63)الشخصية في رواية دانييل ديفو التي تحمل الاسم نفسه.

(64)اقترح سركون بولص في هامش ترجمته لقصيدة «عواء» لغينسبرغ: «الهبائيون» (من هباء): ثقابل Hipster التي تحولت فيما بعد إلى «هيبي».

(65)يمثل يوني الجوهر الأنثوي أو الإلهة شاكتي في الهندوسية، التي تعد تمثيلًا للفرج والطاقة الأنثوية. في العديد من المعابد، يتم تصوير اليوني كوعاء أو قاعدة تدعم اللينغام الذي يمثل المبدأ الذكوري أو الإله شيفا في الهندوسية. وعادة ما يتم تصويره كجسم أسطواني. في الهندوسية يجمع اليوني واللينغام في سياق طقسي ليرمزا إلى وحدة وتوازن الطاقات الأنثوية والذكورية. (المترجمة)

(66)كان لنيرفال سلطعون أطلق عليه «تيبو». واصطحبه مرة في نزهة في حدائق القصر الملكي في باريس، وقد ربطه بشريط أزرق طويل. ومع تناقل الحادثة أوضح نيرفال: «أحب السلطعون. لأنه هادئ وجاد ويعرف أسرار البحر». سجل غيوم أبولينير هذه الحادثة في مجموعة من الحكايات عام ١٩١١. كان نيرفال محبًا للحيوانات وهجا تسلط الإنسان عليها في قصيدة «ديدان ذهبية»، منها: «في أكثر الكائنات غموضًا ثمة إله مخفي». (المترجمة)

(67)للكاتبة الإنجليزية فرانسيس ترولوب عدة كتب عن التنقل والترحال، من بينها الكتاب الذي وضعت فيه تأملاتها عن رحلتها إلى فرنسا بعنوان «باريس والباريسيون عام ١٨٣٥» ومنه تقتبس المؤلفة هذه المقاطع.

(68)تقصد الكاتبة الفقيه محمد الصفار الذي زار باريس ضمن بعثة رسمية في القرن التاسع عشر ووضع أخبار رحلته في كتاب بعد عودته.

(69)سترات سبنسر التي بدأت في الانتشار مع نهاية القرن التاسع عشر، قصيرة من الأمام ومذيلة طويلة من الخلف. أما الموهيكان والهيرون فمن شعوب أميركا الأصليين.

(70) الباتن أحذية درجت في أوروبا منذ العصور الوسطى حتى أوائل القرن العشرين. تشبه القبقاب أو الصندل. كانت ترتدى فوق حذاء عادي. صمم الباتن ليرفع القدم فوق الطين والأوساخ في الشارع، في فترة كانت فيها الطرق والأرصفة المعبدة قليلة.

(71)في المسارح التقليدية، تشير «الحفرة» Pit إلى المنطقة الأقرب إلى المسرح وعادةً ما تكون أسفل مستوى الخشبة. كانت هذه البقعة تاريخيًا حيث توجد المقاعد الأرخص، وغالبًا ما تكون بدون مقاعد مريحة أو رؤية جيدة.

(72)اسم أقدم جسور باريس التي تعلو نهر السين رغم أن اسمه Pont Neuf يعني حرفيًا «جسر جديد». (المترجمة)

(73)من الشعوب الأصلية في الأميركيتين، مستقرهم الأساسي في المكسيك.

(74)لقب كاثوليكي للسيدة مريم، مرتبط بخمسة ظهورات مريمية لفلاح مكسيكي يُدعى خوان دييغو، عام ١٥٣١، توجد صورة للعذراء على عباءة تيلماهتلي التي يرتديها الأزتك، مرتبطة بتلك الظهورات محفوظة داخل كنيسة غوادالوبي في مكسيكو سيتي.

(75)ينظم المسيرات البرتقالية أعضاء أخوية أورانج وجمعيات بروتستانتية أخرى، وتقام خلال أشهر الصيف في مختلف دول الكومنولث، وخاصة في أيرلندا الشمالية. ما زالت المسيرات تثير الجدل، وتعرضت لانتقادات في السنوات الأخيرة من قبل مجتمعات دينية أخرى وجماعات يسارية ونقابات عمالية.

(76)اندلعت انتفاضة واتس إثر واقعة شبيهة بواقعة مقتل جورج فلويد، ففي أغسطس ١٩٦٥، أوقف الشاب الأميركي الأسود ماركيت فراي بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول،حاول الضباط اعتقاله لكنه قاوم الاعتقال، فتعرض للضرب بالهراوة على وجهه. تلا ذلك ستة أيام من الاضطرابات والتظاهرات ضد إساءة معاملة الشرطة قتل خلالها ٣٤ شخصًا. أما انتفاضة رودني كينج، فبدأت أواخر إبريل ١٩٩٢ بعد أن برأت هيئة محلفين أربعة ضباط شرطة من تهمة استخدام القوة المفرطة في اعتقال الشاب الأميركي الأسود رودني كينج، رغم أن الواقعة صورت بالفيديو، استمرت الأحداث ستة أيام قتل خلالها ٦٣ شخصًا. (المترجمة)

(77)هناك العديد من الروايات المتضاربة لمسيرة النساء في الأسواق. اعتمدت الكاتبة على عدة مصادر منها كتاب شيرلي إلسون روسلر «خارج الظل: النساء والسياسة في الثورة الفرنسية، ١٧٨٩-١٧٩٥» (١٩٩٦) لتسلسل وتفاصيل الأحداث، واستفادت أيضًا من تاريخ ميشيله للثورة الفرنسية (١٩٧٢)، وكتاب جورج رود «الحشد في الثورة الفرنسية» (١٩٧٢)، وكتاب سيمون شاما «مواطنون» (١٩٨٩)، وكتاب كريستوفر هيبرت «أيام الثورة الفرنسية» (١٩٨١).

(78)الجبهة الثورية للمشاة هي جماعة مناهضة للسيارات، وقد أعلنت عام ١٩٩٥ الحرب على سيارة ألفا روميو الحمراء والسريعة الجديدة. تحرك ١٥ من الجماعة في حفل إطلاق السيارة وقرأوا إحصاءات حوادث السيارات الأخيرة للجمهور، وألقوا طلاء أصفر على السيارة، ورموا قنابل الرائحة المنفرة بين الجمهور ونثروا عليهم الدقيق.

(79)قصة كارولين التي تقتبسها سولنيت هنا موثقة في ص ١٠٥، بتفاصيل أكثر في كتاب:

Glen Petrie, A Singular Iniquity: The Campaigns of Josephine Butler (New York: Viking, 1971).

(80)تعبير بدأ ينتشر في الدارجة الأميركية من منتصف القرن العشرين يشير إلى علاقة عاطفية ملتزمة حصرية. وغالبًا ما يشير إلى خطوة نحو علاقة أكثر جدية، لم يعد التعبير شائعًا كالسابق.

(81)مثل سترة المجانين الجبرية ولكنها قصيرة.

(82)القصة موثقة في المرجع السابق:

Petrie, A Singular Iniquity, p160.

(83)تذكر الكاتبة الأميركية إيفلين سي. وايت ذلك في نص طويل لها بعنوان «المرأة السوداء والبرية»، المنشور ضمن كتاب يضم مقالات لكتاب وكاتبات عدة، بعنوان «الأدب والبيئة».

Evelyn C. White, Black Women and the Wilderness, in *Literature and the Environment: A Reader on Nature and Culture*, ed. Lorraine Anderson, Scott Slovic, John O'Grady (New York:Addison Wesley, 1999).

(84)إحدى الطرق لفهم استخدام الكاتبة لمجازي سايكي وسيزيف هي أنهما قد تمثلان طرقًا مختلفة للتواصل مع الحياة والعيش. إن أسطورة سايكي قصة تفاعل مع كل من العمليات الواعية واللاواعية، قصة مؤلمة ولكنها تحويلية في الوقت نفسه. بينما سيزيف ينكر وجود شيء أكبر من فهمه الواعي وقدراته، وبالتالي يظل عالقًا في الموقف ذاته مرارًا وتكرارًا. (المترجمة)

(85)العنوان الأصلي هو:

Crabgrass Frontier: The Suburbanization of the United States.

(86)المقصود البرلماني البريطاني وليام هسكيسون الذي توفي جراء حادثة على سكة القطار يوم افتتاحه، وارتبطت جنازته بإدراك الناس لأول مرة أن النقل السريع لمسافات طويلة أصبح ممكنًا الآن، ولكنه قد يكلف المرء حياته.

(87)في سياق عمل مؤرخة الفن والناقدة الأميركية لوسي ليبارد، يشير مصطلح «التاريخ التخريبي» subversive histories إلى مناهج غير تقليدية ونقدية وتحويلية في كثير من الأحيان للكتابة عن تاريخ الفن. تتحدى ليبارد السرديات التقليدية والمنظورات السائدة، وتقدم وجهات نظر بديلة تشكك وتنتقد الطريقة التي بني بها تاريخ الفن، وتتحدى سلطة المؤسسات والروايات والمنهجيات الراسخة. بالنسبة إلى ليبارد، يتضمن هذا تتبع كيف يمكن اعتبار المشي شكلاً من أشكال الفن. (المترجمة)

(88)تشير «معارك حق المرور الكبرى» إلى التجاوز الجماعي الشهير الذي حدث في كيندر سكاوت بإنجلترا عام ١٩٣٢. خلال هذا الحدث، احتج المتظاهرون على غياب حق وصول عامة الناس إلى الأراضي المفتوحة وطالبوا بالحق في التجوال والوصول إلى هذه المناطق بهدف الترفيه. كان هذا الحدث محوريًا في تاريخ حقوق الوصول في المملكة المتحدة وساهم

في إنشاء المتنزهات الوطنية وتشريعات حق المرور.

(89)تشير ظاهرة شرائط الطرق roadside strips إلى المناطق الخطية التي تتطور على جانبي الطرق السريعة أو الرئيسية، حيث محطات الوقود والمطاعم والموتيلات ومتاجر الهدايا التذكارية وغيرها من الخدمات التي تلبي احتياجات المسافرين. في سياق الجغرافيا الثقافية، اكتسبت شرائط الطرق أهمية في منتصف القرن العشرين مع ظهور السفر بالسيارات. تمثل الظاهرة شكلا مميزًا من التنمية الحضرية أو الضواحي المصممة خصوصًا لاحتياجات وعادات السائقين والعابرين والمسافرين.

(90)المقصود بنسختي لاس فيغاس منطقة الـ «ستريب» ومنطقة وسط المدينة، حيث الأولى معروفة بفنادقها الباذخة وكازينوهاتها والحياة الليلية البراقة والحيوية التي تروج غالبًا في وسائل الإعلام والثقافة الشعبية. أما منطقة وسط مدينة لاس فيغاس فتتمركز حول شارع فريمونت وفيها كازينوهات تاريخية وعمارة قديمة بأجواء كلاسيكية.